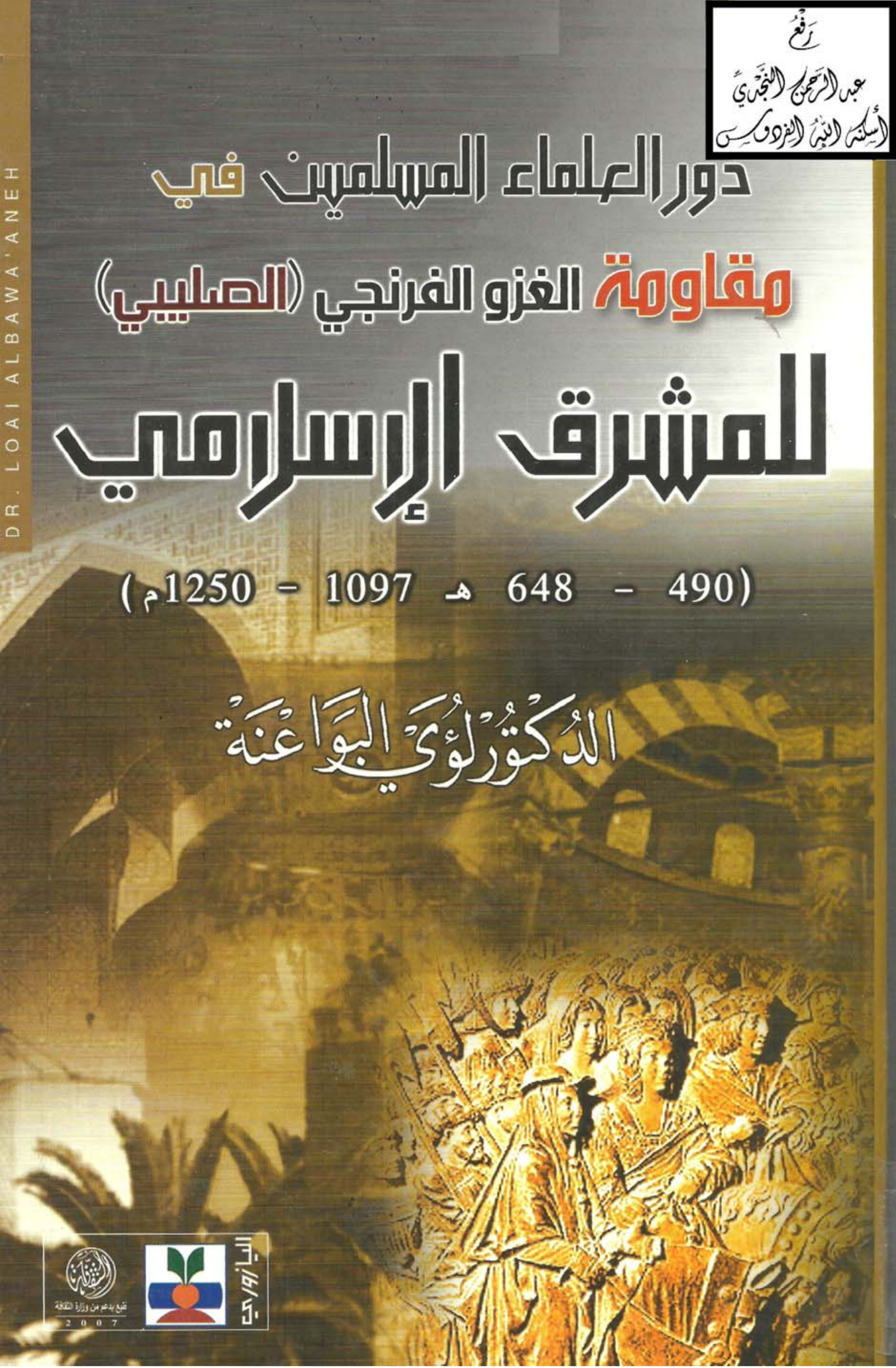


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
دور العلماء المسلمين في
مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي)
للمشرق الإسلامي
(490 - 648 هـ 1097 - 1250م)
الدكتور لؤي البواعنة
DR. LOAI ALBAWA'ANEH
البازوري
طبع بدعم من وزارة الثقافة
2007

دور العلماء المسلمين

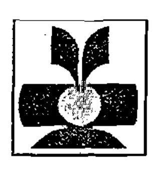
في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي)

للمشرق الإسلامي(490-648هـ-1097-1250م)

دور العلماء المسلمين
في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي)
للمشرق الإسلامي (490-648هـ 1097-1250م)

د. لؤي البواعنة

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : 2006/7/2220
رقم الإيداع المتسلسل لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2006/7/1969



اليازوري

دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع

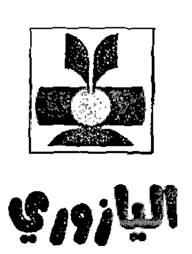
الأردن — عمان — وسط البلد — شارع الملك حسين
هاتف : 4626626 6 962+ تلفاكس : 4614185 6 962+
ص.ب : 520646 عمان 11152 الأردن
Email : info@yazori.com - www.yazori.com

دور العلماء المسلمين

في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي

(490-648هـ-1097-1250م)

د. لـؤي البـواعنــة



اليازوري

الإهـداء

إلى والدي الذي علمني أن العلم سلاح لا يكسر.. والدتي الحبيبية..
أخي الكبير بقدره "سليمان" .. إلى البعيدين عن الأوطان.. القريبين من
الفؤاد والقلب.. أخوي "خالد وناصر"... أختي "عبير"...

إلى الأطفال نبع البراءة.. أبناء إخوتي "سلمى، محمود، ياسمين، نادين،
نانسي، ليان، وابن الأخ العزيز ليث خالد البواعنة"...

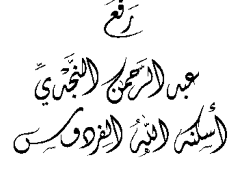
إلى روح الصديق العزيز الذي لن ينسيني إياه الزمان.. مهما حييت..
"حسام يوسف جبر الحمود".. رمز الصداقة والأخوة الحقة..

الباحث

لؤي بواعنة



الفهرس



الاختصارات والرموز

ترمز الحروف والكلمات إلى ما يقابلها أينما وردت في فصول هذه الدراسة:

أ: العربية.

ص: صفحة.

ج: جزء.

ع: عدد.

مج: مجلد.

ت: توفي.

هـ: هجري.

م: ميلادي.

ق: قسم.

ط: طبعة.

د.ط: دون طبعة.

د.ت: دون تاريخ نشر.

د.م: دون مكان نشر.

د.ن: دون ناشر.

تح: تحقيق.

ب. الأجنبية:

P: Page.
EI. The Encyclopae dia of Islam.

تقديم

بقلم: أ. د. صالح درادكة

نال موضوع الغزو الفرنجي (الحروب الصليبية) من عناية الباحثين ما لم ينله موضوع آخر، وشارك فيه باحثون من الشرق والغرب عبر كل العصور التي عقبت الغزو، واستمرت تفاعلاته حتى أيامنا هذه. وقد تزايدت العناية بدراسة هذه الظاهرة التاريخية أكثر بعد الغزو الصهيوني لفلسطين العربية، واغتصاب أرضها، وطرد سكانها، وقيام دولة إسرائيل ككيان يهدد بشكل دائم الأمة العربية والإسلامية، مستغلة الظروف التاريخية التي تمر بها الأمة العربية، ممثلة بتشرذمها وانقسامها، وهزالها لدرجة أن هذه الكيانات تدخل في صراعات بينية أكثر من اهتمامها بالعدو الرئيسي المتربص بها، والذي يغذّي الفرقة بينها، ويوجه اهتمامها بعيداً عن أهدافه ومخططاته، لينفذ مشاريعه بأمن وسلام.

هذه هي الحال التي كانت عليها البلدان العربية والإسلامية قبيل الغزو الفرنجي (الصليبي) حيث كانت بلاد الشام والعراق فسيفساء سياسية يتقاسمها حكام من آل سلجوق، يتقاتلون على السلطة، لا بل يصل ببعضهم الأمر إلى التآمر مع العدو الغازي ضد بعضهم بعضاً، دونما اعتبار لوازع الدين والوطن. كما كان الحال في مصر في ظل حكم أواخر الفاطميين لا يقل عن المشرق سوءاً. هذا الدرس التاريخي الصارخ لم يستفد منه عرب اليوم، لا بل يكررون مشاهده دونما حياء.

في كل الأدوار التاريخية التي مرت بها الأمة وهي تعاني من العدوان نجد فئة من العلماء تحمل مشعل المقاومة بمختلف أشكالها. لم يعط الباحثون هذه الفئة

حقها من البحث، مع أنها الفئة التي حرصت على بقاء جذوة المقاومة متقدَة قديماً وحديثاً.

فقد حوّل هؤلاء العلماء المساجد ودور العلم إلى مراكز تحريض على الجهاد، مستخدمين في ذلك ما أوتوا من علم، مبينين فضل المجاهدين على القاعدين، ومذكرين بفضائل الجهاد عند الله، ومحذرين المتخاذلين من عقابه سبحانه وتعالى.

فمن منا لا يتذكر دور آل قدامة (المقادسة)، وآل أسرة شيخ الشيوخ، والفقيه الدمشقي أبا الحسن السلمي، والقاضي ابن شداد، والعماد الأصفهاني، وأبا الفضل ابن الخشاب، وعبد الوهاب الشيرازي، وعشرات غيرهم، الذين نهضوا بدورهم في توعية الأمة، وقيادة مشروع النهوض العربي الإسلامي الذي انتهى بتحرير ديار الإسلام من الغزو الفرنجي (الصليبي)، وعلى رأسها بيت المقدس، ومن منا لا يتذكر قول البطل صلاح الدين الأيوبي عقب حطين: "إنما انتصرنا بقلم القاضي الفاضل"، ومن منا لا يتذكر دور علماء مصر، وفي طليعتهم العز بن عبد السلام في تحريض الأمة على مقاومة الغزاة، وطردهم خارج بلاد الإسلام.

ويسرني أن أقدّم للقارئ الكريم هذا الكتاب الهام عن "دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي 490-648هـ/ 1097-1250م) للباحث الدكتور لؤي البواعنة، والذي كان لي شرف الإشراف على هذه الدراسة التي خولت صاحبها الحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، وقد أبهجني خبر موافقة وزارة الثقافة على نشر هذه الدراسة، فهي دراسة جادة نالت الثناء العطر من الأساتذة المحكمين لها، وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري. وتفتح بموضوعها باباً جديداً وهاماً للدارس في خضم الدراسات

الهائلة للحروب الصليبية، أسبابها، ومجرياتها، وعوامل فشلها، ففيما ينكب علماء إسرائيل وأنصارهم على البحث عن عوامل فشل الغزو (الصليبي) لتفادي هذه العوامل، واستمرار احتلالهم لفلسطين، ينكب علماء العرب والمسلمين الجادين على البحث عن عوامل الضعف في الكيان الفرنجي (الصليبي)، للاستفادة منها في مقاومة هذا الكيان السرطاني (إسرائيل)، وإزالته من جسم الأمة العربية.

لقد بدأ البواعنة هذا المشروع من إحدى جوانبه الهامة، ونأمل أن يستمر في ذلك، كما نأمل أن يحذو طلبتنا وباحثونا حذوه في التصدي لمثل هذه الموضوعات التي تشغل الإنسان العربي والمسلم، لا بل وكل الإنسانية؛ لما تمثله من تهديد للأمن والسلام في العالم، علاوة على تهديده للأمة العربية والإسلامية. إننا ندعو الله بالتوفيق لهذا الباحث الذي أبان عن إمكانيات بحثية تبشر بالخير.

أ. د. صالح موسى درادكة
أستاذ التاريخ الإسلامي/ الجامعة الأردنية
عمان في 2007/2/12



المقدمة

تعتبر فترة الحروب الفرنجية (الصليبية) من الفترات الهامة التي مرت على العالم الإسلامي، وذلك لما تمخض عنها من احتلال دام قرابة قرنين من الزمان، مارس فيها المحتل الكثير من أساليب القتل والتخريب، وقد أعقب ذلك مقاومة إسلامية تكللت بتحرير البلاد وخروج الفرنج منها، تاركين وراءهم الكثير من التساؤلات والطروحات القابلة للبحث والدراسة، الأمر الذي دفع المهتمين في هذا الحقل الكشف عن جوانب هذا الصراع بخفاياه، إلا أن ما يلاحظ أن مجمل هذه الدراسات قد سلكت طرقاً متشابهة كتعدادها للحملات الصليبية وما نتج عنها، بالإضافة إلى تركيزها على نواح عسكرية بحتة، وما رافقها من بطولات لقادة الغزو أو الجهاد الإسلامي في حين لم تركز كثيراً على فئات هامة كان لها أثر بارز في الأحداث ومن أبرزها العلماء ومساهماتهم في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي).

حملت هذه الدراسة عنوان "دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي (490- 648هـ - 1097- 1250م)" وجاءت محاولة للتعريف بدور هذه الفئة في المجتمع الإسلامي وإبراز أهميتها وتفاعلها مع الأحداث السياسية والعسكرية، والكشف عن مواقفها المؤثرة في مقاومة الغزو، والتي لا تقل شأناً عن دور القادة العسكريين. وتركز البحث خلالها على تتبع هذه المقاومة بأساليبها المتعددة (تعليمياً وتعبوياً وجهادياً وعسكرياً وسياسياً وفي مجالي التأليف والكتابة)، ورسم صورة من التعاضد بين العلماء والسلطتين السياسية والعسكرية في سبيل تحقيق الهدف الأسمى المتمثل بدحر الاحتلال وتحرير البلاد من الفرنج، مع الإشارة إلى أن المقصود بمفهوم العلماء في هذا البحث هو علماء الشريعة والمتمثل بعلماء القرآن والحديث والتفسير بالإضافة للفقهاء، دون التعرض للأدباء والشعراء لكثرة من بحثها وتناولها من قبل.

تطرح هذه الدراسة العديد من الأسئلة حول دور العلماء خلال هذه الفترة، من خلال البحث في نشاطات العلماء أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي) لمصر والشام،

بالكشف عن إسهاماتهم في إرساء دعائم المعرفة، ونشر الفكر السني بالتركيز على العلوم الدينية من خلال التحاقهم بالمدارس والتعليم فيها، أو من خلال معاضدتهم للسلطة المركزية زمن الملك نور الدين، والسلطان صلاح الدين في مجابهة الفكر الشيعي وصولاً للوحدة المذهبية. كما سيتم في هذه الدراسة رصد دور العلماء في النواحي العسكرية والسياسية وجهودهم في ميدان التأليف والتعرف على اتجاهات مؤلفاتهم خلال هذه الفترة، وذلك بتتبع الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، وإشارتها لبروز أصناف جديدة من المؤلفات التاريخية. كما سيتضح بالتفصيل جهود العلماء في توعية أبناء المجتمع، وغرس الروح الجهادية في نفوسهم بالترغيب والترهيب، والتأكيد على أهمية وحدة الصف في مجابهة العدو.

لقد غلب على العديد من الدراسات الحديثة التي بحثت في موضوع العلماء خلال هذه الفترة سمة العمومية، بمعنى أنها افتقرت إلى التخصص، ولم تعط صورة واضحة ومتكاملة عن أدوارهم ومساهماتهم.

تبنت هذه الدراسة تقسيم موضوع البحث إلى خمسة فصول وتمهيد، تم فيها مراعاة الإفادة من مصادر متنوعة في أهميتها وطبيعة مواضيعها، تراوحت بين المخطوطات والمصادر المباشرة المعاصرة للغزو الفرنجي وبين الدراسات الحديثة العربية منها والأجنبية والمعرّبة، وعدد من المقالات العربية والأجنبية.

عالج الفصل التمهيدي منها، الحياة السياسية والفكرية قبيل الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي من خلال استعراض أهم القوى السياسية والعسكرية المسيطرة على مصر والشام، ومواطن التناحر فيما بينها خاصة الصراع الفاطمي السلجوقي وما انبثق عنه من انقسامات سياسية ساهمت في إضعاف جبهة المسلمين قبيل قدوم الغزاة، كما كشفت الدراسة عن تنامي النشاط الفكري في مصر والشام، وأبرز مراكز نشاطه ومساهمات العلماء فيه، واختتم الفصل ببيان الانقسام المذهبي بين السنة والشيعة مع الإشارة للمدارس النظامية، وبيان أثرها في مقاومة الفكر الشيعي في تلك الفترة.

جاء التركيز في الفصل الأول على "دور العلماء في التعليم أثناء الغزو الفرنجي لمصر والشام" بصورة توضح مساهمات علماء السنة في العهدين الزنكي والأيوبي في القضاء على الفكر الشيعي، ودور المدارس وعلمائها في إحياء الفكر السني من خلال عنايتهم بالعلوم الدينية وأثرها، ولا سيما القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في تعبئة الأمة للجهاد وتدعيم ذلك بأمثلة على النشاطات التعليمية لبعض الأسر كالمقادسة في الشام، وأسرة شيخ الشيوخ (الصوفية) في مصرو الشام، وتخلل هذا الفصل إشارة إلى منزلة العلماء وما نالوه من حظوة وشأن عند الملوك والسلاطين.

وخصص الفصل الثاني للحديث عن مساهمة العلماء في إبراز فكرة الجهاد أثناء فترة الغزو الفرنجي وذلك ببيان فضائله وأهميته والترغيب به، وإبراز جهود العلماء في حفز الناس والقادة، وذلك باستعراض أهم الوسائل التي استخدمها كل منهم للدعوة للجهاد حيثما كان موقعه، مدرساً للقرآن، أو للحديث أو خطيباً أو واعظاً، أو موظف ديوان أو مستشاراً للملك أو السلطان أو مستغيثاً بدار الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، مع الإشارة إلى مساهمة بعض العلماء في الحركة الجهادية بمرافقتهم للقادة العسكريين، فكانوا مستشارين ووعاظاً لهم يشدون من أزرهم ويواسونهم إذا أصابهم القرح مع تميز بعضهم بكتاباتهم ومراسلاتهم لتجميع الجيوش ووحدة الصف، كما أولت الدراسة الوعاظ أهمية خاصة ببيان دورهم في التذكير بالجهاد والتحريض عليه.

ويتضح في الفصل الثالث دور العلماء في العلميات العسكرية أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي)، من خلال عرض مشاركتهم وتصديهم للحملة الصليبية الأولى التي تركزت في الشام، فتمت الإشارة إلى علماء بيت المقدس وطرابلس وجبلة وصور وحلب، والمشاركين في فتح الرها وغيرها من المدن. وأبرزت تفانيهم واستماتتهم في قتال الفرنج أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما داهموا دمشق، كما اشتمل هذا الفصل على بيان مشاركتهم العسكرية زمن الملك نور الدين محمود، والسلطان صلاح الدين، وتتبعت مقاومة علماء مصر للحملتين الخامسة والسابعة على دمياط، مسطرين

بطولاتهم بقافلة من الشهداء. وأفرد الفصل عنواناً للحديث عن مقاومتهم للغزو زمن الملك العادل بن نجم الدين أيوب.

وبحث الفصل الرابع إشراك العلماء في الشؤون السياسية وتكليفهم بمهمات جليلة للحيلولة دون نجاح الفرنج في بسط سيطرتهم الكاملة على مصر والشام، فقد ظهر تعاونهم مع السلطات السياسية القائمة آنذاك، وبالأخص جهودهم المبذولة في تأمين الدعم المادي للمجاهدين، وكشفت عن مساعيهم في تحقيق وحدة المسلمين زمن الملك نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين والملك الكامل بن العادل، وأثبتت كفاءتهم، وحرصهم على الجبهة الإسلامية بالوقوف في وجه المتآمرين وموقف بعضهم من الحكام المسلمين المتواطئين مع الفرنج كما فعل العز بن عبد السلام، وأفصحت عن دور بعضهم إزاء الصلح مع الفرنج.

وأوضح الفصل الأخير مساهمة العلماء في مجالي التأليف والكتابة وتحديداً المواضيع المتعلقة بأحداث الغزو الفرنجي، وما ارتبط به من مقاومة، وتمثل ذلك بذكر العلماء المعاصرين للحروب الفرنجية (الصليبية) ممن اشتهرت مؤلفاتهم وبيان دوافعهم في التأليف، وتتبع المواضيع التي عالجوها خلال هذه الفترة سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو إدارية أو تعليمية، واحتلت صورة الفرنج في مؤلفات هؤلاء العلماء حيزاً لا بأس به.

يعد كتاب أبو شامة (ت 665هـ/ 1267م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية من أهم المصادر التي اعتمد عليها هذا البحث، لتركيزه على أبرز أعلام هذه الفترة: عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وتتبعه جهودهم ونشاطاتهم في مقاومة الفرنج، فكان كتابه سجلاً مفصلاً لتاريخ الدولتين النورية والصلاحية، حرباً وسياسة وإدارة، وقاسمه في تلك الأهمية مؤلفات العماد الأصفهاني (ت 597هـ/1200م) خاصة البرق الشامي، والفتح القسي في الفتح القدسي، حيث ركز العماد فيها على فترة السلطان صلاح الدين ومواجهاته العسكرية مع الفرنج كما ضمت كثيراً من المراسلات التي حملت في طياتها معالجة لبعض النواحي الإدارية والسياسية بالإضافة للحث على الجهاد.

وأخذ كتاب سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي للقاضي بهاء الدين بن شداد (ت 632هـ/1234م)، حيزاً كبيراً في ثنايا هذا البحث كونه كان مقرباً ومرافقاً للسلطان صلاح الدين، إذ احتوت على وصف لسيرته وثقافته الدينية، وجهاده ضد الفرنج ومراسلاته معهم بهدف الصلح خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته. كما أفاد الباحث من كتاب ابن القلانسي (ت 555هـ/1160م) ذيل تاريخ دمشق إذ كان معاصراً للغزو الفرنجي (الصليبي)، فانفرد برصد أحداث الحملة الصليبية الأولى، وردة فعل المسلمين عامة والعلماء خاصة على هذه الحملة، فهو بذلك يورد معلومات هامة عن الأحداث السياسية والعسكرية التي عصفت بدمشق قبيل الغزو وبعده، وخاصة مواقف أتابكية دمشق من الفرنج، ومحاولات السيطرة على دمشق سعياً إلى ضمها تحت نفوذهم، مظهراً دور العلماء في ذلك. كما كان لكتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم (ت 660هـ/1261م) أهمية خاصة في إيضاح دور مدينة حلب، والمقاومة التي أبداها أهلها وعلماؤها والقائمون على أمورها ضد الفرنج.

ومن المصادر الأخرى ذات الأهمية لفترة الدراسة كتاب ابن الأثير (ت 630هـ/1232م) الكامل في التاريخ، والباهر في الدولة الأتابكية، فقد اشتمل الأول منها على الحملات الفرنجية (الصليبية) باستثناء السابعة منها، وبرزت أهميته بمعالجته عصر الملك عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وعلاقتهما بالعلماء واعتمادهما عليهم، كما فصّل الثاني في معالجته لدور الأسرة الزنكية. أما كتاب سبط ابن الجوزي (ت 654هـ/1256م) مرآة الزمان في تاريخ الإعيان فجاء معاصراً لفترة خلفاء صلاح الدين، إذ سجّل كثيراً من الأحداث السياسية والعسكرية، وأظهر اهتمام ملوك بني أيوب بالتعليم، ودور العلماء في هذه الفترة مبرزاً دوره الشخصي في مقاومة الغزو عسكرياً وسياسياً، والحث على الجهاد وذلك بمشاركته في الغزوات ضد الفرنج، وإصلاحه بين أبناء البيت الأيوبي.

وأسهمت مؤلفات ابن عساكر (ت 571هـ/1175م) وأهمها كتابه تاريخ مدينة دمشق، وابن خلكان (ت 681هـ/1282م) في كتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وأبي شامة في كتابه تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني

عشر والثالث عشر الميلاديين "المعروف باسم الذيل على الروضتين"، بتزويدنا بتراجم وافية لكثير من العلماء ونشاطاتهم ومؤلفاتهم خلال فترة الدراسة. في حين شكل كل من عز الدين بن شداد (ت684هـ/1285م) في كتابه الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، والنعيمي (ت 927هـ/1570م) الدارس في تاريخ المدارس، مصادر أولية لدراسة الحركة التعليمية في الشام والعلماء المشاركين فيها، في حين شكّل المقريزي (ت 845هـ/1441م) في كتابه الخطط مصدراً أولياً وهاماً بالنسبة للتعليم في مصر، كما ركز على دور العلماء السياسي والعسكري في فترة خلفاء السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما أفاد الباحث من كتب الرحلات وخاصة رحلة ابن جبير.

واجه الباحث عند دراسته لهذا الموضوع العديد من الصعوبات، أبرزها كثرة العلماء الذين قاموا بتدريس العلوم الدينية، والحاجة لمعرفة مواطنهم الأصلية في محاولة للتعرف على طبيعة وحجم مشاركتهم، وقد اقتضى ذلك المزيد من البحث والتدقيق في كتب التراجم، ولاسيما تاريخ مدينة دمشق. كما ظهر هناك صعوبة بالغة في الفصل بين الجانبين السياسي والتعبوي (الجهادي) لتداخلهما. كما عانى الباحث كثيراً عند قراءته لنصوص العماد الأصفهاني ذات السجع الطويل المبالغ فيه، مما اضطره مراراً لإعادة قراءة نصوصه وتحليلها، كما لا يخفى على دارسي هذه الفترة الصعوبة التي يلقاها من يتعامل مع الموضوعات التي عالجها علماء تلك الفترة، لا سيما شيوع العديد من الأحاديث الجهادية الموضوعة مما يتطلب التحقق من صحة تلك الأحاديث والعودة إلى كتب الصحاح.

أحاطت هذه الدراسة بصورة شاملة بدور العلماء، ومساهمتهم فقد أولت مسألة التعليم أهمية خاصة، لإدراكها الدور الفاعل للتعليم في بلورة شخصية أمة لها كينونتها وتميّزها وقد بان أهمية ذلك بدور الجهاد في حياتها، لذلك كان من المهم تتبع إنشاء المدارس، والتعرف على أشهر المدرسين، وعمل جداول تم خلالها رصد حركة العلماء للتأكيد على سعة مشاركتهم في هذه الفترة، كما اتضح تآزر القيادة السياسية والعسكرية مع العلماء لتأصيل فكرة الجهاد، إذ شكل العلماء بطانة القيادة، وأظهر البحث أثر الأحاديث النبوية في إقبال الناس على الجهاد من خلال نشاطات ابن عساكر

وبهاء الدين بن شداد والإمام المنذري. كذلك رصد مشاركة العلماء في العمليات العسكرية في ساحات القتال منذ الحملة الصليبية الأولى، وحتى نهاية الحملة الصليبية السابعة. كما رصد أبرز شهدائها من العلماء.

وانفردت الدراسة عن غيرها بمعالجة مواضيع هامة في الشؤون العسكرية والسياسية والتعليمية والثقافية والإدارية والاجتماعية لم يكشف عنها من قبل، من خلال مؤلفات العلماء المعاصرين للحروب الفرنجية (الصليبية).

وخرج البحث بنتيجة مفادها أن ميادين مساهمات العلماء قد تعددت، ولم تقتصر على تدريس العلوم الدينية بل تجاوزت ذلك فجمعوا بين التعليم والتحريض على الجهاد، والبراعة في السياسة والدبلوماسية، وانخراطهم في ساحات القتال بوإصلاحهم بين أبناء الأمة والمشاركة في القتال إضافة إلى جهودهم في التأليف التي لم تقتصر على العلوم الدينية فقط بل شملت جوانب هامة في حقل التاريخ.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان للأستاذ الدكتور صالح موسى درادكة الذي كثيراً ما حثني وشجعني على البحث والكتابة في هذه الفترة لأهميتها. وأخيراً أسأل الله عز وجل أن أكون قد وفقت بتقديم شيء نافع للمكتبة العربية والإسلامية.

والله من وراء القصد

المؤلف

الدكتور لؤي إبراهيم سليمان البواعنة



الفصل التمهيدي

الأوضاع العامة في مصر والشام
قبيل الغزو الفرنجي (الصليبي)

أولاً: الحياة السياسية.

ثانياً: الحياة الفكرية.



أولاً: الحياة السياسية في مصر والشام قبيل الغزو الفرنجي (الصليبي):

شهد المشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي انقساماً سياسياً واضحاً، ومن مظاهر ذلك وجود خلافة عباسية في بغداد، وخلافة فاطمية في القاهرة، وسلطنة سلجوقية في بلاد فارس، وقوى محلية أخرى، وكانت الخلافة العباسية تعاني من الضعف لخضوعها التام لسيطرة البويهيين[1].

اتسم النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بالصراع السياسي والعسكري والمذهبي بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وبرز ذلك من خلال تهديد أبي الحارث البساسيري[2] لدار الخلافة ببغداد، ودعوته للخليفة الفاطمي المستنصر بالله على منابر بغداد، ورفعه الأذان بحي على خير العمل، وذلك عام 450هـ/1058م[3]، الأمر الذي عجّل دخول السلاجقة[4] لبغداد بعد استعانة الخليفة بهم للتخلص من التهديد الذي كان يشكله البساسيري للخلافة[5]،

---

(1) مسكويه، تجارب الأمم، ج2، ص 317-318؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص 264، 285-286؛ ابن الأثير، الكامل، ج2، ص 85-86.

(2) أرسلان بن عبد الله التركي مقدم الأتراك ببغداد قتل عام 451هـ/1055م وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى بلدة بسا وقيل بساسير فنسب إليها. الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 50-59؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 56؛ ابن الأثير، الكامل، ج2، ص 180-189.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 32؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 183؛ الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين، ص 40-43.

(4) ينسب السلاجقة لسلجوق بن دقاق وهم قبائل تركية نزحوا من تركستان إلى ما وراء النهر ثم تمكنوا من عبور نهر جيحون عام 416هـ/1025م سيطروا على خرسان ثم دخلوا نيسابور. انظر: الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 5-8، الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص 147-168، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج17، ص 5226-5230. مادة سلاجقة.

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 50-55؛ الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 59؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 180-189.

فتمكنوا من القضاء على حركته عام 451هـ/1059م[1]، وهذا يسر لهم السيطرة على الخلافة العباسية، فضعفت هيبتها، حتى أصبح الخليفة مجرداً من صلاحياته[2].

- تواصلت محاولات الفاطميين للسيطرة على ممتلكات الخلافة العباسية، فقاموا بتوسيع نفوذهم على أجزاء كبيرة من الشام منذ عام 359هـ/969م[3] إلا أنهم واجهوا خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ظروفاً سياسية داخلية وخارجية ساهمت في إضعاف دولتهم، وتقليص قدرتها على مواجهة التحديات الخارجية من أبرزها انقسام المجتمع المصري داخلياً، وتعدد طوائفه، وانعدام وحدته[4].

كانت ظاهرة الفتن سمة بارزة للمجتمع المصري في تلك الفترة، ففي عام 454هـ/1066م وقعت فتنة بين الأتراك والعبيد[5]، نتج عنها انهزام العبيد، وتزايد قوة الأتراك، وتطاولهم على الخليفة المستنصر بالله (427هـ-487هـ)(1035-1094م)[6] وقد اعتبر المقريزي هذا الوضع بداية الاختلاف بين طوائف العسكر[7]، إذ نتج عنها تقوية شوكة الأتراك واشتداد بأسهم، وبخاصة مقدمهم آنذاك ناصر الدولة ابن حمدان[8]، الذي قام بمطاردة العبيد إلى الإسكندرية، وفرض الحصار

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 42؛ الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 63،؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 189.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 19-29؛ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 14-17؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 184-194، 205-206.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 43-44.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 300.

(5) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 24-25.

(6) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 3؛ المقريزي، الخطط، مج2، ص 332.

(7) المقريزي، الخطط، مج2، ص 265-266.

(8) أبو علي ناصر الدولة الحسين بن الحسن بن الحسين بن عبد الله بن أبي الهيجاء بن حمدان التغلبي قتل بمصر عام 465هـ/1072م. انظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 38-39.

عليهم حتى أجبرهم على طلب الأمان[1]، وقد نجم عن تعاظم سلطة الأتراك آثار خطيرة على هيبة الخلافة الفاطمية، حتى وصل الأمر بهم إلى محاصرة الخليفة المستنصر بالله، وأخذ جميع أمواله سنة 460هـ/1067م[2].

تعرضت مصر أثناء حكم المستنصر بالله الفاطمي إلى العديد من الكوارث الخطيرة والمجاعات التي حدثت بين (457-464هـ) (1064-1071م)[3]، والتي تركت آثاراً سلبية واضحة على المجتمع، كما ساهمت في إحداث اضطرابات وفتن داخلية لعبت دوراً كبيراً في إضعاف هيبة الخلافة[4]، مما دعا المستنصر بالله الاعتماد على الأمير بدر الجمالي[5] أملاً بمساعدته في إعادة استقرار البلاد وأمنها وذلك سنة 466هـ/1073م[6].

برزت بوفاة المستنصر بالله عام (487هـ/1094م) أحداث سياسية خطرة تمثلت بقيام الأفضل[7] ابن أمير الجيوش بدر الجمالي بأخذ البيعة للابن الأصغر

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 273-274.

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 275.

(3) المقريزي اتعاظ الحنفا، ج2، ص 300، 224، 240؛ المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص 19-20. ولمزيد من التفاصيل عن هذه الكوارث التي وقعت زمن المستنصر وعرفت باسمه انظر: السيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص 204-207، ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص 365-369.

(4) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 32، 35، 38؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 296-297، 300، الجنزوري، الحروب الصليبية (المقدمة السياسية)، ص 285.

(5) هو أمير الجيوش بدر الأرمني، كان أميراً على دمشق زمن المستنصر بالله كما تولى وزارة السيف والقلم بمصر، توفي عام (487هـ/1095م). ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 52-53؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 329.

(6) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 39.

(7) هو أبو القاسم شاهنشاه كان أرمني الجنس، استنابه المستنصر بمدينة صور ثم في عكا، وأصبح وزيراً بعد وفاة والده بدر الجمالي، توفي عام (515هـ/1121م). المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 60؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج2، ص 448-451.

للمستنصر بالله أبي القاسم ولقبه المستعلي[1]، في حين أبعد أخاه الأكبر نزاراً الذي كان يحظى بعهد من والده بالخلافة من بعده[2]، واتخذ الأفضل سياسة متشددة ضد معارضي بيعته وصلت إلى القتل[3].

أسهمت تلك السياسة في إحداث انقسام كبير داخل الدولة الفاطمية تمثل برفض نزار وأتباعه الذين عرفوا (بالنزارية) المبايعة له، مما دعاه للخروج إلى الإسكندرية احتماءً بها. فخرج إليه الأفضل عام 488هـ/ 1095م حتى تمكن منه[4].

كما أحدثت سياسة الأفضل انشقاقاً كبيراً في صفوف الفاطميين، فانشق عدد من الدعاة، برز منهم: الحسن بن الصباح[5]، الذي كان يرى أن نزاراً هو الإمام الشرعي، وتركزت دعوته في بلاد فارس، في حين كان القسم الآخر مشايعاً للمستعلي، وكان مقرهم مصر[6]، وقد كان لهذا الانقسام السياسي والمذهبي داخل الدولة الفاطمية وخارجها أثر واضح في إضعافها وعجزها عن مواجهة التحديات الخارجية خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الخلفاء الفاطميين في هذه الفترة كانوا صغار السن مما أضعف دور الخليفة، ومكّن الوزراء من الاستبداد بالحكم[7].

---

(1) هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله سادساً خلفاء الفاطميين بمصر، توفي عام (495هـ/ 1101م). انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 27؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 59.

(2) انظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 59؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 11-12؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 162

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 15؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 139.

(4) انظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 59- 63؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 162.

(5) كان رئيساً للإسماعيلية وعرف بالكيال كان عالماً لعلوم عدة، مال للفاطمية، ثم قدم مصر والتقى بالمستنصر ودعى له بعد رجوعه في بلاد الجبل وقزوين، بدأ هو وفرقته بأعمال عسكرية ضد السلاجقة والملوك والسلاطين، توفي سنة 518هـ/ 1124م بقلعة الموت. انظر: المقريزي، المقفى الكبير، ج3، ص 328-330.

(6) انظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 59-60، 97 لمزيد من التفاصيل انظر: بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 171؛ البيطار، العصر الأيوبي، ص 12.

(7) ابن ميسر، المنتقى في أخبار مصر، ص 61، 71؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 142.

لقد كانت بلاد الشام منذ منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وحتى وقوعها بيد الفرنج مسرحاً لسلسلة متتابعة من الصراعات مع العديد من القوى السياسية والعسكرية كان منها: الدولة الفاطمية والقرامطة، والدولة البيزنطية وبعض القوى المحلية كبني الجراح في فلسطين، والحمدانيين في شمال سوريا. وصراعات مع قوى أخرى ظهرت واضحة مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

فمنذ دخول الفاطميين للشام عام 359هـ/969م[1] بدأ صراعهم مع القوى السياسية الطامحة للسيطرة عليها، حيث تقدّم القرامطة من العراق نحو الشام عام 360هـ/970م ودخلوا في نزاع مسلح معهم بعد تحالفهم مع بني الجراح ضدها[2]، وتبع ذلك صراع آخر مع بني الجراح الذين كانوا يشكلون خطراً على الدولة الفاطمية من خلال نفوذهم في الشام وسيطرتهم على فلسطين مما استدعى قيامهم بتوجيه العديد من الحملات للقضاء عليهم[3].

ودخل الفاطميون والسلاجقة من بعدهم في صراع مع الدولة البيزنطية على أرض الشام، فتعاقبت الحملات التي كان يسيرها الروم للسيطرة عليها[4]، إلا أن الفاطميين آثروا مهادنتهم حتى يخضعوا بلاد الشام لنفوذهم[5].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 151.

(2) انظر: مسير القرامطة لدمشق عام 360هـ/970م ولفلسطين وقتلهم المغاربة منها وحربهم مع المعز لدين الله الفاطمي عام 363هـ/973م. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص 1-3.

(3) انظر: حملات الفاطميين على بني الجراح، عام 371هـ، 388هـ. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص25، 32، 51، ولمزيد من التفاصيل انظر: الحياري، الإمارة الطائية في الشام، ص 45-46؛ المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص 60-64.

(4) انظر: حملاتهم على الشام في الأعوام 373هـ/378 هـ/388هـ. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 43، 50-51.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 32؛ ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 11؛ الرحموني، الجهاد، ص 26.

وقد أسفرت السياسة الخارجية للدولة الفاطمية المتمثلة بمحاولاتها التوسعية في الشام في إنهاكها سياسياً وعسكرياً، مما ادى إلى تراجع نفوذها في الشام بعد منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وذلك لسببين: أولهما سيطرة السلاجقة على كثير من مناطق النفوذ الفاطمي[1]، وثانيهما بروز عدة قوى سياسية محلية استغلت الضعف الداخلي للدولة الفاطمية، فقامت بالسيطرة على أجزاء من بلاد الشام كانت تحت النفوذ الفاطمي، الأمر الذي أجبرها على الدخول في صراع مع تلك القوى المحلية التي شكلت مصدر قلق بالنسبة لها[2].

إنّ سياسة التوسع التي انتهجها السلاجقة أدّت إلى اضطراب الأوضاع السياسية في الشام، حيث كان التوسع في بلاد الشام وآسيا الصغرى على رأس أولوياتها منذ تأسيسها، وترسخ هذا الاعتقاد نتيجة صد هجمات الدولة البيزنطية من جهة، والقضاء على الدولة الفاطمية في مصر والشام من جهة أخرى[3]، وقد توجت تلك السياسية بانتصار السلطان آلب أرسلان[4] (424هـ - 465هـ/1032-1072م) على البيزنطيين في معركة ملاذكرد[5] الحاسمة عام 463هـ/ 1071م

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 98-99؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (الجزء الخاص بالسلاجقة)، ص 178-180؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 444.

(2) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 37؛ جب، صلاح الدين، ص 47-49.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج18، ص 268؛ الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 110-115؛ الرحموني، الجهاد، ص 27؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 116.

(4) أحد سلاطين السلاجقة كان يلقب بعضد الدولة، تولي الحكم عام (455هـ/1063م) استمر حكمه عشر سنوات توفي عام (465هـ/1072م). الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 37-45؛ الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 119.

(5) معركة وقعت بين السلاجقة والبيزنطيين، في موضع يعرف بالزّهوة بين خلاط وملاذكرد وقيل (منازكرد) بأرض الروم أسر فيها ملك الروم. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ مدينة دمشق، ص 99؛ الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 110-115؛ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 38-41.

ودخوله أرض الشام في العام نفسه، ومحاصرته حلب ثم دخولها، وتركه طائفة من الأتراك بالشام[1]، فمثّل ذلك بداية النفوذ السلجوقي في الشام.

تتالت حملات السلاجقة على الشام كان من أبرزها حملة الأمير أتسز عام 463هـ/ 1070م[2]تمكن خلالها من فتح الرملة، وبيت المقدس ومضايقة دمشق[3]، ثم عودته ثانية لبيت المقدس عام 465هـ/1072م ليؤكد سلطة السلاجقة فيها والدعوة فيها للعباسيين، وقطع دعوة الفاطميين منها[4]، وتمكن عام 468هـ/1075م من تسلم مدينة دمشق والخطبة فيها للخليفة العباسي المقتدي بالله[5]، مما يعني خروج دمشق من أيدي الفاطميين، ووقوعها تحت سلطة السلاجقة.

أخذ السلاجقة يسلخون بلاد الشام من الدولة الفاطمية مدينة بعد أخرى[6]، ويتطلعون للسيطرة على مصر، فشنوا حملة بقيادة الأمير أتسز عام 469هـ/ 1076م ولكنها منيت بالفشل على الرغم مما تركته من آثار سلبية بالغة على الشام، تمثلت بعصيان أهلها وإعادتهم الخطبة للفاطميين[7].

---

(1) الأصفهاني، تاريخ دولة دولة آل سلجوق، ص 36-37؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 264.

(2) هو أتسز بن أوق الخوارزمي، كان مقدم الأتراك الغز في الشام، وأحد أمراء السلطان ملكشاه، توفي عام 471هـ/1078م. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 98؛ ابن عساكر، ولاة دمشق في العصر السلجوقي، ص17-18.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 98-99؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 242.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (الحوادث الخاصة بالسلاجقة) ص 169؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص444.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 108-109؛ ابن عساكر، ولاة دمشق في العصر السلجوقي، ص 18.

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 98-99؛ غوانمة، يوسف، (1983). الأفضل بن بدر الجمالي وموقفه من الحملة الصليبية الأولى، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، مج10، ص 73.

(7) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 109-112؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (الحوادث الخاصة بالسلاجقة)، ص 184-185.

ظلت بلاد الشام معتركاً بين السلاجقة والفاطميين للسيطرة عليها حتى دخول الفرنج، حيث شهدت الشام عدة حملات فاطمية، ساهمت في اضطراب أوضاعها السياسية[1]، مما دعا الأمير أتسز صاحب دمشق للاستنجاد بالأمير تُتُش[2] بعد حصار الفاطميين لمدينة دمشق، فدخلها وتسلمها عام 471هـ/1078م، ثم قام بالتخلص منه، واتخذ من دمشق مقراً لدولته الجديدة[3].

توسعت دائرة الصراع العسكري في الشام بعد دخول الأمير تُتُش لدمشق، وتأسيسه دولة سلاجقة الشام[4] عام 471هـ/1078م- والتي كانت تحظى بتأييد السلطان ملكشاه[5]- إذ لم تعد مقتصرة على السلاجقة والفاطميين وحدهم بل دخلت قوى سياسية أخرى في هذا الصراع كان من أبرزها المرداسيون[6] والعقيليون من بعدهم في حلب، وبنو عمار في طرابلس[7]، وبنو عقيل في صور[1]، بالإضافة للصراعات الأخرى التي برزت بين السلاجقة أنفسهم (سلاجقة الروم[2] والشام)[3].

---

(1) انظر: الحملات عام 470هـ/1077م- 471هـ/1078م. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 112؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 319-320.

(2) هو تاج الدولة تُتُش بن السلطان ألب أرسلان، حكم دمشق وامتدت ولايته حتى عام 488هـ/1095م حيث قتل بالري. الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 148-161.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 112؛ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 66.

(4) الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 65-66؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 72؛ حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، ص 70.

(5) هو أبو الفتح ملكشاة بن ألب أرسلان كان له مملكة واسعة تشمل بلاد ما وراء النهر، وبلاد الروم، ودياربكر، والجزيرة، والشام، توفي ببغداد عام 485هـ/1092م. الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 147-153؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص 288-295.

(6) استمر حكم هذه الأسرة بحلب (415-472 هـ/ 1024-1079م). انظر: ابن العديم، زبدة الحلب ج1، ص 179-303.

(7) تأسست هذه الدولة على يد القاضي الشيعي أبو طالب أمين الدولة الحسن في طرابلس عام 459هـ/1066م ثم تولى بعد وفاته عام 464هـ/1071م جلال الملك بن عمار فاستمر حتى عام 490هـ/1096م ثم فخر الملك بن عمار (492-503هـ) (1098-1109م). ابن الأثير، الكامل،

أسهمت محاولات تُتُش التوسعية في حلب عام (470هـ/1077م، 471هـ/1078م) أثناء وقوعها تحت حكم بني مرداس في تردي الأوضاع السياسية في الشام إلا أنه فشل في السيطرة عليها[4]، وتمكن من منافسة شرف الدولة العقيلي[5] عام 472هـ/ 1079م[6].

ساهمت سيطرة العقيليين على حلب في توسيع دائرة الصراع على أرض الشام قبيل الغزو الفرنجي، فتوجهت أنظار شرف الدولة العقيلي إلى دمشق عام 475هـ/1082م، حتى أنه تحالف مع الفاطميين ضد تُتُش لتحقيق هدفه، وتعاظم خطره بمواجهة الملك سليمان بن قتلمش صاحب أنطاكية، وأسفر ذلك عن مقتله عام 478هـ/1085م وحصار الملك سليمان لحلب، وبسط سيطرته عليها[7].

أدى التنافس على حلب إلى تطور الصراع بين السلاجقة أنفسهم وتمثل ذلك بلقاء تُتُش صاحب دمشق بالملك سليمان بن قتلمش في حلب، وانتهى بمقتل الملك

ج8، ص 245؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات (461-470هـ)، ص 158، ؛ تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ص 337-363.

(1) تأسست على يد القاضي عين الدولة أبو الحسن علي عام 462هـ/1069م. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 303.

(2) عرف سلاجقة الروم بهذا الاسم نسبة إلى البيزنطيين الذين يطلق عليهم العرب اسم الروم ولقيامها على أرضهم، وقد توسع السلاجقة في أراضي الدولة البيزنطية فسيطروا على قونية وأقسر وقيصرية. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 72؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 270؛ شبارو، السلاطين في الشرق العربي، ص 29.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 319-323؛ قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 100-101.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 288- 289، 295.

(5) هو مسلم بن قريش صاحب الجزيرة وحلب، وتوفي عام 478هـ/1085م بعد صراعه مع الملك سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب سلاجقة الروم ودفن بحلب. ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 303، 327؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 6-7.

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 114.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 317-318.

سليمان عام 479هـ/1086م وحصار تُتُش للمدينة[1]، وسيطرته عليها، ولم يلبث تُتُش أن تراجع عنها بعد قدوم أخيه ملكشاه لحل النزاع بين أفراد البيت السلجوقي، وتملكه لحلب، وتعيين قسيم الدولة آق سُنْقُر[2] عام (480هـ/1087م) عليها[3] لتبدأ مرحلة جديدة من العداء في الشام بين حكام السلاجقة من جهة وولاتهم في الشام من جهة أخرى.

استمر صراع السلاجقة مع الفاطميين في الشام بعد محاولات الفاطميين المستمرة لانتزاع مدن الشام منهم، مستغلين انشغال السلاجقة بصراعاتهم الداخلية[4]، فأغاروا على دمشق عام 478هـ/1085م، ولكنهم فشلوا في ذلك[5]، بينما سيطروا على صور عام 482هـ/1089م بعد أن كانت بيد العقيليين، كما أخضعوا صيدا وجبيل وعكا[6].

فتحت التوسعات الفاطمية المجال من جديد للصراع السلجوقي الفاطمي، فتمكن تُتُش بمساعدة أخيه ملكشاه من إخضاع بعض الممتلكات الفاطمية كحمص، وقلعتي افامية وعرقه عام 485هـ/1092م[7] كما دخل تُتُش في صراع مع بني عمار في طرابلس عام 484هـ/1091م محاولاً السيطرة عليها، فحاصرها بمساعدة قسيم الدولة آق سُنْقُر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، ولكنه تراجع

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 319-323.

(2) أميراً تركياً من أصحاب السلطان ملكشاة، كان والياً على حلب قتل عام 487هـ/1094م على يد السلطان تنش قرب حلب، كان له من الأولاد عماد الدين زنكي. ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص4-5.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 322-324؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص 120.

(4) الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 57-60؛ المعاضدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص 100.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 304.

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 120؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 50؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 326.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 347-348؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 140.

عنها لخلاف بينه وبين آق سُنْقُر[1]. وتدخل الفاطميون مرة أخرى في الشام لبسط نفوذهم على صور عام 486هـ/1093م[2].

عاد الصراع في الشام بعد مقتل تُتُش عام 488هـ/ 1095م بين ولديه الملك رضوان[3]، صاحب حلب والملك دقاق[4] صاحب دمشق، وبدأ كل منهما بمناوشة الآخر محاولاً السيطرة على ممتلكات أخيه[5]، وكان للأمراء المحليين في الشام دور كبير في تأجيج الصراع بينهما وإضعافهما سياسياً وعسكرياً[6]، إذ تطور نزاعهما السياسي إلى نزاع مسلح بتقدم رضوان نحو دمشق عام 488هـ/1095م ومحاصرته لها، ولكنه انسحب دون تمكنه منها[7].

واشتد الصراع بينهما، فقام رضوان بمراسلة الخليفة الفاطمي المستعلي بالله عام 490هـ/1096م لإقامة الخطبة له بالشام طمعاً في مساعدته لأخذ دمشق من

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 130.

(2) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 51، وقد تكررت محاولات الفاطميين لفتح صور عام 489هـ/1095م- 490هـ/ 1096م. انظر: ابن القلانسي، ص 133-134؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 20.

(3) رضوان بن تُتُش بن أرسلان الملقب بفخر الدولة، نشأ بدمشق رجع لحلب بعد وفاة أبيه وتسلمها، وكان يميل للباطنية ويستعين بهم، توفي عام 507هـ/1113م. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج18، ص 130-133؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج8، ص 3659-366.

(4) هو دقاق بن تُتُش بن ألب أرسلان المعروف بشمس الملوك، توفي عام 497هـ/1103م. ابن عساكر، ولاة دمشق في العهد السلجوقي، ص 19-20؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج14، ص 21.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 130؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 149.

(6) اتخذ الملك رضوان الأمير سكمان بن أرتق خليفاً له، واتخذ الملك دقاق الأمير نجم الدين إيلغازي وساوتكين الخادم حليفاً له، بينما كان الأمير ياغي سيان صاحب أنطاكية متنقلاً بولائه بينهما مرة إلى جانب الملك رضوان وأخرى إلى جانب الملك دقاق. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 130-133؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 336-343.

(7) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 132؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 294-295.

أخيه دقاق، إلا أنه عاد وقطعها بعد أن خطب له أربع جمع[1]، ثم عاد ليهدد أخاه دقاق من جديد بمهاجمته دمشق[2]، ولكنه باء بالفشل لنزاع بين مقدمي جيشه مما اضطره للانسحاب[3]، واستمرت الحرب بينهما لقيام الملك دقاق بمحاصرة حلب عام 490هـ/1096م ولقائهما بقنسرين[4]، وأسفرت المواجهة عن انهزام دقاق وعسكره، وعودة رضوان لحلب، واتفاقهما على الخطبة لرضوان بدمشق قبل دقاق وبإنطاكية كذلك[5]. وقد كان لصراعهما دور واضح في إضعافهما عن التصدي للفرنج حينما داهموا الشام.

ثانياً: الحياة الفكرية في مصر والشام قبيل الغزو الفرنجي:

لم يمنع الصراع المحتدم بين القوى السياسية المختلفة في بلاد الشام ومصر من ظهور مراكز تعليمية وفكرية في كلا المصرين، كما في دمشق، وبيت المقدس، وطرابلس وصور والقاهرة، حيث غدت هذه المدن مراكز إشعاع حضاري للعلوم المختلفة بصورة عامة، والعلوم الدينية بصورة خاصة.

كانت دمشق منذ النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من أهم المراكز الفكرية في بلاد الشام، وبرز دورها واضحاً بنشر العلوم

---

(1) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 64، وهناك رأي آخر يقول أن الأفضل بن بدر الجمالي، وزير المستعلي هو الذي راسل رضوان طالباً منه الدخول في طاعته، والرأي الأول أوجه لحاجة رضوان لذلك. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ مدينة دمشق، ص 133؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 343؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 19؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 163.

(2) لعب الأمير ياغي سيان صاحب إنطاكية دوراً كبيراً في تحريضه على ذلك. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 123.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 133.

(4) قنسرين كورة بالشام بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج4، ص18.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 394-395.

الدينية المتمثلة بالقرآن والحديث والفقه، فأصبحت معيناً ينهل منه العديد من العلماء، إما بالاستماع لعلوم الحديث والفقه والقرآن، أو التدريس فيها، فقصدها علماء من بغداد[1]، والأندلس[2]، ومصر[3] ومنهم الفقيه أبو علي الحسين بن محمد الصدقي الأندلسي حيث سمع فيها[4] من نصر بن إبراهيم المقدسي[5] وغيره، كما قدم إليها لتدريس الحديث الفقيه أبو عبد الله الأنصاري الأندلسي السرقسطي[6]، وقدمها من بغداد المحدث أبو القاسم حمزة بن محمد بن الحسن البغدادي[7]، كما قصدها الفقيه البغدادي أبو بكر الخطيب[8] بعد وقوع فتنة البساسيري عام 450هـ/1058م فأقام فيها واتخذ من مسجدها حلقة علم يقرأ فيه الحديث، ثم خرج لصور[9]، وحدث بها أيضاً أبو المحاسن حمد بن الحسين الشيرازي عام 478هـ/1085م[10]، والفقيه

---

(1) انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج15، ص 169، ج71، ص 235، ج12، ص 102.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج5، ص 151، ج14، ص 321.

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج14، ص 305-306، ج27، ص 394.

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج14، ص 321.

(5) هو أبو الفتح الذي اشتهر بأبي نصر، أصله من نابلس سكن بيت المقدس، ودرس بها، كان فقيهاً فاضلاً قدم دمشق، ودرس بها كما درس بصور توفي عام 490هـ/1096م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج62، ص 15-18؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص 351-353.

(6) هو محمد بن أحمد بن محمد توفي عام 479هـ/1086م وكان مالكي المذهب. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج5، ص 151.

(7) قدمها عام 458هـ/1065م وتوفي عام 489هـ/1095م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج15، ص 235.

(8) أحمد بن علي، أحد علماء الحديث، صاحب كتاب تاريخ بغداد، نشأ ببغداد وتفقه فيها، وتوفي عام 463هـ/1071م. ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 129-130.

(9) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 102.

(10) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج14، ص 169.

طاهر المحمودي القايني[1]، وأبو بكر الشهرزوري الواعظ[2]، ونزلها من طوس لتدريس الحديث فيها الفقيه الشافعي أبو القاسم الطوسي المعروف بالحاكمي[3] وسمع فيها الفقه من أبي القاسم الزنجاني الذي كان شيخاً للحرم[4]، وقدم إليها من مصر لتدريس الحديث، القاضي أبو الفضل المصري[5]، وعبد الله بن الحسن بن طلحة البصري المعروف بابن النخاس[6].

لم يكتف بعض العلماء بالنزول في دمشق بل استوطنها عدد منهم كالفقيه الشافعي نصر بن إبراهيم المقدسي الذي عمل بها عشر سنوات يحدث وينشر العلم دون أن يقبل أي أجر، وكان نزوله بها عام 480هـ/1087م[7]، ودرس بها العالم الإمام أبو حامد الغزالي[8]، حيث أقام بالمنارة الغربية من الجامع الأموي والمعروفة بزاوية الشيخ نصر المقدسي، والتي عرفت أيضاً بالغزالية نسبة له لكثرة جلوسه فيها، وكان نزوله دمشق عام 489هـ/1094م.

---

(1) طاهر بن أحمد، كان راوية للحديث، توفي عام 463هـ/1070م وسمي بالقايني نسبة إلى بلدة قاين قرية بين نيسابور وأصبهان. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج24، ص 448-449؛ السبكي، طبقات الشافعية،ج5، ص 11-12.

(2) محمد بن عقيل، سكن دمشق وحدث بها، توفي عام 453هـ/1061م. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج54، ص 225.

(3) إسماعيل بن عبد الملك، توفي عام 525هـ/1134م. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج9، ص 18.

(4) هو سعد بن علي، كان راوية للحديث. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج20، ص 274-275.

(5) الحسين بن محمد، كان محدثاً قدم دمشق عام 462هـ/1069م. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج14، ص 315-316.

(6) كان محدثاً بدمشق وببيت المقدس، توفي عام (461هـ/1068م). ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج27، ص 394.

(7) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج54، ص 432.

(8) محمد بن محمد الطوسي، كان بارعاً ومجتهداً في المذهب والخلاف والجدل والفلسفة، صنف في أصول الدين، درس بنظامية بغداد، وتوفي عام 505هـ/1111م. ابن عساكر، تبين كذب المفتري، ص 285-288؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 191-201.

وشهدت دمشق نشاطاً واضحاً للحنابلة تمثل بنزول الفقيه الحنبلي أبي علي بن الفراء[1] الذي عمل على نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل في دمشق وبيت المقدس، وما حولها[2].

وتولى عدد من الفقهاء الذين قدموا للتدريس فيها مناصب هامة لغزارة علمهم، فقد جاء الفقيه الشافعي أبو المظفر المروزي[3]، لتدريس الحديث ثم تولى القضاء فيها عام 468هـ/1075م عندما سيطر عليها الأتراك، وبقي بها حتى وفاته 479هـ/1086، كما كان لعلماء علم القرآن الذين نزلوا دمشق مساهمة في تعليم أهلها، ومنهم المقرئ البغدادي أحمد بن عبد الله المعروف بأبي البركات[4].

يتضح مما سبق دور دمشق في نشر علوم القرآن والحديث والفقه من خلال زيارة العلماء للدراسة والتدريس، وما تبع ذلك من تبادل فكري بين علماء مدن العالم الإسلامي المختلفة مما ترك آثاراً واضحة في إثراء الحياة الفكرية.

كما نشطت الحركة الفكرية في مدن شامية أخرى كصور، وطرابلس فقد حدث بصور بُندار بن محمد الفارسي الصوفي[5]، وبطرابلس أبو القاسم المرْوَرُّوذي الشيرازي الواعظ[6]، وطاهر بن محمد القضاعي المصري[1].

---

(1) هو محمد بن الحسين، كان إماماً في الفقه، وانتهت إليه رياسة المذهب ولقب بشيخ الحنابلة، أفتى ودرس، توفي عام 458هـ/1065م. انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 98-99؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق،ج52، ص 359.

(2) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 68.

(3) هو عبد الجليل بن عبد الجبار بن عبد الله بن طلحة قدم دمشق وتفقه فيها وحدث فيها. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج34، ص 41.

(4) انتقل لدمشق عام 451هـ/1059م كان محدثاً ومقرءاً للقرآن، وتوفي عام 492هـ/1098م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج71، ص 235.

(5) كان محدثاً توفي بعد عام 480هـ/1087م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج10، ص 48.

(6) طاهر بن محمد بن أبي القاسم، قدم الشام وحدث بصور وبطرابلس عام 463هـ/1070م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج24، ص 457-458.

ازدهرت طرابلس ازدهاراً فكرياً واضحاً في عهد أسرة بني عمار إذ قام أمين الدولة –الذي كان هو نفسه من فقهاء الشيعة – بإنشاء دار علم بطرابلس تضاهي تلك التي أنشأها الفاطميون في القاهرة، وجمع فيها مائة ألف كتاب، وقام من بعده جلال الملك بن عمار بتجديدها سنة 472هـ/1079، وعلى الرغم من اهتمامها بالعلوم والآداب إلا أنها ركزت كثيراً على الفكر الشيعي[2]، وهنا يظهر بشكل واضح أثر اهتمام الفاطميين في نشر الفكر الشيعي الإسماعيلي حتى أصبحت طرابلس من مراكزه.

أما بيت المقدس فقد كانت من أكثر مدن الشام مساهمة ونشاطاً في الحركة الفكرية، وأكثرها ازدحاماً بالعلماء؛ لما تحظى به من أهمية تاريخية ودينية بالنسبة للمسلمين، حيث شهدت نشاطات فكرية شتى، وفي هذا يقول عبد الجليل عبد المهدي إنه وجد في بيت المقدس في هذه الفترة عدداً من المعاهد العلمية، فإلى جانب مسجدي صخرة وغيرهما في ساحة الحرم الشريف نجد داراً للعلم أنشأها الفاطميون في بيت المقدس، وكانت تلك الدار فرعاً لدار العلم الفاطمية في القاهرة[3].

واشتهر من علماء بيت المقدس الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي الشافعي الذي عد شيخاً للمذهب في الشام، والذي عمل محدثاً في الزاوية التي على باب الرحمة ببيت المقدس مدة طويلة حتى عرفت بالناصرية نسبة له، واجتمع بعدد كبير من العلماء فتبادل معهم التأثر والتأثير[4] والشيخ أبو القاسم الأنصاري الرّميلي

---

(1) كان محدثاً بطرابلس وبيت المقدس عام 463هـ/1070م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص 456.

(2) كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 38؛ تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ص 356-358.

(3) عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص 14.

(4) العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 433-434.

المقدسي[1]، الذي كانت تأتيه الفتاوى من مصر والشام وغيرها[2]، كما برز فيها الإمام المعروف بابن القيسراني المقدسي[3] المولد الذي اشتهر بعلمه بالحديث، وقد دلت كثرة مصنفاته على غزارة علمه[4].

وقد حظيت بيت المقدس باحتضان عدد كبير من علماء المسلمين الذين جاؤوا بقصد الإفادة من علمائها أو التعبد فيها، أو التدريس فيها، مما ساهم في ازدهار حياتها الفكرية، فقد نزل بها الإمام أبو حامد الغزالي 488هـ/1093م بعد تركه التدريس في نظامية بغداد، وتمكن أثناء إقامته بها من تصنيف كتاب إحياء علوم الدين. ودرس بالزاوية التي كان يدرس بها الشيخ نصر المقدسي، وعرفت فيما بعد بالغزالية لإقامته بها وتدريسه فيها[5]، كما نزلها الشيخ أبو الفرج الشيرازي[6] المقدسي الأنصاري الذي قام بنشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل في بيت المقدس ثم رحل عنها ليقيم بدمشق، وينشر المذهب فيها[7].

---

(1) هو مكي بن عبد السلام، أحد الجوالين في الآفاق، تغرب كثيراً في مدن عدة، كان من كبار رواة الحديث، بالإضافة للإفتاء على مذهب الشافعي توفي عام 492هـ/1098م على يد الفرنج. الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 490-500هـ، ص 138-139؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص 332-333.

(2) العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 435.

(3) محمد بن ظاهر سمي بالقيسراني نسبة إلى قيسارية بلدة بالشام على ساحل البحر، توفي ببغداد عام 507هـ/1113م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص 287-288؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 437-438.

(4) العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 437-438.

(5) ابن كثير،البداية والنهاية، ج12، ص 149؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 430-437.

(6) عبد الواحد بن محمد كان فقيهاً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، له تصانيف كثيرة توفي عام 486هـ/1093م. انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 67-71؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 433-434.

(7) العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 432-434.

وحل بها أثناء رحلته للمشرق الأمام أبو بكر المعروف بابن العربي[1] الأندلسي عام 485هـ/1092م الذي أفاد منها الكثير حيث اجتمع فيها بالإمام الطرطوشي[2]، وتفقه عليه، وصحب ابن عربي الإمام الغزالي حتى غدا عالماً متفقهاً، وروى عنه عدد كبير من العلماء[3]، ومما يؤكد تبوأها ذروة العلم أن جاءها من مكة الفقيه أبو عبد الله المقدسي المشهور بالديباجي[4]، حيث حل بها وكتب الحديث فيها[5].

ومما يدلل على ازدهار الحركة الفكرية في بلاد الشام قبيل الغزو الفرنجي بروز كوكبة من العلماء في علم الحديث والفقه والتفسير والقراءات، ففي دمشق برز خطيبها ومحدثها الحسين بن محمد بن طلاب[6] وعبد العزيز بن أحمد الكتاني الحافظ الدمشقي[7]، وفي طرسوس أبو علي الطرسوسي الذي تولي قضاء بلدة طرسوس[8]، وفي صور المحدث أبو منصور بن أبي نصر الأندادي الطوسي الصوفي المقرئ[9]، والمحدث أبو العلاء زين بن أحمد بن علي الصوري[10] وفي

---

(1) محمد بن عبد الله، كان فقيهاً ومحدثاً، توفي بفاس عام 543هـ/1148م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص 296-297؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 440.

(2) أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسي، دخل بغداد وتفقه فيها عام 476هـ/1083م، ثم سكن الشام ودرس بها مذهب الإمام مالك توفي عام 520هـ/1126م بالإسكندرية؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص 262-264.

(3) العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 440.

(4) محمد بن أحمد، أصله من مكة، حضر بيت المقدس وأصبح من كبار علمائها، ثم سكن بغداد. توفي عام 529هـ/1134م. انظر: العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 439-440.

(5) العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 439.

(6) توفي عام 471هـ/1078م.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 109.

(8) محمد بن إسماعيل، كان من كبار الفقهاء، توفي عام 459هـ/1066م؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص96.

(9) كان محدثاً ومقرءاً للقرآن. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج62، ص 51.

(10) توفي عام 464هـ/1071م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج19، ص 252.

طرابلس برز الفقيه مقلد بن القاسم أبو الحمائل الربعي[1]، وفي طبرية هياج بن الحسين الحطيني الشامي[2].

لقد ظهرت أهمية المساجد في بلاد الشام لاسيما الجامع الأموي والمسجد الأقصى ببيت المقدس، وبرز دورهما في تعليم القرآن والحديث والتفسير، حيث شكلا مركزين رئيسيين للنشاط الفكري والثقافي حتى أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقبيل الغزو الفرنجي تحديداً وعلى الرغم من ظهور فكرة المدرسة في هذه الفترة كالمدرسة البيهقية في نيسابور وغيرها، وتطورها فيما بعد كمدرسة متكاملة على يد الوزير نظام الملك السلجوقي فيما يعرف بالنظاميات[3]. حيث عُرف في الشام ما يسمى بالمدرسة الرشائية التي أوقفها صاحبها لقراءة القرآن[4].

أما الحياة الفكرية بمصر زمن الدولة الفاطمية فلم تكن أقل شأناً من تلك القائمة بالشام؛ وسبب ذلك اعتمادها على مسألة الفكر منذ قيامها واهتمامها به بعد انتقالها لمصر، ساعد على ذلك عوامل عدة في مقدمتها اهتمام الخلفاء الفاطميين أنفسهم به، فعمدوا إلى إنشاء المؤسسات التعليمية اللازمة لمنافسة بغداد العباسية[5]، وسعوا بشكل حثيث إلى نشر فكرهم الشيعي الإسماعيلي لأنه كان يمثل المذهب الرسمي للدولة، وكثيراً ما نجدهم يركزون على مسألة التعليم لدرجة إشرافهم

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج6، ص 196-197.

(2) كان فقيهاً ومحدثاً، رحل لمكة وصار فقيهاً للحرم ومفتي أهل مكة، توفي عام 472هـ/1084م. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج74، ص 100-101؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج5، ص 35.

(3) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 451-452، الإسكندراني، محمد، (1989). المدرسة والدولة في العصريين الفاطمي الأيوبي، مجلة الاجتهاد، لبنان، (ع3)، ص 147-148. وعن نشأة المدارس انظر: العناقرة، محمد، (2005). المدارس في عصر دولة المماليك، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ص11-16.

(4) نشأت هذه المدرسة على يد رشاء بن نظيف في حدود الأربعمائة هجرية الألف ميلادية وتوفي صاحبها عام 444هـ/1052م. النعيمي، الدارس، ج1، ص 11-12، كردعلي، خطط الشام، ج6، ص 67.

(5) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 452.

بأنفسهم عليه وفتح قصورهم لذلك[1]، وقد كان ذلك دافعاً لرجال دولتهم للاهتمام بالتعليم أيضاً، والمشاركة به كما فعل الوزير يعقوب بن كلس[2].

شكل الجامع الأزهر[3]، في القاهرة مركزاً هاماً لنشر المذهب الإسماعيلي وتدريسه، وتجلى ذلك حينما ألقى فيه القاضي علي بن النعمان درساً عام 365هـ/975م أملى فيه مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت[4]، إلا أن أول درس منظم شهده الأزهر كان في عام 378هـ/988م[5] واتضّحت عناية الفاطميين بنشر فكرهم حينما أحضر الوزير يعقوب بن كلس مجموعة من الفقهاء، وأقام لهم مساكن بجانب الجامع الأزهر، وأغدق عليهم[6].

كان إنشاء الفاطميين لدار الحكمة (العلم) عام 395هـ/1004م زمن الخليفة الحاكم بأمر الله من أبرز مظاهر الحياة الفكرية والثقافية في مصر زمن الفاطميين، واستمرت في أداء دورها الثقافي حتى أبطلها الأفضل بن بدر الجمالي خوفاً على أتباع المذهب الإسماعيلي من مخالفيه وخاصة النزارية[7].

اضطلعت دار الحكمة بدور مميز في التدريس والمناظرات، ونشر العلوم المختلفة، وقد جلس الفقهاء فيها للدرس، ثم امتد نشاطها ليشمل جلوس القراء والمنجمين، وأصحاب النحو واللغة والأطباء، مما يعني تنوع علومها، وشموليتها،

---

(1) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 452.

(2) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 452.

(3) أنشأه جوهر الصقيلي عام 359هـ/969م واكتمل بناؤه عام 365هـ/975م. المقريزي، الخطط، مج4، ق2،ص 90-91.

(4) المقريزي، الخطط، مج4، ق1، ص 389.

(5) المقريزي، الخطط، مج4، ق1، ص 389.

(6) المقريزي، الخطط، مج4، ق1، كان يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله من أشهر علماء الدعوة الفاطمية، وله أثر كبير في نشاطك الحياة العقلية في مصر. انظر: مادة الأزهر، الموسوعة الإسلامية، ج2،ص 540.

(7) المقريزي، الخطط، مج2، ص 502.

كما حملت إليها كتب متنوعة علمية وأدبية وفقهية من مختلف خزائن الكتب في العالم، وتنوعت فوائدها التعليمية فاشتملت على حُجر لقراءة الكتب، وكذلك النسخ والتعليم وللطرائق المختلفة[1]، وهذا يعني أنها كانت مكاناً للتدريس والمطالعة معاً.

وقد كشف المقريزي عن تنوع العلوم التي كانت تُدّرس في مصر خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كالحساب والمنطق والطب والفقه، مشيراً إلى استدعاء الخليفة الحاكم بأمر الله عام 403هـ/1012م لجماعة من أصحاب العلوم السابقة من دار العلم، وقيامه بمناظرة كلٍ منهم منفرداً[2]، وهذا يؤكد على أن بعض الخلفاء الفاطميين كانوا علماء، وعلى الرغم من تعدد وتنوّع العلوم التي كانت تقدمها دار الحكمة إلا أنها ساهمت بشكل كبير في نشر الثقافة الإسماعيلية[3].

تكاد تندر المعلومات عن نشاط هذه الدار منذ عام 411هـ-513هـ/1020-1119م، إلا أن ذلك لا يمنع كونها مركزاً هاماً لنشاط الدعوى الإسماعيلية[4]، ويدل على ذلك أن الأفضل أبطلها لخوفه على الدارسين فيها من الاختلاط بالمذاهب المختلفة، وكذلك بأصحاب المذهب النزاري، ومن الراجح أن يكون دفن داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الأعجمي (ت 470هـ/1077م) بدار الحكمة دليلاً على أنها كانت مركزاً هاماً لنشاط دعاة الإسماعيلية[5].

وبلغ من رعاية الفاطميين واهتمامهم بنشر علومهم المتعلقة بالمذهب، أن قاموا بعقد ما يسمى بمجالس الدعوة "مجالس الحكمة" بهدف تعريف معتنقي مذهبهم

---

(1) المقريزي، الخطط، مج2، ص 503، مج4، ق1، ص 392.

(2) المقريزي، الخطط، مج2، ص 503.

(3) حسن، التاريخ السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص 427، إسكندراني، المدرسة والدولة في العصرين الفاطمي والأيوبي، ص 150.

(4) السيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص 587.

(5) المقريزي، الخطط، مج2، ص 507.

بأسرار المذهب أو علم الباطن المعروف بالحكمة والتي ارتبطت مهمة نشرها والإشراف عليها بداعي الدعاة[1]، فكان يكتب ما يلقى في هذه المجالس، ويعرضها على الخليفة قبل إقرارها، والتي كانت تعقد مرتين في الأسبوع، وكثيراً ما كانت تعقد في قصر الخليفة لأهميتها، وقد تعقد بالجامع الأزهر[2]، واشتهر منها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ما عرف "بالمجالس المؤيدة"، وهي محاضرات ألقاها داعي الدعاة الشهير المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي[3] أثناء توليته رئاسة الدعوة في مصر من 450-470هـ/1058-1077م، وكانت مكونة من ثمانية مجلدات يشتمل كل منها على مائة مجلس تلقى على الطلاب والمستجيبين والدعاة[4].

وتدل الموضوعات التي تناولها الفقيه مؤيد الدين الشيرازي في مجالسه على سعة إطلاعه، وعلمه بالمذهب، وبآراء الفرق الإسلامية الأخرى والفلسفة، حيث تعرض لمسألة الإمامة والتوحيد والتأويل، وتصدى للرد على المعتزلة والسنة،

---

(1) كان داعي الدعاة قاضي القضاة مرتبة ويتزيا بزيه ويشترط أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت، ومن مهامه أخذ العهود على من ينتقل من مذهبه لمذهبهم، وكان تحت أمرته اثنا عشر نقيباً، ولهم مكان يجتمعون به اسمه دار العلم. انظر: المقريزي، الخطط، مج2، ص 305؛ الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 57.

(2) مؤيد الدين الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 56؛ المقريزي، الخطط، مج2، ص 306-307.

(3) هو المؤيد في الدين هبة الله بن موسى ولد بشيراز عام 390هـ/999م من أسرة اتخذت التشيع ديناً لها والفاطمية مذهباً، وكان والده داعي الدعاة للمذهب الفاطمي بشيراز، دخل مصر زمن المستنصر، وتمكن من مقابلة الخليفة المستنصر عام 439هـ/1047م ثم تولى ديوان الإنشاء، ثم اتصل بالبساسيري فزادت شهرته، وبعد عودته لمصر، ولاه المستنصر منصب داعي الدعاة. انظر: الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 4-49.

(4) الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 60-61 الشيرازي، مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية، ص 17-18؛ السيد، الدولة الفاطمية، ص 582؛ حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص 452.

ورد على الفرق الإسلامية الأخرى[1]، وتعكس ثقافة الشيرازي وفكره صورة واضحة عن مظاهر الحياة الفكرية وتنوعها وازدهارها، بحيث لا تقل عن النشاط الفكري الذي كان سائداً في بغداد ودمشق وبيت المقدس مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلاف المذهبي بين مصر والشام.

لم يحل النشاط الفكري في مصر والشام دون وجود صراعات فكرية بين علماء السنة أنفسهم أو بين السنة والشيعة، إذ تعرضت الحياة الفكرية للمشرق الإسلامي في النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لصراعات مذهبية متعددة كان في مقدمتها ذلك الصراع بين الحنابلة والأشاعرة، الذي امتد 461-470هـ/1068-1077م[2].

ففي عام 461هـ/1068م وقعت فتنة ابن عقيل[3]، إذ نقم الحنابلة على شيخهم واتهموه بالاعتزال لتردده على شيوخ المعتزلة، وقراءته علم الكلام سراً، ولم تنته هذه الفتنة إلا بقدوم الفقيه ابن عقيل لديوان الخليفة العباسي عام 465هـ/1072م، وإعلان توبته من الاعتزال[4].

وشهدت هذه الفترة فتنة مماثلة بين الحنابلة والأشاعرة عرفت بفتنة ابن القشيري[5]، وذلك على أثر قيام الفقيه الشافعي أبي نصر القشيري بذم الحنابلة أثناء

---

(1) الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ، ص 60-62.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 181-182؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 270؛ الرحموني، الجهاد، ص 74.

(3) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد، كان فقيهاً ومناظراً، قيل أن أصحابه نقموا عليه لتردده على علي بن الوليد، وابن التبان شيخي المعتزلة، توفي عام 513هـ/1119م. ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 179-182؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 142-162.

(4) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 144.

(5) عبد الرحمن بن عبد الكريم، كان عارفاً بالفقه والحديث والأدب والشعر، وعظ ببغداد وأظهر مذهب الاشعري، وقامت الفتنة بينه وبين الحنابلة، توفي عام 514هـ/1120م. ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 190؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 205-208.

تدريسه بنظامية بغداد عام 469هـ/1076م وسانده في ذلك عدد من فقهاء الشافعية[1]. وقد تطور هذا الصراع بانتقاله للعامة، ووصل إلى حد القتال بين أنصار المذهبيين[2]، وكان لهذه الفتنة تأثيراتها الجانبية على العلماء حتى أن الفقيه أبا إسحاق الشيرازي عزم على الخروج من بغداد حتى رده الخليفة، وخاف من تشنيع الشافعية عليه فطلب حسم الخلاف بإحضار أعيان المذهبين الشافعي والحنبلي لمجلسه وأصلح بينهما[3]، وتكرر هذا الصراع مرات عديدة منها ما كان عام 475هـ/1082م[4].

لم يكن هذا الصراع المذهبي مقتصراً على العراق وحدها بل اتسع ليمتد إلى الشام ليصبح أحد معوقات الحياة الفكرية فيها، فقد ذكر ابن عساكر (ت571هـ/1175م) أن القاضي أبا عبد الله البلاساغوني الحنفي[5]، كان مغالياً في مذهبه، وحين تولى القضاء بدمشق أراد نصب إمام حنفي بجامع دمشق، فما كان من أهل دمشق إلا أن امتنعوا عن الصلاة خلفه، وبلغ من شدة مغالاته أنه كان يقول "لو كانت لي الولاية لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية" كما كان مبغضاً لأصحاب مالك أيضاً[6].

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 181-182؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 270.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 181-182؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 27.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 181-182، لمزيد من التفاصيل عن الصراع المذهبي في هذه الفترة. انظر: دجاني، زاهية (1971). المدارس النظامية، مجلة العربي، الكويت، ع(151)، ص 167 وما بعدها.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 288.

(5) محمد بن موسى التركي، المعروف باللامشيّ، ولي قضاء بيت المقدس ثم قضاء دمشق، توفي عام 506هـ/ 1112م. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج56، ص 75-76؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص175.

(6) تاريخ مدينة دمشق، ج56، ص 75-76.

بقي هذا الصراع ملازماً للحياة الفكرية في الشام حتى النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والقرن الذي يليه، وظهر ذلك من خلال مؤلفات علمائهم فبرز عند الإمام الحافظ[1] ابن عساكر في كتابه: "تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الاشعري"، خصصه للدفاع عن الأشاعرة مبيناً فضلهم ودورهم في العلم[2]، حيث أورد فيه أسماء عدد كبير من أنصار الإمام أبي موسى الأشعري[3]، وتضمن هجوماً واضحاً على الحنابلة[4]، لينتهي من كتابه بالقول: "فمن ذم بعد وقوفه على كتابي هذا حزب الأشعري فهو مفتر كذاب عليه ما على المفترى"[5]. وقد رأى أحد الباحثين[6] في هذا الصراع قبيل الحروب الفرنجية تأثيراته الواضحة على الإنتاج الفكري، والذي تمثل بانحصارها ضمن جهود المذهب، وحال دون التفاعل الفكري مع المذاهب المختلفة.

وعلى الرغم من بروز عدد كبير من العلماء خلال هذه الفترة، إلا أن مصنفاتهم لم تسعفنا كثيراً في الكشف عن مشاكلهم، وسلبياتهم وعلاقتهم بالسلطة في ذلك العصر، ويعد الغزالي (505هـ/ 1111م) أكثرهم جرأة في الكشف عنها، وبالرغم من أنه لم يكن من أهل الشام، ولا مصر، إلا أنه نزل الشام ودرس بها، وعاصر كثيراً من أحداثها السياسية والفكرية، فشهد الأزمة بين الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية، ولم يكن رحيله عن بغداد إلا ردّة فعل على مجتمع منهار

---

[1] أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله، لا يوجد أحد من أجداده يسمى ابن عساكر، وإنما هي شهرة، ولد عام 499هـ/1105م، سمع الحديث بدمشق وبمدن كثيرة، كما تفقه بدمشق وببغداد إلا أنه برع في الحديث واشتهر به، فكان محدثاً الشام في وقته، صنف فيه تصانيف كثيرة وخرج التخاريج، توفي عام 571هـ/1125م بدمشق. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 309-311؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 215-223.

[2] ابن عساكر، تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص 126-128، 317-318.

[3] ابن عساكر، تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص 209 وما بعدها.

[4] ابن عساكر، تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص 335.

[5] ابن عساكر، تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص 317؛ خضير، جبر سليمان، (1994)، الحروب الصليبية من خلال الشعر في مصر والشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ص 42.

[6] عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص 19.

سياسياً ودينياً وأخلاقياً، ويتحمل العلماء والسلاطين -برأيه- دوراً فيه[1]، وقد نجح في إبراز جوانب هامة متعلقة بالحياة الفكرية ومنها تلك المتعلقة بالعلماء حين انصاعوا للسلطة الحاكمة، وسعوا وراء الجاه والمال، مما جعله يسعى لتجديد هذا الدين، فألف كتابه إحياء علوم الدين[2]، وصف فيه علماء عصره بعلماء السوء[3].

عمد الفاطميون منذ دخولهم دمشق عام 359هـ/969م إلى إظهار طقوسهم وشعاراتهم الشيعية في الشام، واستمروا في إظهارها أكثر من مائة سنة فأمروا بالأذان، وزادوا عليه "حيّ على خير العمل" في دمشق، وأظهروا لعن الشيخين، وكتبوها على أبواب الجوامع، وقد بقيت حتى مجيء نور الدين زنكي وصلاح الدين[4]، وقد سجلت المصادر التاريخية كثيراً من الصدامات بين المذهبين السني والشيعي في الشام، منها ما كان في عام 450هـ/1058م، وبعد دخول الإمام أبي بكر الخطيب لدمشق، وقيامه بتدريس الحديث فيها، وذكره بعض فضائل بني العباس، فثارت عليه الروافض من أتباع الفاطميين وأرادوا قتله، لولا شفع له فدعاه ذلك للخروج من المدينة[5]. ومما يدل على تكرار هذه الصدامات، ما حدث في دمشق أثناء إمارة أمير الجيوش بدر الجمالي حيث جرت فتنة احترق فيها الجامع الأموي وقصر الإمارة[6].

تعددت الصراعات المذهبية في الشام إلا أنها كانت أكثر وضوحاً في مدينة حلب حيث كان لأكثريتها الشيعية دور هام في زيادة نفوذهم فيها، فرفعوا أذان الشيعة فيها[7] مما أثار الصراع المذهبي وبشكل مستمر، وبدأ رفض الشيعة الالتزام

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص16-35؛ الرحموني، الجهاد، ص 82-83.
(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص 1.
(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص 68-69.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص 266-267.
(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 102.
(6) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 53.
(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 159-160؛ الشيخ خليل، أسماء، (1995). حلب خلال الفترة من (491-522هـ/1099-1227م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ص 31-32.

بطقوس السنة، ورفع الدعوة للعباسيين بعد مراسلة السلطان ألب أرسلان لهم، ووعدهم له بإقامة الخطبة للإمام القائم والسلطان ألب أرسلان من بعده سنة 462هـ/1069م حتى أن بعضهم رفض الصلاة بالمسجد حتى جمعهم محمود بن نصر بن صالح المرداسي أمير حلب، وبيّن لهم ضرورة القيام برفع شعار العباسيين، بقوله لهم: "قد ذهبت دولة المصريين، وهذه دولة جديدة، ومملكة سديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة..." [1].

ظهرت آثار هذا الصراع من خلال سيطرة الشيعة على مراكز الحياة الدينية في المدينة كالمساجد والمشاهد، حتى أن أذان الشيعة بقي حتى مجيء نور الدين زنكي[2]، كما كان لهذا الصراع أثره على هيبة العلماء بحيث صاروا ألعوبة بيد السلطة السياسية، فهذا الأمير رضوان بن تُتُش يعزل قاضي المدينة لقطعه خطبة العباسيين وإقامتها للفاطميين، ثم يعيده مرة أخرى للقضاء بعد إعادتها للعباسيين[3]، مما كان له تأثيره على الناحية الفكرية.

برز الخطر الشيعي فكرياً وسياسياً مع بداية النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ضد دولة الخلافة السنية ودولة السلاجقة، ففي العراق تمكن أبو الحارث البساسيري وبمساعدة داعي الدعاة المؤيد هبة الله الشيرازي من الدعوى للخليفة المستنصر على منابر بغداد، ورفع شعار الشيعة "حي على خير العمل"[4]، وظهر الخطر الفكري للشيعة في الشام من خلال إقامتهم لدار العلم بطرابلس لجعلها قاعدة دينية لنشر مذهبهم[5]، إلا أن هذا الخطر شهد تفاقماً أكبر مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث شهدت

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 260؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 239.

(2) الشيخ خليل، حلب خلال الفترة من (491-522هـ/1099-1127م)، ص 32.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج12، ص 28.

(4) الشيرازي، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص 40-43.

(5) ؛ تدمري، الحياة الثقافية في طرابلس، ص 44.

الدعوى الإسماعيلية انتشاراً واضحاً في إيران على يد الحسن بن الصباح[1]، بعد عام 479هـ/1086م من خلال دعوته للخليفة المستنصر في خراسان، ثم اتسعت نشاطاته، وتمكن من السيطرة على قلاع عدة أبرزها قلعة ألموت التي اتخذها مستقراً له[2]، وأخذ ينفذ مخططاته ضد السلاجقة وخاصة المعروفين بمعارضتهم للشيعة حتى تمكن بواسطة أتباعه من اغتيال الوزير نظام الملك الطوسي عام 485هـ/1092م[3].

وازداد خطر هذه الفرقة الباطنية فكرياً وعسكرياً بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عام 487هـ/1094م ومبايعة الوزير الأفضل للمستعلي بالخلافة، واستبعاد أخيه الأكبر نزار بن المستنصر[4]، إذ شهدت الدولة الفاطمية انشقاقاً داخلياً وخارجياً، وكان الانشقاق الخارجي أكثر خطراً حيث قام الحسن بن الصباح وأتباعه بالدعوة لنزار رافضيين الاعتراف بالخليفة الجديد المستعلي بالله، ومنها حصل الانقسام بين إسماعيلية المشرق في بلاد فارس[5]، فأخذ الحسن بن الصباح وأتباعه بالدعوة واستمروا على ذلك حتى بعد مقتله عام 488هـ/1095م[6].

---

(1) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 97؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج3، ص 328-330؛ لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ص 52-58.

(2) المقريزي، المقفى الكبير، ج3، ص 328-329، وعن خطر الشيعة على السلاجقة انظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 47-49؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 323-324، حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، ص 106.

(3) هو أبو علي الحسن بن علي، ولد بطوس، اشتغل بالحديث والفقه كان وزيراً للسلطان ألب أرسلان وولده ملكشاة، كان مجداً بالعلم والعلماء. ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 302-307، الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 139-142، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 66-67..

(4) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 59-61؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص 1.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 371-372؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 57-97؛ لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية)، ص 49؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 132.

(6) المقريزي، المقفى الكبير، ج3، ص 330-331.

كان الحسن بن الصباح المحرك الأول لهذه الدعوة المنفصلة عن الدعوة الإسماعيلية في القاهرة، والتي أطلق عليها بعض الباحثين الدعوة الإسماعيلية الجديدة، إذ اعتبر حسن بن الصباح نفسه ممثلاً للإمام، وإن الناس لا خيار أمامهم لاختيار إمامهم، وفي قولهم هذا مخالفة للمذهب السني ثم تطورت هذه الحركة حتى أصبحت سلاحاً فاعلاً في يد المعارضة الثورية السرية[1]، وأخذت تمارس أعمالها واغتيالاتها حتى أصبحت خطراً واضحاً على الاتجاه السني متمثلاً بنقضها الأسس النظرية للخلافة العباسية[2]. مما ساهم في إحداث صراع مذهبي بين أصحاب المذهبين السني والشيعي، وقد تصدى الإمام أبو حامد الغزالي لهذه الفرقة من خلال مناظراته معها ومؤلفاته حيث اجتمع بأصحاب الحسن بن صباح وناظرهم، وألف كتابه للخليفة المستظهر والذي يعرف بالمستظهري رداً على الباطنية[3].

ولم يقتصر الخطر الذي كانت تشكله فرقة الإسماعيلية على بلاد فارس وحدها بل امتد نفوذها للشام، وتحديداً حلب حيث لاقت أرضاً خصبة هناك، فقد سمح لها الملك رضوان بن تُتُش صاحب حلب ببث دعوتها، فمارس الباطنية هناك نشاطاً واسعاً، وساندهم الملك رضوان نفسه، واستغل ضعفه السياسي باللجوء إليهم لتنفيذ مخططاته والتخلص من أعدائه[4].

أما فيما يتعلق بالاتجاه السني الذي كان يتزعمه السلاجقة آنذاك فلم يقف صامتاً إزاء الخطر الذي يشكله الفكر الشيعي على دولتهم، فرأوا أنه لابد من وقفه والتصدي له، ومن هنا جاء التفكير في إنشاء المدارس النظامية كجزء من السياسية

---

(1) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 97.

(2) الرحموني، الجهاد، ص 76.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 126؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 48-49؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج3، ص 330.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 358-364، 371؛ لويس، الدعوى الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية)، ص 113-118.

العامة التي اتبعها السلاجقة لمقاومة الفكر الشيعي[1]، ويعود الفضل في إنشائها للوزير السلجوقي نظام الملك أبي علي الطوسي[2]، وقد اشتهر من هذه المدارس المدرسة النظامية ببغداد والتي شرع في بنائها سنة 457هـ/1064م، وابتدأ التدريس فيها عام 459هـ/1066م[3]. واشتهر من مدرسيها أبو إسحاق الشيرازي[4]، وأبو نصر الصباغ[5]، وأبو بكر الشاشي[6]، والكيا الهراسي[7]، كما درس بها الإمام أبو حامد الغزالي[8].

تميزت المدارس النظامية باشتمالها على معظم المواد الدراسية، وأهمها الفقه وأصول الفقه للمذهب الشافعي والحديث، والآداب، والتاريخ، وعلم الفلك،

---

(1) بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 176، عبد الله، سامية توفيق، (1998). المدارس النظامية وأثرها الثقافي في العصر السلجوقي، مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ج2، (ع16)، ص 121. دجاني، المدارس النظامية، ص 167.

(2) الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص 139-142؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج2، ص 129.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 91؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 225-231؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج2، ص 130.

(4) إبراهيم بن علي بن كان شيخ الشافعية، قدم بغداد عام 415هـ/1024م فسمع الحديث وتفقه فيها حتى أصبح إماماً في الفقه والحديث، توفي عام (476هـ/1083م). ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 228-229.

(5) هو عبد السيد محمد بن عبد الواحد، ولد ببغداد وبرع في الفقه حتى كان يدعى فقيه العراق، أول من درس بالنظامية، توفي عام 477هـ/1084م. انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 237.

(6) محمد بن أحمد بن الحسين ولد بميافارقين، كان إماماً حافظاً دخل بغداد ولازم أبي إسحاق الشيرازي، ثم أصبح مدرساً بالنظامية وبقي حتى وفاته عام 507هـ/1113هـ. السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 70-72.

(7) هو أبو الحسن علي بن محمد، أصله من طبرستان، كان فقيهاً ومدرساً ومفتياً، ومناظراً، توفي عام 504هـ/1110م. ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 122؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 231-233.

(8) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 191-201.

وعلم الطب، ومواضيع أخرى، إلا أنها تركز على تدريس العلوم الدينية، كـالقرآن وتفسيره والفقه، ولا سيما المذهب الشافعي الأشعري السني[1].

ساهمت المدارس النظامية مساهمة فاعلة في نشر الثقافة وازدهارها في العالم الإسلامي، وظهر ذلك واضحاً في بلاد فارس، ومصر وسوريا حتى صارت مراكز إشعاع للعلم[2]. كما ساهمت في تخريج أفواج متميزة من العلماء والفقهاء، والأدباء والشعراء والمؤرخين والقضاة وكتاب الدواوين[3] الذين كان لهم دور كبير في إحياء الفكر السني، وقيادة حركة الجهاد زمن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، برز منهم عماد الدين الكاتب الأصفهاني[4]، وبهاء الدين بن شداد[5]، وغيرهم.

---

(1) الدجاني، المدارس النظامية ص 168، عبد الله، المدارس النظامية، ص 122.

(2) بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ص 39-40.

(3) انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 216-217- 301؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 30؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 189-190؛ دجاني، المدارس النظامية، ص 169.

(4) محمد بن محمد بن حامد المعروف بعماد الدين الكاتب، كان فقيهاً وعالماً بالخلاف الأصول والنحو اللغة والتواريخ، ولد بأصبهان عام 519هـ/1125م، ثم قدم بغداد وتفقه فيها، اشتغل بالأدب وبرع في الإنشاء، توفي عام 597هـ/1200م. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 42؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص 147؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج1، ص 178-183.

(5) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، ولد بالموصل عام 539هـ/1144م، حفظ القرآن منذ صغره، ثم اشتغل بالحديث والفقه ثم ارتحل لبغداد وعمل معيداً بالنظامية، عام 566هـ/1170م، أصبح فيما بعد قاضياً بحلب وتوفي عام 632هـ/1234م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص 85-88.

الفصل الأول

دور العلماء في التعليم أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي) لمصر وبلاد الشام

أولاً: مساهمات علماء السنة في العهدين الزنكي والأيوبي في مقاومة الفكر الشيعي (الإسماعيلي).

ثانياً: المدارس في العهدين الزنكي والأيوبي ومساهمة علمائها في إحياء الفكر السني.

ثالثاً: العلوم الدينية ودورها في التعبئة للجهاد.

رابعاً: مساهمات آل قدامة (المقادسة) في التعليم أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي).

خامساً: الدور التعليمي لأسرة شيخ الشيوخ.

سادساً: أهمية العلماء ومكانتهم أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي) لمصر وبلاد الشام في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية.





أولاً: مساهمات علماء السنة في العهدين الزنكي والأيوبي في مقاومة الفكر الشيعي (الإسماعيلي):

كان للانقسام السياسي والمذهبي في مصر والشام دور كبير في تسهيل مهمة الفرنج بغزو المشرق الإسلامي، واحتلال أجزاء منه. وقد استلزمت مقاومة الغزو بداية التغلب على هذا الانقسام المذهبي تمهيداً لتحقيق الغاية الأساسية المتمثلة بالمقاومة العسكرية ودحر الغزاة، ومن هنا جاءت أهمية التصدي للفكر الإسماعيلي في مصر والشام.

شكلت محاولات الملك نور الدين زنكي في حلب[1] ودمشق[2] وصلاح الدين في مصر[3] أبرز المحاولات الجادة التي اتخذت في هذا الاتجاه، إذ افتقرت الجهود السابقة إلى الجدية والفاعلية.

تبلورت حركة إحياء الفكر السني بين السلطة السياسية وأصحاب الرأي والفكر، إذ ساهم علماء السنة في مصر والشام مساهمة فاعلة في هذه الحركة، من خلال تصديهم للتشيع، وتشجيع الفكر السني من خلال التدريس في المدارس التي أنشئت لهذا الغرض.

اتبع الملك نور الدين محمود في حلب خطوات واضحة تمثلت بصورة بارزة بإلغاء بعض الشعائر، وإنشاء المدارس السنية. وقد بدأ العمل بمحاربة الشعائر الشيعية سنة 543هـ/1148م في حلب، وذلك بإلغاء عبارة "حي على خير

---

(1) انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص301؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج41، ص341؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص199. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص504-505.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص202؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص607-608.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص243؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج5، ص69؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص234. المقريزي، الخطط، مج4، ق1، ص87.

العمل" من الآذان عندهم. ونهيهم عن سب الصحابة على المنابر[1]. ومن أبرز العلماء مساهمة في هذا الجانب الفقيه برهان الدين البلخي الحنفي[2]، من خلال رفعه لآذان السنة بدلاً من آذان الشيعة، أثناء تدريسه بالمدرسة الحلاوية، التي أنشأها نور الدين لهذه الغاية، وأوكل أمر التدريس فيها إليه، وصادف أنْ سمع الفقيه أبو الحسن البلخي آذان الشيعة المعهود أثناء إلقائه لبعض الدروس وحوله الفقهاء، فما كان منه إلا أن أمر الفقهاء بوقفه بالصعود إلى المنارة وقت الآذان، والتأذين فيها بالآذان المشروع على مذهب أهل السنة، وتهديد كل من يرفض ذلك بقوله: "من امتنع كبوه على رأسه" ففعلوا ذلك[3]. وبدا واضحاً من إجراء الفقيه البلخي هذا أنه كان يحظى بدعم من الملك نور الدين، إذ لم يكن ما أقدم عليه سهلاً في ظل الأكثرية الشيعة التي تعيشها مدينة حلب، وهذا يعكس مدى التعاون القائم بين السلطتين السياسية والدينية.

واجهت الدولة الزنكية، والدولة الأيوبية العديد من المعوقات، فقد حاول الشيعة مراراً عرقلة جهود نور الدين في حلب، كان أولاها في عام 554هـ/1159م مستغلين فرصة مرضه، وسيطرة أخيه أمير ميران[4] على حلب، فحاولوا إعادة ممارسة طقوسهم من جديد، وتمثل ذلك بالسماح لهم بإعلان أذانهم المعهود[5]. ولكن الملك نور الدين تمكن من إحباط محاولتهم هذه بعد شفائه، وإعادة

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص301؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص199؛ النقر، القوى الفاعلة في المجتمع في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص124.

(2) أبو الحسن علي بن الحسن، كان واعظاً ومحدثاً ومناظراً وفقيهاً، كان يلقب بالبرهان البلخي، كما عُرف بإمام الحرم، نزل دمشق ودرس بمدارسها توفي عام 548هـ/ 1153م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص276؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص109.

(3) المقريزي، الخطط، مج4، ق1، ص86.

(4) هو أمير ميران بن زنكي، توفي سنة 560هـ/1164م. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص8، ص252.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص486.

سيطرته على البلاد، وطلب من قاضي حلب أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة[1] رفع الآذان المشروع والمعمول به على طريقة أبي حنيفة، والصلاة بالناس بجامع حلب، وتم له ذلك على الرغم من محاولة بعض الشيعة إثارة الفوضى، ورفض الالتزام بذلك، ولكنهم لم يجدوا مناصاً من الالتزام بأذان أهل السنة، بعد أن هددهم القاضي ابن أبي جرادة بالملك نور الدين محمود[2]، وهذا يؤكد جدية الخطوات الهادفة لمقاومة الفكر الشيعي في حلب.

تركت سياسة نور الدين زنكي في حلب آثاراً سياسية سلبية بعد وفاته، تمثلت برفض الشيعة لها، ومحاولتهم إثارة الفتنة الطائفية، حيث تحزب الناس وانقسموا إلى قسمين: أهل السنة ويتبعون بني الداية[3]، الذين عرفوا بتعصبهم ضد الشيعة، في حين كان القسم الثاني من الشيعة يتبعون القاضي أبا الفضل بن الخشاب[4]، وقد تبع هذا الانقسام اضطرابات وأحداث دامية بين الطرفين[5]، كان علماء السنة أكثر المتضررين منها، حيث نُهب بيت العالم قطب الدين العجمي[6] بالقرب من المدرسة الزجاجية، وقُتل مُقرئ المدرسة الزجاجية ومحدثها الشيخ أبو

---

(1) هو القاضي هبة الله بن القاضي، أبي غانم محمد بن القاضي أبي الفضل هبة الله، ولد سنة 499هـ/ 1105م، كان راوية للحديث وفقيهاً تولى الخطابة والإمامة بالمسجد الجامع بحلب، توفي عام 562هـ/1166م. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص28-33.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص487-488.

(3) كان شمس الدين علي يتولى أمور الجيش والديوان، بينما كان بدر الدين حسن يتولى الشحنكية. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص216؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص505. وعن أولاد الداية ومكانتهم في حلب انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص231-232.

(4) قاضي حلب واحد وجهائها، قتل عام 570هـ/1124م في قلعة حلب على يد أحد أمراء الملك الصالح إسماعيل. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص217.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص216-218. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص516. الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج2، ص78-79.

(6) هو الحسن بن عبد الله بن طاهر كان محدثاً بحلب، ومن كبار وجهائها كما تولي أوقاف المسجد الجامع بحلب، توفي عام 588هـ/1192م. ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج5، ص2431.

العباس المغربي[1]، مما يعني استهداف هذه المدرسة والقائمين عليها، كما يؤكد الدور الهام الذي مارسه هؤلاء العلماء في إحياء الفكر السني، ومقاومة الفكر الشيعي زمن الملك نور الدين زنكي.

تكررت محاولات شيعة حلب لإعادة نفوذهم وممارسة طقوسهم في عهد الملك الصالح ابن نور الدين زنكي، إذ ذكر المؤرخ الشيعي ابن أبي طيء، أنهم اشترطوا عليه مقابل إعلان ولائهم السياسي له، السماح لهم بممارسة بعض طقوسهم[2]، والجهر بـ "حي على خير العمل" في الآذان[3]. كما حاول الملك الصالح استمالتهم عن طريق تحريضهم على صلاح الدين الأيوبي، أثناء دخوله حلب سنة 570هـ/1174م فأعلنوا طاعتهم له على شروط يشترطوها عليه، وهي التي ذكرها ابن أبي طيء في روايته السابقة[4]. وتعاقبت محاولاتهم ثانية في مصر للنيل من السلطان صلاح الدين الأيوبي على إثر المؤامرة التي دبروها ضده[5].

أما فيما يتعلق بالجهود المبذولة لمقاومة الفكر الإسماعيلي في مصر فقد تجلت مظاهرها بعد استقرار الأيوبيين فيها، على إثر الحملات المتكررة التي أرسلت إليها[6]، والتي كان للملك نور الدين محمود فيها دور مؤثر من ناحيتين:

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص516.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص288.

(3) أبو شامة (رواية ابن أبي طيء)، الروضتين، ج2، ص288؛ الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ص82.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص289.

(5) سترد التفاصيل كاملة حول هذا الموضوع في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

(6) قام نور الدين زنكي بتوجيه ثلاث حملات لمصر بقيادة الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الحملة الأولى عام 559هـ/1163م. والثانية عام 562هـ/1166م، والثالثة عام 564هـ/1168م، وللمزيد من التفاصيل عن مجريات هذه الحملات وأسبابها. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 40-63؛ ابن واصل مفرج الكروب، ج1، ص137-163؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج5، ص57-65.

الأولى أن هذه الحملات التي سُيرت بقيادة أسد الدين شيركوه كانت بتوجيه شخصي منه بهدف تضييق الخناق على الفرنج في بيت المقدس أولاً، وإحياء الفكر السني ثانياً[1]، والثانية من خلال إلحاحه المستمر على صلاح الدين بقطع الخطبة للفاطميين[2].

وظهر اهتمام السلطان صلاح الدين وسعيه لمقاومة الفكر الإسماعيلي في مصر منذ أن كان وزيراً للخليفة[3] الفاطمي العاضد إذ كان مناصراً لمذهب أهل السنة ضد الشيعة لقول ابن شداد: "وهذا كله وهو وزير متابع للقوم، ولكنه مقو لمذهب السنة، غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين"[4]. فأبطل من آذان الشيعة: "حي على خير العمل" وأحل محله آذان أهل السنة. وكان ذلك سنة 566هـ/ 1170م[5]. ثمّ كانت خطوته الثانية لمقاومة الفكر الإسماعيلي في العام نفسه بعزله لقضاة الشيعة في مصر[6]، وتفويض أمر القضاء للقاضي الشافعي

---

[1] أبو شامة، الروضتين، ج1، ص350-351، 356، ج2، ص7-8؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص228.

[2] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص156؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص120؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص355.

[3] تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة بمصر في 22 جمادى الآخرة من سنة 564هـ/1168م بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وزير مصر من قبل الخليفة العاضد. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص48.

[4] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص41.

[5] أبو شامة (رواية ابن أبي طيء)، الروضتين، ج2، ص120؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق1، ص 87؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص233؛ السيد، تاريخ مصر زمن الأيوبيين، ص59.

[6] ابن الأثير، الكامل، ج5، ص241؛ سبط ابن الجوزي، ج8، ق1، ص283؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص198؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص233.

صدر الدين بن درباس[1]، واستنابته قضاة شافعية في سائر أعمال مصر[2]. مما كان له دور كبير في انتشار المذهب الشافعي في مصر، وانحسار المذهب الإسماعيلي[3]. وفي هذا تأكيد على جهود السلطان صلاح الدين وعلماء عصره في إحلال الفكر السني بدلاً من الفكر الإسماعيلي. وقد اعتبرت هذه الإجراءات تمهيداً لقطع الخطبة للفاطميين وإعلانها للعباسيين[4] حتى وصفت بأنها انقلاب فكري هدفه القضاء على الفكر الإسماعيلي في مصر[5].

مهّد السلطان صلاح الدين الأيوبي بإجراءاته السابقة لقطع الخطبة للخليفة الفاطمي، إلا أنه أظهر تردّد في إتمامها، وسبب ذلك تخوفه من العسكر المصري، ومن الفتنة التي يمكن أن تثار نتيجة لذلك، مع ما يرافق ذلك من رفض من خضوع

---

(1) هو عبد الملك بن عيسى كان كردياً من الموصل تفقه بحلب. كان قاضياً للغربية من أعمال الديار المصرية، توفي سنة 605هـ/1208م. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص410-411؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 344.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص241؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص197-198؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص233.

(3) يقول ابن واصل: "فاشتهر مذهب الشافعية، واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره ولم يبق أحداً من أهل البلاد يمكنه التظاهر به". ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص197-198.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص120.

(5) بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص230.

لسلطته[1]. ثمة سبب آخر ردده البعض يرجع إلى تخوفه من الملك نور الدين وتمكنه من البلاد إن دخلها مما يعني زوال سلطته وسلطة الأيوبيين منها[2].

جاءت خطوة السلطان صلاح الدين الأيوبي الحاسمة بقطع الخطبة للفاطميين، وإعلانها للعباسيين بعد إلحاح شديد من الملك نور الدين محمود[3] وذلك عام 567هـ/1171م حيث قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وأقامها للخليفة العباسي المستضيء[4].

وأسهم العلماء مساهمة فاعلة في هذه الخطوة الجريئة ضد الشيعة، من خلال الفتاوى التي قدموها للسلطان بتشجيعه على ذلك[5] أو بالتصدي لها، وحسم أمر قطعها على المنبر[6].

تباينت الروايات فيمن قطع الخطبة للفاطميين في مصر، فقيل إنه رجل أعجمي يعرف بالأمير العالم[7]، وقيل أنه رجل من بعلبك يدعى محمد بن المحسن

---

(1) ابن الأثير الكامل، ج9، ص243؛ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص504-505؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص200-201؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص355؛ مؤنس، نور الدين محمود، ص342؛ آرمسترونغ، الحرب المقدسة، ص 296.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص243؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص504-505؛ السيد، الدولة الفاطمية، ص307، وعن عزم نور الدين على الدخول لمصر، وأخذها من صلاح الدين لولا حادثة وفاته 569هـ/1123م. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص223.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص244؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ض120؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص200.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص244-245؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص123؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص69.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج5، ص70؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص343.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص245؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص235.

(7) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص156؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص124؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص200-201.

بن أبي المضاء البعلبكي[1]. لقوله: "أنا أفتح لكم هذا الباب"، فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من محرّم لسنة 567هـ/1171م ودعا للمستضيء، بأمر الله، ولم يُنكر عليه أحد ذلك. وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين بقطعها، وإقامتها للمستضيء في جوامع مصر والقاهرة دون أن يعترض عليه أحد[2]. وثمة إشارة إلى دور العلماء المغاربة في قطع هذه الخطبة إذ يذكر أن العالم اليسع بن عيسى الغافقي الجياني[3] هو الذي قام بقطع الخطبة للفاطميين أثناء خطبة الجمعة.

ورغم تباين الروايات إلا أن الدور الأبرز كان للعالم الأعجمي الذي يرجح أنه هو نفسه نجم الدين الخبوشاني[4]. ومما يؤكد رجاحة ذلك أن الخبوشاني كان أحد الفقهاء الذين استفتاهم صلاح الدين عندما عزم على إزالة الحكم الفاطمي، فكان أكثرهم مبالغة في الفتيا[5] والتصريح بتعداد مساوئ الفاطميين. كما أنه كان من أكثر المتحمسين للقضاء على الحكم الفاطمي قبل دخوله لمصر لقول السبكي فيه:

---

[1] أبو شامة، الروضتين، ج2، ص123؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 571-580، ص110؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص235.

[2] ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص200-201؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص235؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 192-193.

[3] كان محدثاً ومقرئاً للقرآن، رحل لمصر واتصل بالملك صلاح الدين فأكرمه توفي سنة 595هـ/1198م. انظر: ابن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، ص334-335؛ المنوني، محمد، (1998). نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، (ع21-22)، ص 144.

[4] محمد بن الموفق بن سعيد كان فقيهاً صوفياً ورعاً يُنسب لخبوشان وهي بلدة بناحية نيسابور ولد عام 510هـ/1116م، قدم مصر سنة 565هـ/1169م، فأقام بمسجد القاهرة فترة ثم تحول لتربة الشافعي. عمل محدثاً بالقاهرة، توفي سنة 587هـ/1189م. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص172.

[5] السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص14-17.

"وكان الخبوشاني يقول بملء فيه: أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عُبيد اليهودي، فصعدها، وصرح بلعنهم"[1] ووقف أمام المنبر بعصاه، وأمر الخطيب أن يذكر بني العباس ففعل[2].

لم تقتصر جهود صلاح الدين في مقاومة الفكر الإسماعيلي على مصر، بل شملت مدينة حلب، حينما دخلها عام 578هـ/1182م فقام بعزل قاضيها أبي الحسن أحمد بن القاضي أبي الفضل بن أبي جرادة[3]، وعين بدلاً منه القاضي محي الدين بن الزكي[4] قاضي دمشق، كما عزل قضاة الشيعة في المدينة، واستبدلهم بقضاة شافعية[5].

لقد أثمرت الجهود المضنية في محاربة الفكر الإسماعيلي والقضاء على الدولة الفاطمية، فاجتمعت كلمة المسلمين في مصر والشام، وتوحدوا مذهبياً وانضووا تحت راية الخلافة العباسية[6].

ثانياً: المدارس في العهدين الزنكي والأيوبي ومساهمة علمائها في إحياء الفكر السني

---

[1] أبو الفداء، المختصر، ج5، ص70؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص343.

[2] السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص15.

[3] كان محدثاً، عمل خطيباً في حلب في أيام نور الدين زنكي، ثم تولى القضاء في أيام الملك الصالح إسماعيل حتى عام 578هـ/1182م، وهو والد القاضي كمال الدين المعروف بابن العديم، توفي سنة 613هـ/1216م. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص16، ص35-36.

[4] أبو المعالي محمد بن علي القرشي، المعروف بابن زكي الدين، كان ذو فضائل عديدة في الفقه والأدب، وكان له خطب ورسائل، ولد سنة 550هـ/1155م بدمشق، كان قاضياً للقضاة بدمشق سنة 588هـ/ 1192م. توفي سنة 598هـ/1201م بدمشق. أبو شامة، الذيل، ص49-50؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص229-236.

[5] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص35-36.

[6] القزاز، الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير، ص250؛ بوول، صلاح الدين، ص107-108.

شكلت مسألة التعليم جزءاً أساسياً في السياسة العامة التي نهجها الزنكيون والأيوبيون أثناء الصراع الدائر مع الفرنج، وسعت إلى تحقيق هدفين: الأول مقاومة الفكر الإسماعيلي والنهوض بالفكر السني، والثاني تهيئة أبناء الأمة وتعبئتهم تعبئة فكرية تؤهلهم لمقاومة الغزو الفرنجي.

أولى نور الدين زنكي التعليم اهتماماً بالغاً أثناء فترة الغزو، وتركزت جهوده في ثلاثة محاور أساسية: تمثل الأول منها بإنشاء المدارس السنيّة في الشام[1]، والثاني بالاهتمام بالحديث النبوي وبإنشاء الدور الخاصة لتدريسه[2]، في حين ركز الثالث منها على الطائفة الصوفية وشيوخها[3].

اهتم نور الدين محمود اهتماماً كبيراً بالمدارس فأنشأ العديد منها في مدن الشام كحلب، ودمشق وحمص وحماة وبعلبك، ومنبج[4]، حتى قال بعض المؤرخين: "إن الشام كانت خالية من العلم، فأصبحت في عهده مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية"[5]، وربما يعود السبب في تبني هذا الرأي إلى ما لوحظ من كثرة عدد المدارس التي أنشئت في عهده، ونزول عدد كبير من العلماء إليها[6] إضافة لأجواء

---

[1] ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق" ص203، 218، 240؛ وابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص476؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص184-185؛ Elisseeff, Damas et le djihad contre les croises, (Damas), P. 42-43.

[2] أبو شامة، الروضتين، ج1، ص107؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص282.

[3] قال ابن واصل عن سياسة نور الدين تجاه الصوفية: "بنى الربط والخانقاة للصوفية في جميع البلاد وأدر عليهم الإدارات الجليلة الكثيرة، وكان يُحضر مشايخ الصوفية ويقربهم ويدنيهم، ويتواضع لهم". ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص283.

[4] ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص184-185.؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص282؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص35.

[5] ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص35.

[6] ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج66، ص80؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص32-33؛ ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص347-348.

الاهتمام والتشجيع اللذين حظي بهما العلماء في عهده[1]، وكذلك ما قام به رجال دولته من الاقتداء به، وسيرهم على نهجه، بإنشائهم المدارس[2].

وقد برزت أهداف نور الدين محمود واضحة من إنشائه المدارس في الشام أثناء حديث الأمير مجد الدين بن الداية إلى الفقهاء في حلب- بلسان نور الدين محمود- على أثر خلافات فقهية بينهما لقوله: "نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة، وإظهار الدين"[3]. وحمل كلامه معنيين اثنين: أولهما مرتبط بالشيعة الإسماعيلية وضرورة مكافحة فكرهم، والثاني مرتبط بالمذاهب السنية وضرورة نشر العلم والمعرفة عن طريق التعليم بما في ذلك العلوم الدينية.

تركزت جهود الملك نور الدين محمود بداية على إنشاء مدارس في حلب، وكان لذلك أسبابه ودوافعه حيث الأكثرية الشيعية فيها، والحاجة الماسة لنشر الفكر السني فيها، وحشد أكبر عدد من الفقهاء والمحدثين لمقاومة التيار الشيعي وأفكاره[4] فأنشأ المدارس الحنفية والشافعية، واستقطب إليها أشهر علماء عصره، فأنشأ ثلاث

---

[1] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص171؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص263.

[2] لمزيد من التفاصيل عن هذه المدارس: كالأسدية والأكزية. انظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص237، 262؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص153-166.

[3] أبو شامة، الروضتين، ج1، ص117؛ البيطار، أمينة، (1979). التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري، ضمن كتاب الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال مؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته 499-1399هـ، وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ص237.

[4] أشار ابن العديم، إلى أن بدر الدولة سليمان بن أرتق والي حلب حاول بناء مدرسة للسنة سنة 516هـ/ 1122م فكان كلما بنى شيئاً في النهار يهدمونه في الليل حتى أحضر الشريف زهر بن علي بن الحسين وهو من وجهاء البلدة وأمره بمباشرة البناء، حتى انتهى إلى المدرسة المعروفة بمدرسة الزجاجين (ابن العجمي). انظر: زبدة الحلب، ج2، ص407-408؛ ابن الشحنة، تأريخ حلب، ص104؛ الشيخ خليل، حلب خلال الفترة 491-522هـ/1099-1127م، ص164.

مدارس للشافعية وواحدة للحنفية، فأقام المدرسة النفرية للشافعية[1] عام 544هـ/ 1149م بعد استقدام الإمام قطب الدين النيسابوري إليها[2]، من دمشق وتوليته إياها، والمدرسة الشعيبية للشيخ شعيب بن أبي الحسن الفقيه الأندلسي فعرفت باسمه[3] كما استدعى أعلم فقهاء عصره الإمام شرف الدين بن أبي عصرون[4] من سنجار وبنى له مدرسة، وولاه أمر التدريس والنظر فيها، فكان أول من درس فيها فعرفت باسمه (العصرونية)[5]، ومما يدل على أهمية هذه المدرسة ودورها مكانة العلماء الذين تخرجوا منها ومن أبرزهم الفخر بن عساكر[6].

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص276؛ ابن الشحنة، تأريخ حلب، ص106-107.

(2) هو أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود تفقه بنيسابور، ومرو حتى أصبح من كبار الفقهاء وسمع الحديث فيها ودرس في المدرسة النظامية بنيسابور واشتغل بالوعظ ثم جاء دمشق سنة 540هـ/1145م، فعقد مجلس للتذكير وحصل له قبول وتولي التدريس بالمدرسة المجاهدية ثم بالزاوية الغربية ودرس في الجاروخية، ثم خرج لحلب للتدريس فيها ثم رجع واستوطن دمشق توفي سنة 578هـ/1182م؛ سبط ابن الجوزي، ج8، ق1، ص372-373؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 291؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص313.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص476؛ ابن الشحنة، تأريخ حلب، ص107.

(4) هو سعد بن عبد الله بن أبي السرّي الشافعي، كان من أعيان وفقهاء عصره، ولد بالموصل سنة 493هـ/1099م، وتفقه بها ثم بواسط ثم بغداد، وأقام بسنجار مدة ثم انتقل لحلب سنة 545هـ/1150م فدمشق، درس بالزاوية الغربية في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع لحلب، تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران ودمشق، كما تولى القضاء في عهد صلاح الدين، وتوفي سنة 585هـ/1189م بدمشق. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص53-54؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج2، ص132-133. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص333-334؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر "قسم شعراء الشام"، ج2، ص 351-354.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص476؛ ابن الشحنة، تأريخ حلب، ص105.

(6) عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ولد سنة 550هـ/1155م، اشتغل بالفقه منذ صغره وانفرد بالعلم والفتوى بالمدرسة الجاروخية ثم تولى التدريس بالتقوية، حتى عُرفت في عهده بنظامية الشام، ولما عزم العادل بن أيوب على بناء مدرسته جعلها للشيخ الفخر الذي كان مدرساً للحديث بالإضافة للفقه.

أما المدرسة الحنفية فأنشأها في حلب عام 554هـ/1149م والتي عرفت بالحلاوية وقد أوكل أمر التدريس فيها للفقيه الحنفي برهان الدين البلخي[1] بعد استدعائه من دمشق لما اشتهر به من علم ومكانة في الشام[2] فكان له ولفقهاء مدرسته فضل كبير في مناهضة الفكر الإسماعيلي[3]. كما درس فيها بعد ذلك علماء أفاضل كالإمام الكاساني[4] والإمام رضي الدين السرخسي[5].

وثمة علماء آخرون لعبوا دوراً كبيراً في إحياء الفكر السني في حلب، ذكر منهم ابن عساكر الفقيه الحافظ الأندلسي أبا الحسن المرادي القرطبي الشقوري[6] الذي اشتهر بتميزه في التدريس وصلابته في السنة، وقد اشتغل في حماة ثم في حلب بمدرسة ابن العجمي وبقي مدرساً فيها حتى وفاته 544هـ/1149م[7].

كانت وفاته سنة 620هـ/1223م. انظر: أبو شامة، الذيل، ص206-210. الكتبي، فوات بالوفيات، ج2، ص290.

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص476؛ ابن الشحنة، تأريخ حلب، ص94-101.

(2) انظر: المدارس التي درس بها البلخي وهي الطرخانية، والبلخية، والصادرية. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص200-202.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص476؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص267؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص105-110.

(4) أبو بكر بن مسعود بن أحمد، كان فقيهاً، عالماً فوض إليه نور الدين التدريس بالحلاوية ثم التدريس بزاوية الحديث بجامع حلب، توفي عام 587هـ/1191م بحلب. انظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص119-122.

(5) هو أبو عبد الله محمد بن محمد، أقام بحلب، وألف كتاب المحيط، كان من كبار فقهاء الحنفية، قدم حلب ودرس بالمدرسة النورية والحلاوية. ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص476. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص118.

(6) علي بن سليمان، خرج من الأندلس وتفقه ببغداد، قدم دمشق بعد 540هـ/ 1145م كان محدثاً بالصحيحين. السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص244-245.

(7) السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص244.

وعلى الرغم من اعتناق الملك نور الدين للمذهب الحنفي إلا أنه لم يكن متعصباً[1] ودليل ذلك أنه أوقف زاويتين بالمسجد الجامع بحلب لفقهاء الحنابلة والمالكية، كما أوقف زاوية بجامعها لتدريس الحديث[2] مدركاً بذلك أهمية الاستفادة من المذاهب السنية جميعها في نشر الفكر السني.

استمر نور الدين محمود بعد دخوله لدمشق عام 549هـ/ 1154م[3] في سياسته الرامية إلى إحياء الفكر السني فشجع فكرة إنشاء المدارس السنية فيها ببناء المدارس الشافعية والحنفية[4] إلا أن اهتمامه بالمدارس الشافعية لم يرق إلى ما كان عليه في حلب؛ وسبب ذلك أن حلب كانت بحاجة ماسة إلى جهود فقهاء الشافعية والمهتمين بدراسة الجدل وعلم الكلام لمواجهة الشيعة الإسماعيلية مواجهة فكرية تشد أزر المواجهة السياسية ولهذا أكثر من المدارس الشافعية واستقدم نخبة متميزة من الأساتذة للتدريس في حين لم يحفل به في دمشق لأن النفوذ السني غالب فيها[5].

كما أنشأ نور الدين في دمشق مدرستين للحنفية، المدرسة النورية الكبرى سنة 563هـ/1167م[6] والتي أوكل أمر التدريس فيها للفقيه بدر الدين بن عسكر

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص273؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص75.

(2) ابن الشحنة، تأريخ حلب، ص118.

(3) انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص326-327. وقد رحّب أهل دمشق بدخول نور الدين لبلدهم لأوضاعهم السيئة من الغلا والجوع، ولخوفهم من منازلة الفرنج لبلادهم.

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق" ص245؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص407-408.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص117؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص210-211.

(6) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق" ص203؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص282؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص607-608؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص256.

المعروف بابن العقادة[1]، واشتهر من مدرسيها الفقيه مسعود بن شجاع المعروف ببرهان الدين[2]، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى عرفت بالنورية الصغرى[3]، في حين بنى للشافعية العديد من المدارس أوكل أمر التدريس فيها لعلماء كان لهم تأثيرهم ودورهم المميز خلال فترة الغزو الفرنجي فبنى مدرسة للفقيه الشافعي المعروف بأبي البركات الحارثي[4] فكان أول من درس فيها وبقي حتى وفاته 562هـ/1166م[5]، والتي عرفت من بعده بالعمادية لنزول العماد الكاتب الأصفهاني فيها[6]. وقيام نور الدين بتوليته إياها والتدريس فيها عام 567هـ/1171م[7]. كما أنشأ مدرسة نسبت فيما بعد لصلاح الدين وعرفت باسمه (الصلاحية)[8] وأنشأ مدرسة الكلاسة عام 555هـ/ 1160م[9]، وشرع في بناء مدرسة أخرى للشافعية لكنه توفي قبل تمامها عرفت من بعده بالعادلية[10].

---

(1) كان فقيهاً فاضلاً توفي سنة 596هـ/1199م. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص275-276؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص24.

(2) انظر: أبو شامة، الذيل، ص52-53؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص618-619.

(3) النعيمي، الدارس، ج1، ص648.

(4) الخضر بن شبل بن عبد، ولد عام 486/1093م، كان من أكابر الفقهاء عارفاً بالأصول والمذاهب، كتب الحديث ودرس بالزاوية الغربية المعروفة بالغزالية، كما درس بالمجاهدية، بنى له نور الدين مدرسة فدرس بها، كان خطيباً لدمشق. انظر: أيضاً سبط ابن الجوزي، ج8، ق1، ص270-271؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص83.

(5) النعيمي، الدارس، ج1، ص407-408.

(6) كان دخول العماد لدمشق سنة 562هـ/1166. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص148.

(7) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج19، ص13؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص271. النعيمي، الدارس، ج1، ص407-408.

(8) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص245.

(9) النعيمي، الدارس، ج1، ص448.

(10) سميت بالعادلية لقيام الملك العادل سيف الدين بإكمال عمارتها انظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص240؛ ابن كثير، البداية والنهائية، ج12، ص270.

كما أبدى اهتماماً بالزوايا وخاصة للمالكية في المسجد الأموي فقد عين للمغاربة زاوية بالمسجد وأوقف عليها الوقوف الكثيرة[1].

شهدت الفترة التي سبقت عهد نور الدين محمود وإنشائه للمدارس والزوايا اهتماماً بالمدارس لا يمكن إنكاره تمثلت بإقامة العديد منها[2]. وفي هذا دحضاً للفكرة القائلة أن الشام كانت خالية من العلم[3] إلا أننا لم نلحظ الكثير من نشاطاتها وتأثيرها وبهذا لم تكن فاعلة كما هو الحال في عهد نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي.

حظي الحديث النبوي الشريف وتدريسه باهتمام الملك نور الدين زنكي فعمل على تخصيص دار للحديث بعد دخوله دمشق وأوقف عليها وعلى المشتغلين فيها الوقوف الكثيرة، فكان بذلك أو من بنى داراً للحديث بدمشق، عُرفت بدار الحديث النورية[4] وولى مشيختها للحافظ الكبير ثقة الدين المشهور بابن عساكر الدمشقي الشافعي، الذي كان لبراعته ومعرفته التامة بالحديث دور كبير في اختيار نور الدين له، حتى أشار السبكي أن نور الدين بنى له هذه الدار للتدريس فيها إذ كان إماماً في الحديث وحافظاً الشام بأسرها، وبقي مدرساً فيها لا يتطلع لغيرها حتى وفاته[5]، وقد رأى النقر في اهتمام نور الدين بالحديث في هذه الفترة، جزءاً

---

[1] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص257.

[2] من أبرز هذه المدارس: الأمينية، المعينية، المجاهدية، الصادرية، البلخية، الزجاجية الطرخانية، المسمارية، الحنبلية الشريفية. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص200-202، 232؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص407-408؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص178، 452، 588، ج2، ص67، 116.

[3] ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص35.

[4] أبو شامة، الروضتين، ج1، ص107؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص185؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص284؛ البيطار، التعليم في دمشق في القرن السادس للهجرة، ص286. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص35.

[5] السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص223.

من إحياء المذهب السني؛ لأن غالبية الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان رواته من آل البيت أو من أئمتهم[1].

كان للمذهب الإسماعيلي – المذهب الرسمي للدولة الفاطمية – دور كبير في الحد من انتشار الفكر السني في مصر عن طريق المؤسسات الدينية التي أنشأتها الدولة لهذه الغاية[2]، ومع هذا فقد وجدت بعض المحاولات لنشر الفكر السني فيها قبيل دخول صلاح الدين لها، وإسقاطه الدولة الفاطمية وتمثل ذلك بإنشاء عدد من المدارس على يد متنفذي السنة في الدولة الفاطمية، حيث برزت فيها المدرسة الحافظية (العوفية) عام 532هـ/1137م[3]، والمدرسة العادلية عام 544هـ/1149م[4]، وقد أنشئت هذه المدارس في مدينة الإسكندرية التي كانت تشكل مركزاً مهماً للحركة السنية، والمعارضة السياسية للفاطميين[5] إلا أن نشاطها في تلك الفترة بقي محصوراً في الإسكندرية، ولم يترك أثاراً واضحة في مقاومة الفكر الإسماعيلي في القاهرة.

ساهم السلطان صلاح الدين مساهمة فاعلة في إحياء الفكر السني، ومقاومة الفكر الإسماعيلي في مصر من خلال المدارس التي أسسها بعد دخوله إليها، إذ لم

---

(1) النقر، القوى الفاعلة في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص125.

(2) انظر: الفصل التمهيدي من هذه الرسالة.

(3) أنشأها الوزير رضوان بن وخشى (ت542هـ/1147م) وزير الخليفة الفاطمي الحافظ وعهد بالتدريس فيها للإمام أبا الطاهر بن عوف المتوفى عام 581هـ/1185م. انظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص130؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص91؛ السيد، الدولة الفاطمية، ص467.

(4) يعود بنائها إلى علي بن السلار الملقب بالعادل وزير الخليفة الفاطمي الظاهر، بناها للحافظ أبو طاهر السلفي (ت576هـ/1180م)، وخصصت لتدريس الفقه الشافعي. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص361–362؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ج21، ص138؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق1، ص53 (مقدمة المحقق)؛ الشيال، جمال الدين، (1957م). أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر، مج11، ص12-13.

(5) المقريزي، الخطط، مج1، ص473؛ دجاني، القاضي الفاضل، ص69-71.

يكن هناك اهتمام واضح بالمذهب السني ولا بمدارسة نظراً لأن المذهب الإسماعيلي هو مذهب الدولة[1]. وعلى الرغم من الدور الذي لعبته هذه المدارس والهدف الذي أنشئت من أجله، والمتمثل في محاربة الفكر الإسماعيلي وإحياء الفكر السني، إلا أن أهدافاً أخرى ذات أهمية بالغة كانت موضع اهتمام القائمين على إنشاء هذه المدارس في هذه الفترة المتسمة بالصراع الإسلامي الفرنجي وذلك بهدف التأثير على الناس من خلال إعادة صياغة أفكارهم بما يتماشى مع الإسلام وأهدافه، والقيام بعملية تعبئة عامة للجهاد لمواجهة الأخطار التي تهدد الأمة[2].

ولعل ما قام به الأمير معين الدين أنر صاحب دمشق مع ذلك الرجل الأعمى – الذي خرج معه من نابلس إلى دمشق ناقماً على الفرنج وتصرفاتهم – لدليل على دور العلوم الدينية في إعداد الناس للجهاد بقوله لأحد غلمانه: "تمضي به إلى برهان الدين البلخي، رحمه الله، تقول له: "تأمر من يقرىء هذا القرآن وشيئاً من الفقه" فأجاب ذلك الرجل بأنه يطلب النصر والغلبة وقتال الفرنج[3].

كانت الناصرية أولى المدارس التي أنشأها السلطان صلاح الدين في مصر للفقهاء الشافعية، وذلك سنة 566هـ/1170م أي منذ أن كان وزيراً للخليفة الفاطمي

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص197-198. انظر: أيضاً المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص452-453. انظر: قول ابن خلكان عن الأوضاع الفكرية عند دخول صلاح الدين: "ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ..."، ابن خلكان، وفيان الأعيان، مج7، ص206-207. وعن دوافع إنشاء هذه المدارس وخطة صلاح الدين للقضاء على الفكر الشيعي وإحياء الفكر السني. انظر: الشيال، أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية، ص12-13؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 204.

(2) عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص215-216.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 139-140

العاضد[1]، ثم توسع في ذلك عام 572هـ/1176م بعد أن امتدت سلطته للشام[2] فأمر ببناء مدرستين إحداهما للشافعية[3] وأخرى للحنفية هي المعروفة بالسيُوفية[4] أما بالنسبة للمدرسة الشافعية، فقد أنشأها بجوار قبر الشافعي في القرافة أوكل أمر تأسيسها والإشراف عليها للعالم الفقيه نجم الدين الخبوشاني[5] وبلغ من عظمة الدور الذي لعبه هذا العالم في عهد صلاح الدين أن أطلق له الأمر في بناء هذه المدرسة لقوله له: "زد احتفالاً وتأنقاً وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله"[6].

كما أسس صلاح الدين مدرسة أخرى بجوار المشهد المنسوب للحسين بن علي[7] وقف عليه وقوفاً طائلة[8]، وكان هذا المشهد آخر معاقل الشيعة في مصر، ويظهر أن الهدف من إنشاء هذه المدرسة في هذا المكان كان مقصوداً وموجهاً ضد

---

[1] تقع هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق بمصر، وقد عرفت هذه المدرسة بأسماء كثيرة منها: ابن زين التجار (أحد أعيان الشافعية) وعرفت أيضاً بالشريفية. انظر: المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص454-455؛ ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ق1، ص93.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص296؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص232.

[3] أبو شامة، الروضتين، ج4، ص172؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص54؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص453.

[4] انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص206-207؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص460؛ مجهول، تاريخ الخلفاء والسلاطين "مخطوط"، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، رقم 562، (صورة بالميكروفيلم)، و47.

[5] أبو شامة، الروضتين، ج2، ص93-94؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص239-240، ج7، ص206-207؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص54-55؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص459.

[6] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص23.

[7] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص19.

[8] ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص206-207؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج2، ص224.

الشيعة للحيلولة دون استمالة عواطف السنة من خلاله، وبهدف تعليمهم الدين بشكله الصحيح، ومحاربة ما نشره الفاطميون من بدع منذ قيام دولتهم[1].

لم تقتصر جهود السلطان صلاح الدين في مصر على إنشاء مدارس للفقهاء للشافعية فقط بل أقام أخرى للمالكية، فأنشأ في عام 566هـ/1170م مدرسة دار الغزل[2]. وهي التي عُرفت فيما بعد بالقمحية[3].

امتدت جهود صلاح الدين في إنشاء المدارس باعتبارها من الوسائل الهامة لمحاربة الغزو الأجنبي لتشمل بلاد الشام، حيث قام بإنشاء المدرسة الصلاحية[4]. والتي يقال لها الناصرية أيضاً - في بيت المقدس بعد تحريرها من الفرنجة عام 583هـ/1187م. ومما يدل على أهمية هذه المدرسة كثرة الوقوف والجرايات عليها وعلى قرائها[5]. كما دل على ذلك فئة العلماء الذين أوكل إليهم مهمة الإشراف عليها، والتدريس فيها ممن عرفوا بمساهماتهم المتعددة أثناء الغزو الفرنجي، كالقاضي بهاء الدين بن شداد[6]، الذي فوض السلطان إليه أمر التدريس

---

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص19؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص234؛ النقر، القوى الفاعلة في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص136.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص197-198؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص68؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص385. والغزل هي قيسارية يباع فيها الغزل. انظر: ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ق1، ص95؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص455.

(3) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص455؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص243.

(4) عرفت هذه المدرسة بصندحنة، كان فيها قبر حنا أم مريم عليها السلام تم تحولت لدار علم، أثناء الحكم الإسلامي قبل غزو الفرنج وعندما احتل الفرنج بيت المقدس عام 492هـ/1099م حولوها لكنيسة. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، مج2، ص407؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص326؛ العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص88.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص407.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص407؛ العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص177-178.

فيها، والفقيه مجد الدين بن جهبل (ت 596هـ/1199م)[1]، الذي كان أحد المبشرين بفتح بيت المقدس أثناء فتح حلب عام 578هـ/1182م[2].

ويؤكد أهمية الدور الفكري الذي كانت تمثله هذه المدرسة اهتمام خلفاء صلاح الدين الأيوبي، باختيار العلماء المميزين للتدريس فيها ممن اشتهروا بعلمهم، فبرز منهم الفقيه الشافعي فخر الدين بن عساكر[3] الذي تناوب في التدريس بين بيت المقدس ودمشق[4]. والشيخ تقي الدين أبو عمرو المعروف بابن الصلاح (ت643هـ/1245م)[5] الذي بقي مدرساً بها حتى قيام الملك المعظم عيسى بتخريب أسوار القدس مما اضطره لتركها[6]. كما تولاها من قبل الملك المعظم عيسى عام 622هـ/1225م والد المؤرخ الكبير جمال الدين بن واصل[7].

وأولى السلطان عناية كبرى بالمدارس في حلب، مركزاً على القيام بدورها في نشر الدين، دل على ذلك رسالته للإمام أبي بكر علاء الدين الكاساني[8] مدرس المدارس الحنفية بحلب.

---

(1) هو أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي الشافعي. ولد في نيف (530هـ/1135م) كان فاضلاً، عالماً بالوصايا والفرائض. راجع أبو شامة، الذيل، ص28؛ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص53.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص110-111؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص331.

(3) العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص180.

(4) الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص290.

(5) هو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، ولد سنة 577هـ/1181م، كان أحد فضلاء عصره في التفسير، والحديث والفقه وتولى التدريس بالناصرية ببيت المقدس ثم انتقل لدمشق فدرس بالرواحية ثم بدار الحديث الأشرفية. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص243-245؛ العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص181-182.

(6) العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص184.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص407.

(8) انظر: تفاصيل الرسالة "العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص134-135.

تميز العصر الأيوبي بنهضة تعليمية وفكرية واضحة تجلّت بكثرة المدارس التي أنشئت لمقاومة الفكر الإسماعيلي في مصر، ونشر العلوم الدينية ثم ما لبث أن تحول بناؤها ليصبح تقليداً سار عليه معظم أفراد أسرة بني أيوب ورجال دولتهم، حيث شهد هذا العصر بناء العديد من المدارس. في كل من مصر[1] والشام[2].

وقد كانت المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل[3] عام (580هـ/1184م) في مصر من أشهر المدارس مساهمة في الحركة التعليمية التي شهدتها مصر وفي إعداد الناس للجهاد، حيث وقفها على الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة لإقراء القرآن أقام فيها الإمام أبو محمد الشاطبي[4] ناظم الشاطبية في القراءات السبع. ورتب لتدريس فقه المذهبين أبو القاسم عبد الرحمن بن سلامة

---

(1) مثل المدرسة التقوية التي أنشأها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، والفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل. انظر: التفاصيل عند ابن الأثير، الكامل، ج9، ص241؛ ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ق1، ص93؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص457، 462-463.

(2) مثل المدرسة الخاتونية بدمشق للحنفية، والصاحبية بدمشق للفقهاء الحنابلة والمقدمية، والقيمازية، والرواحية. انظر: التفاصيل؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص205-211، 257؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص81-82.

(3) هو عبد الرحيم بن علي المعروف بمحي الدين أبو علي بن القاضي الأشرف اللخمي العسقلاني البيساني، ولد بعسقلان عام 529هـ/ 1134م، اشتهر ببراعته في الترسل وصناعة الإنشاء، سمع الحديث، وكان ذو دين وتقوى، وخاتماً للقرآن، محباً لجمع الكتب، توفي بمصر عام 596هـ/ 1199م. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 278-285؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 166-167؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 463.

(4) هو أبو القاسم بن فيرة بن أبي القاسم بن خلف بن أحمد، ولد سنة 538هـ/1143م ببلدة شاطبة شرقي الأندلس كان عالماً، زاهداً، قدم مصر وعمل مدرساً، توفي سنة 590هـ/1193م بالقاهرة. انظر: أبو شامة، الذيل، ص6-7؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18، 346؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص10.

الإسكندراني كما وقف بها كُتباً عظيمة في سائر العلوم، حتى وصفها المقريزي بأنها من أعظم مدارس القاهرة وأجلها[1].

أما في دمشق فقد عكست شهادة الرحالة ابن جبير الصورة التي وصلت إليها الحياة الفكرية فيها والتي تمثلت بكثرة عدد مدارسها إذ بلغ عدد المدارس فيها عشرين مدرسة معتبراً ذلك من مفاخر الإسلام[2].

لم يقتصر اهتمام السلطان صلاح الدين على بناء المدارس بل كان له اهتمامات أخرى بالزوايا في المساجد، وبشكل خاص بزوايا المسجد الأموي، والتي اشتهر منها الزاوية الشمالية الغربية المعروفة بالمدرسة الغزالية التي عرفت أيضاً بزاوية الشيخ نصر المقدسي، وقد أوقف هذه الزاوية على الفقهاء الشافعية[3]. وبلغ من درجة اهتمامه بها أن أوقف عليها وعلى المشتغلين فيها بالعلوم الشرعية قرية حزم، وذلك عام 572هـ/1176م. وولى أمر النظر فيها للشيخ قطب الدين

---

[1] انظر: المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص462-463.

[2] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص256.

[3] النعيمي، الدارس، ج1، ص414.

النيسابوري[1]، كما برز من مدرسي هذه المدرسة الفقيه العز بن عبد السلام[2] وعلماء آخرون من ذوي العلم والشهرة[3].

كما أقام صلاح الدين زوايا للمالكية في الجانب الغربي من الجامع الأموي[4]. وبلغ من شهرة هذه الزاوية أن درس فيها علماء اشتهروا بعلمهم ودورهم الفاعل والمؤثر أثناء الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي برز منهم الشيخ جمال الدين بن الحاجب المالكي (ت646هـ/1248م)[5].

تابع الأيوبيون جهودهم بعد وفاة السلطان صلاح الدين في نشر الثقافة السنية في مصر والشام خاصة في دمشق والقاهرة[6]. ففي عام 619هـ/1222م

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص295.

(2) هو عبد العزيز بن عبد السلام الذي لقب بشيخ الإسلام، كما عرف بالشيخ عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي ولد سنة 577هـ/1181م تفقه على الإمام فخر الدين بن عساكر درّس وأفتى وصنف، وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد. وقصده الطلبة من كل مكان، وتخرج على يديه العديد من الأئمة، ولي خطابة دمشق بعد الدولعي، وتوفي سنة 660هـ/1261م. الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ت350-351؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص209-211؛ ابن كثير البداية والنهاية، ج13، ص236.

(3) مثل شرف الدين بن أبي عصرون، وضياء الدين الدولعي الموصلي خطيب جامع دمشق (ت598هـ/1201م). انظر: أبو شامة الذيل، ص48؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص187-188؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص420.

(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص245؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص3-4.

(5) هو أبو عمرو عثمان بن أبي بكر الكردي كان فقيهاً مالكياً ولد بمصر سنة 570هـ/1214م، اشتغل بالقرآن ثم بالفقه والعربية والقراءات وكان عارفاً بالتفسير والنحو ثم انتقل لدمشق واستوطنها. انظر: أبو شامة، الذيل، ص280-281؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص248-250؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص379-380؛ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ص 289-291.

(6) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص240. المقريزي، الخطط، مج4، ص496.

تكامل بناء المدرسة العادلية بدمشق[1] على يد الملك المعظم عيسى، ودرس بها القاضي جمال الدين المصري (ت623هـ/1226م) الفقه والتفسير قاضي القضاة بالشام[2]، كما بنى الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين مدرسة عُرفت بالعزيزية[3]. وأول من درس فيها محي الدين بن الزكي، ثم درس بها قاضي القضاة الفقيه جمال الدين الشهير بابن الحرستاني (ت614هـ/1217م)[4] ثم درس بها الشيخ العلامة سيف الدين الآمدي (ت631هـ/1233م)[5]. كما أنشأ الملك المعظم المدرسة المعظمية عام 621هـ/1224م[6]، وأول من ولى (التدريس فيها) القاضي مجد الدين، قاضي الطور حتى وفاته[7]، كما أقام الوزير ابن شكر المدرسة الصاحبية بالقاهرة[8].

---

[1] ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص240؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص359.

[2] أبو شامة، الذيل، ص224؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص114-115؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص362.

[3] يقال أن الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين أمر القاضي محيى الدين بن الزكي بتأسيسها بجانب تربة والده. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق" ص 239؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 382-383.

[4] هو عبد الصمد بن محمد بن الأنصاري ولد بدمشق عام 520هـ/1126م كان محدثاً ومفتياً درس بالمجاهدية، والعزيزية، ناب في القضاء عن ابن أبي عصرون. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص78؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص390.

[5] أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد، ولد بآمد عام (551هـ/1156م)، كان حنبلياً ثم انتقل للشافعية، كان فقيهاً وصنف في أصول الفقه والمنطق والحكمة والخلاف تنقل بين الشام ومصر وتولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي بالقرافة، كما تصدر التدريس بالجامع الظاهر بالقاهرة ثم رجع لدمشق. أبو شامة، الذيل، ص245، 244؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص294.

[6] ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ص220.

[7] النعيمي، الدارس، ج1، ص586.

[8] هو الصاحب صفي الدين بن علي ولد سنة 548هـ/1153م كان فقيهاً على المذهب المالكي ومحدثاً حدث بمصر والشام، صنف في الفقه عمل مدرساً بالمدرسة الصاحبية المنسوبة له. الكتبي، فوات

وأولى خلفاء صلاح الدين الأيوبي اهتماماً بالحديث فبنى الملك الكامل بن الملك العادل دار الحديث االكاملية عام 622هـ/1225م، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، وولى أمر التدريس فيها للحافظ أبي الخطاب[1] المعروف بابن دحية (ت633هـ/1235م[2])، وأنشأ الملك الأشرف بن العادل دار الحديث الأشرفية عام 628هـ/1230م وولاها للشيخ تقي الدين بن الصلاح[3].

ارتبط الاهتمام بإنشاء المدارس ودور العلم بظروف الحياة السياسية التي انبثق عنها بناء قواعد تعبوية تجمع بين التوعية الفكرية والتعبية الجهادية. وبذلك فقد سارت عملية إحياء الفكر السني ضمن نهج متكامل عماده الاهتمام بالمدارس والمساجد وإحياء الفكر الديني النظري بصورة مركزة لمجابهة سطوة المؤسسات الدينية والفكرية ذات التوجه الشيعي في مصر والشام، وفي الوقت نفسه التعبئة الجهادية لمقاومة الغزو الأجنبي.

الوفيات، ج2، ص193-194؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص476-477؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص249.

(1) أبو شامة، الذيل، ص214-214؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص496؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص228.

(2) عمر بن الحسن الأندلسي، ولد 546هـ/1151م كان عالماً بالحديث، سكن مصر. انظر: أبو شامة، الذيل، ص249. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1، ص303؛ ابن دقماق، نزهة الأنام، ص82؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 230.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص757؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص69.

ثالثاً: العلوم الدينية ودورها في التعبئة للجهاد

تميّز كل من القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بازدهار العلوم الدينية ازدهاراً واضحاً، والتي تركزت حول علوم القرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي والفقه، حتى تمكنت هذه العلوم من أخذ حيز كبير من ثقافة ذلك العصر، تمثل في كثرة العلماء وتعدد مصنفاتهم[1]وقد لقبّ علماء هذه الفترة بألقاب كثيرة تحمل دلالة العلم، أورد بعضاً منها ابن جبير، فقال سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الإسلام، وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين[2] والشيخ والإمام[3].

تعددت أسباب ازدهار العلوم الدينية في هذه الفترة الحرجة من التاريخ الإسلامي بين عوامل عديدة، تراوحت بين فكرية مذهبية وسياسية فالصراع الفكري بين السنة والشيعة، شكّل أحد العوامل الرئيسية لذلك الازدهار، كما كان لجهود الزنكيين والأيوبيين في تشجيع العلماء وبشكل خاص زمن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بعده[4] الأثر الأكبر في ذلك، وتمثل ذلك بدعمهم للمؤسسات المالية التي أنشئت لنشر هذه العلوم كالمدارس والربط والزوايا[5].

---

[1] عن إقبال العلماء على العلوم الدينية في هذه الفترة انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص361-362؛ أبو شامة، الذيل، ص6-7. ولمزيد من التفاصيل عن ازدهار العلوم الدينية انظر: كرد علي، خطط الشام، ج4، ص39-48؛ أبو الفضل، سميحة، (2001م). المدارس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين محمود، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام منذ بدايات العصر السلجوقي حتى نهاية العصر المملوكي (القرن الخامس – القرن التاسع الهجري) المواقف القرن الحادي عشر – القرن الخامس عشر الميلادي، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية، ص605-611.

[2] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص268.

[3] انظر: رسالة صلاح الدين الأيوبي للإمام علاء الدين الكاساني حيث نعته بـ الشيخ الإمام العالم. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص135.

[4] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص171؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص372-373؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص347-348.

[5] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص24-27، 257؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص179-180.

كان للأحداث السياسية التي شهدها (القرنان المذكوران) والمتمثلة بالمواجهة العسكرية بين المسلمين والفرنجة في مصر[1] والشام[2] دور كبير في بروز هذه العلوم الدينية، إذ اقتضت الضرورة الحفاظ على الهوية الإسلامية إزاء هذا العدوان الفرنجي والذي استمر طوال القرن السادس، والثلث الأخير من القرن السابع الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي والثالث عشر الميلادي، فأنشئت المدارس لتدريس هذه العلوم ونشرها.

لقيت علوم القرآن الكريم من قراءة وتجويد وتفسير وحفظ اهتماماً كبيراً خلال فترة الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي، وذلك للأهمية الدينية التي ترتبط بالقرآن لأنه المرجع الأساسي في استنباط أحكام الشريعة وتطبيقاتها، ولهذا تصدر عدد كبير من العلماء لتدريس هذا العلم[3]. وثمة سبب آخر لا يقل أهمية يتعلق بالحاجة المعنوية والتعبوية اللازمة في ساحات القتال عند مجابهة الفرنجة، إذ كثيراً ما كان السلطان صلاح الدين يقرأ القرآن ويُسمعه ويستقرئه في مجلسه وباستمرار[4].

كان لرغبة الحكام المسلمين أنفسهم بتعلم العلوم الدينية في هذه الفترة سبب هام في ازدهارها وزيادة الاهتمام بها، إذ كان رموز الجهاد الإسلامي وقادته من المهتمين والحريصين على التزود بالثقافة الدينية المناسبة لتأهيلهم لقيادة هذه الحركة وتسييرها، وليس أدل على ذلك من أن الملك نور الدين نشأ على قراءة القرآن والعبادة، فكان كثير المطالعة للكتب الدينية، ومن العاكفين على قراءة القرآن، والحريصين على نشر السنة كما عُرف عنه أثناء جلوسه للعدل أن يكون حوله

---

[1] انظر: نزول الفرنج الإسكندرية، دمياط ومقاومة صلاح الدين لهم عام 565هـ/1169م؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص91-94؛ أبو الفداء، مختصر أخبار البشر، ج5، ص66.

[2] ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص107-108.

[3] انظر: فليفل، محمد، (1998)، مدينة دمشق في العصر الأيوبي، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان، ص301.

[4] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص9؛ مؤنس، نور الدين محمود، ص369.

العلماء والفقهاء للاستعانة بهم إن أشكل عليه شيء[1] مما يدل على تفقهه بالدين حتى وصفه سبط ابن الجوزي بالعالم الورع[2]. وبلغ من عنايته بتدريس القرآن أن أوقف قرى بعينها على دارسيه والقائمين عليه[3]. أما السلطان صلاح الدين الأيوبي فقد كان هو الآخر ذا ثقافة دينية واسعة فكان يحفظ القرآن إلى جانب كتاب التنبيه في الفقه حتى وصفه السبكي بالفقيه، كما كان عالماً بالشعر وحافظاً لديوان الحماسة[4]، وعرف بتعمقه في القرآن الكريم إذ كان محباً لسماعه وكان يستقرئ من يحضره بالليل الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع كما كان يشترط على العلماء معرفتهم وإتقانهم لعلوم القرآن وإتقان حفظه، فكان حفظ القرآن وعلمه مقياساً لانتقاء علمائه[5].

وبلغ من مظاهر عناية الأيوبيين بهذا العلم ما قام به القاضي الفاضل بعد إنشائه مدرسة في القاهرة من تخصيص بعض قاعاتها لإقراء القرآن الكريم على يد الإمام أبي محمد الشاطبي ناظم الشاطبية[6].

برز أثناء الصراع الفرنجي الإسلامي في مصر والشام عدد كبير من العلماء الذي تصدروا تدريس هذا العلم كان منهم الفقيه والمقرئ النحوي أبو القاسم الدمشقي المعروف بجمال الأئمة ابن الماسح (ت 562هـ/1166م) الذي تصدر

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص305-306.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص322. ذكر ابن الأثير أن نور الدين كان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة وليس عنده تعصب. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص273.

(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، 257.

(4) طبقات الشافعية، ج7، ص348. ولمزيد من التفاصيل عن الثقافة الدينية للسلطان صلاح الدين الأيوبي. انظر: رشيد، ناظم، (1987). جهاد صلاح الدين الأيوبي "التاريخ والشعر" مجلة المورد، بغداد، مج16، (ع4)، ص112-115. بول، صلاح الدين الأيوبي، ص7-8؛ شوفيل، صلاح الدين بطل الإسلام، ص18، 26.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص9.

(6) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 462.

الإقراء في إحدى حلقات الجامع الأموي[1] والمقرئ أبو عبد الله الحميري المصري (ت 589هـ/1193م)[2]، وأبو العباس العراقي الحنبلي المقرئ الدمشقي (ت588هـ/1192م)[3]. والمقرئ عمر المعروف بابن البناء (ت 584هـ/1192م)[4] وتاج الدين أبو اليمن الكندي اللغوي والمقرئ والمحدث[5]، والمقرئ النحوي علم الدين السخاوي (ت643هـ/1245م)[6] الذي شرح المفصل للزمخشري وشرح القصيدة الشاطبية في القراءات وازدحم عليه الناس بدمشق لأجل القراءة[7].

---

(1) علي بن الحسن الكلابي الدمشقي، كان فقيهاً شافعياً ونحوياً، ولد سنة 488هـ/1095م، درّس بالمجاهدية، وكان معيداً بالأمينية توفي سنة 562هـ/1166م. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج41، ص320؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص214؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص203-204.

(2) محمد بن ساكن كان عالماً جليلاً، جمع لنفسه مشيخة ذكر أنه قرأ فيها القرآن على أبي الحسن علي بن محمد الروحاني، سمع من السلفي وغيره، كان متصدراً بجامع مصر، خطب مدة توفي سنة 589هـ/1193م. انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 581-590هـ، ص341.

(3) أحمد بن الحسن كان مقرءاً وملقناً بجامع دمشق. انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام. حوادث ووفيات، 580-590، ص292.

(4) قرأ القرآن سنين كثيرة بمصر، كان صابراً على تعليم الصبية ليلاً ونهاراً. انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص215.

(5) زيد بن الحسن، ولد ببغداد عام 520هـ/1126م، قرأ النحو واللغة، قرأ القرآن بالروايات وعمره عشر سنوات، سمع الحديث، دخل دمشق سنة 563هـ/1167م. تصدر وازدحم عليه الطلاب، وأفتى، سكن مصر ثم رجع لدمشق وتردد عليه أبناء الملوك، اختلف في وفاته قال البعض 597هـ/1200م، 1216/613 والثاني أصح. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج11، ص171-174؛ أبو شامة، الذيل، ص146-150؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص71- 74.

(6) هو أبو الحسن علي بن محمد، ولد سنة 558هـ/1162م بسخا إحدى أعمال مصر، أتقن علم القراءات والتفسير والنحو، واللغة، انتقل لدمشق وتقدم بها على علماء فنونه حتى اشتهر. انظر: أبو شامة، الذيل، ص271-372؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج30، ص340-341؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص322.

(7) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص34-341.

كما برع فيها المقرئ النحوي أبو عمر بن الحاجب[1].

اعتنى العلماء في هذا العصر بتفسير القرآن الكريم فبرز العديد منهم ممن تصدروا لتفسير القرآن الكريم كان منهم: جمال الدين المصري (623هـ/1226م)[2] الذي كان يُلقى دروساً في التفسير في المدرسة العادلية الكبرى، وقيل أنه ألقى فيها التفسير كاملاً، وتصدر الشيخ عز الدين بن عبد السلام للتفسير وصنف فيه كتاباً في مجلد مختصر، وكتاب مجاز القرآن، وقيل أنه ألقى التفسير في مصر دروساً[3] كما برع في التفسير المقريء النحوي عبد الكريم بن الحسن المصري[4].

احتل علم الحديث النبوي هو الآخر مكانة بارزة في ثقافة هذا العصر، لما له من أثر في تعبئة الناس للجهاد وترغيبهم بالشهادة والجنة وإحياء للروح البطولية لديهم، وقد ذكر ابن شداد أن السلطان صلاح الدين كان يأمر بقراءة الحديث بين الصفوف على مسامع الجنود قبل المواجهة المباشرة معهم[5]، وقد اعتبر أحد الباحثين استخدام الحديث في ساحات القتال بمثابة حملة تثقيفية داخل الجيش، ومن

---

(1) الذهبي، العبر، ج3، ص255؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1، ص379-380.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق"، ج2، ص1، ص240؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص186-187.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص235؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص209، 147-148؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1، ص273.

(4) برع في وجوه العربية وغوامضها، وكان بارعاً في الإقراء كان له حلقة إقراء بمصر، توفي سنة 525هـ/1130م. انظر: السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1، ص408.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 19-20؛ كيلاني، الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام، ص 112-113.

أهم وسائل نجاح الدعاية للجهاد[1]. فأنشأت لذلك دار الحديث النورية زمن نور الدين زنكي بدمشق[2]، ودار الحديث الكاملية زمن الملك الأيوبي الكامل بالقاهرة[3].

اهتمّ ملوك بني أيوب بخدمة علوم الحديث، فأوكلوا لبعض العلماء وضع مؤلفات خاصة بأحاديث الجهاد[4]، كما فعل صلاح الدين الأيوبي، وشكّل إقبال السلاطين على السماع دافعاً قوياً للعناية به، فقد سمع نور الدين الحديث طلباً للأجر[5]، وحرص السلطان صلاح الدين على سماعه ودأب يتردد على حفاظ الحديث، وتمثل ذلك بزيارته الحافظ[6] السلفي الأصبهاني (ت576هـ/1180م)[7] لسماعه عام 572هـ/1176م حينما توجه للإسكندرية للسماع وبصحبته اثنان من أولاده[8]، فكان يتردد للسماع في كل جمعة ثلاثة أيام[9]، كما سمع من الحافظ أبي طاهر بن عوف[10] (ت 581هـ/1185م) وبصحبته العماد الأصفهاني وبعض رجال دولته وذلك عام 577هـ/1181م حيث سمعوا عنه موطأ مالك بروايته عن

---

(1) آرمسترونغ، الحرب المقدسة، ص 299.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 107؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 284.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 63؛ المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 494.

(4) كان صلاح الدين شديد الرغبة لسماع الحديث وصنفت لأجل ذلك كثير من المصنفات في أحاديث الجهاد وآدابه. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 21.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 273.

(6) الحافظ لقب جماعة من أئمة الحديث لحفظهم ومعرفتهم والذب عنه. انظر: السمعاني، الأنساب، ج2، ص 11.

(7) أحمد بن محمد وسلفه هو لقب له فعرف به، ولد بعد السبعين والأربعمائة وفي ذلك خلاف، تفقه ببغداد، ثم قدم دمشق وانتقل بعدها للإسكندرية فاستوطنها وكان إماماً مقرئاً، ومحدثاً حافظاً، وكان فقيهاً متفنناً، وعالماً بالنحو أيضاً. انظر: السمعاني، الأنساب، ج3، ص 43؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص 357؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات (571-580هـ) ص 202؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 301-307.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، ج17، ص 296.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 294-295؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 55-56؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 296؛ المقريزي، السلوك، ق1، ص 76.

(10) إسماعيل بن مكي بن عوف، ولد سنة 485هـ/1092م، تفقه على يد أبو بكر الطرطوشي، كتب عنه السلفي، والسلطان صلاح الدين وأولاده، حدث بالموطأ مرات عديدة برع في الفقه والفتوى وكان شيخ المالكية بالإسكندرية؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1، ص 122-123؛ ابن فرحون، الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب، ص 155-157؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 91.

أستاذه الطرطوشي[1]، وقد كان لهذا السماع أهميته في ظل ظروف الصراع الحرجة والمعقدة التي كان يمر بها المسلمون في مواجهة الفرنج، لمساهمته في إثارة دافعيتهم للجهاد وتحفيز الهمم وشحن العزائم والأقدار[2]، وكان السلطان صلاح الدين قدوة في هذا المجال مما جعل الآخرين يحذون حذوه[3].

ونتيجة لذلك الاهتمام والتشجيع برز في مصر والشام عدد من أئمة الحديث وحفاظه أسهموا في تعبئة أبناء الأمة الإسلامية لمواجهة الفرنج سواء من خلال تدريسهم الحديث وشرحه أو من خلال تأليف كتب الحديث المتعلقة بالجهاد، وكان منهم: الحافظ أبو القاسم ثقة الدين بن عساكر الدمشقي الذي كان من أبرز علماء الحديث وصاحب التصانيف الكبيرة، ومنها كتاب تاريخ مدينة دمشق[4]، وبلغ لشدة علمه بالحديث أن عُرف بإمام المحدثين في وقته، كما انتهت إليه الرئاسة في الحفظ[5]. كما برز الحافظ الكبير أبو طاهر السلفي الأصبهاني الذي كان أوحد أهل زمانه في علم الحديث، وأعرفهم بقوانين الرواية والحديث ومؤلف التصانيف الكثيرة بالحديث ومنها "الأربعين البلدية" ومعجم السفراء، وهو محتو على الترجمة لألفي شيخ[6]، والحافظ ضياء الدين المقدسي (ت 643هـ/1245م)[7]، صاحب

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 427؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 59؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 308، ولبيان أهمية هذا السماع. انظر: كتاب التهنئة الذي كتبه القاضي الفاضل للسلطان بهذا السماع. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 60-62.

(2) جمال الشيال، أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية، ص 16-20.

(3) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 456-457؛ أبو الفداء، المختصر، ج1، ص 63.

(4) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 308-311. السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 215-223.

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 571-581هـ، ص 70-82.

(6) السمعاني، الأنساب، ج3، ص 43؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 571-580هـ، ص 195-207؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 302.

(7) هو محمد بن عبد الواحد ولد بدير المقادسة بسفح جبل قاسيون سنة 569هـ/1172م ولزم الحافظ عبد الغني، وتفقه على يديه، وجمع بين فقه الحديث ومعانيه، كما كان له علم بالفقه والتفسير ولكنه اشتهر بالحديث حتى عرف بمحدث الشام انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص 65-66؛ وابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 236-238.

كتاب "الأحاديث المختارة" ومناقب الحديث[1]، والحافظ أبو المحاسن الدمشقي[2]، والحافظ المالكي أبو الحسن اللخمي المقدسي الإسكندراني (ت 617هـ/1214م) الذي كان مدرساً للمالكية بالإسكندرية[3]، والحافظ الشافعي زكي الدين المنذري[4] الذي كان شيخاً للحديث بمصر وعمل على مختصر الصحيح مسلم وسنن أبي داوود[5]، والحافظ ابن دحيّة الأندلسي[6].

ازدهر الفقه الإسلامي بمذاهبه المتعددة خلال فترة الصراع الفرنجي الإسلامي ازدهاراً واضحاً برزت آثاره من خلال المؤلفات العديدة للعلماء والتي جاءت استجابة لمتطلبات تلك الفترة، من خلال الفتاوى التي كانوا يقدمونها لتوضيح

---

(1) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 236-240، وعن براعته في الحديث والمدرسة التي أنشأها انظر: مصطفى، شاكر (1982). آل قدامة، والصالحية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثالثة، الرسالة الرابعة عشر، ص 28-29.

(2) عمر بن علي القرشي الزبيري، ولد بدمشق عام 526هـ/ 1131م، كان قاضياً حافظاً ثقة عالماً، عني بطلب الحديث وسماعه وكتابته، توفي سنة 575هـ/1179م. الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 571-580هـ، ص 175.

(3) هو علي بن الأنجب بن أبي المكارم، ولد 544هـ/1149م وكان فقيهاً فاضلاً في مذهب مالك ومن أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه، واستمر حتى وفاته 611هـ/1214م. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 197-199؛ السيوطي، حسن المحاضر في أخبار مصر والقاهرة، ج1، ص 203.

(4) هو عبد العظيم بن عبد القوي، أصله من الشام، ولد بمصر عام 581هـ/1184م ولي مشيخه الحديث الكاملية كان عديم النظير في معرفة الحديث على اختلاف فنونه، متبحراً في أحكامه، ومعانيه ومشكله، قيماً بمعرفة غريبة، وكان بارعاً في الفقه والعربية، والقراءات كانت وفاته عام 656هـ/1258م. انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص 366؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 303.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص 212.

(6) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 496؛ السيوطي،حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 303.

بعض المسائل الخلافية أو الغامضة والمرتبطة بالصراع أو لبيان شكل العلاقة مع الفرنجة وكيفية التعامل معهم أثناء الحرب، وكان مما تعرض له هؤلاء العلماء مسألة استيلاء الكفار على أموال المسلمين[1]، وما يجوز أخذه من غنائم الأعداء[2]، وكذلك حق المسلمين في أملاكهم بعد استعادتها من العدو[3] وما يتعلق بشراء العبيد من بلاد الكفار وقت الحرب وأحكام السبي، وما يجوز الانتفاع منه وأكله من بلاد العدو[4]، كذلك النهي عن قتل من أظهر الإسلام[5]، وما جاء من حظر قتل الشيوخ والرهبان[6]، وتفضيل الرباط والجهاد في سبيل الله على القيام بفريضة الحج في حالة تربص العدو بديار الإسلام[7]، وتقديم الفتاوى للمجاهدين وترغيبهم به، وبيان

---

(1) انظر: الحديث الدائر بين ناصح الدين الحنبلي (ت 634هـ/1236م) وبين السلطان صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس بسنتين عندما سأله السلطان عن الكفار إذا استولوا على أموال المسلمين ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 194.

(2) انظر: توضيح الفقيه أبو الحسن علي بن طاهر السلمي النحوي (ت 500هـ/1106م) ما يجوز أخذه من غنائم الكفار، وما لا يجوز أخذه. مخطوطة كتاب الجهاد، ج12، ص 225.

(3) انظر: الفتوة التي قدمها فقهاء الحنفية للأتابك عماد الدين زنكي عند فتحه المعرة النعمان عام 531هـ/1136م؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 74-75.

(4) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج12، ص 225-229.

(5) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج8، ص 204-206.

(6) احتج السلمي بقوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" كما أبرز رأى الفقهاء بقولهم أنه لا يجوز قتل الرهبان حتى لو لم يؤدوا الجزية، كما أورد أدلة على نهي قتل الصبيان والنساء. انظر: السلمي، مخطوطة الجهاد، ج8، ص 204-206.

(7) ذكر العماد الأصفهاني أنه بعدما بلغ القاضي الفاضل نية السلطان صلاح الدين الخروج لأداء فريضة الحج بعث إليه رسالة ينهاه فيه عن ذلك مبيناً له إن في ذلك تفريطاً بأراضي المسلمين نظراً لأهميته ومرابطته معتبراً أن مداهمة العدو للقدس وللبلاد في غيبته واحتلالهم لها قد يجعل من هذه الحجة كبيرة لا تغفر له. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 194-195.

ميزة من يموت مجاهداً عن غيره[1]، واستفتائهم بأفضلية قتل أسرى الفرنج أم أخذ الفدية منهم[2]، وبهذا أسهمت جهود الفقهاء في إذكاء روح الجهاد وذلك بتسخير علومها لما يكفل مصلحة المسلمين وتفوقهم على الفرنج.

ساهمت مواعظ العلماء في تصحيح بعض السلوكيات الخاطئة التي كانت تمارسها بعض فئات المجتمع والتي كان لها آثارها السلبية على الجبهة الإسلامية وأثمرت في دفع حركة الجهاد للأمام[3]. كما كان لنصحهم ووعظهم[4]، والمؤلفات الفقهية[5] التي قدموها لبعض الرموز السياسية والعسكرية أثر كبير في خلق قيادات عسكرية فذة مشبعة بالإسلام وبروح الجهاد، تمكنت بصلابتها وبدعم علمائها ومؤازرتهم من إصلاح المجتمع وبنائه بناءً قوياً قائماً على الإيمان والتضحية في

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 22-23؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 433.

(2) ذكر سبط ابن الجوزي أنه بعد فتح السلطان نور الدين محمود لحارم عام 559هـ/1163م وانتصاره على الفرنج استفتى الفقهاء في الأسرى فأشار عليه البعض بقتلهم وأشار عليه آخرون بأخذ الفدية فمال نور الدين للفدية وأخذها منهم مقابل أسراهم 600.000 ألف دينار. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 247-248.

(3) لقد حمل الإمام الحنفي أبو الحسن البلخي أسباب كسرة نور الدين وجيشه في وقعة البقيعة ونصر الفرنج على المسلمين عام 558هـ/1162م إلى شرب الخمر واستخدام الطبول وكثرة المنكرات. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 121-122؛ Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P. 135.

(4) ذكر ابن فضل الله العمري أن الإمام البلخي مارس ضغوطاً كثيرة على الملك نور الدين زنكي لنهيه عن شرب الخمر، حتى كان سبب توبته عنه. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 112. كما نهى الفقيه فخر الدين بن عساكر (ت 620هـ/1223م) الملك المعظم عيسى صاحب دمشق عن إعادة الخمور بعد موت أبيه. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 101.

(5) ذكر القاضي بهاء الدين بن شداد أن الشيخ قطب الدين النيسابوري جمع للسلطان صلاح الدين عقيدة فيها ما يحتاج إليه من القواعد الدينية والأمور الشرعية، وكان حافظاً لها وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 7.

سبيل الله، لمقاومة الغزاة ودحرهم وكان بعض الفقهاء المحابون للسلطة السياسية يقدمون فتاوى لا تستند لأسس شرعية، وفي غير صالح المسلمين[1]، وذلك استجابة لهؤلاء الحكام.

وقد كان عدد من العلماء بطانة للسلطة السياسية وخاصتها تعمل معها في حلها وترحالها وتنفّذ ما يوكل إليها من مهام في أي مدينة من مدن الشام ومصر فكانوا بمثابة وسائل إعلامية متنقلة تعمل على توعية الشعب بكافة فئاته وتثقيفه بأمور دينه وتوجيهه وتنبيهه من خطورة الغزو الفرنجي، برز منهم القاضي الفاضل[2]، والعماد الأصفهاني[3]، والفقيه الواعظ ابن نجا[4].

تميز علماء هذا العصر بوعيهم وإدراكهم لخطورة الغزو، فهبوا لمقاومته والتصدي له بأساليب مختلفة، ووسائل دعائية متعددة بالتعاون مع السلطة السياسية خاصة زمن الملك نور الدين وصلاح الدين، وقد كان لجهودهم في التصنيف والتدريس والوعظ دورٌ واضح في تعبئة الناس للجهاد وقد تطلّب ذلك تنقلهم من مدينة إلى أخرى في مصر أو الشام حيث المواجهة الحقيقية مع الغزاة[5].

---

(1) كان لفقهاء حماة دور في تحريض عماد الدين زنكي على الغدر ببهاء الدين سونج بن بوري بن طغتكين سنة 524هـ/1129م، صاحب حماة عام 524هـ/ 1129م بعد استنجاده بتاج الملوك بوري بن طغتكين لدعمه بالعساكر لمقاتلة الفرنج. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 42.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 278-285؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 166-167.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 166-167؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 179-187.

(4) هو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الملقب بزين الدين ولد بدمشق عام 508هـ/1114م ونشأ بها، كان حنبلياً، قدم بغداد وتفقه بها وسمع الحديث كما اشتغل بالتفسير والوعظ واشتهر به ثم رجع لبلده دمشق ثم عاد لبغداد رسولاً من جهة نور الدين عام 564هـ/1168م، كانت له حظوة عند صلاح الدين، سكن مصر وتوفي فيها عام 599هـ/1202م. انظر: أبو شامة، الذيل، ص 54-55؛ الذهبي، العبر، ج3، ص 126؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 35.

(5) انظر: قول ابن شداد في دور صلاح الدين في رعاية المهاجرين من العلماء، "...ولكنه مقو لمذهب أهل السنة، غارس في اهل البلاد والعلم، والفقه والتصوف، والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفدون عليه من كل جانب، وهو لا يخيب قاصداً، ولا يعدم وافداً". ابن شداد، النوادر السلطانية، ص41.

ولعل أهم ما ميّز هذه التعبئة أنها لم تقتصر على علماء محددين بمنطقة جغرافية بحد ذاتها بل شملت علماء من العالم الإسلامي بأجمعه وذلك بهجرتهم إليها والاستيطان فيها للقيام بواجبهم فشارك بها علماء شاميون ومصريون، وأندلسيون ومغاربة وبغدادية، وفُرس ومن أهل الموصل، ومن ديار بكر وغيرها، فكانت بذلك تعبئة عامة.

وقد تعددت أسباب هجرة العلماء لمصر والشام فبالإضافة للرعاية والاهتمام الذي حظيوا به[1]، وجدت أسباب أخرى كان منها تضاؤل دور النظاميات وعدم التعصب المذهبي لدى الملك نور الدين[2]، في حين رأى آخرون أن وراءها أسباباً سياسية وعسكرية حيث انحلال الدولة العباسية من ناحية عسكرية، وأضيف إلى ذلك كله ما توصل لأسماع الناس من انتصارات لنور الدين على الفرنج، فكان لذلك أهمية كبرى في التشجيع على الهجرة إذ أصبحت بلاد الشام في عصره مركزاً للعلماء[3].

وثمة سبب آخر متعلق بالعلماء أنفسهم والمتمثل بإدراكهم لأهمية العبء الملقى على عاتقهم كمفكرين وعلماء، فكانت الشام ومصر مستقراً يحتشدون فيه للمساهمة بدورهم. وبرز ذلك واضحاً بالجدول التالي الذي يوضح عدداً منهم ممن دخلوا مصر أو الشام مع رصد لمكان هجرة كل منهم وآثاره ومساهماته الفكرية في مقاومة الغزو الفرنجي.

---

(1) انظر: ابن جبير، الرحلة، ص 27؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 41.

(2) بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 223.

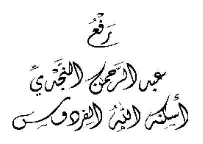
(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 305. انظر: أبو الفضل، المدرس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين زنكي، ص 616-617.

الرقم	اسم العالم وشهرته	مساهمته الفكرية والتعبوية	موطنه الأصلي	مكان هجرته	تاريخ وفاته	المصدر
1.	أبو طالب نصر الله بن محمد العجمي الحلبي	تفقه ببغداد ثم رجع لحلب وكان له مدرسة عرفت باسمه	حلب	–	(561هـ/1165م)	السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 147؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 330.
2.	كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري	كان فقيها وأديبا اهتم ببناء المدارس (الموصل ونصيبين) وتولى الأوقات والقضاء زمن نور الدين زنكي	الموصل	كان متنقلاً بين الموصل – دمشق	(573هـ/1177م)	أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 280-281؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 118-120.
3.	أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا (الملقب بزين الدين)	كان واعظاً وفقيها كان قريبا من نور الدين وكلف بمهمة عام 564هـ/1168م ببغداد، ثم أصبح مقرباً من صلاح الدين من بعده	دمشق	دمشق – بغداد – القاهرة	(599هـ/1202م)	أبو شامة، الذيل، ص54-55، الذهبي، العبر، ج3، ص 126؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص 35
4.	أبو القاسم البغدادي المعروف بالمجير الوسطي	كان عالما ذكيا بنيت له المدرسة الجاروجية بدمشق ليدرس فيها	بغداد	دمشق	(592هـ/1195م)	النعيمي، الدارس، ج1، ص 226
5.	أبو الفتح أحمد بن أبي الوفاء الصائغ البغدادي	اشتغل فقيها ومدرسا للحديث	بغداد	نزيل حران وحلب	(576هـ/1180م)	ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 347-348
6.	ضياء الدين عثمان بن عيسى الهذباني	كان فقيها بارعا عمل بدمشق فترة ثم تولى نيابة القضاء بالقاهرة عن أخيه	الموصل	دمشق	(602هـ/1205م)	ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 242-243؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 622
7.	جمال الدين محمد بن أحمد الحصري	كان فقيها بارعا وعمل مدرسا بالمدرسة النورية عام 611هـ/1214م وعلى يديه تفقه	بخارى	دمشق	(636هـ/1238م)	أبو شامة، الذيل، ص 256؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 625

الرقم	اسم العالم وشهرته	مساهمته الفكرية والتعبوية	موطنه الأصلي	مكان هجرته	تاريخ وفاته	المصدر
		الملك المعظم عيسى				
.8	أبو نصر هبة الله بن جميل الشيرازي	كان فقيهاً ومفتياً عمل مدرساً بالمدرسة الشافعية البرانية بدمشق	شيراز	دمشق	(635هـ/1237م)	ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 151
.9	الحافظ زكي الدين البرزلي الأشبيلي	كان من كبار شيوخ الحديث في دمشق، وحلب	أشبيلية/ الأندلس	تنقل بين دمشق حلب – حماة	(636هـ/1232م)	أبو شامة، الذيل، ص 258؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 153
10	الحافظ الفقيه أبو الحسن علي بن سليمان المرادي القرطبي الأندلسي	قدم دمشق بعد الأربعين وخمسمائة للهجرة عمل فيها مدرساً للحديث، وتتلمذ ابن عساكر على يديه وكان ثبتاً صلباً في السنة	الأندلس	تنقل لتدريس الحديث بين دمشق– حماة	(544هـ/1149م)	السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 224-225؛ ابن جبير، الرحلة، ص 245
11	الإمام صائن الدين عبد الواحد بن إسماعيل الدمياطي	عمل مدرساً للحديث بالمدرسة الأمينية بدمشق	دمياط/ مصر	دمشق	(613هـ/1216م)	النعيمي، الدارس، ج1، ص 184-185
12	الفقيه شهاب الدين إسماعيل بن حامد القوصي	عمل مدرساً للفقيه بالجامع الأموي بدمشق حتى عرفت زاويته بالقوصية، وأسس دار الحديث بدمشق عرفت باسمه	قوص/ مصر	دمشق	(653هـ/1255م)	النعيمي، الدارس، ج1، ص 438-439
13	الفقيه أبو محمد عبد الله بن علي القصري	عمل مدرساً بالجامع الأموي ثم انتقل لحلب لتفقيه أهلها	فلسطين/ حيفا	دمشق/ حلب	(542هـ/1147م)	السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 125-126

الرقم	اسم العالم وشهرته	مساهمته الفكرية والتعبوية	موطنه الأصلي	مكان هجرته	تاريخ وفاته	المصدر
14	الفقيه الحنبلي شرف الدين محمد بن عبد الوهاب الشيرازي الدمشقي	اشتهر بالوعظ بدمشق	شيراز/ دمشق	دمشق	(536هـ/1141م)	ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 370؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 269
15	الفقيه الحنبلي ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم الدين الشيرازي	اشتهر بوعظه وعمل مدرساً بالمدرسة الصاحبية بدمشق	شيراز/ دمشق	دمشق	(643هـ/1245م)	أبو شامة، الذيل، ص 250؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ص 193
16	المحدث تقي الدين إسماعيل بن عبد الله الأنماطي	كان متفنناً في علم الحديث ومدرساً له	دمشق	-	(619هـ/1222م)	أبو شامة، الذيل، ص 198؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 96
17	الفقيه الحنبلي أبو عمرو عثمان بن مرزوق القرشي	عمل مدرساً ومفتياً ومناظراً وعرف بسيف السنة وأحد أوتادها بمصر، وكان له دور واضح في الترويج لدخول نور الدين لدمشق وسقوط الدولة الفاطمية فيها من خلال علاقته بالواعظ ابن نجا	-	مصر	(564هـ/1168م)	ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 306-311
18	الفقيه شهاب الدين محمد بن إبراهيم الحموي	تفقه بحماة ثم خرج لمصر وعمل فيها خطيباً للجامع العتيق ومدرساً بالمشهد الحسيني	حماة	مصر	(615هـ/1218م)	السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 345
19	الفقيه عبد الملك بن عيسى بن درباس	تفقه بحلب ثم خرج لمصر وأصبح قاضيا للقضاة فيها، زمن السلطان صلاح الدين بعد إسقاطه للدولة الفاطمية	الموصل	مصر	(605هـ/1208م)	أبو شامة، الذيل، ص 102؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 344

الرقم	اسم العالم وشهرته	مساهمته الفكرية والتعبوية	موطنه الأصلي	مكان هجرته	تاريخ وفاته	المصدر
20	المحدث شهاب الدين الطوسي	نشر العلم بمصر عن طريق تدريسه الحديث، والوعظ، والفتيا، وكان مدرساً بالمدرسة التقوية بمصر	طوس	مصر	(596هـ/1199م)	أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 275؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 397-399
21	المقرئ أبو العباس أحمد بن عبد الله الفاسي.	كان بارعاً بالقراءات السبع، تصدر الإقراء بمصر وعنه أخذ الحافظ السلفي	فاس	مصر	(560هـ/1164م)	السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 377- 378
22	الفقيه أبو الحسن علي المراكشي	كان مدرساً للفقه بالمدرسة المالكية	مراكش	مصر	(625هـ/1225م)	أبو شامة، الذيل، ص 232



ساهمت مدارس بغداد وعلمائها مساهمة فاعلة في الحركة الفكرية والإعداد للجهاد أثناء فترة الغزو الفرنجي، إذ تخرج في مدارسها وعلى يد علمائها العديد من العلماء الذين تصدوا للغزو وشاركوا في تعبئة المجتمع الإسلامي بعامة ومصر والشام خاصة فقد توزع هؤلاء الخريجون بين المدارس النظامية في بغداد ومدرسة الحنابلة فيها فكان من خريجي المدرسة النظامية ونظامية بغداد تحديداً أبرز قياديي الحركة الفكرية ودعاة الجهاد في مصر والشام من فقهاء ومحدثين ووعاظ وخطباء ومنهم الفقيه قطب الدين النيسابوري[1]، وكمال الدين الشهرزوري[2]، والفقيه العماد الأصفهاني المعروف بالكاتب[3]، والمحدث ابن عساكر[4]، والفقيه بهاء الدين بن شداد[5]، والفقيه والمحدث الشافعي صائن الدين بن عساكر[6]، والفقيه أبو الفتوح المعروف بالجماهيري الدمشقي الأصل البغدادي المولد والذي قدم دمشق للوعظ فيها، وكان صلاح الدين يحضر مجالسه (ت581هـ/1185م)[7].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج58، ص 13-14؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص272-273.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 340.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص 147-148؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 408.

(4) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج13، ص 76.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص 86.

(6) هبة الله بن الحسن، ولد سنة 488هـ/1095م، وقدم بغداد، فدرس الفقه والحديث، ثم رجع لدمشق فعمل بها مدرساً بالغزالية، ومعيداً بالأمينية، كان متفنناً بعلوم القرآن والنحو واللغة والحديث. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 311.

(7) عبد السلام بن يوسف كان يناظر في مسائل الخلاف. أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 276-277.

أما بالنسبة للمدارس الحنبلية ببغداد فقد اشتهر من خريجيها الحافظ الرهاوي[1]، والواعظ زين الدين بن نجا[2]، الذي كان صلاح الدين وأولاده يحضرون مجالسه[3]، وعرف منهم كذلك الفقيه أبو الفضل الحراني (ت 569هـ/1173م) شيخ حران وخطيبها[4]، والفقيه وجيه الدين بن المنجا المقرئ الدمشقي (ت 606هـ/1209م)[5] الذي أوكل إليه أمر التدريس بالمسمارية بعد رجوعه، ثم أرسله نور الدين قاضياً لحران ثم رجع لدمشق[6]، وعدد من علماء المقادسة[7].

وهكذا كانت مدن العالم الإسلامي حافلة بالعلماء ينتقلون من مدينة لأخرى طلباً للعلم وللمساهمة في التعبئة ضد الفرنج. قد بلغت هذه الحركة أوجها مما دعا بوول إلى القول إن دمشق وحلب وبعلبك وحمص والموصل وبغداد والقاهرة، كانت مراكز مهمة للاهتمام بالتعليم، فالأساتذة ينتقلون من مدينة لأخرى فكانت حركة

---

(1) عبد القادر بن عبد الله الفهمي، ولد سنة 536هـ/1141م بالرها، سمع الحديث ببغداد، وبمدن أخرى كثيرة، حدث بالموصل ونعت بمحدث الجزيرة، أقام بدمشق مدة، ونسخ تاريخ ابن عساكر بخطه وسمعه منه، وتوفي سنة 612هـ/1215م؛ أبو شامة، الذيل، ص 140؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 82-85.

(2) ذكر ابن رجب أن الشيخ الواعظ ابن نجا تتلمذ على الشيخ عبد القادر الجيلي فكان كثيراً ما ينقل عنه.ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 293.

(3) أبو شامة، الذيل، ص 54.

(4) هو حامد بن محمود ولد بحران، تفقه ببغداد على الشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي وغيره، رجع لحران فدرس وأفتى بها، وقد بنى الملك نور الدين محمود مدرسة حران لأجله وولاه إياها. انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 332-334.

(5) هو أبو المعالي محمد بن المنجا، تفقه بدمشق وببغداد على المذهب الحنبلي؛ الصفدي، الوافي الوفيات، ج9، ص 44، ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 49-50.

(6) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ص 49-50.

(7) انظر: أبو شامة، الذيل، ص 157-158؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 94-103.

العلماء من الشرق ومن الغرب تصب في دمشق[1]، وعليه كانت مصر والشام حافلة بالعلماء كما أن بيئتها كانت ذات طابع ديني وأجوائها مهيأة للجهاد؛ لأن نفوس أهلها قد أشبعت بالإيمان والدين ويعود الفضل فيه إلى علماء ذلك العصر.

هذا النشاط المكثف لعلماء الفترة في مركز مصر والشام وسواها من حواضر العالم الإسلامي دون شك لا يدل فقط على غنى علمي وثقافي بقدر ما يدل على أهمية دور العلماء في خلق الوعي وتعزيز التعبئة المعنوية للجهاد.

رابعاً: مساهمات علماء آل قدامة (المقادسة) في التعليم أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي):

امتدت محاولات الهيمنة التي كان يمارسها الفرنج في الشام لتطال العلماء ورجال الدين، محاولة منهم لوقف أي نشاط فكري ممكن يساهموا به إلى جانب أبناء مجتمعهم الواقعين تحت نير الاحتلال من خلال توعيتهم وتحريضهم ضدهم، أو مطالبتهم برفع الظلم عنهم للحيولة دون تملك أراضيهم وفرض ضرائب باهظة عليها[2]، وكان شيخ جَمّاعِيل* وفقيهها أحمد بن قدامة[3] أحد العلماء الذين تعرضوا

---

[1] بوول، صلاح الدين، ص 41.

[2] الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 67، وعن سياسة التجبر والتعذيب والإرهاق المادي التي كان يمارسها حاكم نابلس من قبل الفرنج بحق الأهالي في جَمّاعِيل. انظر: النص الذى أورده الحافظ ضياء الدين المقدسي، ابن طولون الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 67، عن هجرة المقادسة بعد استيلاء الفرنج على أراضيهم وديارهم. انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 93-94.

* جَمّاعِيل: هي قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج2، ص 159-160. وقد ذكر مصطفى الدباغ أنها وردت خطأً عند ياقوت باسم جَمّاعِيل وصحيحها جماعين لكثرة من ظهر فيها من جماعين للعلم وهي قرية تقع من الجنوب الغربي من نابلس. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج2، ق2، ص 465.

[3] هو ولد الشيخ أبو عمر المقدسي، والشيخ الموفق المقدسي كان خطيباً لقرية جَمّاعِيل ففر بدينه من الفرنج لدمشق كان دائم الترحال لطلب العلم عمل مدرساً للقرآن الكريم والحديث النبوي، وكان زاهداً

للتهديد من قبل الفرنج لاتهامه بتحريض الفلاحين ضدهم مما دفعه للهجرة خوفاً على نفسه[1]، فكان خروجه لدمشق في النصف الثاني للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، لما كانت تحظى به من أمن وعدل وتشجيع للعلم والعلماء في عهد ملكها نور الدين محمود[2].

مثلت هجرة آل قدامة (المقادسة) من جَمّاعِيل في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي واحدة من أبرز الهجرات الجماعية التي شهدتها فترة الحروب الفرنجية، وربما يعود السبب في ذيوعهاإلى شهرة هذه الاسرة من ناحية علمية، وبروز عدد كبير من علمائها ممن عرفوا ببراعتهم في الفقه والحديث وعلوم القرآن أثناء فترة الدراسة في الشام تحديداً ومصر من بعدها، وبالتالي الاهتمام بتدوين سيرهم وتناقل أخبارهم[3]، ويضاف إليها سبب آخر متعلق بالسياسات السلبية، وبأشكالها المختلفة التي مارسها الفرنج في الشام والتي استهدفوا فيها فئة العلماء، وعمدوا إلى كبح حرياتهم الفكرية لما لها من تأثير بالغ في المجتمع المحلي ومن رفضٍ لسياسة الفرنج نحو بلادهم[4].

صالحاً قانتاً. انظر: الذهبي، العبر، ج3، ص 29؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص 101؛ الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 68.

(1) لقد كان الشيخ الفقيه أحمد بن قدامة ذو علم وافر حتى أن الناس كانوا يخرجون من القرى المجاورة لتلقي العلم على يديه ولسماع خطبة الجمعة عنده. انظر: الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 68.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 174.

(3) انظر: أبو شامة، الذيل، ص 157-159، ص 109-115؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 100؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 3-5، ص 186. انظر: أيضاً سيرة الشيخ موفق الدين المقدسي في جزئين من تأليف الضياء المقدسي؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 136، وأيضاً كتاب سبب هجرة المقادسة إلى دمشق، وكرامات مشايخهم في عشرة أجزاء. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 239. ولمزيد من التفاصيل عن أعلام هذه الأسرة. انظر: مصطفى، آل قدامة والصالحية، ص 8، 26-29.

(4) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 68.

ترجع بداية هجرة هذه الأسرة (آل قدامة) لدمشق إلى شهر رجب من عام 551هـ/1156م، إذ كان الشيخ أحمد بن قدامة أول من هاجر منهم، وبرفقته عدد من أقاربه[1]. وبعد إقامته ببضعة أيام فيها أرسل كتاباً لابنه الشيخ أبي عمر المقدسي[2]، يدعوه للخروج هو وأقاربه، وتمكنوا من الوصول لدمشق بعد فترة وجيزة على الرغم من المضايقات التي لاقوها من الفرنج أثناء رحلتهم[3]، وقد ضمت هذه الاسرة من بين مهاجريها عدداً من العلماء[4]، ثم تتابعت هجرتهم فيما بعد، لم تلبث أن امتدت لتطال هجرة قرى أخرى محيطة ببيت المقدس[5].

نزل المقادسة (آل قدامة) في مسجد أبي صالح بالباب الشرقي لدمشق ومكثوا فيه سنتين، ثم انتقلوا في السنة الثالثة وقيل في الرابعة إلى جبل قاسيون حيث قاموا ببناء الدير المعروف بدير الحنابلة[6]، حتى دعيت منطقة سكناهم واستيطانهم بالصالحية[7].

كشفت هجرة علماء المقادسة عن تلاحم المسلمين وتوحد صفوفهم، وبدا ذلك جلياً بموقف علماء دمشق الذين بادروا إلى مساعدة بني قدامة (المقادسة) الهاربين من بطش الفرنج، فخرج القاضي كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة

---

(1) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 67.

(2) هو محمد بن أحمد المعروف بشيخ الصالحية والمقادسة، ولد سنة 528هـ/1133م بجَمّاعِيل، سمع الحديث من ولده، انتقل لمصر وسمع بها وكان يكتب مصاحف كثيرة دون أجر. كانت وفاته عام 607هـ/1210م. أبوشامة، الذيل، ص 109؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 58-61؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص52-53.

(3) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 70-73.

(4) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 68-71.

(5) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 72-76.

(6) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 552؛ الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 80-82.

(7) وعن أصل تسميتها بالصالحية، والاختلاف حولها بين النسبة لمسجد أبي صالح أو لصلاحهم. انظر: أبو شامة، الذيل، ص 109؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 52؛ الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 64-66.

لتفقدهم والاطمئنان عليهم، وعرض على الشيخ أحمد بن قدامة مساعدة مالية تبلغ ألف دينار، فامتنع، فما كان من القاضي كمال الدين إلا أن اشترى قرية تدعى الهامة بوادي بردى ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة[1]، فكان لموقفه هذا دلالته الهامة المتمثلة بإدراك علماء المسلمين خطورة هذه المرحلة وأهمية دورهم في المقاومة.

وضرب القاضي شرف الدين بن أبي عصرون صورة واضحة للعلاقة المتينة التي كانت تربطه مع علماء آل قدامة (المقادسة)، وتجلت معالمها بزيارته لهم، وتبادل الآراء الفقيه معهم، إلا أن كثرة تردده عليهم، وأخذهم عنه بعض المسائل الفقهية أدى إلى قيام بعض الحنابلة بالتشنيع على الشيخ الموفق المقدسي وبعض علماء المقادسة، واتهامهم بالأشعرية لملازمتهم إياه مما دعاهم للانقطاع عنه[2]، ومع ذلك بقي مستمراً في دعمهم ومؤازرتهم، وظهر ذلك جلياً بعد خلافهم مع بيت الحنابلة على وقف جامع أبي صالح فكان لشهادته فيهم أمام الملك نور الدين محمود أنهم من أهل العلم وحفظة القرآن أثرٌ في تحسين صورتهم وتعاطفه معهم مما دعاه أن يكتب لهم كتاباً بالوقف وتسليمه إليهم[3].

حرص الملك نور الدين محمود على بناء علاقة وثيقة بالمقادسة دل على ذلك دعمه لهم وزياراته المتكررة للشيخ أحمد بن قدامة، وإحضاره لهم ما يحتاجونه من غذاء وغيره[4]، وعظمت مكانة الشيخ عنده حتى أن طلباته كانت مستجابة[5]،

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 341؛ ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 403-404.

(2) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 80.

(3) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 79.

(4) الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 82.

(5) انظر: حادثة إصلاح الملك نور الدين محمود لمسجد الحنابلة بعد أن طلب الشيخ أحمد بن قدامة منه ذلك. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج8، ق1، ص 314؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 58

وقد حملت سياسة نور الدين هذه معاني كثيرة منها تأييده لمواقفهم الواضحة في مقاومة الفرنج عن طريق تعبئتهم الفكرية لأبناء مجتمعهم وخاصة - إن أخذت بعين الاعتبار - ما أشار إليه الحافظ الضياء المقدسي من أن بيت الشيخ أحمد بن قدامة كان ملتقى يجتمع فيه الناس لأنهم كانوا ناقمين على الفرنج لإخراجهم من ديارهم، وهذا فيه تأكيد على جهود[1] علماء آل قدامه (المقادسة) في التصدي للغزو الفرنجي.

لم يقتصر الدعم الذي تلقاه علماء المقادسة من علماء الشام فقط، بل كان لعلماء الحنابلة في بغداد مساهمة فاعلة من خلال إعدادهم فكرياً بتسليحهم بالعلم، وتدريسهم الفقه والحديث لتمكينهم من المشاركة في عملية التعبئة لتهيئتهم الناس حتى يتصدوا للفرنج، وبرز ذلك واضحاً من خلال مدرسة الشيخ[2] عبد القادر الجيلي (الجيلاني)[3]، حيث وشكلت المدرسة مأوى لطلبة العلم من المقادسة فنزل فيها كل من الشيخ الموفق[4]، والشيخ عبد الغني[5]، فاشتغلوا وتتلمذوا على يد الشيخ

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج8، ق1، ص 314؛ الصالحي، القلائد الجوهرية، ص 252.

(2) تنسب هذه المدرسة للشيخ عبد القادر الجيلي لتدريسه فيها وقيامه بتوسعتها. الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص 174.

(3) عبد القادر بن أبي صالح ولد بكيلان، وقيل جيلان عام 490هـ/1096م، دخل بغداد فسمع الحديث وتفقه فيها، وبرع في المذهب حتى صار شيخ الحنابلة، وإمامهم، توفي سنة 561هـ/1165م وإليه تنسب الطريقة الصوفية التي تدعى بالقادرية. ابن الجوزي، المنتظم، ج18، ص 173؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص 373-374؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 290؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج13، ص3900. مادة الحنابلة. والجيلي نسبة إلى بلاد وراء طبرستان ويقال كيلان، وقيل جيلي، وجيلاني. السمعاني، الأنساب، ج11، ص 476.

(4) هو عبد الله بن احمد بن قدامة ولد بجمّاعيل (من أعمال نابلس) عام 541هـ/1146م، كان فقيهاً بارعاً، عمل مفتياً ومناظراً، ووصف بأفقه أهل عصره وتوفي سنة 620هـ/1223م. أبو شامة، الذيل، ص 211-213؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 10؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 133-142.

(5) هو عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، ولد بجمّاعيل، بنابلس عام 541هـ/1146م، نزل بغداد وتفقه فيها وسمع الحديث، إلا أنه كان ميالاً للحديث عمل محدثاً بمصر وبدمشق توفي سنة 600هـ/1203م. انظر: أبو شامة، الذيل، ص 69؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 5-32.

الجيلي[1]، حتى وفاته ثم لازموا من بعده الفقيه الفتح بن المنى[2]، فقرؤوا عليه المذهب والخلاف والأصول حتى برعوا فيه وعادوا لزيارة بغداد ثانية عام 567هـ/1169م[3]، وأدت المساهمة الواضحة لهذه المدرسة إلى تبني بعض الباحثين لفكرة مفادها وجود خطة مرسومة لمقاومة الغزاة الفرنج شارك فيها كل من الشيخ عبد القادر الجيلي والملك نور الدين محمود، وذلك باستقبالها النازحين وإعدادهم ومن ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة مرة أخرى[4]، إلا أنه لا يمكن الحديث عن خطة مرسومة بقدر الإشارة إلى إدراك علماء بغداد لضرورة التعاون مع الملك نور الدين محمود يهدف العمل على تهيئة الناس وحثهم على اجتثاث الفرنج من ديار المسلمين.

كما كان للشيخ أبو البقاء محمود بن عثمان النعال الحنبلي[5]، هو الآخر رباطٌ ببغداد يأوي إليه علماء المقادسة فيقوم بالإحسان إليهم وإكرامهم[6]، وقد ذكر ابن رجب الحنبلي عدداً ممّن سكنوا فيه، وتلقوا علومهم، فذكر: "كان رباطه مجمعاً للفقراء وأهل الدين وللفقهاء الحنابلة الذين يرحلون إلى أبي الفتح بن المنى للتفقه عليه، فكانوا ينزلون به حتى كان الاشتغال فيه بالعلم أكثر من الاشتغال بسائر المدارس، وكان الرباط عامراً بالفقهاء والصالحين، سكنه الشيخ موفق الدين

---

(1) مكثوا عنده خمسون يوماً. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 31-134.

(2) نصر بن فتيان، كان فقيهاً حنبلياً تفقه على يديه العديد من العلماء والحنابلة كما كان قاضياً للقضاة، توفي سنة 583هـ/1187م. وانظر: العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 455.

(3) انظر: أبو شامة، الذيل، ص 69؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 410-411؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 133-134.

(4) عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين الأيوبي، ص 161-164؛ الناصر، الجهاد والتجديد، ص 69.

(5) كان فقيهاً وواعظاً ومحدثاً وقارئاً للقرآن، توفي عام 609هـ/1212م. انظر: أبو شامة، الذيل، ص 126؛

ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 64؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 64..

(6) أبو شامة، الذيل، ص 126.

المقدسي والحافظ عبد الغني، وأخوه الشيخ العماد، والحافظ عبد القادر الرهاوي ومن أكابر الرحالين لطلب العلم"[1].

لمع من هذهِ الأسرة عدد كبير من العلماء برز منهم الفقيه "أبو محمد المقدسي الملقب بموفق الدين"، (ت 620هـ/1223م) الذي كان إماماً بجامع الحنابلة في قاسيون، وإماماً للحنابلة بجامع دمشق، بالإضافة لعمله في التدريس في إحدى حلقات جامع دمشق بعد صلاة الجمعة[2]، وبرع في الفقه وأخذ شهرته هذه من مصنفاته الكثيرة ومنها المغني في الفقه: والكافي، والشافي، والمقنع في الفقه، والروضة في أصول الفقه[3]، كما صنف في أصول الدين والحديث، مما يعني أنه كان إماماً بالعلوم الدينية جميعها في التفسير والحديث والفقه كما كان بارعاً في النحو[4].

وبرز من علماء هذه الأسرة الشيخ أبو عمر المقدسي (ت 607هـ/1210م) الذي عُرف بشيخ المقادسة (وشيخ الصالحية)، فكان من كبار علماء المقادسة في الشام دل على علمه تعدد معارفه في العلوم الدينية، إذ كان بارعاً في قراءة القرآن وحافظاً مختصر الخرقي في الفقه، كما واستفاد من علم أخيه الموفق فكتب له كتاب المغني في الفقه، كما كتب كتاب الحلية لابن نعيم الأصبهاني وتفسير البغوي، وكان له مصنفات خاصة مثل التوابين الذي كان كتاباً

---

(1) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 64.

(2) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، 410-411؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 134-135.

(3) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 412؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 100؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 139-140.

(4) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 142؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 166؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 139.

في الوعظ، وكتاب فضل دمشق[1]، واشتهر منهم في الحديث الحافظ عبد الغني المقدسي[2]، وبرزت مشاركته من خلال قراءته للحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة بجامعة دمشق[3]، ومن مصنفاته في الحديث[4]، المصباح في عيون الأحاديث الصحاح وبرز منهم أيضاً كل من الشيخ العماد المقدسي، ودل على نشاطه حلقة قراءة القرآن التي كانت مخصصة له بجامع دمشق بالإضافة لتدريسه الحديث والفقه[5]، والحافظ ضياء الدين المقدسي (ت614هـ/1217) الذي اشتهر بعلمه بالحديث من حيث معرفته برجاله ومعانيه[6]، حتى أنه أنشأ بدمشق مدرسة لتدريس الحديث عرفت باسمه (الضيائية)[7]، وصنف فيها مصنفات كثيرة منها الأحاديث المختارة وكتاب الأحكام وفضائل الأعمال[8]، كما برز علماء مقادسة آخرون[9].

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص 109-114؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 58-59؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 52-53؛ مصطفى، شاكر، (1979). مدرسة الشام التاريخية، ضمن كتاب الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال مؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته 499-1399هـ، وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ص 409-410.

(2) أبو شامة، الذيل، ص 69؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة ، ج2، ص 308.

(3) أبو شامة، الذيل، ص 69.

(4) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ص 18.

(5) أبو شامة، الذيل، ص 158؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 77.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص 65-66؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 236.

(7) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "تاريخ دمشق" ص 58؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص 91.

(8) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص 65-66؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 236.

(9) انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 185-186.

خامساً: الدور التعليمي لأسرة شيخ الشيوخ:

لم تقتصر مساهمة علماء السنة في عملية تنوير الناس ونشر العلوم الدينية بينهم خلال فترة الاحتلال الفرنجي لبلاد الشام ومصر من خلال تعليمهم في المدارس والمساجد، بل كان لهم مساهمة واضحة من خلال الخوانق[1]، والرُّبط[2]، المنتشرة في كل من مصر والشام، والمرتبطة أساساً بالحركات الصوفية[3]، وقد ساعد على نجاحها الاهتمام الكبير الذي حظيت به هذه الطائفة من السلطة السياسية آنذاك بدءاً بالملك نور الدين في الشام مروراً بالدولة الأيوبية ممثلة بالسلطان صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بعده ، مذ قام الملك نور الدين لهم الرُّبط والخوانق في جميع أنحاء البلاد، وأنفق عليهم الأموال، كما كان مشايخهم موضع احترامه وتقديره وبرز ذلك بتقريبه لهم[4]، كما أولاهم السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد تمكنه من السلطة في مصر اهتماماً مماثلاً، فبنى لهم الدور الخاصة لإيوائهم ووقف

---

(1) من كلمة الخوانك وهي كلمة فارسية معناها بيت أو دار الصوفية ثم كثر استعمالها فقيل "خانقاه" بالقاف بدل الكاف، والخوانك حدثت في الإسلام في حدود 400هـ/1009م، وجعلت لتخلو الصوفية فيها لعبادة الله. المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص724.

(2) الرُّبط جمع رِباط هي دار يسكنها أهل طريق الله، قال ابن سيده الرِّباط من الخيل، والرِّباط من المُرابطة، ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل فريق خيله ثم صار لزوم الثغر رباطاً، والرباط المواظبة على الأمر، وقيل أن الرباط كل ثغر يدفع أهله عمن ورائهم رباطاً فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، فالرباط جهاد النفس، والمقيم في الرباط مجاهد نفسه، والرُّباطُ هو بيت الصُّوفيّة ومنزلهم، والرباط دارهم، وعن أصل الرباط والزوايا قيل أن الرسول ﷺ اتخذ الفقراء الصحابة الذين لا أهل لهم ولا مال مكاناً في المسجد، للإقامة فعرفوا بأهل الصفة، ومن هنا أتت كلمة الصوفية. انظر: المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 793-794.

(3) ابن جبير؛ الرحلة، ص 256.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 283؛ Elisseeff, Damas et le djihad Contreles Croises, (Damas), P. 42-43.

عليهم الوقوف الكثيرة، ورتب لهم وجبات من اللحم والخبز[1]، فشهدت مصر إنشاء الخوانق[2]، وتعيين رئيس للصوفية للإشراف على شؤونهم وتلقيبه بشيخ الشيوخ[3].

يرجع اهتمام السلطان صلاح الدين الأيوبي بالصوفية لسبب رئيس هام مرتبط بسياسته التي انتهجها منذ توليه الحكم في مصر، والهادفة إلى إحياء الفكر السني ومقاومة الفكر الشيعي، باستغلال التصوف كسلاح في وجه الدعوة الإسماعيلية وذلك لإشغال المصريين بها بقصد ملء الفراغ الذي تركه القضاء على الدولة الفاطمية وعقيدتها؛ ويعود اختيار الصوفية للقيام بهذا الدور لما لها من تأثير عاطفي يمكن أن تمارسه في هذه الناحية، لكونها من الفئات القادرة المؤثرة لما تتمتع به من زهد في الدنيا وقدرة على مخاطبة الناس، مما جعل الكثير من المصريين يميلون نحوها[4].

وقد برز من بين الطوائف الصوفية أسرة فارسية الأصل عرفت بأسرة شيخ الشيوخ، من بني حموية، واشتهر منهم ما تعارف المؤرخون على تسميتهم بأولاد الشيخ[5].

---

(1) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 728.

(2) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 728.

(3) المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص729.

(4) حسين، محمد كامل، (1954). بين التشيع وأدب الصوفية في عصر الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج1، ج1، ص 57-59؛ بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 240.

(5) كانوا من خراسان موطنهم الأصلي نيسابور ولعلهم من جوين لالحاق اسم الجويني في نهاية أسمائهم، اشتهر أفرادها بالعلم والصلاح والتصوف، أقدم أفرادها الصوفي محمد بن حموية، الذي اشتهر بعلمه وفقهه وتوفي عام 530هـ/1135م. هاجر فرع من هذه العائلة للشام وآخر لبغداد، وأصبح الفرع الذي بالشام، ومصر نفوذ كبير زمن صلاح الدين وخلفائه من بعده. انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 188؛ أبو شامة، الذيل، ص 189-190؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 191. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص 28، ج 4، ص 259؛ الذهبي، العبر، ج3، ص 175. انظر: أيضاً Gottschalk, Awlad Al Shaykh, EI, P. 765-766؛ زيان، العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي (أسرة شيخ الشيوخ)، ص 9.

الذين امتد نشاط بين العراق[1]،ومصر والشام[2]، ويعود السبب في شهرتها إلى مساهمتها في المجالين السياسي[3]، والتعليمي خلال العصر الأيوبي.

أما فيما يتعلق بالناحية التعليمية لهذه الأسرة في مصر والشام فقد ظهرت واضحة برياسة عدد من أفرادها العديد من المؤسسات الدينية التعليمية المرتبطة بالصوفية كالخوانق والربط[4]، إذ تعاقب عدد منهم على تقلد وظيفة مشيخة الشيوخ، والتي يعرف صاحبها بشيخ الشيوخ[5]، وقد عدت من المناصب الدينية والعلمية الرفيعة، والتي جرى العرف أن يكون متوليها من أكابر الدولة وأعيانها[6]، وممن عرف بغزارة علمه[7]. كما شارك علماء أسرة شيخ الشيوخ في الناحية التعليمية من خلال التدريس بالمدارس كالمشهد الحسيني والتدريس بالشافعية[8].

---

(1) عن نشاط هذه الأسرة التعليمي في بغداد. انظر: سبط الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 188. أبو شامة، الذيل، ص 26-27؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 89.

(2) انظر: أبو شامة، الذيل، ص 189-190؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 571-580هـ، ص 242-243؛ المقريزي، الخطط، مج4، ص 729.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 70-71؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 345.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 272؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 154.

(5) اعتبر القلقشندي هذه الوظيفة من الوظائف الدينية وإحدى أصناف وظائف أرباب الأقلام حيث يذكر أن ألقاب مشايخ الصوفية مراتب أولها شيخ الشيوخ. في حين يذكر المقريزي أن كل من كان شيخاً للخانقاه كان يعرف بشيخ الشيوخ. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج11، ص 83، المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 729.

(6) انظر: المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 729.

(7) انظر: أبو شامة، الذيل، ص 189-190؛ الذهبي، العبر، ج3، ص 175؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 571-580، ص 242-243؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص 96-98.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 268؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص 97.

ويعد شيخ الشيوخ أبو الفتح عماد الدين عمر بن علي[1] الصوفي[2] من أبرز علماء هذه الأسرة في الشام[3]، زمن نور الدين زنكي وقد كان يحظى باحترامه وتقديره[4]، حتى ولاه عام 564هـ/1168م مشيخة الشيوخ على الصوفية[5]، فأشرف من خلالها على أمر الربط والزوايا الأوقاف، وشملت ولايته دمشق وحماه وحمص وبعلبك وحلب، وتسمى بشيخ الشيوخ[6]، وعلى الرغم من ترأسه لمشيخة الشيوخ في الشام، إلا أنه مارس التعليم بنفسه من خلال تدريسه الحديث النبوي بديرة السميساطي[7].

لعبت المكانة الاجتماعية[8] التي حظي بها أفراد هذه الاسرة في جعل منصب مشيخة الشيوخ حكراً طوال العصر الأيوبي، فبعد وفاة شيخ الشيوخ عمر عام 577هـ/1181م قام السلطان صلاح الدين الأيوبي بتولية مشيخة الشيوخ بدمشق لولده محمد[9].

---

(1) كان محدثاً كان له ولدين اثنين من أهل العلم، وهما صدر الدين محمد (ت617هـ/1220م) وتاج الدين أبو محمد عبد الله (ت642هـ/1244م). كانت وفاته سنة 577هـ/1179م. انظر: عن ترجمته أبو شامة، الذيل، ص 189-190؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 173؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 82؛ ابن دقماق، نزهة الايام، ص 157؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 154.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص 259؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 230.

(3) يظهر أنه كان مقيماً بمدينة جوين ثم انتقل للشام. انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص 96-97؛ Gottschalk, Awlad Al Shaykh, P. 765.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 308.

(5) النعيمي، الدارس، ج1، ص 154.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 272؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 154.

(7) الذهبي، تاريخ الإسلام وحوادث ووفيات، 571-580هـ، ص 243.

(8) لقد كان صدر الدين-محمد على علاقة نسب باثنين من كبار العلماء وهم، قطب الدين النيسابوري، وشرف الدين بن أبي عصرون. أبو شامة، الذيل، ص 189؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص 97.

(9) هو أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجويني الصوفي، كان فقيهاً فاضلاً وصوفياً صالحاً ولي مناصب كبرى، عمل مدرساً ومفتياً، كانت وفاته سنة 617هـ/1220م. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 91؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص 259؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص 96-97؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 345؛ زيان، أسرة شيخ الشيوخ، العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي، ص 16-19.

وتلقب بشيخ الشيوخ صدر الدين[1]، وبلغ صدر الدين محمد مكانة علمية رفيعة ساهمت بشكل كبير في توسيع نشاطاته التعليمية أثناء فترة الغزو الفرنجي خاصة أنه كان من كبار فقهاء الشافعية، فتولى التدريس بالزواية الغربية بجامع دمشق كما درس بمدرسة جاروخ[2]، ثم انتقل لمصر زمن صلاح الدين الأيوبي وأخيه العادل فأسندت إليه مشيخة الشيوح في دار سعيد السُّعَداء[3]، والتي كانت أول خانقاه تنشأ في مصر عام 569هـ/1173م، كما أسند إليه صلاح الدين أمر الصلاحية عام 587هـ/1191م[4]، وقد رأى البعض أن علاقة الصداقة التي كانت تربطه بالملك العادل كانت سبباً في بلوغه ما بلغه في مصر، حيث ولاه العادل المناصب التي كانت له بدمشق[5]، فأوكل إليه النظر في الخانقاه الكبرى بدار سعيد السُّعَداء[6]، كما ولي أمر التدريس في الشافعي والمشهد الحسيني[7].

(1) أبو شامة، الذيل، ص 189-190.

(2) أبو شامة، الذيل، ص 189-190.

(3) لقد كانت خانقاه سعيد السُعداء من أشهر الخوانق بمصر، أنشاها صلاح الدين الأيوبي بعد تملكه مصر، وعملها برسم الفقراء والصوفية الوافدين من البلاد الشاسعة، ووقفها عليهم، وولى عليها شيخاً ورتب لسكانها من الصوفية الطعام، وكان معظم ساكنيها من أهل العلم، والصلاح وقد عرفت بالصَّلاحيّة نسبة لمنشأها وعرفت بسعيداء السعداء نسبة إلى الأستاذ قَنْبَر ويقال عَنْبر ويقال بَيَان، وهو أحد خدام الأساتذة، وخدام القصر الفاطمي، عتيق الخليفة الفاطمي المستنصر، ويقال أن لقبه سعيد السُعداء الذي قتل عام 544هـ/1149م. انظر: المقريزي، الخطط، مج4، ق2، ص 727؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص 242؛ حسين، بين التشيع وأدب الصوفية، ص 57-58.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 172؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 345.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 268، في حين ذكر أبو الفداء أن صدر الدين محمد كان يعرف بشيخ الشيوخ في كل من مصر والشام، مما يعني أنه تقلد منصب شيخ الشيوخ في الدولتين. انظر: المختصر، ج1، ص 43.

(6) أبو شامة، الذيل، ص 189-190؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 345.

(7) انظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 268؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 345.

وأسهم أولاده الأربعة من بعده – الشيخ عماد الدين[1]، والصاحب كمال الدين[2]، والأمير معين الدين[3]، والأمير فخر الدين[4]–، في الحركة التعليمية بتقلدهم المؤسسات التعليمية التي كانت لوالدهم[5].

لم يكن الهدف من عرض مساهامت آل الشيخ في النهضة التعليمية أثناء فترة الغزو الفرنجي، إلا لغاية التمهيد لمشاركتهم في القتال ضد الفرنج وخاصة الأمير فخر الدين.

سادساً: أهمية العلماء ومكانتهم أثناء الغزو الفرنجي لمصر والشام في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية:

بلغ العلماء إبان الغزو الفرنجي لمصر والشام وخاصة في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية مكانة رفيعة لا يدانيهم فيها أحد فنالوا احترام السلاطين والملوك حتى رغبوا في مجالستهم والتقرب منهم فعظمت مكانتهم أيام الملك نور الدين محمود إذ لم يكن أحد من الأمراء يجرؤ على الجلوس عنده لهيبته، في حين كان إذا دخل عليه عالم مشى إليه وأجلسه إلى جانبه[6]، احتراماً وإجلالاً له، كما كان لشدة

---

(1) هو عمر بن محمد المنعوت بالصاحب الرئيس عرف بتعصبه للمذهب الشافعي توفي عام (636هـ/1238م).أبو شامة، الذيل، ص 257؛ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص 316.

(2) هو أحمد بن محمد كان محدثاً نافذ الكلمة عند بني أيوب ومقدماً لعسكر الصالح نجم الدين أيوب توفي بغزة عام (640هـ/1242م). أبو شامة، الذيل، ص 264؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص 74.

(3) الحسن بن محمد عمل مدرساً زمن الملك الكامل والصالح نجم الدين أصبح وزيراً توفي (643هـ/1245م). أبو شامة، الذيل، ص 273؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص 244.

(4) يوسف بن محمد كان ببداية حياته عالماً يلبس العمامة، ثم تزيا بزي الجند توفي (647هـ/1249م). الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص 366-367؛ الذهبي، العبر، ج3، ص 258.

(5) الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص 366-367؛ الذهبي، العبر، ج3، ص 228؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص 74؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 261.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 312.

حبه للعلم والعلماء أن حفلت مجالسه بهم وبشكل دائم[1]، حتى أصبحوا موضع حسد بعض الأمراء في عهده كما حصل مع الفقيه قطب الدين النيسابوري الذي حسده أحد الأمراء وتجرأ عليه أمام الملك نور الدين لقربه منه فما كان من نور الدين إلا أن وبخ الأمير، وهدده مبيناً له أجر العالم منزله وفضله[2]، كما بلغ كثير من العلماء عند نور الدين مكانة كبيرة كالقاضي كمال الدين الشهرزوري[3].

حظي العلماء بمكانة مماثلة عند السلطان صلاح الدين فقد كان هو الآخر محباً لهم ولمجالستهم وقد وصف المؤرخ والطبيب عبد اللطيف البغدادي أحد مجالسه في القدس فقال: "وأول ليلة حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع"[4]، ومما يدل على المكانة التي بلغها العلماء عنده توليته إياهم المناصب الرفيعة في الدولة كالدواوين والقضاء برز منهم القاضي الفاضل[5]، والعماد الأصفهاني[6]، فكان القاضي الفاضل في عهده نافذ الكلمة وصاحب السيف

---

(1) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 47؛ شوفيل، صلاح الدين، ص 37.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 171؛ ابن واصل مفرج الكروب، ج1، ص 284؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 39.

(3) انظر: الدرجة التي وصل إليها كمال الدين الشهرزوري عند الملك نور الدين إذ أصبح قاضية ووزيره ومشيره. العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 403؛ مؤنس، نور الدين محمود، ص 396-397.

(4) السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 347-348؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 581-590هـ، ص 355.

(5) قال السبكي عن القاضي الفاضل: "كان صديق السلطان صلاح الدين، وعضده، ووزيره، وصاحب ديوان إنشائه، ومشيره، وخليطه وسميره"؛ طبقات الشافعية، ج7، ص 166-167.

(6) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج19، ص18.

والقلم لا يصدر السلطان إلا عن رأيه ولا يمض في الأمور إلا بمضائه[1]، كما كان القاضي بهاء الدين بن شداد نديماً للسلطان صلاح الدين وملازماً له في حله وترحاله[2]، وكان لقربه منه ورجاحة رأيه وعلمه أن أصبح مستشاره[3]. وكذلك كان الواعظ ابن نجا ودلّ على مكانته عنده ما جرى بينهما من مراسلات[4].

وقد نجح الملوك الزنكيين والأيوبيين في كسب العلماء إلى جانبهم بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجوها فعمدوا إلى زيارتهم والإغداق عليهم، ووقف الوقوف عليهم فكان دعمهم هذا سمة مميزة للعلاقة الوطيدة بينهما، وكان لذلك كله أسبابه ودوافعه، إذ كان جزءًا من سياسة عامة انتهجوها اعترافاً بفضلهم وتقديراً لدورهم في تفقيه الناس بأمور دينهم، ومساهمتهم في التعبئة الفكرية من خلال حض الناس على مقاومة الغزاة ، والأمثلة على ذلك كثيرة[5].

لم تمنع مكانة العلماء وقربهم من أصحاب القرار السياسي من توجيه النصائح لهم وانتقاداهم فقد ذكر ابن فضل الله العمري إن الإمام البلخي أفتى ذات يوم بفتوى في دمشق لم يعمل فيها في ديوان الملك نور الدين محمود مما أغضبه وجعله يغادر دمشق فما كان من نور الدين إلا أن خرج على أثره لرده[6]. كما أبدئ

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 434. انظر: أيضاً الدور الكبير الذي لعبه القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين من خلال قوله أبي شامة: "وكانت الدولة بإداته تدل، والزلة بإزالته تزال". الروضتين، ج4، ص 280.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 10.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 186.

(4) أبو شامة، الذيل، ص 54-55؛ الروضتين، ج3، ص 137-139.

(5) انظر: زيارة الملك نور الدين محمود والشيخ أبو البيان الحوراني سنة 551هـ/1156 في رباطه بدمشق وإيقاف الوقوف عليه. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 235. وانظر: كذلك إكرامه للفقيه قطب الدين النيسابوري، وكمال الدين الشهرزوري. ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 171؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 168. انظر: وقوف السلطان صلاح الدين على فقهاء الإسكندرية. ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ص 156؛ المقريزي، السلوك،ج1، ص 63.

(6) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 113.

الحافظ السلفي رأيه بصراحة في حضرة السلطان صلاح الدين عند كلامه في مجلسه أثناء قراءة الحديث النبوي الشريف[1]، وأما الحافظ ابن عساكر فقد بلغت الجرأة به إلى انتقاد مجلس السلطان صلاح الدين بحضوره لقلة هيبة مجلسه، وكثرة المتكلمين فيه من غير استئذان حتى استقام مجلسه[2].

استمرت مكانة العلماء وعلاقتهم الحسنة بسلاطين بني أيوب بعد وفاة السلطان صلاح الدين[3] طوال العصر الأيوبي فقد بقي القاضي بهاء الدين بن شداد يحظى باحترام أبناء السلطان صلاح الدين دل على ذلك تفويض الملك الظاهر صاحب حلب له أمر القضاء[4].

وعلى الرغم من حدوث بعض التوترات والضغوطات السياسية في دمشق بتأثير وزير الملك الأفضل في دمشق الضياء بن الأثير والتي كانت سبباً في مغادرة بعض العلماء لدمشق إلى مصر مثل القاضي الفاضل، ومحي الدي بن شرف الدين بن أبي عصرون سنة 589هـ/1193م[5]، إلا أنهم استمروا على وفاق مع السلطة وحظوا بتقديرها فقد أدرك الملك العزيز مكانة القاضي محي الدين بن أبي عصرون فولاه قضاء الديار المصرية[6]، كما كان الملك الكامل محباً لهم ولمجالسهم[7]، وبلغ

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 37-38.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 323.

(3) انظر: مكانة القاضي بهاء الدين بن شداد عبد الملك الأفضل فقد كان يشاوره في جليل الأمور ودقيقها؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 8. انظر: كتاب التعزية الذي بعثه العماد الأصفهاني للملك الأفضل بوفاة والده. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 8. انظر: أيضاً كتاب التعزية الذي أرسله القاضي الفاضل للملك العادل بوفاة ابن أخيه الملك العزيز بن صلاح الدين عام 595هـ/1198م بالقاهرة. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 260. انظر: أيضاً ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 8.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 18.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق 1، ص 115-118.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق 1، ص 118.

(7) أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 63؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 258-259.

العلماء في عهده مكانة عظيمة وخاصة أولاد شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه الذي حاز كل منهم في عهده على فضيلتي السيف والقلم فكانوا يباشرون التدريس ويتقدمون على الجيش[1].

كما حظي العلماء في عهدي الملك المعظم عيسى والملك الأشرف بمكانة هامة إذا أقبل هؤلاء عليهم ووطدوا علاقتهم بهم[2].

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج6، ص 63؛ المقريزي، السلوك، ق1، ص 258-259.

(2) انظر: مكانة جمال الدين الحصيري الحنفي عبد الملك المعظم وحرصه على سماع دورسه. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 97-98؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 178. انظر: كذلك علاقة الملك الأشرف بالحافظ جمال الدين المقدسي وبناءه له داراً للحديث. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 186.

الفصل الثاني

دور العلماء في إبراز فكرة الجهاد



أولاً: أصل فكرة الجهاد في الإسلام وأهدافها

ثانياً: دور الفقيه والمحدث الدمشقي أبو طاهر السلمى

ثالثاً: استغاثات علماء الشام بالسلطة السياسية ببغداد

رابعاً: مساهمات الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الحث على الجهاد

خامساً: فكرة الجهاد بين العلماء والسلطة (القادة)

سادساً: نشاط القاضي الفاضل في الحث على الجهاد

سابعاً: دور العماد الأصفهاني في الحث على الجهاد

ثامناً: دور الفقيه بهـــاء الدين بن شداد في الحث على الجهاد (584-589هـ) (1188-1193م)

تاسعاً: خطب الجهاد وأثرها في الحث عليه (خطبة القاضي ابن الزكي نموذجاً)

عاشراً: مجالس الوعظ ودورها في الحث على الجهاد

حادي عشر: دور الإمام المنذري في الحث على الجهاد

أولاً: أصل فكرة الجهاد في الإسلام وأهدافها:

ارتبط مفهوم الجهاد بظهور الإسلام إلا أن معالمه لم تبرز بوضوح إلا بعد مراحل من بدء الدعوة الإسلامية، والمتمثلة بأوضاع الجماعة الإسلامية في مكة، وما تخللها من مضايقات ومواجهات مع مشركي قريش، حتى تزايدت تلك الاعتداءات الأمر الذي دفع الرسول ﷺ وأصحابه للهجرة للمدينة، وهناك أَذن الله له بقتال الكفار حيث نزلت الآية: "**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**"[1] فكانت هذه أول آية نزلت في القتال. ثم فرض الله على المسلمين قتال من يقاتلهم لقوله تعالى "**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**"[2] ومع حلول السنة الثانية للهجرة اتضحت مشروعية الجهاد بفرضه[3] على المسلمين لقوله عز وجل: "**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**"[4].

لم تكن فكرة القتال تروق للبشر، غير أن الضرورة بررتها، ومع ذلك عبّرت بعض فئات المسلمين مع قيام الدولة عن نفورها من القتال وتخلفها عنه، فكان ذلك سبباً في نزول بعض الآيات التي ترغب فيه، وتحذر من التخلف عنه

---

(1) سورة الحج، آية 39، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في القتال بعد خروج الرسول ﷺ من مكة مهاجراً حيث أُذن للمسلمين بمجاهدة الكفار بالسيف. انظر: الطبري، تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، ج5، ص 437-438؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص 68-69.

(2) سورة البقرة، آية 190.

(3) أكد الفقهاء على أن الجهاد فرض على المسلمين وهو فرض كفاية فإذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم، ويحمي ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقين. انظر: ابن حزم، المحلّى، ج7، ص 291، الغزالي، الوجيز في فقه الإمام الشافعي، ج2، ص 188. ولكن إذا ما غُزي المسلمون في عقر دارهم يصبح الجهاد فرض عين. انظر: ابن حزم، المحلى، ج7، ص 292، شلبي، الجهاد في الإسلام منهج وتطبيق، ص 19.

(4) سورة البقرة، آية 216.

لقوله تعالى: "إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[1].

ونظراً لأهمية هذه الفريضة فقد حظيت باهتمام كبير من العلماء والمحدثين فألفوا فيها كُتباً لبيان أهميتها، والحض على تأديتها كان من أبرزها وأقدمها كتاب "الجهاد" لعبد الله بن المبارك والذي جمع فيه معظم أحاديث الجهاد[2].

حفل التاريخ الإسلامي بالعديد من المواجهات العسكرية مع المشركين على أثر مداهمتهم لديار المسلمين، وتحديداً من قبل الروم البيزنطيين، الفرنج من بعدهم؛ ولهذا فقد كان أمراً بدهياً أن يتصدى المسلمون لهذا الغزو ويقاومونه بطرق شتى، وأن تبرز هنا وهناك دعوات ونداءات تطالب بالجهاد ضد المعتدين وإخراجهم امتثالاً لشرع الله، ونصرة للدين، ورداً للطارئيين، وكان العلماء هم من تصدى لهذا الخطاب.

سيطرت فكرة جهاد الفرنج (الصليبيين) على المشرق الإسلامي طوال القرنين السادس والسابع الهجريين، إلا أن مقاومة العلماء في هذه الفترة لم تكن هي الأولى من نوعها ضد الغزو الخارجي بل سبقها مقاومتهم للبيزنطيين عندما هددوا المشرق الإسلامي في القرن الرابع الهجري، ومن الأمثلة، مقاومة الإمام القفال الشاشي[3]، وقيادته جمعاً من المتطوعين من خراسان عام 355هـ/970م والمسمى بـ"عام النفير" قاصدين الريّ ومطالبين بجيش لمعاونتهم على جهاد الروم[4]. كما

---

(1) سورة التوبة ، آية 39.

(2) عبد الله بن مبارك. الجهاد، تحقيق نزيه حماد، دار النور، بيروت، 1971.

(3) محمد بن علي بن إسماعيل، كان إماماً في التفسير، والحديث، والأصول، كان له الفضل بنشر المذهب الشافعي فيما وراء النهر، توفي عام 365هـ/ 975م. وانظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج3، ص 200.

(4) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 28-29.

برزت مقاومته من خلال قصيدته التي يرد فيها على ملك الروم ويحرض فيها على الجهاد، وأضيف لذلك كله بأنه كان أحد المشاركين في الجهاد ضد الروم[1].

كما ظهر تصدي الفقهاء للروم مرة أخرى في بغداد عام 362هـ/972م تمثلت باستنفار أهلها وولاة الأمر فيها حتى خرج جيشٌ منها لقتال الروم[2].

بدأ الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وتحديداً في عام 490هـ/1096م[3]، حيث كانت الشام مسرحاً لذلك الصراع الذي امتد ليشمل مصر عام 562هـ/1166م[4]، وقد بدأت مقاومة هذا الغزو منذ اللحظات الأولى له سواء كان ذلك على الصعيد الرسمي أو غير الرسمي، ولكنها بشكل متقطع. وتمثلت المقاومة الرسمية لدولة السلاجقة[5]، والإمارات المستقلة في الموصل، وحلب، ودمشق[6]، والفاطميون في مصر بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي[7]، في حين تمثلت مقاومة القوى غير الرسمية بوضوح ممثلةً بالعلماء والأدباء والشعراء. حيث كان لهذه الفئات دورها الفاعل والمؤثر في المقاومة.

كانت فئة علماء الدين الأكثر تأثيراً لما للدين من أثره في المجتمع ووقعه في النفس، فكان المحرّك الأقوى للجهاد ضد الفرنج (الصليبيين) سواء كان شعوراً بالواجب الديني، أم تقرباً من السلطة وخدمة لها.

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج3، ص 205.

(2) انظر: أسماء الفقهاء الذين شاركوا في استنفار أهل بغداد للجهاد عند ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص 214.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 134-136؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 43؛ ابن الأثير الكامل، ج8، ص 97-190.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 7-9؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 282-283.

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 43-123؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 399-401.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 399-400.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 407-408؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا ، ج3، ص 282-283.

تعددت وسائل الجهاد[1] وصوره في الإسلام فتراوحت بين الجهاد بالمال والنفس[2] وبين الجهاد باللسان. ويقصد بالجهاد باللسان كل ما من شأنه أن يكون له تأثيره على العدو بالكلمة والحجة، وقد كان الجهاد باللسان أحد الوسائل الهامة التي استخدمها العلماء في التصدي للمشركين في عهد الرسول ﷺ لما ورد عن حسان بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال له أثناء الصراع مع المشركين: "يا حسان أهُج المشركين وجبريل معك، إذا حارب أصحابي بالسلاح فحارب أنت باللسان"[3]. كما روي عن الرسول ﷺ قوله: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"[4]. وقد يكون الجهاد باللسان أكثر فاعلية من غيره من أنواع الجهاد. إذ قد يسبق جهاد السيف لأنه يدخل إلى أعماق النفس البشرية، ويتصل اتصالاً مباشراً بالإيمان[5]. بمعنى أهميته في تحريض الهمم وشحذها لمجابهة العدو.

تنوعت أساليب العلماء في إبراز فكرة الجهاد، خلال الفترة الممتدة 492-648هـ(1099-1250م). وقد شكّل القرآن، والحديث النبوي الشريف المادة الأساسية التي انطلق منها علماء الدين لبث هذه الفكرة، فاستشهدوا بالآيات التي تحث على الجهاد، كما استفادوا كثيراً من الأحاديث النبوية المتعلقة بالجهاد لحفز

---

(1) الجهاد من جهد: الجَهد والجُهُد وتعني الطاقة نقول اجهد جهدك، وقيل الجَهْد المشقة والجُهد الطاقة. وقد أشار ابن الأثير إلى تكرار لفظة الجَهد والجُهد في الحديث وقد تعني المشقة، أو المبالغة والغاية، وقد تعني الوسع والطاقة. وجاهد العدو مجاهدة وجهاداً. قاتله، وجاهد في سبيل الله، وفي الحديث لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيَّة: الجهاد محاربة الأعداء، والمبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. والجهاد يعني: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان، أو ما أطاق من شيء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص 395-397، مادة جهد.

(2) قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ". سورة الصف، آية 10-11.

(3) علاء الدين الهندي، كنز العمال، ج1، ص 316: الشعر المحمود، حديث رقم 7995.

(4) أخرجه النسائي، ج6، ص 7، باب وجوب الجهاد. وكذلك أخرجه أبو داود (2504) في الجهاد، باب كراهية ترك الغزو.

(5) أبو سخيلة، أحكام الجهاد في الإسلام، ص 61.

الناس، والجند بشكل خاص. وكان من نتائج ذلك أن تعددت أساليبهم في توعية الأمة بمخاطر الغزو الفرنجي، والحث على الجهاد مما كان له أثر كبير في توسيع دائرة المقاومة، من دروس تلقى في حلقات المسجد، ومواعظ وخطابة وتدريس للحديث، واستغاثات مبكية على أعتاب دار الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية منددة بضعف المسلمين، وقادتهم داعية إلى العون والمساعدة، وتلبية نداء الجهاد.

ثانياً: دور الفقيه والمحدث الدمشقي أبو الحسن السُّلمي:

ساهم الانقسام السياسي الذي شهدته بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بدور كبير في نجاح الفرنج، وإحكام سيطرتهم عليها، وسقوط مدنها واحدة بعد أُخرى، فقد سقطت نيقيه عام 490هـ/1096م[1]، وأنطاكية في جمادى الأولى من عام 491هـ/1098م بعد أن تمكنوا منها من خلال تواطؤ أحد سكانها الأرمن مع الفرنج وتسليمهم إياها فسبوا نساءها وأطفالها[2]. وعلى الرغم من محاولات عسكر الموصل استعادة المدينة بعد سقوطها، بمحاصرتها وتضييق الخناق على الفرنج فيها، إلا أن جهودهم باءت بالفشل لانقسامهم وانعدام وحدتهم[3]. ونتيجة لضعف المقاومة الإسلامية آنذاك وعجزها عن الوقوف في وجه الغزاة لإفتقداهم لقيادة موحدة تقودهم هب علماء المسلمين في الشام للتصدي لهذا الغزو قبل استفحاله وامتداده لسائر مدن الشام، مركزين بذلك على الدعاية للجهاد وقد تصدّر الفقيه والمحدّث الدمشقي أبو الحسن السلمي[4] هذه المقاومة.

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 135.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 135.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 136؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 400.

(4) علي بن طاهر بن جعفر السُّلمي النحوي الدمشقي، ولد عام 431هـ/1039م، كان فقيهاً ثقة ديناً، وراوية للحديث، كانت له حلقة في الجامع الأموي بدمشق، وقف فيها كتبه، توفي بدمشق عام 500هـ/1106م. انظر: السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج9، ص 1؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج14، ص 257-259؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج21، ص 154-155؛ القفطي، أنباه الرواة، ج2، ص 283؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص 170.

جاءت ردة فعل العلماء على أحداث غزو الفرنجة لديار المسلمين سـريعة ومبكرة منذ اللحظات الأولى له أثناء نزولهم على أنطاكية[1]. وتمثل ذلك واضـحاً بموقف الفقيه السلمي الذي كان أول من نبه إلى مخاطر الغزو، ودعا إلى مقاومته بالحض على الجهاد تارة، وبالوحدة تارةً أخرى من خلال دروسه ومجالسه التي كان يعقدها في المسجد الأموي بدمشق، لتوعية أبناء الشام، وحفزهم على الجهاد، وقد جمعت دروسه في كتاب من اثني عشر جزءًا تحت عنوان "كتاب الجهاد"[2]. ولعل في دروسه هذه تأكيداً على دور المسجد كمركز هام من مراكز المقاومة خلال هذه الفترة. وقد علق (هولت) Holt على مجالس السلمي هذه بالإشارة إلى أن الدعوة للجهاد ضد الفرنج بدأت من دوائر العلماء والكتاب والأتقياء وليس في مجالس الحكام[3].

تناول الفقيه أبو طاهر السلمي في دروسه وخطبه في المسجد الأموي بدمشق ثلاث قضايا أساسية وهامة مرتبطة مباشرة بمقاومة الغزو الفرنجي، والجهاد ضدهم. ركز في الأولى على السلطة السياسية في المشرق الإسلامي والواجب الملقى على عاتقها في فرض الجهاد، والدفاع عن البلاد من الأعداء[4]. أما الثانية فتمثلت بإحياء فكرة الجهاد في نفوس أهل الشام وحفزهم على القتال[5]، أما الفكرة الثالثة فبرزت في الدعوة لوحدة العالم الإسلامي، ونبذ الفرقة بين شعوبها وقادتها[6].

---

(1) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 176.

(2) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 173.

(3) Holt, the Age of the Crusades, P. 27.

(4) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 174-177.

(5) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 174-177.

(6) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 189.

كان الفقيه السلمي أول العلماء المسلمين إدراكاً للواقع السياسي عشية الغزو الفرنجي (الصليبي) للشام فاجتهد لإبراز مخاطره، والكشف عن أسبابه، وطرق معالجته، حيث حمّل ولاة المسلمين نجاح ذلك الغزو لتركهم فريضة الجهاد، فكان ذلك سبباً في انقسامهم، وطمع الأعداء ببلادهم لقوله: "وأما الإجماع فقد وقع بعد النبي ﷺ من الخلفاء الأربعة، وجميع الصحابة على وجوب الجهاد على الكافة ولم يتركه أحد منهم.. ولم يزل الأمرُ كذلك إلى الوقت الذي تركه بعض الخلفاء لضعفه وقصور يده عنه. ثم اتبعه على ذلك غيره. فأوجب قطعه مع ما أطرّحه المسلمون من المفترضات اللازمة لهم واحترصوه من الأمور المحظورة عليهم [إلى] أن شتت الله شملهم، وخالف بين كلمتهم وألقى العداوة والبغضاء بينهم وأطمع أعداءهم في انتزاع بلادهم من أيديهم.."[1].

ركّز السلمي في خطبه ودروسه على مسألتين هامتين مرتبطتين ببعضهما وهما: المحافظة على فريضة الجهاد، ودور القيادة السياسية فيها؛ لما للجهاد من أهميةٍ بالغة في المحافظة على هيبة الدولة وكيانها إضافة لفضله وثوابه عند الله عز وجل. وقد اعتبر السلمي أن الجهاد من مسؤوليات السلطة وواجباتها وتمثل بدعوته السلطان أو الخليفة بتسيير الغزوات بنفسه أو إرسال من ينوب عنه، خوفاً من تعطل فرض الجهاد[2]. وحذر من تركه، مبيناً لهم أن من واجبات الحاكم نُصح المسلمين والدفاع عنهم وعن بلادهم، وبخلاف ذلك فإنه سيلقى عقاباً آلهيا[3].

تميز السلمي عن غيره من علماء المسلمين بدور السبق في الكشف عن أبعاد الحرب الفرنجية (الصليبية) على العالم الإسلامي، فرأى فيها حرباً دينية، وأنها جزءٌ من هجوم عام يستهدف الإسلام، ابتداءً بصقلية، ثم الأندلس حتى الشام،

---

(1) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 174؛ Hillenbrand, The Crusades, Islamic Perspectives, P. 105.

(2) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 174.

(3) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 175.

وتمكنهم من تحقيق أمانيهم باحتلال بيت المقدس ولم يفت السلمي أن يفسر سبب نجاح الفرنج في حملاتهم هذه والمتمثل بتنازع المسلمين وانقسامهم محاولة منه لأخذ العبرة، وتدارك الأوضاع، وتصويبها لقوله: "فوثبت طائفة على جزيرة صقلية على حين تباين وتنافس وتملكوا بمثل ذلك بلداً بعد بلد من الأندلس. ولما تناصرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد من اختلاف أربابها، وتقرُّض[1] أكابرها مع اختلالها واضطرابها أمضوا عزائمهم على الخروج إليها وكانت القدس مهائر[2] أمانيهم منها"[3].

لم تقتصر دعوات السلمي وتحذيراته في مسجد دمشق على تحليل ظروف الغزو وأسبابه، وبيان ما كان عليه المسلمون من فرقة، بل أخذ في الحث على الجهاد لأنه الهدف الأساسي من تلك الخطب والدروس، ودل على ذلك عنوان الكتاب الذي جمعت فيه تلك الخطب ومحتوياته من أحاديث، وفتاوى، ومواعظ، وقد ابتدأ الفقيه السلمي خطبة في الجهاد باستذكار حديث رسول الله ﷺ الذي يبين فيه وجوب فريضة الجهاد على جميع المسلمين، والتأكيد على استمراره ليوم القيامة لقوله: "الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة، والهجرة في المسلمين بعد"[4]. ثم ذكّر أهل الشام بقول مكحول (ت 113هـ/731م)[5] وهو

---

(1) من القرضُ وتعني القطعُ، قرضه يقرضُه قطعة وقد تعني قطعة بالغيبة والطعن والنيل منه. ابن منظور، لسان العرب، مج11، ص 112، مادة قرض.

(2) من مَهْرُ والجمع مُهور ويقال مهرتها أعطيتها مهراً والمهيرة الغالية المهر. ابن منظور، لسان العرب، مج13، ص 207-208.

(3) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 174؛ La Genese .,Sivan, Emmanuel, (1966) De la Contre- Croisade: Un traite Damasquin Du Debut Du Xiie Siecle, Extait Du Joranl Asiatique, Annee, Paris, P. 199-200. ويعتبر Sivan أول من لفت النظر لمخطوطة الجهاد للسلمي وقام بتحقيق جزء منها.

(4) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 174؛ أخرجه الهندي في كنز العمال، ج2، ص 1220، رقم 33809 باب الفضائل، "الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة، والجهاد والهجرة في المسلمين والمهاجرين بعد".

(5) عن مكحول الشامي ودوره في الجهاد. انظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج5، ص 417. ومما نقل عن مكحول لتشجيعه المجاهدين عند بدء الغزو وعند رجوع الغزاة أيضاً روايته عن حبيب بن مسلمة قال: شهدت رسول الله ﷺ نَفَلَ في البُداءة الرُّبُعَ، وفي الرَّجعةِ الثلثَ. أخرجه أبو داود (2750) في الجهاد، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5، ص 158.

أحد أئمتهم الذي كثيراً ما أكدّ على القيام بفرض الجهاد من خلال استقباله القبلة، وقيامه بالحلفان عشرة أيمان أن الغزو واجب ويقول إن شئتم زدتم"[1].

استشهد السلمي أثناء خُطبه بالأدلة التي تؤكد فرض الجهاد من القرآن الكريم لقوله تعالى: "**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**"[2]، وقوله: "**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**"[3]. والسنة النبوية لسوقه الأحاديث التي تبين فضل الجهاد وأهميته وثوابه[4]، كما ذكر آراء الشافعية والمالكية والحنابلة فيه[5].

تميزت دعوات السلمي بمعاصرتها لحملة الفرنج الأولى التي تعارف على تسميتها بالحملة الصليبية الأولى، وما ارتكب فيها من فضائع ولهذا فقد طالب السلمي بموقف إسلامي موحد وسريع ضد الغزاة، لما كان يراه من ظروف ملائمة للقيام بمحاصرة الفرنج في أنطاكية ومضايقتهم؛ لما كانوا يعانونه من قلة المدد، كما حذرهم من التأخير خوفاً من تقدّم الفرنج واحتلالهم دمشق، ولم يعفِ أحداً من أهل الشام من الجهاد سوى أصحاب الأعذار، لأن الجهاد برأيه واجب على كل "ذي قدرة وهو من لا مرض به قاطع ولا زمانة ولا عمى ولا عجز من شيخوخة. فأمّا من سوى هؤلاء من غني وفقير وذي الدين، ومن هو مرتهن بدين، فواجب عليهم النفير في هذا الحال، والبدار[6] لحسم ما يُخشى من عاقبة الونية فيها والتثاقل عنها، ولا سيّما الآن مع قلة العدو وبعد ناصرهم واتفاق كلمة أرباب أهل هذه البلاد المتقاربة وتظاهرهم"[7].

---

(1) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 174.

(2) سورة البقرة، آية 216.

(3) سورة التوبة، آية 41.

(4) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 180-182، ج9، ص 11-12.

(5) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 176.

(6) من بدر: بَدَرتُ إلى الشيء أسرعت وتبادر القوم أي أسرعوا. وقد تعني العجلة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص 340، مادة بدر.

(7) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 176.

استشهد السلمي ببعض الأحاديث التي تبين فضائل الشام وبيت المقدس، والمكانة العظيمة التي تتمتع بها عند الله حفزاً لأهل الشام على الجهاد لتحريرها من الفرنج، كما قدّم لهم البشائر بفتح بيت المقدس على يد طائفة من أهل الشام، رابطاً بين فاتحي القسطنطينية وبيت المقدس[1] لشد المستمعين إليه لعل فتحها يكون على أيديهم، مرغباً لهم بأن فاتحي بيت المقدس سيكونون مخصوصين بميزة عند الله لا يعادلهم فيها أحد لقوله: "واعلموا... أن نبيكم ﷺ قد وعد طائفة من أمته بالنصر على عدوهم، وجعلهم من أهل الشام إخصاصاً لهم بذلك من غيرهم فلعلكم أن تكونوا أولئك المخصوصين دون غيركم[2]. وقال رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله عز وجل"[3]، وقد بيّن في حديث آخر أن هذه الطائفة من أهل الشام، وفي حديث آخر أنهم من بيت المقدس وأكنافه[4]. وقد أنهى السلمي حديثه عن بيت المقدس بالدعوة إلى الإسراع في فتحها لقوله: "واجتهدوا رحمكم الله في هذا الجهاد لعلكم أن تكونوا الفائزين بمزيّة هذا الفتح العظيم"[5].

يظهر أن دعوات السلمي وخطبة للجهاد كانت لأهل الشام عامة ابتداءً بحكامها وانتهاءً بفلاحيها فقد عرّج السلمي بداية على نقد الحكام وتركهم للجهاد، والتقاعس عنه، واتهامهم بأنهم سبب الذل والهوان الذي تعاني منه الأمة وفي ذلك استثارة لهممهم، ولكنه يبشرهم في الوقت نفسه بالنصر إذا قاموا بدورهم في الجهاد، لقوله "فالعجب كل العجب من سلطان يتهنّأ بعيش أو يخلد إلى استقرار مع إظلال هذه النازلة التي مغبتّها استيلاء هؤلاء الكفار والإخراج من البلاد...

---

(1) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 180.

(2) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 176.

(3) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 179، أخرج صحيح مسلم (1923) من كتاب الإمارة باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، ص 764.

(4) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 179.

(5) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 180.

والإقامة على الذل والصغار، فوالله يا معشر سلاطين هذه البلاد ومن تبعهم من الأعوان والأجناد وغيرهم من المستعانة والأحداث والإنجاد الأجلاد وأرباب الطارف من المال والتلاد[1]."**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**"[2].**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۞ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** [3] وثقوا بنصر الله سبحانه إياكم[4].

كما نبه السلمي المسلمين على أهمية الجهاد بالمال، لقوله: "وينبغي لكافة الناس من الأجناد والرعايا والفلاحين، وسائر الناس أجمعين معاضدتهم بكل ما يقدرون عليه وتصل أيديهم وقدرتهم إليه... ويجتزئ المقل منهم بيسير النفقة...[5].

استخدم السلمي أسلوباً آخر للدعاية للجهاد يتجلى بترهيبه لحكام المسلمين، وتخويفهم من الله عز وجل حتى اعتبر ما كان من احتلال الفرنج لديار الإسلام إنذاراً لهم لما ارتكبوه من معاصٍ، إلا أنها تحمل في طياتها ترغيباً بالجهاد ووعداً بالنصر إن هم أقلعوا عن معاصيهم لقوله: "واعلموا يقيناً أن هجوم هذا العدو على بلادكم ووصولهم إلى ما وصلوا إليه من بعضكم إنما هو تخويف من الله لمن بقي منكم، ليرى ما يكون من إقلاعكم عن معاصيه فينصركم عليهم فيؤّمن خوفكم، أو تماديكم..."[6]. كما حذّر المسلمين من ترك الجهاد معتبراً أن جهادهم للفرنج فرصة لدخولهم الجنة وفي هذا ترغيب واضح لهم لقوله: "واغتنموا غزوة قد هيأها الله تعالى لكم من غير كبير تعب ولا نصب وجنة قد زفت إليكم تنالوا بتوفيق الله سبحانه، واحذروا كل الحذر أن تتخلفوا عن ذلكم فتصلوا ناراً ذات لهب..."[7].

---

(1) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 177.

(2) سورة التوبة، آية 41.

(3) سورة محمد، أية 7.

(4) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 177.

(5) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 189.

(6) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 180.

(7) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 177.

هدف السلمي من دروسه وخطبه هذه إلى توعية أهل الشام بغاية الجهاد وضرورته، وتمثل ذلك من خلال تأكيده على أهميته ووجوبه والتفصيل في أحكامه، وقد كان لذلك دوافعه وظروفه المرتبطة بالغزو، إذ رأى أن من واجبه كعالم وفقيه إيضاح ذلك لهم. وربما كان لتقاعس البعض عن القيام به سببٌ في بيانه ما إن كان جهاد الفرنج فرض كفاية أم فرض عين؟ معتمداً في ذلك على تفسيرات من سبقه من الفقهاء وخاصة الإمام أبي حامد الغزالي[1].

وأكدّ السلمي على أن الجهاد من فروض الكفاية في حالة أمكن رد الأعداء عن الشام ولكن إن تعذرت الكفاية عن صد المعتدين أصبح فرض عين على البلاد القريبة من الشام، ومن هنا وجب النفير للجهاد لتحصل الكفاية. لقوله: "ذلك أن الجهاد إنما يكون في فروض الكفاية إذا كانت الطائفة التي بإزاء العدو فيها غناء ويمكنها مجاهدته بأنفسها، ودفع شره بانفرادها عن غيرها. فأما إذا كانت الطائفة فيها ضعف ولا تقدر على كفاية العدو ودفع شره فإن الفرض يتعين على أهل البلاد القريبة منها كالشام مثلاً. فإنه إذا قصد العدو بلداً منه ولم يكن فيه من يكفي في حربه ودفعه وجب على جميع البلاد المنسوبة إلى الشام النفير إليه حتى تحصل الكفاية فحينئذٍ يسقط الفرض عمن سواهم لأن خطة الشام كالبلدة الواحدة..."[2].

ربط السلمي تحقيق هدف الجهاد بأمر آخر مرتبط به والمتمثل بضعف الوازع الديني، أو العقديّ عند المسلمين معتبراً أن الجهاد يجب أن يكون مرحلة لاحقة لمرحلة هامة تسبقها تدعى مجاهدة النفس تهدف إلى إصلاح المسلم والتزامه بعقيدته، وطاعة خالقه، وإقلاعه عن معاصيه لقوله: "وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم فإن النفوس أعدى لكم منهم، واردعوها عمّا هي عليه من عصيان خالقها

---

(1) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 175-176.

(2) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 175-176.

سبحانه تظفروا بما تؤملونه من النصرة عليهم. وأصلحوا ما بينكم، وبين خالقكم يصلح لكم ما فسد من أحوالكم وتصلح ذات بينكم..."[1].

طالب الفقيه أبو طاهر السلمي المسلمين بالوحدة السياسية والمذهبية تمهيداً واستعداداً للوقوف في وجه العدو لما شاهده من الفرقة والتنازع جاعلين قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، وملوك الفرس والعرب في جاهليتها قبل الإسلام، الذين كانوا يتحدون إذا داهمهم معتد خارجي لقوله: "... وكذلك بلغنا عن جميع ملوك الفرس وغيرهم، فيصطلحون ويتفقون على عدوهم... وكذلك ينبغي لسلاطيننا ومن قد ولاه الله سبحانه أمورنا -أحسن الله توفيقهم وتسديدهم- أن يفعلوا اقتداء بمن سلف من أمثالهم واتباعاً لما جاء من ذلك في دينهم ووصاهم به نبيهم نحو قوله: "لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله"[2].

حاول السلمي معالجة حالة الانقسام السياسي التي كان يعاني منها المشرق الإسلامي أثناء الغزو الفرنجي، وذلك بدعوتها للوحدة ونبذ الفرقة محاولة منه لتدارك الخلل قبل استفحاله لقوله: "فاشرفوا من بلاد الشام على ممالك مفترقة، وقلوب غير متفقة وآراء متباينة مقترنة بذحول كامنة فقويت بذلك أطماعهم وامتدت... حتى لقد تيقنوا أن البلاد كلها صائرة إليهم.. والله بكرمه يخيب ظنونهم باجتماع الكلمة وانتظام شمل الأمة إنه قريبٌ مجيب"[3].

أما فيما يتعلق بتأثير دعوات السلمي للجهاد فتكاد تجمع الآراء أن دعوة السلمي الجهادية لم تؤتِ أُكلها مباشرة، فيرى البعض أن دعوته لم تلق الصدى المتوقع[4]، في حين يرى Sivan أنه على الرغم من قيام بعض تلاميذ هذه الفقيه

---

(1) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 180. وانظر: أيضاً Sivan، La Genese De la Contre- Croisade: Un traite Damasquin Du Debut Du Xiie Siecle, P. 211.

(2) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 189.

(3) السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 175.

(4) زيادة، قضايا اجتماعية وفكرية في بلاد الشام في العصر المملوكي الأول (كتاب المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام منذ بدايات العصر السلجوقي حتى نهاية العصر المملوكي)، ص 626.

بنقل أفكاره لغيرهم إلا أن تأثيره لم يكن مباشراً في دمشق في حينه وأن ابن القلانسي وابن عساكر تجاهلانه، ولم يبرزا دوره في الجهاد. ويؤكد Sivan أن عمل السلمي إنجاز يستحق الثناء وهو دعاية واضحة للجهاد على الرغم أن أثره تأخر إلى ما قام به نور الدين زنكي من محاولات وحدوية بعد نصف قرن[1].

ثالثاً: استغاثات علماء الشام بالسلطة السياسية ببغداد:

كان للضعف العسكري الذي كان يعاني منه المشرق الإسلامي عشية الحملة الصليبية الأولى دورٌ كبيرُ في عدم قدرتها على الرد، وقد كان صمت الخلافة العباسية ببغداد عما يرتكبه الفرنج من أعمال وحشية واضحاً[2]؛ الأمر الذي دفع العلماء إلى البحث عن وسائل أخرى للتعبير عن رفضهم لهذا الغزو، وتمثل بتزعمهم لوفود تضم المستغيثين والمتضررين من الاحتلال، وذهابهم لدار الخلافة ببغداد لحثها على الجهاد لما رأوه من تخاذلها فكان الاستنفار والاستنجاد، من الوسائل التي لجأ إليها العلماء للتعبير عن مقاومتهم لهذا الغزو، والتصدي له.

كانت استغاثة أهل بيت المقدس ومن انضم إليهم من علماء دمشق وأهلها على أثر سقوطها بيد الفرنج عام 492هـ/1099م[3] أول استغاثة بدار الخلافة، فكانت هذه الاستغاثة أسرع ردة فعل للعلماء على الغزو، إذ خرج عدد من أهلها مستنفرين ومستغيثين بأهل دمشق، فاستقبلهم قاضيها أبو سعد الهروي[4] وحثهم

(1) La Genese De la Contre-Croisade: Un traite Damasquin Du Debut Du Xiie Siecle, P. 205.
وانظر: أيضاً سالم، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص 99-100.

(2) انظر: ما ارتكبه الفرنج في معرة النعمان، وبيت المقدس: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 136-137؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 187؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 355-356.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 137؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 43.

(4) هو محمد بن نصر بن منصور لقب بزين الدين، كان من قرية يُدعى هراه، عمل في بداية حياته وراقاً ومدرساً للصبيان ثم أصبح فقيهاً، عمل بدمشق واعظاً، وتولى القضاء بمدن كثيرة في بلاد العجم، ثم أصبح قاضياً لدمشق، كان من كبار الدهاة، قتل شهيداً على يد الباطنية، عام 518هـ/1124م. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 210؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج56، ص 107؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 118.

على الاستنجاد بدار الخلافة، وتوجه هو ومن معه لدار الخلافة وهم في حالة من الغضب، وهناك بينوا للخليفة ما حل بمدينتهم على أيدي الفرنج من جرائم بشعة حتى تكلموا أمامه بكلام أحزن كُل من سمعه فبكى كل من كان حاضراً في ديوان الخلافة "فأورد في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب"[1].

لم يكتف المستنفرون من أهل الشام برئاسة القاضي أبي سعد الهروي بإثارة الخليفة، وطلبهم النجدة منه، بل انتقلوا للجامع عند صلاة الجمعة محاولة منهم لإعلام أهل بغداد بما حلّ بهم. وبالشام لإثارة مشاعرهم، وحفزهم على الجهاد، ولعل في اتخاذهم الجامع مكاناً للتنديد بمخاطر الغزو والدعوة للجهاد تأكيداً على أهمية المسجد في مقاومة الغزاة، كما كان وسيلة هامة من وسائل الدعاية للجهاد ضد الفرنج، فرددوا ما تكلموا به في دار الخلافة وما حل بهم على أيدي الفرنج مطالبين بالمساعدة والدعوة للجهاد حتى أبكوا من كان بالجامع وتزامنت استغاثتهم هذه بحلول شهر رمضان، وتصوّر الرواية أنه ولبشاعة ما أصاب الناس من حزن على مُصاب إخوانهم في الشام أفطروا في ذلك اليوم من أيام رمضان[2].

لقد كان رد فعل الخليفة العباسي المستظهر بالله على هذه الحادثة الجلل، وما ارتكب فيها من جرائم قتل رداً ضعيفاً ولم يكن على قدر أهمية الحدث وفظاعته، إذ اكتفى الخليفة بتسيير وفد يضم عدداً من قضاة بغداد وأعيانها[3]، للوقوف على أمر سقوط بيت المقدس، والتحقق مما ارتكبه الفرنج[4]. في حين ترد

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص406.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 47؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 46؛ أبو الفداء، المختصر، ج2، ص 211.

(3) زعماء الوفد البغدادي: القاضي أبو محمد الدامغاني، والقاضي أبو بكر الشاشي، والقاضي أبو القاسم الزنجاني، والقاضي أبو الوفاء بن عقيل، وأبو سعد الحلواني، وأبو الحسين بن السماك. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 406.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 43؛ آرمسترونج، الحرب المقدسة، ص 244.

إشارات أنه أمرهم بالسير لتحريض الملوك على الجهاد[1]. إلا أن المؤسف في ذلك أن الوفد لم يتمكن من تحقيق الهدف الذي خرج من أجله[2]، إذ رجع لبغداد بعد وصوله بلدة حلوان[3]، بعد أن تناقل لمسامعهم حدوث مصاب جلل ببغداد اقتضى رجوعهم[4]. وبغض النظر عن حجم المهمة التي كُلف بها هذا الوفد، فإن المصادر لا تعطي أهمية لدوره أو نتيجة لمهمته، ودليل ذلك سكوتها عن أية ردة فعل عسكرية استجابة لصرخة العلماء هذه ومطالبتهم بالجهاد[5] وهو ما يؤكده الباحثون بوصفهم لأول دعوة للجهاد وعمل مشهود من أعمال المقاومة، والتي لم تؤتِ ثمارها إلا بعد نصف قرن من الزمان[6].

كان قعود الخليفة العباسي، وتركه أمر الجهاد[7]، وتجاهله لنداءات أهل الشام واستغاثاتهم بزعامة القاضي الهروي ومن معه من ضحايا اعتداءات الفرنج سبباً في الهجوم الذي شنه الفقيه والأديب أبو المظفر الأبيوردي[8]، في قصيدته التي

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 43؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 156؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص 448.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 406.

(3) حُلوان: آخر حدود السواد بالعراق مما يلي الجبال من بغداد. ياقوت، معجم البلدان، مج2، ص 290.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 410.

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 47-48 حيث يشير ابن الجوزي إلى حصول التقاعد عن الجهاد. انظر: أيضاً عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 245-246.

(6) معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص 15؛، الرحموني، الجهاد، ص 39.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 43؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج5، ص 151.

(8) محمد بن أحمد الأبيوردي نسبة إلى أبيورد إحدى مدن خراسان، كان عالماً بالفقه والنسب، والشعر واللغة، ومن رواة الحديث ومن أهل الدين والصلاح، كان ذو طموح سياسي، توفي باصبهان عام 507هـ/1113م. انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 136؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج18، ص 234-235؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص 81-82.

التي عبّر فيها عن مواقف المستغيثين بالخليفة من أهل الشام[1]، وجسّد فيها تخـــاذل دولة الخلافة والمسلمين أمام جرائم الفرنج واحتلالهم لبلاد المسلمين كما حملت في طياتها تحريضاً وإثارة لحمية المسلمين وتلبية لنداء إخوانهم في الشام لقوله:

مَزَجنا دماءً بالدُّموع السّواجم	فلم يبْقَ منَّا عرضةٌ للمراحمِ
وشرٌّ سلاح المرءِ دَمعٌ يفيضهُ	إذا الحرب شَبّت نارها بالصَّوارمِ
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جُفونِها	على هفوات أيقظت كلّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحى مُقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعمِ
تسُومهم الرُّوم الهوان، وأنتمُ	تجُرُّون ذيل الخفض فعل المُسالمِ
وكم من دماء قد أبيحت، ومن دُمىً	توارى حياءً حُسنُها بالمعاصِمِ
أرى أُمتّي لا يشرعون إلى العِدى	رماحَهم، والدينُ واهي الدّعائم
فليتهم إذ لم يذُودوا حَميَّة	عن الدِّين، ضنّوا غيرةً بالمحارم
فإن أنتم لم تغضبُوا بعد هذه	رمَيْنا إلى أعدائِنا بالجرائم[2]

كان سقوط المدن الشامية بيد الفرنج واحدة تلو الأخرى سبباً في جعل بغداد ملجأ وملاذاً لعلماء الشام طلباً للنجدة، وحثاً لصناع القرار فيها على جهادهم فبعـــد سقوط بيت المقدس كانت طرابلس هدفاً لهم، وتمثل ذلك بمهاجمتهم لها مراراً حيث

---

[1] ينفرد ابن تغري بردي بالقول أن هذه القصيدة للقاضي الهروي، لكنه يعود للقول أنها لأبي المظفـــر الأبيوردي لقوله: "فقال القاضي الهروي وقيل: لأبي المظفر الأبيوردي". ابن تغري بردي، النجـــوم الزاهرة، ج6، ص 151-152.

[2] انظر: هذه القصيدة عند: ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 47-48؛ ابن الأثير، الكامـــل، ج8، ص 406-407؛ أبو الفداء، المختصر، ج2، ص 211؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 156.

حاصروها في المرة الأولى عام 495هـ/1101م[1]، وقد انتهت محاولاتهم هذه بسقوطها عام 502هـ/ 1108م[2].

ذكرت المصادر التاريخية زيارتين لصاحب طرابلس القاضي فخر الملك بن عمار لبغداد طالباً فيها المساعدة والنجدة وكانت الأولى منها عام 501هـ/1107م، والثانية عام 503هـ/ 1109م، وفي الزيارتين عاد القاضي فخر الملك بن عمار دون فائدة. ولم يكن قاضي طرابلس الشيعي ليلجأ إلى طلب نجدة السلطان السني إلا بعد فقدانه الأمل في الاعتماد على أي حليف في بلاد الشام، وبعد نفاذ صبره من كثرة رسائله للسلطان دونما إجابة كما ذكر ابن القلانسي: "في هذه السنة تتابعت المكاتبات إلى السلطان محمد بن ملك شاه من ظهير الدين أتابك وفخر الملك بن عمَّار صاحب طرابلس بعظيم ما ارتكبه الفرنج من الفساد في البلاد وتملك المعاقل والحصون بالشام والساحل، والفتك في المسلمين ومضايقة ثغر طرابلس، والاستغاثة إليه. والاستصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة..."[3].

---

(1) انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 140؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 445-446؛ سالم، عبد العزيز، (1962). طرابلس الشام، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج16، ص 52.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 163-166؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 27-28؛ ابن الاثير، الكامل، ج8، ص 535؛ أبو الفداء، المختصر، ج2، ص 224-225، ولمزيد من التفاصيل عن الحملات العسكرية على طرابلس في الأعوام 497هـ، 498هـ، 499هـ، 501هـ، 502، هـ، 503هـ. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 147-148؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 491، 535؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 27-28؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 178-179.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 165.

لقد أكرمه السلطان فور وصوله واستمع لمطالبه وطلب من أمرائه مساعدته وأمر[1] "بتقويته بالمال والرجال على الجهاد والمبالغة في إسعاده وإنجاده"[2].

لم تكن نجدة السلطان جادة، لأنه حدد وجهتها الأولى للموصل بهدف الاستيلاء عليها، ثم لطرابلس فما كان من قاضي طرابلس إلا أن سئم من طول المقام، فقفل راجعاً لبلاده في محرم عام 502هـ/1108م[3]. وكانت الكارثة بعد رجوعه لطرابلس حيث وجد أهلها قد سلموها لصاحب مصر بعد تعهده لهم بحمايتهم من الفرنج، وتأمينهم بالمؤونة[4].

أما الزيارة الثانية فكانت عام 503هـ/1109م بعد سقوط المدينة حيث بلغه قيام السلطان بإرسال الكتب لأمرائه استعداداً للجهاد ومساعدة ظهير الدين أتابك صاحب دمشق، فاتفقا على الخروج لبغداد، إلا أن صاحب دمشق لم يُكمل رحلته معه، مما دعا ابن عمار للمسير وحده، حيث قابل السلطان ببغداد إلا أنه لم يحضل منه إلا على الوعود لقول ابن القلانسي: "لم يصل ويشاهد ما زاد على الأمل، وظهور بطلان تلك الأراجيف بالمحال الذي لا حقيقة له، وتواصلت الأجوبة على ذلك بما يسّر النفوس، وشرح الصدور، والاعتذار من إشاعة المحال وأكاذيب الأخبار"[5]. ويرى أحد الباحثين أن رحلة ابن عمار لبغداد ألقت ضوءاً ساطعاً على مدى تفكك المسلمين في المشرق عندئذ، وانحلال الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية،لأنه لم يجد منهما فائدة حقيقية[6].

---

(1) ندب كل من الأمير جاولي سقاوة، وأميراً من مقدّمي عسكره لم يذكر اسمه، وكتب إلى الأمير سيف الدولة صدقة بن مزيد، وإلى جكرمش صاحب الموصل؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 156.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 156؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 157.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 163.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 161؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 78؛ معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص 110-111.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص 165-166.

(6) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 364.

تكررت استغاثات العلماء ودعواتهم للجهاد، فكانت في هذه المرة من قبل أهل حلب عام 504هـ/1110م. والتي اختلف المؤرخون في تحديد بواعثها إن كانت رداً على الهجمات الإفرنجية على مدينة حلب وقراها[1]. أم نتيجة لما ألحقه الفرنج من أضرار بتجارة أهل الشام[2].

ضم وفد حلب عدداً من تجارها، ونخبةً من فقهائها وعلماء الصوفية فيها[3]. ومنذُ وصولهم لبغداد برز دور فقهائها الذين أظهروا رغبة واضحة في مساعدة إخوانهم من أهل الشام وعلمائها، فأيدوهم في مقصدهم الذي جاؤوا من أجله، بإثارتهم لأهل بغداد ودعوتهم للجهاد حتى بلغت الحماسة بالمتظاهرين والمتعاطفين مع أهل الشام قصد جامع السلطان، وإنزال الخطيب عن منبره حتى كسروه، وأبطلوا الصلاة في تلك الجمعة، كما فعلوا ذلك في الجمعة الثانية عندما قصدوا جامع الخليفة العباسي[4]، وفي هذا تأكيد واضح للدور الذي أولاه العلماء للعامة، وذلك عن طريق استغلال حماسهم وحميتهم للدين وذلك بالترويج لفكرة الجهاد، من

---

(1) ذكر ابن العديم، أن طنكريد صاحب إنطاكية قصد الناحية الشرقية من حلب عام 503هـ/1109م، فقتل من بها وسبى أهل النقرة، وأخذ مواشيهم، ثم نزل الاثارب وحاصرها وخرب أسوارها، فصالحهم الملك رضوان مقابل دفع مبلغ من المال، مما أدى إلى إرهاق أهل حلب، ورفع الأسعار عندهم. انظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص366-367.

(2) عن الآثار السلبية التي ألحقها الفرنج بتجارة الشام. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 171-172؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 540، حيث أغاروا على السفن التجارية الواصلة بين مصر والشام.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 173؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 120؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 540-541؛ مؤنس، محمد، (2004). فكرة الجهاد الإسلامي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، بحوث في تاريخ العصور الوسطى، كتاب تذكاري للأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ص 261.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 173؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 540-541؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 368.

خلال منابر رسول الله ﷺ وخاصة في يوم الجمعة لما له من أهمية، بإثارتهم للفوضى والتنديد بإبطال فرض الجهاد والدعوة إلى إقامته.

ظهر تأثير هذه الاستغاثة واضحاً من خلال استجابة السلطان السلجوقي، وإصدار أوامره للأمراء ومقدمي العسكر للتأهب للمسير للجهاد لقتال الفرنج، حيث سيّر حملة عام 505هـ/1110م، تمكنت من فتح عدة حصون في سنجار، ومحاصرة الرها، وتقدمت نحو حلب، وقتلت عدداً من الفرنج المقيمين فيها. والنزول بشيزر لمساعدة ابن منقذ والتضييق على الفرنج المحاصرين لها[1]. ولعل في هذه الحملة التي سيرها السلطان أكبر دليل على تأثير العلماء ونجاحهم في الدعوة للجهاد.

رابعاً: مساهمات الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الحث على الجهاد :

إن دراسة حركة الجهاد الإسلامي ضد الفرنج في النصف الثاني من القرن السادس الهجري تتطلب الربط بين سر نجاح تلك المقاومة وتقدمها، وبين أمرين اثنين هما: القيادة السياسية العسكرية في الشام ومصر، وتزعمهما لهذه الحركة، والتي ابتدأت بوضوح مع عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي. والأمر الثاني علاقة تلك القيادة بفئة العلماء، وتعاونها معهم إدراكاً لأهميتهم، وأثرهم في التعبئة الفكرية للجهاد.

لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار الانتصارات التي حققتها الجيوش الإسلامية في العقد الرابع والخامس من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر

---

[1] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، 174؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج17؛ ص123؛ ابن الأثير، الكامل، ص 544؛ رمضان، عبد الغني، (1975). شرف الدين مودود أتابك، الموصل والجزيرة، 501-507هـ= 1108-1113م، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، مج4، ص 139.

الميلادي على يد الشهيد عماد الدين زنكي[1] والتي تكللت بسقوط مملكة الرها عام 539هـ/ 1144م[2]، وما تبعها من تصد للهجوم الإفرنجي (الحملة الصليبية الثانية) على دمشق عام 543هـ/1148م[3]، وكذلك ما تحقق من تحرير على يد نور الدين محمود لعدد من القلاع من أيدي الفرنج[4]، وقد برز دور العلماء في الدعاية للجهاد من خلال علاقتهم بالقيادة السياسية والذي بدا واضحاً بتعاون نور الدين معهم ودعمهم فكان سبباً في بروز عدد كبير منهم تميّزوا بنشاطاتهم ومساهماتهم الواضحة في الحث على الجهاد كالإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، وقد شهد نيكيتا اليسيف بدور رجال الدين في سياسة نور الدين الجديدة في هذه الفترة من خلال دعايتهم الشفهية للجهاد في المدن والقرى، فكان لها تأثيرها على الشعب، والأمراء أيضاً، وقد بلغ من أهمية هذه الفئة وتأثيرهم أن دعوا بالاتباع الثمينين[5].

مثّل الحافظ بن عساكر نموذجاً بارزاً لعلماء الشام الأكثر مساهمة في التصدي للغزو الفرنجي، وقد كان لظروف الشام السياسية ومواجهاتها مع الفرنج في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[6]، الدور الأكبر في سرعة

---

(1) انظر: فتوحات عماد الدين زنكي عام 534هـ/1139م، لشهرزور، وبعلبك، وحصاره لدمشق. وكذلك فتحه لحصن بارين، والمعرة، وكفر طاب من أيدي الفرنج. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 163-166.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 21-22؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 170-172.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص297-300. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 202-207.

(4) انظر: انتصارات نور الدين على الفرنج في حصن العُرَيمة عام 543هـ/1148م، ووقعة يَغرا عام 543هـ/1148م؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 209-212، وكذلك فتحه حصن أفامية عام 544هـ/1149م؛ وعزاز عام 545هـ/1150م؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 224-242.

(5) نيكيتا إليسيف، السلطان نور الدين بن زنكي، ترجمة سليم قندلفت، ص 301.

(6) يصف أبو شامة الأوضاع السياسية حيال تولي عماد الدين زنكي السلطة 522هـ/1128م، "وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكَثُرت أجنادهم،... وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن

استجابته وتصديه للغزو الذي كان يعيثُ فساداً في بلاد الشام بين قتل وسلب ونهب، وفرض للضرائب. فقد ولد ابن عساكر عام 499هـ/1105م في دمشق مع بدايات الغزو وهمجيته. فشهد كثيراً من أحداثه كحصار دمشق، وغيرها من مدن الشام، وانقساماتها السياسية إلى ممالك وإمارات[1]. وضعفها عن المقاومة فكان لهذه الظروف مجتمعة تأثيرها في شخصه وفكره.

عندما رأى ابن عساكر ما تتعرض له بلاده من محن وأزمات وجد أن هناك واجباً يمليه عليه دينه، وحبه لوطنه وأمته، وهذا تطلب أن يعد نفسه إعداداً كبيراً لهذه المهمة، فتلقى بداية بعض علوم الفقه والحديث في دمشق[2]، ثم هاجر لبغداد لتلقي علومه فيها، حتى عجب أهل بغداد منه لشدة علمه[3]. ثم تنقل بين مدن عده لأخذ الحديث، حتى أصبح إمام علماء الحديث في زمانه وممن انتهت إليه رئاستهم وأكثرهم شهرة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[4].

تابع الحافظ ابن عساكر الدمشقي ما بدأه سابقوه من فقهاء دمشق كأبي طاهر السلمي في مقاومة الغزو؛ من خلال حضه على الجهاد، والتحريض ضد الفرنج. وذلك بتوظيف علومه ومواهبه على اختلافها للوقوف في وجه الغزو

كفٍّ عاديهم.. وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق... وانقطعت الطرق إلى دمشق... انظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 156.

(1) انظر: ما كان من تحالف حُكام دمشق مع الفرنج عام 544هـ/1149م، ومحاصرة نور الدين محمود صاحب حلب لها. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص308-309؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 239-240.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج13، ص75؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 217.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج13، ص 84-85.

(4) السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 218.

منطلقاً في سياسته هذه من معرفته بالحديث النبوي الشريف وتدريسه والتأليف فيه[1]، بالإضافة لمساهماته في حقل التاريخ[2].

استغل الملك نور الدين محمود براعة ابن عساكر في الحديث فأنشأ له داراً للحديث في دمشق للتدريس فعمل من خلالها على توعية الناس بأهمية الجهاد وحثهم على مقاومة الفرنج كما ساهمت مجالسه التي أملاها والتي بلغت أربعمائة وثمانية مجالس في تهذيب سلوكيات الناس، وبناء مجتمع صحيح، تمهيداً لانخراطهم في صفوف المقاتلين[3].

كان لسياسة الملك نور الدين محمود المتسمة بالعدالة، والمرابطة في الثغور، وسعيه لتحرير أراضي المسلمين من أيدي الغزاة دور كبير فيما لقيه من تعاون واضح من قبل العلماء والتي كان ابن عساكر أحد أبرز ممثليها حيث كان لتوافق رؤية ابن عساكر ونور الدين محمود أهميته في الوحدة والجهاد بهدف إنجاح المقاومة ضد الفرنج، لأن الفكر التعبوي للجهاد والذي يمثله العلماء كان لابد له من تطبيق عملي وهذا من شأن السلطة السياسة، وارتباط الفكر والعمل وضرورة ملحة للمقاومة، وتمثل تعاونهما هذا بطلب من نور الدين محمود لابن عساكر بتأليف كتاب يحث فيه المجاهدين على الجهاد في سبيل الله، ويشدُّ من أزرهم، ويحثهم على الصبر في ساحات القتال، ويحرضهم على مقاتله الإعداء، فما كان منه إلا أن سارع لذلك بتأليف كتاب أسماه "أربعون حديثاً في الحث على الجهاد عن رسول الله ﷺ متصلة الإسناد[4]، وهو يصف ظروف تأليف كتابه والهدف منه لقوله "فإن الملك

---

(1) انظر: ذلك من خلال كتابه، ابن عساكر، الأربعون حديثاً في الحث على الجهاد، ص 101-141.

(2) انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مج1، ص 23-33. (مقدمة المحقق صلاح الدين المنجد).

(3) ياقوت، معجم الأدباء، ج13، ص 81؛ الحلواني؛ ابن عساكر دوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص 86-90.

(4) انظر: الكتاب ابن عساكر، أربعون حديثاً في الحث على الجهاد، تحقيق أحمد عبد الكريم حلواني. دار الفداء للدراسات، دمشق، 1991. وورد هذا الكتاب في المصادر بأسماء متعددة لكتاب واحد انظر: ياقوت الحموي، الأربعون في الجهاد، ج13، ص 78، وورد تحت اسم الأربعون

العادل نور الدين الزاهد المجاهد المرابط، أحب أن أجمع له أربعين حديثاً في الجهاد، تكون واضحة المتن متصلة الإسناد، تحريضاً للمجاهدين الأجلاد وأولي الهمم والسواعد الشداد، وذوي المرهفات الماضية، والأسنة الحداد؛ ليكون تحريضاً لهم على الصدق عند اللقاء والجلاد، وتحريضاً على قلع ذوي الكفر والعناد، الذين طغوا بكفرهم في البلاد، وأكثروا فيها من البغي والفساد، فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد.."[1].

يعد هذا الكتاب (الأربعون حديثاً في الحث على الجهاد) من أهم مؤلفات ابن عساكر في الحديث، والتي جاءت بهدف إذكاء الحماسة، وبعث فكرة الجهاد في نفوس مجاهدي الشام من خلال تحريضهم على جهاد الفرنج وقد جمع فيه أربعين حديثاً في الجهاد تناول فيها كل ما من شأنه أن يمت للجهاد بصلة تحريضاً وترغيباً به وتحذيراً من تركه[2].

بيّن ابن عساكر في كتابه مكانة الجهاد في الإسلام، وأنه من أفضل الأعمال عند الله عز وجل ودليلُ ذلك إقرانه بالإيمان به عز وجل لقول أبي هريرة: سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: "إيمان بالله عز وجل، قيل ثم ماذا قال: الجهاد في سبيل الله عز وجل، قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور"[3].

كما بيّن ابن عساكر ما يكون للمجاهدين من مضاعفة للحسنات، وأن أجر الجهاد لا يعدله أي عمل لقول أبي هريرة: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني عملاً يعدل الجهاد في سبيل الله، قال: لا أجده قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد في سبيل الله أن تدخل مسجداً فتقوم لا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: لا

الجهادية؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (571-580هـ)، ص 70-82، وورد عند حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص 551، الأربعون في الاجتهاد في إقامة الجهاد.

(1) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 107-108.

(2) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 107-141.

(3) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 109؛ أخرجه البخاري (26) في كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، ج7، ص 14، و(1519) في الحج: باب فضل الحج المبرور.

أستطيع ذلك قال: أبو هريرة إن فرس المجاهد يستن[1] في طوله فيكتب له حسنات"[2].

حرص ابن عساكر على بيان ما أعده الله للمجاهدين من ثواب، ومن جنات النعيم ترغيباً وحثاً لأبناء الشام على الانخراط في صفوف المجاهدين، فأورد في ذلك ثمانية أحاديث، حيث ذكر أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "تضمن الله عز وجل لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسولي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما من كلم يُكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفسي بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة (فأحملهم ولا يجدون سعة) ويشق عليهم أن يتخلفوا عني والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل"[3]. وقوله عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف"[4].

---

(1) استنى الفرس، إذ جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة. وقيل استنت الفصال أي سمنت وصارت جلودها كالمسان، وقيل في الخيل، استنّ الفرس يستنُّ استناناً أي عدا لمرحه ونشاطه ولا راكب عليه. ابن منظور، لسان العرب، مج6، ص 402. مادة سنن.

(2) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 116؛ أخرجه البخاري (2785) في الجهاد باب فضل الجهاد والسير. وعن بقية الأحاديث التي أوردها بنفس المعنى. انظر: ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 109-117.

(3) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 117-118؛ أخرجه ابن ماجة (2753) باب فضل الجهاد في سبيل الله، وأخرجه البخاري (36) في باب الجهاد من الإيمان.

(4) ابن عساكر، الأربعون حديثاً في الجهاد، ص 118؛ أخرجه صحيح مسلم (1902) في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ص 758؛ وأخرجه الترمذي (1659) في فضائل الجهاد باب ما ذكر أن أبواب الجنة تحت ظلا السيوف. لمزيد من التفاصيل عن أحاديث الترغيب في الجهاد. انظر: ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 117-124.

ركز ابن عساكر على أمر الرباط في سبيل الله مبيناً أهميته، وفضله وثوابه، وفي هذا دعوة لأبناء الشام للبقاء على أهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو فرنجي محتمل لبلادهم، لأن دمشق كانت مطمعاً لهم، فأورد في ذلك أحاديث عدة[1]، منها قول رسول الله ﷺ: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله عز وجل أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها، ومواضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها[2].

كما جهد ابن عساكر في التحذير من ترك الجهاد، والتقاعس عنه، لقول رسول الله ﷺ: "من لم يغزُ أو يجهز غازياً أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة يوم القيامة"[3]. وفي هذا دليل واضح على يقظة ابن عساكر وتنبيهه لما ينتاب العساكر الإسلامية في كثير من الأحيان من تقاعس، وكره للقتال رغبة في الدنيا ومتاعها.

لقد جاءت دعوات ابن عساكر في الحث على الجهاد شاملة لمسائل هامة في الجهاد، إذ لم تقتصر على الجهاد بالنفس بل بيّن ما للجهاد بالمال من أهمية في الإسلام وذلك بتجهيز المقاتلين، والإنفاق عليهم وفي ذلك حض لأهل الشام للمساهمة في الجهاد، وإشراك أكبر قدر ممكن من أبنائها[4]، لقول رسول الله ﷺ: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"[5]. كما ركز على أهمية مستلزمات

---

(1) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 125-128.

(2) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 126؛ أخرجه البخاري (2892) في الجهاد: باب فضل رباط يوم في سبيل الله.

(3) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 125؛ أخرجه ابن ماجة (2762) في الجهاد: باب التغليظ في ترك الجهاد.

(4) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 131-135.

(5) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 130؛ أخرجه أبو داوود (2504) في الجهاد: باب كراهية ترك الغزو، والنسائي في الجهاد (باب وجوب الجهاد) ج6، ص 7.

الجهاد في سبيل الله، كالخيل[1] والسهم، والرمح[2]، داعياً إلى اقتناء الخيل، وإعدادها للجهاد لقول رسول الله ﷺ من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً لله وتصديقاً بموعد الله كان شبعه وريه وبوله وروثه حسنات في ميزانه يوم القيامة"[3]. كما أكدّ ابن عساكر على أهمية الترغيب في التصدي للفرنج من خلال ما أورده من أحاديث نبوية في فضل الشهادة في سبيل الله[4]، وفضل الحراسة في سبيل الله[5].

برع ابن عساكر في توظيف الحديث للحث على الجهاد، فكان مصدره الأبرز في نشر فكرة الجهاد في الشام، فصنّف مؤلفات لأشهر محدثي قرى الشام، ومن نزل بها، وفي هذا تذكير لأهلها ومقاتليها بأئمتهم في الحديث، وبماضي رجالاتها، وإنجازاتهم، وحثّ على التمسك بالأرض، وبيان فضائها، كما فيه تذكير بأهمية الوحدة لما لها من أهمية في الجهاد[6].

لم يكتف ابن عساكر في كتابه "تاريخ دمشق" بذكر أعلامها، ومحدثيها وشعرائها...، بل تضمن الكثير من الأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد من خلال ترجمته لمحدثي الشام أو من نزلها منهم، مورداً بذلك أحاديث تحمل نفس الذي أراده من كتابه "أربعون حديثاً في الحث على الجهاد"[7].

---

(1) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 130-132.

(2) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 132-135.

(3) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 130؛ أخرجه البخاري (2853) في الجهاد باب من احتبس فرساً في سبيل الله، وأخرجه النسائي في الخيل باب علف الخيل.

(4) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 138.

(5) ابن عساكر، أربعون حديثاً في الجهاد، ص 136-137.

(6) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج13، ص 80-81؛ السيد، رضوان، (1984). ابن عساكر وتحرير مدينة دمشق، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت، (ع10)، ص 52.

(7) هناك الكثير من الأحاديث التي تحض على الجهاد في هذا الكتاب انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج56، ص 91، 287، 466، 247، ج58، ص 349، 292، 398، ج37، ص 111، ج35، ص 261، ج41، ص 138، ج52، ص 169، ج55، ص 182، 243، ج45، ص 122، 357.

كما ساهمت كُتب الفضائل التي ألفها ابن عساكر حول بعض مدن الشام الواقعة تحت الاحتلال الفرنجي بدور فعّال في الحث على الجهاد، كذكره لفضائل بيت المقدس –وفضائل مدينة عسقلان، كما ألّف كتباً أخرى في فضائل المدن المقدسة كمكة والمدينة ذات الأهمية الدينية، وبهذا ربط وقرن بين المدن الواقعة تحت يد الفرنج وبين المدن المقدسة مبيناً أهمية هذه المدن وجعلها بمكانة متقاربة. في هذا الربط توجيه إلى إدراك أهميتهما وضرورة الدفاع عنها وحمايتها والجهاد في سبيلها لتخليصهما من الاحتلال"[1].

لم يأل ابن عساكر جهداً في الاستفادة من التراث النبوي العملي في حث أهل الشام على التصدي للغزاة، فألف كتاباً بعنوان: "الاقتداء بالصادق في حفر الخندق"[2]. وفي هذا حثّ واضح للتأسي بالرسول ﷺ، بكده وتعبه، وبذل أقصى ما يمكن بذله في تحصين مدنذهم بهدف الصمود أمام الأعداء.

خامساً: نشر فكرة الجهاد بين العلماء والسلطة (القادة):

أسهم العلماء بدورٍ فعّال في إشاعة فكرة الجهاد أثناء الحروب الفرنجية في المشرق الإسلامي على مستوى القيادة والعامة، إلا أن فكرة الجهاد لم تكن لتؤتي ثمارها لولا توفر قيادة سياسية وعسكرية واعية، مدركة خطر الفرنج وجادةً في اقتلاعهم والخلاص منهم والتي تمثلت بوضوح عند الزنكيين والأيوبيين، وقد عبّر بوول عن أهمية القيادة في تعزيز مسيرة الحركة الجهادية لدى المسلمين أن أُطلق عليهم اسم وعاظ الجهاد[3].

برزت مساهمة هذه القيادات في دفع حركة الجهاد من خلال سعيها الدائم للقيام به، والمواظبة عليه، وحفز المتقاعسين عنه، وتسخير كل طاقتهم من أجله

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج13، ص 82-83؛ الحلواني؛ ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص 81.

(2) ياقوت، معجم الأدباء، ج13، ص 79.

(3) بوول، صلاح الدين، ص 53.

والتي تمثلت بمجالسهم ومؤلفاتهم حول الجهاد والحث على تأليفها، بالإضافة إلى نشاطاتهم العسكرية بقيادتهم الجيوش ومقاومتهم الأعداء، وتحقيقهم للعديد من الانتصارات، فمجالس نور الدين محمود كان أكثر حديثها عن الجهاد وعن قصد بلاد العدو[1]، كما دل على اهتمامه به مصنفاته في الجهاد ومنها كتابه "الفخر النوري" الذي ذكر فيه أحاديث العدل والجهاد، بالإضافة لكتاب آخر في الجهاد صنفه في دمشق دون ذكر اسمه[2]، كما دل على ذلك أيضاً قيادته للحروب وبراعته في الرمي"[3]. وملازمته لركوب الخيل وتمرينها على القتال حتى عوتب من قبل أحد الصالحين لكثرة لعبه بالكرة فأجابه "إنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد"[4]. وكثيراً ما كان يقول إنما نحن في ثغر العدو، فربما وقع الصوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر"[5]. ومما أكد على تعلقه بالجهاد كثرة إنفاقه على التحضير للجهاد[6].

كان الملك نور الدين محمود مرابطاً في سبيل الله لم يعرف التقاعس عن الجهاد له طريقاً، حتى قيل له في إحدى زياراته للموصل: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك اسرعت العود، فقال قد تغير قلبي فيها، فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد[7]، ولم يكن ليتباطأ

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 108.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 313.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 306.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 313.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 308.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 206.

(7) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 154؛ خليل، عماد الدين، (1979). نور الدين محمود، الطريق إلى فلسطين، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، ع(245)، ص 63.

عن هجمات الفرنج ومنها ما كـــان عام 544هـ/1149م عندما اتصل بـــه خبـــر إفساد الفرنج لبعض أعمال حوران[1].

برز دور العلماء واضحاً في التأثير على القيادات الـــسياسية والعـــسكرية بتذكيرها بالجهاد وما يستلزمه من تقوى الله والإخلاص في النية والالتزام بكتـــاب الله، وحفزهم على الجهاد أن انتابهم شيءٌ من التقاعس عنه، وتمثل ذلك بحـــوادث كثيرة منها ما حصل من الملك نور الدين محمود عند إطالته المكوث في الموصـــل في إحدى زياراته مما دعا الشيخ عمر الملا لحثه على الجهاد بقوله: "طالـــت لـــك بلدك، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الله؟ فنهض عن فوره وما أصبح إلا سائراً إلى الشام[2]، كما ظهر أثرهم في مناسبات كثيرة منها عندما نبه الفقيه برهـــان الـــدين البلخي الملك نور الدين مما كان عليه جيشه من المفاسد التي تعيق النـــصر علـــى الأعداء لقوله: "أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطّبول، والزّمور، كلا والله"[3]. وقد كان لذلك وقعه على الملك نور الدين فما كـــان منـــه إلا أن اســـتعان بالعلماء ورجال الدين لحث الناس على القتال فأورد ابن العديم أنه "كتب إلى البلاد إلى زهَّادها وعُبادها يذكر لهم ما نال المسلمين من القتل والأسر، ويـــستمد مـــنهم الدُّعاء، وأن يحثُّوا المسلمين على الغزاة،.."[4].

لم يقفْ تأثير العلماء في حض الحُكام على الجهاد، بل امتد ليشمل العامـــة من أهل البلاد، وبرز ذلك واضحاً في موقف الأمير فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفاً[5] الذي تقاعس عن تلبية نداء الجهاد عندما دعاه نور الدين محمود بعد

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 309.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 263.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 491.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 491.

(5) بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج2، ص 265.

فتحه حصن حارم عام 559هـ/1163م. فبعد أن أرسل لأخيه قطب الدين صاحب الموصل، ولصاحب حصن كيفا، وإلى صاحب ماردين لبّى كلٌ منهم النداء إلا صاحب حصن كيفاً فقد اعترض على ذلك، وأخبر أصحابه بذلك، وعندما سأله أصحابه في اليوم الثاني فإذا به يأمرهم بالتجهز للغزو، فاستغربوا ذلك منه، فقال: "إن نور الدين إن لم أُنجده خرجت بلادي عن يدي، فإنه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا يستمد منهم الدّعاء، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، وقد قعد كل واحد منهم ومعه اتباعه وأصحابه، وهم يقرأون كُتب نور الدين، ويبكون، فأخاف أن يجمعوا على لعنتي والدعاء عليّ"[1]. وفي موقف العلماء هذا دلالة واضحة على تأثيرهم البالغ الذي كانوا يمارسونه على العامة من خلال دعوتهم للجهاد، كما يحمل بين طياته براعة نور الدين ونجاحه باصطناعه لهذا الجهاز الدعائي، والذي كان يضم مئات من رجال الدين القادرين على كسب ولاء الشعب وتعاطفه، وإرغام قادة العالم الإسلامي للانضواء تحت لوائه ومشاركته في مسيرته الجهادية[2].

وليس أدل على مساهمة العلماء وأثرهم في الدعاية للجهاد ضد الفرنج مما قام به الملك نور الدين محمود عام 558هـ/1162م عقب هزيمة المسلمين في وقعة البقيعة وذلك بإغداقه الأموال على بعض الفقهاء والقراء والصوفية مما أثار حفيظة بعض أصحابه بمعاتبته على ذلك لقولهم: "إن لك في البلاد إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء".. فقال لهم "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعافكم، كيف أقطع صلات قوم

---

(1) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 187؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 493-494.

(2) معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص 184.

يقاتلون عني، وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تخطيء وتصيب...."[1]

أدرك العلماء الدور البارز للملك نور الدين محمود في دعم مسيرة الجهاد ولهذا كثيراً ما أظهروا حرصهم عليه بعدم تعريضه للخطر حرصاً على الإسلام وحماته وقد عبّر الفقيه قطب الدين النيسابوري عن ذلك في خطابه لنور الدين "بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم، وإن أُصبت والعياذ بالله في معركة، لا يبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف، وأُخذت البلاد، فقال يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو"[2].

كان لجهود الملك نور الدين زنكي في دفع حركة الجهاد ومقاومته للفرنج أصداء واسعة في المجتمع الإسلامي، كان للعلماء دور كبير فيها من خلال إبرازهم لصورته فسعوا إلى أن تكون منسجمة مع أفعاله ومنجزاته العسكرية، ومن هذه الأمثلة "رؤية أحد العلماء للرسول ﷺ وقد أمره أن يبلغ نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط"، وتكتمل صحة تلك الرواية بالإشارة إلى رحيلهم عنها[3]، وعلى الرغم من غاية هذه الرواية والمتمثلة بإبراز جهود نور الدين في التصدي للفرنج. إلا أنها تعكس عمق العلاقة بين العلماء وقياداتهم السياسية والمتمثل بدعمها ومساندتها.

كما كان السلطان صلاح الدين الأيوبي هو الآخر شغوفاً بحب الجهاد في سبيل الله، ودليلُ ذلك ما ذكره ابن شداد من قيامه بترك أهله، وموطنه للقيام بفرض

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 179-180؛ التاريخ الباهر، ص 118؛ أليسيف، السلطان نور الدين بن زنكي، ص 300.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 169؛ خليل، نور الدين محمود، ص 62.

(3) أبو واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 182.

الجهاد[1]. وبرز أثرُ جهاد السلطان صلاح الدين في مجالسه فلم يكن له حديثٌ غيره، ولا اهتمامٌ إلا برجاله، ولا ميلٌ إلا إلى من يذكره، ويحثُّ عليه[2].

كان صلاح الدين الأيوبي مثالاً للقائد المجاهد الحريص على غرس فريضةالجهاد في نفوس عساكره وأمرائه ولم يسمح لنفسه التقاعس عنه، فبعد رجوعه من الجهاد في بعلبك عام 574هـ/1178م، تزامن ذلك بأن كانت تلك السنة جدباء فقال له بعض أصحابه إن هذه السنة ليست سنة جهاد عارضين عليه الموافقة على السلم، إن طلب الفرنج ذلك فقال لهم: "إن الله أمر بالجهاد، وتكفل بالرزق فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق فنأتي بما كلَّفنا لنفور بما كلفه ومن اغفل أمره أغفله، وأنا بالعسكر الحاضر أنازل وأبادي وأحمي الحمى..."[3]. وقد شهد للسلطان صلاح الدين كاتبه العماد الأصفهاني بصبره وجلده في الجهاد لقوله: "لم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً أو أجدى فضلاً وأكمل جهداً في الجهاد، وأملك جلداً على الجلاد، فإنه يباشر بنفسه الحرب"[4].

كما اتصف السلطان بشجاعته في مقاومة الفرنج غير مكترث بعددهم ولا عدتهم، مؤكداً على القيام بفرض الجهاد الذي أمر الله به عز وجل، ويؤيد ذلك قوله لأحد مقدمي الفرنج المرابطين أمام شاطئ اللاذقية عام 584هـ/1188م، بعد طلبه مقابلة السلطان: "علينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يُقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع أهلُ الأرض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال بأعداد الأعداء..."[5].

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 21.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 21.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 146؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 13.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 270-271.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 146؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 15.

كما ظهرت مساهمات العلماء المسلمين في التحريض على قتال الفرنج من خلال المواقف التي اتخذوها ضد الأمراء المتقاعسين والمتخاذلين عن الجهاد، وتمثل ذلك بموقف علماء مصر، إزاء تخاذل الوزير الفاطمي شاور، وتعاونه مع الفرنج أثناء حصار الإسكندرية، بأن وقفوا ضده، وحرضوا عليه، وعندما دخل شاور الإسكندرية ومعه أموري ملك الفرنج جاءه أعيان المدينة للسلام عليه فلم يسمح لهم بالجلوس فقال له مُري [أموري]: "أكرم قُسُسَك" فأذن لهم بالجلوس وعاتبهم على وقوفهم ضده، ومقاومتهم للفرنج، فوقف أحد الفقهاء وهو أبو القاسم مخلوف بن علي المالكي المعروف بابن جارة قائلاً للوزير شاور: "نحن نقاتل كل من جاء تحت الصَّليب كائناً ما كان". فقال له مُري [أموري]: "وحق ديني لقد صَدَقك هذا الشيخ، فسكت شاور وأكرمهم بعد ذلك اليوم"[1]. ولعل في هذا دلالة واضحة تعكس ما وصل إليه العلماء من تأثير على العامة، وعلى القادة مما استوجب منهم إكرامهم والاهتمام بهم.

وبرز اهتمام العلماء وحرصهم على الجهاد من خلال موقفهم من الكنانيين الذين تقاعسوا عنه يوم دخول الفرنج لدمياط 647هـ/1249م، وتمثل ذلك بالفتوى التي قدّموها للملك الصالح نجم الدين بشنقهم عقاباً لهم على تخاذلهم في الدفاع عن المدينة وهروبهم من دون إذن، وكان عددهم زيادة عن خمسين أميراً[2].

سادساً: نشاط القاضي الفاضل في الحث على الجهاد:

مثلما هيأت الظروف لأهل الشام، وقيادتها السياسية عالماً كابن عساكرُ محرضاً وداعياً للجهاد ضد الفرنج، فقد حظيت مصر هي الأُخرى بعالم آخر كالقاضي الفاضل الذي عمل ولمدة تزيد عن خمسة وعشرين عاماً موجهاً للحركة الجهادية في مصر والشام، ومساهماً في رفع معنويات جندها في ساحات القتال،

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 285-286.

(2) المقريزي، الخطط، ج1، ص 597-598.

يرغبهم به ويحثهم على الصبر في الشدائد يدعو الملوك والأمراء لإرسال النجدات للجهاد في سبيل الله من خلال مراسلاته ومكاتباته، المعروفة بالرسائل الفاضلية.

لم يكن القاضي الفاضل ليتمكن من المساهمة في الحركة الجهادية لولا ما توفر له من ثقافة دينية وبلاغة عاليتين[1] ناهيك عن تكيّفه مع سياسة دولتين مختلفتين مذهبياً، الدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، ومما يدلُ على مكانته العلمية نعت العماد الأصفهاني له بصاحب القرآن، والعارف بالحديث، والحافظ لديوان الحماسة والبارع في المراسلات حتى وصفه المؤرخون بأنه لواء أهل الترسل، وصاحب صناعة الإنشاء[2].

كان لظروف انتقاله إلى مصر لتعلم صناعة الإنشاء، ومن بعدها عمله بالديوان زمن الدولة الفاطمية، وتوليته ديوان الإنشاء زمن الوزير شاور بن مجير ثم استكتابه زمن وزير الدولة الفاطمية في مصر الأمير أسد الدين شيركوه وانتقاله لخدمة صلاح الدين الأيوبي- بعد قضائه على الدولة الفاطمية-، دور كبير في ذيوع صيته وتعدد مساهماته في حركة الجهاد[3].

ساهمت طبيعة عمل القاضي الفاضل في تسهيل مهمته القائمة على نشر فكرة الجهاد والدعاية لها، لما كان يحظى به كاتب الإنشاء في هذه الفترة من منزلة رفيعة في بلاط الملك أو السلطان، إذ ليس هناك من هو أخص منه، ولا ألزم لمجالستهم مثله[4] فهو كاتم لأسرار السلطان، وعالم بخفايا دولته، ومواطن ضعفها وقوتها، وانتصاراتها وهزائمها، كما كان لبلاغته أيضاً وسعة معارفه دور مؤثر لما

---

[1] انظر: الشروط الواجب توافرها في كاتب الإنشاء من معرفة باللغة والبديع، والقرآن، والحديث، القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 39.

[2] أبو شامة، الروضتين، ج2، ص119؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص 220؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 167.

[3] أبو شامة، الروضتين، ج2، ص44-45؛ المقريزي، الخطط، ج4، ق2، ص 463؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 130-131.

[4] القلشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 135.

له من قدرة على تقديم الأدلة والحجج المحفزة على الجهاد حتى وصف لشدة ذلك برب القلم والبيان وصاحب اللسان[1]، كما أثنى العماد الأصفهاني على إسهاماته بقوله "والسلطان – رحمه الله – من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، ومبادئ أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد[2] آرابه[3] وأرائه، ومقاليد غناه وغنائه"[4].

ساهمت الظروف السياسية المضطربة التي كانت تعيشها مصر في أواخر عهد الدولة الفاطمية في بعث فكرة الجهاد لدى العلماء، وقد كان القاضي الفاضل من أوائل العلماء الذين تصدوا لذلك، وقد برزت مساهمته بحكم وظيفة الكتابة للوزير الكامل بن شاور لنيابته عن أبيه بالوزارة والتي حذره فيها من مخاطر غزو الفرنج للقاهرة، وطالبه بالدفاع عنها لما لها من أهمية تاريخية ودينية بالنسبة للفاطميين[5].

نظر القاضي الفاضل إلى جهاد الفاطميين على أنه نصرٌ للإسلام وللإيمان على الكفر مبتعداً في ذلك عن الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة بهدف المحافظة على وحدة المسلمين، وقد جاءت أراؤه هذه أثناء ثنائه على جهود أسد الدين شيركوه في مقاومته للفرنج أثر مداهمتهم لمصر عام 564هـ/1168م، لقوله: "كنت أيُّها السيد الأجلّ... أدام الله قدرتك، وأعلى كلمتك – أعظم نعم الله أثراً،

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 280؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 159.

(2) أقاليد: جمع إقليد، وهو المفتاح.

(3) آرابه: من رأب وتعني أصلح ما فسد وقد تعني جمع الشيء وشده برفق. ابن منظور، لسان العرب، مج5، ص 76-77.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 279.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص 327-334؛ الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، مج1، ص 358-363؛ دجاني، القاضي الفاضل، ص 232. في الوقت الذي يورد القلقشندي أن هذه الرسالة من تأليف رئيس الكتاب الموفق بن الخلال يؤكد الشيال محقق الوثائق الفاطمية على أنها للقاضي الفاضل بدليل أنه كان يعمل عنده.

وأعلاها خطراً وأقْضاها للأُمة وطراً..، وأنْضاها في سبيل الله سبحانه عزمة، وأمْضاها على الأعداء حَدّاً، وأبْداها في الجِهاد جِدّاً، وأعداها على الأعداء يَداً، وأحسَنها فعلاً لليوم وأرجاها غَداً ونَفذْت حين لا تَنفُذ السهام عن الأوتار، وأجليْت طاغية الكُفر وسِواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين داهَنه من لا بصيرة له وكذبه، وأقْدمت على الصَّليب وجمراته متوقِّدة، وقاتلت أولياءَ الشيطان وغمراته متمرِّدة، ... ونصرت الإيمان بأهله، وأظهرت الدِّين بمظاهرتك على الدِّين كلِّه..."[1].

ساهمت قيادة السلطان صلاح الدين لحركة الجهاد وما تخللها من مواجهات في تعدد نشاطات القاضي الفاضل في هذه الحركة بحكم ملازمته السلطان ورئيساً لكتبته، ومستشاره[2] فلم يترك وقعة أحرز فيها السلطان وعسكره نصراً على الفرنج إلا وقد أبرز دور المجاهدين وثوابهم كما عمد إلى مواساة السلطان وعساكره للرفع من معنوياتهم في حالة الهزيمة، كما كان لمكاتباته الأمراء والملوك لحشد الدعم العسكري لمساعدة السلطان أكبر الأثر فيما تحقق من انتصارات وفتوحات، فكان هذا كله سبباً فيما بلغه القاضي الفاضل من دور قيادي لتوجيه حركة الجهاد وهذا ما أكده صلاح الدين نفسه بقوله: "لا تظنوا أني ملكتُ البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل"[3]. ولعل في شهادة السلطان هذه بفضله ودعمه تأكيدٌ على التعاون الوثيق بين السيف والقلم في حركة الجهاد الإسلامي في فترة الحروب الفرنجية.

اعتبر القاضي الفاضل أن سقوط الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين، وما تحقق على أثرها من وحدة مذهبية بين مصر والشام من الدعائم

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 443-449؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص 80-90؛ الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص 71-72.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص167.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 47؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص140.

الضرورية المهيئة لنجاح حركة الجهاد لقوله في إحدى رسائله لدار الخلافة ببغداد: "فأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً، والخلافة إذ ذكر بها أهلُ الخلاف لم يخروا عليها إلا صماً وعميانا، والبدعةُ خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، ... وتقطعوا أمرهم بينهم شيعاً، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً..."[1].

شكلت مسألة الربط بين الوحدة والجهاد حيزاً مهماً في فكر القاضي الفاضل ورؤاه الجهادية جاعلاً فتح بيت المقدس وتحريره من أيدي الفرنج سبباً موجباً لهذه الوحدة، ومبيناً أهمية الوحدة بين مصر والشام ودورها في إنهاء الانقسام السياسي الذي تعاني منه الشام، وفي هذا تحريضٌ واضح للسلطان صلاح الدين على إتمام مشروعه الوحدوي لإضعاف قوة الفرنج ووقف مخططاتهم التوسعية لقوله: "... وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفرُ إن لم يتجرد العزم في قلعه، وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه ...، وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، ... وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة، وأمور مختله، وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة .. والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة، ويحفظُ الألفة..."[2].

اتخذ القاضي الفاضل من احتلال الفرنج لبيت المقدس دافعاً ومحرضاً قوياً للسلطان صلاح الدين وجنوده والمسلمين عامة، للجهاد في سبيل الله لتحريره منهم، لما له من أهمية دينية عند المسلمين، فكان لتلك الدعوات أكبر الأثر في فتحه على أيديهم عام 583هـ/1187م، لقوله في رسالة للخليفة العباسي ببغداد عام 570هـ/1174م: "وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدّس ليس له

---

[1] ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص470.

[2] أبو شامة، الروضتين، ج2، ص238-239؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص492-493. انظر: نص رسالة القاضي الفاضل كاملةً إلى الديوان العزيزي ببغداد؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص233-240.

قِرْن يقوم به، ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يملُّ الشر حتى يملوا، وقِرْناً لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شدّ رأينا حُسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله، ويَدُ كلّ مؤمن تحت بُرده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده"[1]. كما كتب للسلطان صلاح الدين من دمشق يذكره بأهمية فتح بيت المقدس: "كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها، وكلما ذكر المملوك أن البيع تعود مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه أن الله ثالث ثلاثة يقال فيه اليوم إنه الواحد، جدد الله شكراً تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه..."[2].

لم يفت القاضي الفاضل أن يوضح فضل الجهاد في سبيل الله من مغفرة للذنوب، ودخول للجنة، وقد برز ذلك في رسالته التي بعثها للسلطان صلاح الدين رداً على رسالة له كان قد بعثها أبدى فيها تخوفه من عدم غفران الله له لقوله: "فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه مُحيت والأثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفراً لسانُ السَّيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوتُ مقارعة الأضداد..."[3]. كما ذهب القاضي الفاضل إلى طمأنة السلطان إلى ما أعده الله له مقابل جهاده ومرابطته في سبيل الله لقوله: ".. يا مولانا هذه الليالي التي رابطت فيها، والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهي نعمة من الله عليك، وغراسك في الجنة، ..."[4]. وفي هذا ترغيبٌ بالجهاد.

رأى القاضي الفاضل أن الجهاد في الشام مسؤولية جماعية تقع على عاتق المسلمين جميعاً فهي ليست مسؤولية مسلمي المشرق وحدهم بل ومسؤولية من هم

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص239؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص492-493.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص193؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص322.

(3) أبو شامة، الروضتين، مج4، ص111.

(4) أبو شامة، الروضتين، مج4، ص109-111.

بالغرب أيضاً خاصة بعدما رآه من حربهم ضد المسلمين إنها حرب دينية بدليل مساعدة مسيحيي الغرب لهم بالسلاح وغيره، وقد جاءت آراؤه في الرسالة التي بعثها السلطان صلاح الدين بقلمه إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن تاشفين مستنجداً به على الفرنج عندما اشتد حصارهم بعكا عام 586هـ/ 1190م لقوله/ "إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأهل الكفّار من الغرب، فأجابوهم رجالاً وفرساناً، ... وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم .. بل خرج كُل يلبيٍّ دعوة بطركه ... ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بإمداده.. ولما كُنت حضرة سلطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السَّلام أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثّه ... كان من المتوقع من تلك الدولة العالية .. أن تُمدَّ غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمَدَّ به غربُ الكفار الكافرين..."[1].

تعددت وسائل الجهاد وطرقه عند القاضي الفاضل، فبالإضافة لدعوته للجهاد بالنفس أكدّ على أهمية الجهاد بالمال في حالة تعذر المدد البشري، وقد برز ذلك في الرسالة التي بعثها لملك المغرب ابن تاشفين – سابقة الذكر – لقوله: "فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسَّرة والعُدَّة فيها متوِّفرة، ... فالبدار البدار، وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار، وإن كانت دون الأسطول موانع إما من قلة عُدَّة، وإما من شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عَدُوّ، ... فالمعونة ما طريقها واحد، ولا سبيلها مسدود، ولا أنواعها محصورة تكون تارة بالرجال، وتارة بالمال"[2]. وفي دعوة القاضي الفاضل هذه تأكيد على ما أشار إليه من سبقه من

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص116-118. انظر: زغلول، سعد، (1952/1953). العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب بن تاشفين المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج6، 7، ص92-93. وعن رسائل الفاضل الأخرى أثناء حصار عكا عام 587هـ/1191م. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص147-149.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص113.

العلماء كالفقيه السلمي، وابن عساكر ودليل استمرارية دورهم في فترة الغزو الفرنجي.

لم تقتصر مساهمة القاضي الفاضل في الدعوة للجهاد لتحرير ما احتل من أراضي المسلمين بل كان له مساهمة فاعلة في رفع معنويات السلطان وعساكره، واستنهاض هممهم بعد الهزائم والمحن، ومنها ما كان يوم الرملة عام 573هـ/1177م[1] بدعوته إلى تناسيها حتى لا تكون عثرة في طريق المسيرة الجهادية، مما كان له أكبر الأثر في تشجيع السلطان على القيام بحملات للشام رداً على هجمات الفرنج[2] لقوله: "وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة علينا ظاهرها، وعلى العدو باطنها، ولزمنا ما نسى من اسمها، ولزمهم ما بقي من عزمها، لا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة، والحشود الكثيرة، ..."[3].

وقد تكررت محاولات القاضي الفاضل للشد من أزر السلطان صلاح الدين والرفع من معنوياته أثناء حصار الفرنج لعكا عام 586-587هـ (1190-1191م) بعدما أبدته عساكره من تقاعس عن الجهاد، فأخذ القاضي الفاضل بالتخفيف عنه وقع هذه المصيبة، بالتهوين، والتقوية من عزيمته، وتمنيه بنصر الله، ودعوته للصبر والثبات، والتأسي بالرسول ﷺ حينما خذله بعض أصحابه لقوله: "ولا يكره المولى أن تطول مُدّة الابتلاء بهذا العدو، فثوابه يطول حسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى ... والعاقبةُ للتقوى "**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ**" [الحج: 40]. ... والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه، وبولده وبخاصته، وبعامة جنده، والإعداء في أعدائه ... فهذه الأمور، وإن كانت شدائد ... فقد ألهم الله مولانا فيها سعة

---

(1) عن وقعة الرملة انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3 ، ص36-45.

(2) ذكر ابن واصل أنه عندما وصل لمسامع السلطان أن الفرنج نازلوا حماة وحارم بعد كسرة الرملة توجه بعساكره لمناهضتهم. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص65.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، ج، ص274؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص65.

الصّدر، وحُسن الصبْرِ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر..."[1]. وفي محاولة القاضي الفاضل هذه بمؤازرة[2] السلطان وحثه على التمسك بالصبر والثبات في هذه الظروف الحرجة دليل واضح على إدراك العلماء لأهمية القيادة السياسية والعسكرية في نجاح مسيرة الجهاد ضد الأعداء.

كان لرسائل القاضي الفاضل بعد انتهاء السلطان من بناء الجبهة الإسلامية الموحدة أثره في نشر فكرة الجهاد والدعاية لها دل على ذلك ما جاء في رسالته التي بعثها للملك تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين بمصر عام 581هـ/1185م، عبّر له فيها عن استعداد الناس للجهاد وتشوقهم له، وفي ذلك حثٌ للمجاهدين للتأهب للجهاد واجتثاث الفرنج من بلاد الشام لقوله: "الأحوال بالحضرة مستقيمة ... فسيوف الجهاد قد كانت تهتز في أغمادها، وخيلُ الله قد كادت تنادي أهلها، اركبي لميعاد طرادها، والمسجد الأقصى مبشّر تأنيسه بما استوحش منه من القرآن، وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصُّلبان..."[3]. وتأتي أهمية هذه الرسالة من خلال رصدها للحالة المعنوية للمجاهدين، وكشفها عن استعداداتهم للجهاد، كما فيها عكسٌ لصورة التعاون والاتصال القائم بين العلماء وأبناء المجتمع المحلي، فهم بذلك يعبرون عن نبض الشارع للجهاد، وفي ذلك أيضاً تدليل على تعاونهم مع السلطة السياسية.

لقد شاطر القاضي الفاضل عام 586هـ/1190م ما نبه إليه الفقيه الدمشقي أبو الحسن السلمي قبل أكثر من ثمانين عاماً عند معالجته لأسباب الغزو الفرنجي، حينما اعتبره عقاباً من الله للمسلمين على ما اقترفوه من ذنوب، مبيناً أن النصر من

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص103-110؛ دجاني، القاضي الفاضل، ص257.

(2) برز دور القاضي الفاضل ثانية في الشد من أزر السلطان على أثر تقاعس الجند عن الجهاد عام 588هـ/1192م في يافا فكتب له الفاضل رسالة يدعوه للصبر، والتيقن بأن النصر من عند الله. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج4، ص189.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص156-157.

عند الله، وأن الجهاد يستلزم قلوباً صافية، ونفوساً تائبة ومستغفرة تحاسب أنفسها، فالنصر لا يأتي إلا بطاعة الله والبعد عن معاصيه لقوله: "إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجّل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعنا لما عاقبنا بعدونا..."[(1)].

تميز القاضي الفاضل عن غيره من العلماء الذين دعوا للجهاد بتقديمه خططاً في فنون القتال وأساليبه، وتمثل ذلك واضحاً بقوله في رسالة للأمير أسد الدين شيركوه بعد تصديه للفرنج في مصر: "والجهاد فهو سلطانُ الله تعالى على أهل العناد، ...، فاطلبْ أعداء الله بَرّاً وبَحراً، واجلِبْ عليهم سهْلاً ووعْراً وقسّم بينهم الفَتكَاتِ قتلاً وأسراً، وغارةً وحصراً[(2)]، قال الله تعالى في كتابه المكنون: "**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**"[(3)].

هذا وقد تابع القاضي الفاضل تشجيعه على الجهاد حتى بعد وفاة السلطان صلاح الدين ففي عام 593هـ/1196م كتب كتاباً للملك العادل يحرضه فيها على جهاد الفرنج بعد انتهاء الهدنة الموقعة معهم، وعمل على ترغيبه على ذلك بما أعده الله للمجاهدين من الحور العين"[(4)].

سابعاً: دور العماد الأصفهاني في الحث للجهاد:

ابتدأت مساهمة الفقيه والقاضي العماد الأصفهاني[(5)] في مقاومة الفرنج بقلمه ولسانه منذ قدومه دمشق عام 562هـ/1166م حيث كان لبراعته في العلوم الدينية

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص105؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص339.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص452؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص91-92.

(3) سورة التوبة، آية 123.

(4) انظر: النص عند ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص14-16؛ Sivan, L' Islam Et la Crosiade, P. 142.

(5) عن ترجمته انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص147-149؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص178-179؛ وانظر: التفاصيل ص 37 من هذه الرسالة.

كالفقه والحديث ومعرفته بالنحو والأدب، وعقده لمجالس الفقه فيها، وبحضور كبار علماء دمشق وفي مقدمتهم متولي أمرها الفقيه كمال الدين الشهرزوري الذي أعجب بعلمه وثقافته – دورٌ كبير في الشهادة بأهليته عند الملك نور الدين محمود وترشيحه للعمل في ديوان الإنشاء عام 563هـ/1167م، فعلت بذلك منزلته عند الملك نور الدين محمود حتى أصبح صاحب سره، ففوّض إليه التدريس بالعمادية عام 567هـ/1171م، ثم جعله مشرفاً على ديوان إنشائه عام 568هـ/1172م[1] حتى أصبح من كبار موظفي دولته ومن أبرز دُعاة الجهاد عنده لمدحه له وحثه على فتح بيت المقدس عام 563هـ/1167م بقوله:

بُشرى الممالك فتْحُ قلعةِ من مَنْبج فليُهن هذا النصر كلَّ متوَّج
أبشرْ فبيت القدسِ يتلو مَنْبجاً ولَمنبِجٌ لسواهُ كالأنموذَجِ
فانْهدْ إلى البيت المُقدَّس غازياً وعلى طرابُلس ونابُلس عُجِ[2]

تعاظم دور العماد الأصفهاني في عهد صلاح الدين منذ اتصاله به بالشام عام 570هـ/1174م[3] فكان لمدحه وملازمته له، دور كبير في استكتابه والاعتماد

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج19، ص14-15؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص19-20؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص147-148؛ كيلاني، الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام، ص224.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص23؛ دجاني، القاضي الفاضل، ص219؛ Sivan, L' Islam Et la Crosiade, P. 46

(3) التقى العماد بالسلطان صلاح الدين بحمص بعد أن عرف بخروجه للشام فتوثقت علاقته به هناك، بالإضافة لما كان من علاقة سابقة بين عم العماد الأصفهاني، ونجم الدين أيوب بتكريت، فأكرموا العماد عند قدومه الشام ورفعوا من شأنه؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، "قسم شعراء الشام، شعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب"، ص 14-15؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص149.

والاعتماد عليه، فأخذ ينوب عن القاضي الفاضل[1] ثم بلغ عند السلطان مرتبةً عليا، فألقى إليه مقاليد أسراره[2].

توافرت للأصفهاني جُملة من الظروف جعلت منه علماً بارزاً من أعلام المقاومة للغزو الفرنجي سواء كان ذلك من خلال مؤلفاته التي غطت أحداث هذه الفترة الهامة من تاريخ المسلمين، أم من خلال مكاتباته ومراسلاته التي حملت تحريضاً واضحاً على الجهاد، واستنهاضاً لهمم المسلمين عامة، حتى أصبح من أشهر دُعاة الجهاد في ذلك العصر وصلت إلى حد مساواته بالقاضي الفاضل بل وربما التفوق عليه أحياناً لملازمته صلاح الدين في معظم حروبه، وحضوره[3] أكثرها سواءً كانت نصراً أم هزيمة فكانت أكثر وقعاً في نفسه وتأثيراً عليه وحافزاً له للكتابة والحثِ على الجهاد والترغيب فيه، والابتهاج بنشوة انتصاره بحكم وظيفته كاتباً لديوان الإنشاء فبقلمه كُتبت بشائر النصر بفتح بيت المقدس وعكا وغيرها[4]. وبقلمه استصرخت الخلافة[5] والملوك والأمراء لنجدة السلطان صلاح

---

(1) ساهم القاضي الفاضل بتحسين صورة العماد الأصفهاني لدى صلاح الدين بمعرفته العربية والفارسية ودعوته لاستكتابه لقوله له: "ربما أغيب أنا ولا أقدرُ على ملازمتك، فإذا غبت قام. العماد مقامي، وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية، فاستكتبه". انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص67-68.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص 149.

(3) انظر: وصفه لحصار الكرك عام 578هـ/1182م أثناء حضوره له. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص157-158، وحضوره فتح عكا عام 583هـ/1187م؛ العماد الأصفهاني. الفتح القسي، ص64، وحضوره وقعة تل العياضية بعكا. العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص284-285.

(4) انظر: رسالته للديوان العزيز ببغداد بفتح بيت المقدس.أبو شامة، الروضتين، ج3، ص221-224؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص517-520؛ انظر: رسالته لدار الخلافة ببغداد بعد فتح عكا. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص205-207.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص240-241.

الدين ضد المحاصرين لعكا عام 586هـ/1190م[1]. فكان بذلك محرضاً لهم على الجهاد[2].

لامست رسائل الأصفهاني مكانة في النفوس حتى وصف تأثيرها بأنها أنكى بأساً على الفرنج من سيوف المجاهدين، إذ بها جمع صلاح الدين عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر، ألف بين قلوبهم، وحبب الاستشهاد إلى نفوسهم[3] وبشهادته هو نفسه: "وكان يأمرني بإجابة كُتب الملوك، وفي حالتي سلمهم وحربهم، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي"[4].

شكلت مكاتبات العماد الأصفهاني للخلافة العباسية ولملوك بني أيوب وأمراء الأطراف وسيلة هامة من وسائل الدعاية للجهاد، وحشد الجيوش لمقاومة الفرنج، فحملت كثيرٌ من رسائله معنى الاستنفار والاستنجاد، فكان منها تلك الرسالة التي وجهها للملك المظفر تقي الدين عمر عام 579هـ/1183م في مصر بعد فتح حلب يستدعيه هو وعساكره للجهاد، مصوراً له استعداد الأمة للجهاد، ومبيناً له أن ملوك المسلمين وأمرائهم لبوا نداء الجهاد، وهم مندفعون ومتشوقون له، مُذكراً ومؤكداً رغبته في مشاركته هو وجيشه مستخدماً أسلوباً يحمل معنى الترغيب والتحفيز ببيان أجر المجاهد وثوابه لقوله: "... وأن العزائمَ قد قويت، والصرائم قد رَوِيَتْ، وزناد الهمم وَرَتْ وآثارُ النصر قد رُوِيَتْ... وقد انهض الله إلينا أَمْدادَ آلائهِ، وأقْدَمَها لينهض بقوادمها إلى جهاد أعدائه، فلم يبق لنا عذر في ترك الجهاد يُقبلُ، ولا يُقال بعد هذا من أمر الغزو ما لا يُفعل، وقد كاتبنا أمراء الأطراف

---

(1) انظر: رسائله على أثر قدوم ملك الألمان للشام العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص240-242، 298-305.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص161-162؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص158.

(3) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص17.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص345.

باستعدادهم، لإستدعـــائهم، ... فما منهم إلا من يسابق إلى تلبية النداء، ... وقــد عزمنا مع خروج شباط المسير إلى حلب لأن هناك العــساكر يقــرب اجتماعهــا، والغنائمُ تتحقق اتساعُها... والهممُ الساكنة تتحرك، وحساب كلّ راجٍ بما يناله مــن عطائنا الحساب ينفذلك"[1].

كما استنهض العماد الأصفهاني الخلافة العباسية ببغداد بدعوته لها لإعلان الجهاد بين المسلمين، وقد جاء ذلك في رسالته التي بعثها عــام 586هــ/1193م على أثر قدوم ملك الألمان لبلاد الشام بهدف القضاء علــى المقاومــة الإســلامية واسترجاع بيت المقدس"[2].

وجاء في رسالة استنفار أخرى للعماد الأصفهاني بعثهــا لأحــد الأمــراء يستنجد به ضد الفرنج أثناء حملتهم الثالثة بقيادة ملك الألمان، جاعلاً له من ضخامة حشود الفرنج واستقواء دينهم على الإسلام مُحركاً لهممهم على الجهاد، كما جعــل من صورة تنبئه باستسلام الإسلام للكفر والانتصار عليه إثارة لحميــة المــسلمين بقوله: "... وقد آن للإسلام أن يُسلم وللإيمان أن يعدم، وللتثليث أن يُعلن وللتوحيــد أن يكتَم ...[3]، وهذا أوان تحرك ذوي الحمية، ونهوض أهل الهمم الأبيــة العليــة، فإن القوم في كثرة ... فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، ... وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين"[4].

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص172؛ وللمزيد عن دعوات العمــاد الأصــفهاني لملــوك المسلمين للجهاد انظر: رسالته للملك العادل عام 579هـ/1183م، إثرتوليه حلب. البرق الــشامي، ج5، ص159-161.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القُسّي، ص239-240.

(3) يكتم: من كتم، وتأتي بمعنى توارى وتغيب وقد تعني اقتصاص آثار الشيء. ابــن منظــور، لــسان العرب، مج12، ص 39.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القُسّي، ص241؛ الشهاب، عبد الرحيم نجيب، (1995). العماد الأصــفهاني الأديب، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ص331.

وقد أبرز العماد الأصفهاني في دعوته المسلمين للجهاد بوضوح وبتأثير هزيمتهم في مرج عكا عام 585هـ/1189م متخذاً من تفوق الفرنج في العدد والعدة ومن وحدة صفهم، وقوة عقيدتهم بأزاء ما كان عليه المسلمون من ضعف وانقسام وانعدام غيرتهم على دينهم مدخلاً لإثارة حمية المسلمين ونخوتهم للجهاد، ودعوتهم للإقدام على تلبية النداء بقوله: "... وما دام البحر يمدهم والبر لا يصدُهم فبلاءُ البلاد بهم دائم ...، فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين وغيرة أهل اليقين، وما ينقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه...، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا ... والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ... هذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني..."[1]. إن الناظر في كلام العماد يدرك مرماه فبالإضافة للدعوة للجهاد تركيزه على علاج الناجع لحالة المسلمين المتردية والتي سببها انعدام وحدتهم، وبهذا فهو يشارك الفقيه السلمي في تفسيره لهزائم المسلمين أمام الفرنج.

كثيرةٌ هي الوقائع والهزائم التي برع العماد الأصفهاني في استغلال أحداثها لجهاد الأعداء، وبعث الأمل في نفوس المجاهدين وإثارة حمياتهم للقتال والثأر من الفرنج، ومنها هزيمة المسلمين أثناء حصار عكا عام 587هـ/1191م بقوله: "وللكرام آمال، والحرب سجال، ولله من المؤمنين رجال، والآن قد ثارت الحميّات، وهبت النخوات، ووجب على كلّ مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن، بالجبر والإحكام ... فأين ذوو الأنفة والحَميّة، والهمم العليّة والنفوس الأبية؟ أما يغتمون لمصرع من استشهد من إخوانهم؟ أما يثورون لثأر إيمانهم؟ أما تبكي العيون لمن قتل...، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة،

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص195-196؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص60-61.

وإثارة العزائم الرّاكدة"[1]. كما وقف العماد إلى جانب السلطان بعد سقوط عكا عام 587هـ/1191م بيد الفرنج مواسياً ومصبراً له داعياً إياه إلى عدم الهوان بل الانتقام من الفرنج بعدما رأى من حزنه على سقوطها[2].

أدرك العماد الأصفهاني بحكم معاصرته ومعايشته لحروب السلطان صلاح الدين، واطلاعه على أسرار الدولة[3] وعلاقاتها مع ملوك المسلمين وأمرائهم أهمية الوحدة وضرورتها للجهاد، ولهذا ركز عليها كثيراً في مراسلاته معتبراً أن وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم سببٌ في النصر، داعياً أمة الإسلام إلى توحيد صفوفهم، وقد جاء ذلك متضمناً في إحدى رسائله باسم السلطان صلاح الدين لصاحب إربل بعد ما رأى من محاولاته الانفصالية لقوله: "إن الله لما مكّن لنا في الأرض، ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفرض، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله، فنوضح سبيله، ونقبل على إعلاء الدين وننصر قبيله، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو عدائه، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استنزال نصره من سمائه..."[4].

اتخذ العماد الأصفهاني كغيره ممن دعا للجهاد كأبي الحسن السلمي، وابن عساكر، والقاضي الفاضل من سيطرة الفرنج على بيت المقدس، دافعاً ومحركاً، موجباً للجهاد، وإنقاذاً لها، كما ربط بين فتح السلطان لحلب[5] عام 579هـ/1183م وبين تحرير بيت المقدس مؤكداً أن هذا الفتح كان نتيجة لوحدة صفوفهم، وفيه تهيئة

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص158؛ زايد، مصطفى محمود، (1993). النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ص 80.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص301.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص149.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص143.

(5) عن أهمية فتح حلب للألفة بين المسلمين. انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص125.

لهم للمنازلة الكبرى مع الفرنج على أبواب بيت المقدس، وفي ذلك دفع واضحٌ للجهاد لقوله في إحدى رسائله: "... فلم يبق إلاّ الإعداد لقمع جمع الأعداء والأضداد، والاجتهاد في صدق قصد الجهاد، وإيقاظ الجفون من غرارها ... وقد آن أن يُملأ بالأعنة والأسنّة ساحل الساحل، وينزل الدين ويرحل الكفر، مما أوفر راحة المقيم وأصغر راح الراحل، وأن كان أمس حد المسجد الأقصى فاليوم الأدنى بنا يوم وفائه ووفاقه، وأن ظهر شر الشرك فيه أوانه فهذا أوان إخفائه وإخفاقه. والقدس قد سرّ سرّه منا بعزّ عزمنا..."[1] كما اعتبر العماد أن النصر على الفرنج يوم حطين عام 583هـ/1187م كان شفاءً لغليل المسلمين من الفرنج، ومقدمةً لفتح بيت المقدس لقوله: "غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مُقدّمة، ولمعاقد النصر وقواعده مُبرمة مُحكمة"[2].

وكان حدث فتح بيت المقدس عام 583هـ/1187م حدثاً عظيماً ، ولهذا أخذ العلماء يتنافسون فيما بينهم لاستغلاله في بيان فضل الجهاد كل بأسلوبه وطريقته، وقد أكدها العماد الأصفهاني من خلال إشادته بدور المجاهدين وجهودهم في هذا الفتح، شاداً بذلك من أزرهم مبرزاً أثره في تطهير القدس من رجس الفرنج لقوله: "قد سبقت البشائر بما منّ الله بها من الفتح العظيم، والنصر العميم ... والشرف الذي ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار، فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته، وافتضاض عذرته، وخص من أجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته ...، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها، ... ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضة..."[3].

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص126-127.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص183.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص96-97؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص223-224.

ثامناً: دور الفقيه بهاء الدين بن شداد في الحث على الجهاد (584-589هـ)-(1188-1193م):

لمع اسم الفقيه يوسف بن رافع المعروف بابن شداد والملقب ببهاء الدين[1]. في عصر السلطان صلاح الدين، حتى أصبح علماً من أعلام المقاومة الفكرية للغزو الفرنجي. وقد كان لملازمته للسلطان صلاح الدين في حروبه ضد الفرنج وحضوره لقاءاته مع رسل الملوك والأمراء والفرنج ودعايته للجهاد في عصر السلطان دورٌ كبير لارتباطه باسمه، حتى أصبح مستشاراً له وناصحه في شؤون الدعاية للجهاد، والسياسة والحرب[2].

ساهم الفقيه ابن شداد بالدعوة للجهاد في فترة الحروب الفرنجية (الصليبية)، وكان له أكبر الأثر في دفع حركة المقاومة ضد الفرنج. ولم يكن السلطان ليتخذ من ابن شداد مرافقاً ومستشاراً له، لولا ما لمسه من حسن الصحبة، والخبرة، والحث على الجهاد، والثقافة الدينية الواسعة بالفقه والحديث والتفسير[3]، فهو صاحب مؤلفات في الأقضية[4]، والفقه[5]، والحديث[6]، وكان لهذه الميزات دورها في سعي السلطان الاستفادة منه[7] حتى أنه أبدى إعجابه بشخصية ابن شداد وبعلمه منذ

---

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص84.

(2) انظر: التفاصيل عند ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص11، 95، 98، 114-115، 127، 131، 137، 146، 150-151، 171، 175، 188.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص84-86.

(4) انظر: كتابه ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص87.

(5) انظر: كتابه الوجيز الباهر في الفقه، ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص100.

(6) انظر: كتابه دلائل الإحكام على الأحاديث المستنبط من الأحكام، ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص 100.

(7) عرض السلطان على ابن شداد التدريس بمنازل العز بمصر، وتوليته الخطابية بمصر عام 579هـ/ م لكنه رفض ذلك ورجع للموصل. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص65؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص88.

لقائهما الأول عام 579هـ/1183م لقول ابن شداد: "ومن تلك الدفعة فقد ثبت في نفسه الشريفة مني أمرٌ لا أعرفه إلا بعد خدمتي له"[1].

من المؤكد أن طريقة اتصال السلطان بالفقيه ابن شداد دليل واضح على أهمية هذا العالم، إدراكاً منه للدور الذي يمكن أن يساهم به في حركة المقاومة، وتمثل ذلك بإلحاح السلطان على ضمه لخدمته بخلاف غيره من العلماء المعاصرين للسلطان صلاح الدين والذين اشتهروا بالدعوة للجهاد. وقد أورد ابن شداد رواية اتصاله بالسلطان بعد رجوعه من فريضة الحج لعام 583هـ/1187م، ونزوله دمشق بنية زيارة بيت المقدس، وعندما علم السلطان بوجوده أرسل وراءه بعض خواصه (العماد الأصفهاني) لا بلاغة رغبة السلطان. بالمثول إلى خدمته بعد رجوعه من بيت المقدس، فامتثل لأمره بعد رجوعه ونزوله دمشق، وعندما بدأ بالاستعداد للرجوع للموصل، رفض السلطان ذلك، وأخذ يرسل إليه الرسل لإقناعه بالبقاء بجانبه والعمل في خدمته[2]. ثم سيّر إليه الفقيه عيسى الهكاري الذي أبلغه معارضة السلطان لرجوعه للموصل وإصراره على العمل معه مما جعل ابن شداد ينصاع لأمر السلطان لما رآه من محبته للجهاد لقول ابن شداد: "وكان قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه للجهاد، فأجبته لذلك[3]. وكان ذلك في جمادى الأولى من عام 584هـ/1188م[4].

على الرغم من قصر الفترة الزمنية التي لازم فيها الفقيه ابن شداد السلطان صلاح الدين (خمس سنوات) إلا أنه أظهر فيها دوراً مؤثراً من خلال مقاومته للغزو الفرنجي، ويعود السبب في ذلك لكونها أكثر فترات الحروب الصليبية شدة لما تخللها من أحداث جسام خاصة بعد استرجاع المسلمين لبيت المقدس وما ترتب

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص65.
(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص85-86.
(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص86.
(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص87.

عليه من تكالب الغرب الفرنجي ضد المسلمين، ومحاولاتهم استرجاع بيت المقدس. إذ عاصر فتح السلطان لعددٍ من مدن الشام وقلاعها[1]. وقصده قلعة شقيف أرنون[2] وقصد الفرنج لعكا وتصاعد حجم المقاومة الإسلامية ضدهم[3]. وما تلاها من سقوط لعكا بيد الفرنج عام 587هـ/1191م[4]. فكان لهذه الفترة وما شهدته من مواجهات عسكرية حامية الوطيس مع الفرنج، وما تستوجبه من دعاية قوية للجهاد – أهميتها في بروز دور الفقيه ابن شداد بالحث على الجهاد تارة، وبالتخفيف عن السلطان آثار الهزائم تارة أخرى.

تعددت مساهمات الفقيه بهاء الدين بن شداد في الدعوة للجهاد وظهرت واضحة بمؤلفه في الجهاد الذي وضعه للسلطان صلاح الدين الأيوبي عند دخوله في خدمته، تشجيعاً له على الجهاد، وترغيباً له وموضحاً له فضائله لما عرفه عنه من حبه له[5] وجاء في ثلاثين كراسة[6]. جمع له فيها كل ما يتعلق بالجهاد لقوله: "جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها"[7]. "جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها، وكان يرحمه الله – كثيراً ما يطالعه[8].وقد قدمه للسلطان وهو مرابطٌ في بقيعة حصن الأكراد، وعلى أثرها بدأ الاتصال به[9].

---

(1) انظر: أسماء المدن والقلاع، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص86-97.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص97.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص103-115.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص171.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص21، 86؛ Hillenbrand, The Crusades, Islamic Perspectives, P. 182.

(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص88.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص86.

(8) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص21.

(9) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج7، ص88.

أظهر السلطان إعجابه بمضمون الكتاب وأهدافه، وتجلى ذلك بثنائه على ابن شداد بالجميل[1]. وقد كشف هذا المؤلف عما تميّزت به هذه الفترة من تعاون وتلاحم واضح بين السلطة السياسية والعلماء لمقاومة الغزو، مثلما تجلى في فترة سابقة بعلاقة الحافظ ابن عساكر والملك نور الدين محمود. ومن المفيد الإشارة إلى أن ما صنفه ابن شداد من كتاب متخصص بأمر الجهاد للسلطان صلاح الدين، قد جاء بعد إدراكه وتيقنه، من حاجته وضرورته، وما كان من محبة السلطان ورغبته بهذا الأمر[2].

لم تقتصر جهود ابن شداد في الحث على الجهاد وإثارة الحماس للسلطان وحده، بل امتدت لتشمل العساكر في ساحات القتال، وقد سجّل ابن شداد كثيراً من الحوادث التي تؤكد دوره وأثره الكبير في التعبئة الفكرية الضرورية للجهاد أثناء المواجهة مع الفرنج، وذلك بقراءته بعض الأحاديث النبوية على مسامعهم لإثارة حماسهم وترغيبهم في القتال، فكثيرٌ ما كان السلطان إذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفين ويرتب الأطلاب ويقرأ جزءاً من الحديث بين الصفوف، حتى أن ابن شداد قال له في إحدى الوقعات مع الفرنج: "قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ولم يُنقل أنه سُمع بين الصفين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً"[3]، فأذن السلطان فقرئ بين الصفين كما أراد ابن شداد، وهذا يؤكد حرصه على ترغيب الجند بأحاديث الجهاد قبل المواجهة مع العدو، كما يؤكد مكانته الهامة وكلمته المسموعة عند السلطان.

كَثُرت مواقف الفقيه ابن شداد في الحث على الجهاد وبيان فضله، ومنها ما كان عند فتح السلطان لصفد عام 584هـ/1188م، والتي أظهر فيها استعداداً كبيراً لفتح البلدة وقلعتها المنيعة، إلى أن استقر قراره على تعيين مواضع خمسة مجانيق

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص85-86.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص21.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص20.

لنصبها رافضاً تأخير ذلك لقوله: "ما ننام حتى تنصب الخمسة" واستمر العمل فيها حتى طلع الصبح، والسلطان ملازم للجند مشرف على نصب المجانيق، وقد كان لموقفه هذا والمتمثل بحراسة ثغور الإسلام أثره في نفس ابن شداد مما دعاه لتذكير السلطان بأحاديث الرسول ﷺ التي تحمل البشرى للمجاهدين والحارسين في سبيل الله بالجنة لقوله: "فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشّرته بمقتضاه وهو قوله ﷺ: "عينان لا تمسهما النار: عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله"[1].

أثبتت مواقف ابن شداد مع السلطان صلاح الدين بأنه خير محرضٍ وواعظ للجهاد، وثمة حالات عديدة أظهرت استفادة السلطان من مواعظه في الجهاد، والتي تركت أثرها الواضح في نفس السلطان بثباته على الجهاد وبرز ذلك عام 584هـ/1188م أثناء ركوبهما البحر حيث تحاورا في أمر الفرنج ومقاومتهم حتى أفصح السلطان لابن شداد عن رغبته بالخلاص من فرنج الساحل جميعهم قبل موته، فما كان من ابن شداد إلا أن أثنى على كلام السلطان ومدحه، واصفاً شجاعته بقوله: "أما فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله، وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم" وعلى الرغم مما أظهره ابن شداد من حرص شديد على حياة السلطان ودعوته لعدم المخاطرة بها لما للقيادة من أثر هام في التصدي للفرنج[2]. إلا أن السلطان استفتاه سائلاً إياه عن أشرف الميتات قائلاً له: "أنا استفتيك ما أشرف الميتات" ثم قال ابن شداد "الموت في سبيل الله حينها سكنت نفس السلطان قائلاً "غاية ما في البال أن أموت أشرف الميتات"[3].

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص95.

(2) انظر: الموقف المشابه له في ص128-129 من هذه الرسالة، حيث مواقف الفقيه قطب الدين النيسابوري مع الملك نور الدين محمود بدعوته لعدم المخاطرة بنفسه.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص22-23؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص231.

على الرغم من كَثرة عدد العلماء والوعاظ المشاركين في حروب السلطان صلاح الدين ضد الفرنج إلا أن الفقيه ابن شداد كان أكثرهم قُرباً من السلطان، وملازمة له، لاتساع معرفته وثقافته بأمور الجهاد، والحث عليه، ومما يؤكد ذلك ما كان من اختيار السلطان صلاح الدين له لحث أمرائه وحفزهم على الجهاد أثناء نزول الفرنج ببيت نوبة، وعزمهم على مهاجمة بيت المقدس عام 588هـ/1192م، حيث جمعهم وكلمهم في ذلك ودعاهم للزوم الوحدة، والثبات وإخلاص النية في الجهاد بقوله: "إن النبي ﷺ أولى من تأسى به والمصلحة الاجتماع عند الصخرة، والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو"[1] ثم تكلم السلطان على أثره حاثاً جنده وأمراءه على عدم التخاذل، ومحملاً إياهم مسؤولية دماء المسلمين وأعراضهم[2].

كما برز دور الفقيه بهاء الدين بن شداد في مساندة السلطان - حينما عزم الفرنج على مهاجمة بيت المقدس عام 588هـ/1192م، وما كان من تغيّر مواقف أمراء السلطان وتبدلها، بالإضافة لما أظهروه من تقاعس عن الجهاد، محاولين بذلك زعزعة عسكر السلطان بإثارة فتنة بين الأكراد والأتراك لقولهم: "إنك إن أردتنا فتكون معنا أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد" فأوقع بذلك أثراً قوياً في نفس السلطان، واستعصى الأمرُ عليه، مما اقتضى من ابن شداد ملازمته حتى الصباح ثم عرض عليه بعد أدائهما صلاة الصبح أن يتضرع إلى الله عز وجل لحل مشكلته التي عجز عن حلها لما لها من خطر واضح على الإسلام، لقوله: "المولى في اهتمامه وما قد حمّل نفسه من هذا الأمر مجتهدٍ فيما هو فيه، وقد عجزت أسبابه الأرضية، فينبغي أن يرجع

[1] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص216؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص179-180؛ مؤنس، فكرة الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، ص247.

[2] انظر: تفاصيل الخطبة عند ابن شداد، النوادر السلطانية، ص216؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص180.

إلى الله تعالى، وهذا يوم جمعه، وهو أبرك أيام الأسبوع، وفيه دعوة مستجابة... وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربك، وتفوض مقاليد أمرك إليه، وتعترف بعجزك عما تصديت له، فلعل الله يرحمك، ويستجيب دعاءك"[1]. ففعل السلطان ما أشار عليه ابن شداد فعله، فما كان اليوم الثاني حتى جاء الخبر برحيل الفرنج عن بيت المقدس. ولعل في هذا المثال ما يثبت دور العلماء وأهميتهم في الوقوف إلى جانب السلطة السياسية، للشد من أزرها وقت الأزمات والمحن.

تاسعاً: خُطب الجهاد وأثرها في الحث على الجهاد [خطبة ابن الزكي نموذجاً]:

كان فتح السلطان صلاح الدين لمدينة حلب في صفر من عام 579هـ/1183م[2] حدثاً عظيماً في تاريخ الصراع مع الفرنج، لما تمخض عنه من تماسك في الجهة الإسلامية وتوحدها بالإضافة لما شكله من فاتحة للانتصارات الحاسمة على الفرنج، فكان مُشجعاً لفتح بيت المقدس، وتحريره، فعلى أثر هذا الفتح تسابق عدد كبير من الشعراء[3] والعلماء لمدح السلطان صلاح الدين والتقرب منه بحثّه على فتح بيت المقدس، وتمثل دور العلماء بمدح قاضي دمشق محي الدين ابن الزكي له، وتبشيره بفتح بيت المقدس على يديه لقوله:

وفتحكم حلباً بالسَّيف في صفرٍ ... مبشرٌ بفتوح القدسِ في رجبِ[4]

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص217؛ آرمسترونغ، الحرب المقدسة، ص 331-332.

(2) عن فتح حلب انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص113-120؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص103-112.

(3) قال الشاعر أبو طيء النجار يوم فتح حلب:

حلب شامة الشام وقد زد ... دت جلالاً بيوسف وجمالا

هي أسُن الفخار من نال أعلا ... ها تعالى فخامة وتفالا

انظر: أبو شامة، الروضتين ج3، ص 110.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص119. انظر: هذه الأبيات أيضاً عند: أبو شامة، الروضتين، ج3، ص110-111؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص141-142؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص313-314.

مثّلت بُشرى فتح بيت المقدس دليلاً واضحاً على مساهمة العلماء في التصدي للغزو الفرنجي من خلال دورهم في الحث على الجهاد لفتح هذه المدينة المقدسة. وقد كانت هذه البشارة محور حديث عدد من العلماء برز منهم الفقيه الحلبي مجد الدين بن جهبل[1] في تفسيره للقرآن الكريم لمؤلفه ابن برَّجان المغربي[2]، الذي فسر قول الله عز وجل "**آلم غُلِبَتْ الرُّومُ**" [الروم: 1، 2][3] بأن الروم سيغلبون في رجب سنة 583هـ/1187م وسيفتح فيها بيت المقدس ويصير دار للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه[4]. فما كان من ابن جهبل إلا أن كتب للسلطان ورقة يبشره فيه بفتح بيت المقدس على يديه، ومحدداً له فيها الزمن الذي ستفتح به، وقام بإعطاء الورقة للفقيه عيسى الهكاري[5]. الذي بدوره لم يتجاسر على تبليغ السلطان بذلك خوفاً من عدم المطابقة، فحدّث بذلك القاضي محي الدين بن الزكي[6]. الذي كان واثقاً بعمل ابن جهبل وعقله

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص 28؛ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 350.

(2) هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الاشبيلي، كان عبداً صالحاً له تفسير القرآن العظيم، توفي عام 536هـ/1141م بمراكش. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص236-237؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18، ص428. وعن دور علماء المغرب في فتح بيت المقدس انظر: المنوني، نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية، ص146.

(3) ذكر الطبري أن الفرس غلبت الروم في الأرض القريبة من أرض فارس وهي بلاد الشام، وأن الروم من بعد غلبهم سيهزمون الفرس، وسيكون انتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين، فلما كان يوم بدر غلبت الروم الفرس ففرح المسلمون، وقد وعد الله أنه سينصر المسلمين على المشركين من قريش بعد هزيمة الروم. الطبري، تفسير الطبري، ج6، ص96-97.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص110-111.

(5) هو عيسى بن محمد الملقب بضياء الدين، كان فقيهاً، تفقه بالجزيرة ثم انتقل لحلب، سمع الحديث وحدث به، كان شجاعاً، شهماً، وهو من خاصة الأمير أسد الدين شيركوه ثم أصبح من كبار أمراء صلاح الدين الأيوبي، توفي عام 585هـ/1189م أثناء حصار الفرنج لعكا. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص479؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص255-256.

(6) ترد إشارة عند ابن خلكان تقول بأن القاضي محي الدين بن الزكي هو الذي قرأ تفسير ابن برجان بنفسه، ولهذا مدح السلطان. انظر: وفيات الأعيان، مج4، ص23.

ومدركاً أنه لا يُقدم على هذا القول حتى يحققه، ويثق به، فعمل بذلك قصيدة في مدحه، وفتحه لبيت المقدس[1].

اختلفت الروايات حول صحة ما تنبأ به ابن بُرجان في تفسيره بتوقيت فتح بيت المقدس، فقد أشار حاجي خليفة إلى وجوده[2] في حين ذكر ابن خلكان أن أكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات*[3]. وعلى الرغم من إشارة بعض المصادر[4] إلى وجوده إلا أن بعض العلماء أبدى تحفظه عليه ومنهم العماد الأصفهاني بإشارته أنها من عجائب ما اتفق لهذه الأمة، وشكك الأصفهاني في ذلك بقوله: "وهذه نجاعة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل وقوعه". ثم قال إنه لم يأخذه في قراءة الحروف وليس من قبيل الكرامات، لأن الكرامة لا تكتسب بحساب، ولا تفتقر إلى تاريخ، ولذلك لم يوافق الصواب[5]. أما الإمام السخاوي فقد رأى أن ما تنبأ به ابن برجان في تفسيره لفتح بيت المقدس بأنه لم يأخذه من الحروف، وإنما أخذه من قوله تعالى: "**غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ**"[6]، فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم سيغلبون سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا، على ما تقتضيه دوائر التقدير[7].

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص11؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 314.

(2) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج5، ص57.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص237.

* من قوام والمقام والمقامة وجمعها مقامات وتعني مجالس الناس. ابن منظور، لسان العرب، مج11، ص 362.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص255؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص237.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص255.

(6) سورة الروم، آية 2-4.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 255.

عارضت بعض الدراسات الحديثة حادثة التنبؤ بفتح بيت المقدس بالقول أن بني البشر لا يستطيعون التنبؤ بالغيب[1] ومن المرجح أن ما تنبأ به ابن بُرجان قد وضع وأضيف لتفسيره في فترة لاحقة بعد وفاته؛ دليل ذلك ما ذكره ابن خلكان عندما أراد التحقق بنفسه مما كتبه ابن برجان فقال: "وجدته على هذه الصورة، لكن كان هذا الفصل مكتوباً في الحاشية بخط غير الأصل، ولا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به، وذكر له حساباً طويلاً وطريقاً في استخراج ذلك حتى حرره من قوله "بضع سنين"[2]. وفي هذا تأكيدٌ على عدم وجوده أصلاً، ومن الممكن أن يكون هذا التنبؤ بهذه البشرى جاءت عن طريق التوقع والتمني.

تطلب فتح بيت المقدس إعداداً كبيراً من الناحيتين المادية والمعنوية، وقد كان لذلك دوره في التمهيد للفتح ونجاحه، وتمثل ذلك بإعطاء المقاتلين قسطاً من الراحة قبل الفتح، والقيام بإشاعة خبر الفتح للسماح بأكبر قدر ممكن من المقاتلين والمتطوعين للتوجه نحو بيت المقدس للمشاركة في رص الصفوف، وإعداد العُدة وانعكس أثر هذا الترويج الإعلامي لهذا الفتح بتوافد عددٍ كبير من العلماء، ورجال الدين ملبين نداء الجهاد، ومشاركين في عملية تعبئة المقاتلة للجهاد، ومن المؤكد أنّ لهذه المشاركة أثراً واضحاً على المقاتلين بخلقها أجواء فكرية وإيمانية، ممهدة للقتال ومشجعة عليه. حتى وصف ابنُ كثير ذلك بقوله: "وطار في الناس أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس، فقصده العلماء والصالحون تطوعاً وجاءوا إليه ... فاجتمع من عباد الله ومن الجيوش شيء كثير جداً..."[3].

---

(1) عبد المهدي، عبد الجليل، (1989). ابن الزكي وخطبته القُدسية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، (ع36)، السنة 13، ص 183.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص230.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص322.

لم يكن فتح بيت المقدس أمراً سهلاً إذ جاء بعد عناء ومشقة واضحتين، واحتلال دام إحدى وتسعين سنة، حتى أطلق العماد الأصفهاني عليه لقب الفتح العظيم والبكر[1] لأهميته ودوره في زعزعة الفرنج في بلاد الشام، ولهذا كان بدهياً أن يكون التغني بهذا النصر المؤزر، والثناء على المشاركين فيه على قدر عظمة هذا الحدث، وتمثل الابتهاج به وبيان أهميته من خلال خطب الجهاد، وتحديد خطبة الجمعة بعد الفتح.

راجت خطب الجهاد خلال فترة الحروب الفرنجية، ونالت عناية كبيرة لما لها من أهمية بالغة في التحريض على الجهاد، والتحذير من القعود عنه[2]. فكانت واحدة من أهم وسائل الدعاية للجهاد والتي برع العلماء في استغلالها، وتنوعت بين خطب دينية، وخطب خاصة بالحث على الجهاد والتذكير بفضله، وتحديد في الأوقات التي كانت تشهد معارك طاحنة بين المسلمين والفرنج[3]. وقد كان لهذه الخطب الحماسية خاصة تلك التي تلقى يوم الجمعة آثرها الواضح فيما تحقق للمسلمين من انتصارات من خلال حفزهم لخوض المعارك حيث يجتمع المسلمون في هذا اليوم، وتتضاعف حسناتهم، وتتوقد حماستهم. وهذا ما أكده ابن شداد بربطه انتصارات المسلمين على الفرنج بما كان من أدعية خطباء المساجد يوم الجمعة، حيث كان من عجيب الاتفاق أن ست قلاع ومدن فتحت في ست جمع، وفي هذا دليل على قبول دُعوات النصر لهؤلاء الخطباء[4].

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص247؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص518.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص216؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص248-253؛ كيلاني، الحروب الصليبية، ص70؛ بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص379.

(3) بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص382.

(4) انظر: القلاع التي تم فتحها على يد السلطان يوم الجمعة عند ابن شداد، النوادر السلطانية، ص92؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص265.

وقد حظيت خطبة فتح بيت المقدس بأهمية خاصة، لكونها أول خطبة تقام بعد الفتح، ولما كان لها من أثرٍ على المجاهدين، وقد ألقيت هذه الخطبة في ثامن يوم الفتح "الرابع من شعبان" لتعذر إقامتها في جمعة الفتح، وقد أشار العماد الأصفهاني إلى تسابق العلماء والخطباء لنيل شرف إلقاء هذه الخطبة حتى أن بعضهم رشح نفسه للإلقاء، وبعضهم جهّز خطبته، وبعضهم أخذ يتقدم بالوساطة لديه[1]. وقد استمر العلماء والفصحاء في الترقب والسؤال عمن يتعين لهذه الخطبة حتى أوعز السلطان صلاح الدين إلى القاضي محي الدين بن الزكي بإلقائها[2].

لقد عدّت هذه الخطبة - والتي هي من إنشاء القاضي ابن الزكي وإلقائه - من أهم الخُطب التي قيلت في الحث على الجهاد؛ ويعود ذلك إلى بلاغتها وحصافة صاحبها وسعة علمه فهو من الأسر الدمشقية العريقة المعروفة بعلمها ورئاستها لمنصب القضاء في الشام منذ عهود، فقد كان أبوه وجده من كبار قضاتها[3] وأضيف لذلك ما تضمنّته هذه الخطبة من معانٍ بليغة وصور فنية وفوائد جمة والتي تمثلت بإشارتها إلى أهمية المقدسات وتحريرها من الفرنج، والترغيب بالجهاد، والحث على مواصلته للتخلص من بقايا الفرنج في الشام، وما كان فيها من مدح لشجاعة فاتحي بيت المقدس، والشد من أزرهم، وبيان عظمة إنجازهم[4].

نجح القاضي ابن الزكي في استغلال هذا الفتح وتسخيره بدفع الحركة الجهادية ضد الفرنج، وتمثل ذلك بإشارته إلى فضل هذه الفئة المجاهدة التي قامت بهذا الفتح، لقوله: "لولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكّان بلاده، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ...، فله النِّعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعّمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتحُ الذي فُتحتْ فيه

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص90.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص91.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص229.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص248-253؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص230-236.

أبواب السَّماء..." "فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نَكَلَتْ عنه بنو إسرائيل، وقد فضلكم على العالمين، ووفَّقكم لما خُذل فيه ما كان قبلكم من الأمم الماضين..."[1].

أخذ الترغيب بالجهاد جانباً كبيراً من خطبة ابن الزكي لما له من أهمية بارزة في هذه الفترة، وتمثل ذلك ببيان ثواب فاتحي بيت المقدس، وما أعده الله لهم من جنات النعيم، لقوله: "أيها النّاس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدِّرجة العُليا لما يسَّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضَّالة، من الأمة الضَّالة... وأثابكم الجنة فهي دارُ السُّعداء..."[2].

كما برع ابن الزكي في توظيف انتصارات الرسول ﷺ وخلفائه من بعده في الحث على الجهاد من خلال مقارنتها بانتصار السلطان صلاح الدين وتحريره بيت المقدس، كما تمثل ذلك بإشادته بالمجاهدين وشجاعتهم في القتال يوم الفتح، وفي هذا رفعٌ لمعنوياتهم وتعظيمٌ لإنجازاتهم، حتى شبه هذا الفتح بالمعجزة، لحفزهم على بذل المزيد لقوله: "فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النّبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصِّديقية، والفتوح العُمرية، فجازاكم الله عن نبيه محمد فضل الجَزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مُهجكم في مقارعة الأعداء..."[3].

ركز ابن الزكي على مسألة الوحدة وأبرز دورها في فتح بيت المقدس، معتبراً أن الوحدة كانت طريقاً للفتح، ولا بد للمجاهدين من الاستمرار فيها، ومحذراً من الفرقة، والخضوع للكفار لقوله: "... وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتّى، وأغناكم

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص250-251. انظر: أيضاً ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص232-233؛ الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص146-150.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص250. انظر: أيضاً ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص232.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص250. انظر: أيضاً ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص233؛ Hillenbrand, The Crusades, Islamic Perspectives, P. 191.

بما أمضته (كان) و (قد) ممن (سوف) و (حتى)، ... فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النَّعمة عندكم، بتقوى الله..."[1].

لم يقتصر تركيز ابن الزكي على الإشادة بالمجاهدين وجهودهم في الفتح بل نراه يؤكد على الاستمرار في الجهاد لتحرير ما تبقى من أرض المسلمين تحت سيطرة الفرنج خاصة أنهم قد أشرفوا على الهلاك، لقوله: "... والجهادَ الجهادَ فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، جُدّوا في حَسْم الدَّاء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهيرِ بقيَّة الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثُّوا أُصوله... واعلموا ... أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمّة فأخرجوا لها هِمَمكم وبرِّزُوها، وسَيِّروا إليها سرايا عزماتكم وجهّزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، وقد قال الله تعالى: "**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**" [الأنفال:65]..." "**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ**" [آل عمران: 160]"..[2].

وعلى الرغم مما اشتملت عليه خطبة ابن الزكي من ترغيب بالجهاد، إلا أنها حملت بعض الترهيب من تركه بالإقبال على ملذات الحياة ومغرياتها، وفي هذا دفعٌ لحركة الجهاد من خلال حفزهم عليه، ونهيهم عن التقاعس عنه، كما يحذرهم من الشعور بالبطر والغرور واقتراف المعاصي بعد النصر الذي منحهم الله إياه، وفي هذا دعوة ثانية للإلتزام بشرع الله وطاعته لاستمرار النصر وعدم حرمانه لقوله: "... واحذروا من اتّباع الهوى، وموافقة الرَّدى، ورجوع القهقرى، والنكول عن العِدَى، ... وجاهدوا في الله حق جهاده، وإياكم أن يستزلَّكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطُّغيان، فيخيِّل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحِداد وبخيولكم الجياد،

---

[1] أبو شامة، الروضتين، ج3، ص251؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص234.

[2] أبو شامة، الروضتين، ج3، ص251-152؛ عبد المهدي، ابن الزكي وخطبته القدسية، ص201.

وبجلادكم في مواطن الجِلاد، لا والله، "**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**" [الأنفال: 10]"...[1].

عاشراً: مجالس الوعظ ودورها في الحض على الجهاد:

ساهمت مجالس الوعظ بدور فاعل في مقاومة الغزو الفرنجي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فكانت واحدة من أهم وسائل الدعاية التي استخدمها ملوك بني أيوب لنشر فكرة الجهاد خلال هذه الفترة. ومما يدلُ على ذلك أن صلاح الدين نفسه كان يداوم على حضورها، ومنها حضوره مجلس وعظ الشيخ أبي الفتوح عبد السلام بن يوسف التنوخي في دمشق عام 571هـ/1175م[2] كما كان لهذه المجالس دور كبير في استمالة الناس، وتهيئة نفوسهم لفعل الخير، وإرشادهم لطريق الحق والصواب؛ لما تحمله من ترويح وتطهير القلوب وقد كان لأساليب العلماء القائمين عليها حيث البلاغة والفصاحة أثرها الواضح[3]. ولهذا عني الملوك كثيراً بهذه الفئة فكانوا يقربونهم منهم، ويغدقون عليهم الهبات والمنح[4].

ارتبطت مجالس الوعظ ارتباطاً مباشراً بالأحداث السياسية الخطيرة التي كانت تمر بها كل من مصر والشام والمتمثلة بغزو الفرنج لها، حيث الحاجة إليها للحث على الجهاد، وقد اشتهر منها: مجلس الشيخ زين الدين بن نجا الذي عقده بعد تحرير بيت المقدس من الفرنج عام 583هـ/1187م، وكذلك مجلس الشيخ سبط ابن الجوزي في دمشق على أثر تسليم الملك الكامل الأيوبي بيت المقدس للفرنج عام 626هـ/1228م.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، 251؛ عبد المهدي، ابن الزكي وخطبته القدسية، ص200.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص277؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص293.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص92؛ بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص381.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص138.

كان مجلس وعظ الشيخ زين الدين بن نجا المعروف بابن نجيه أكثر المجالس أهمية وشهرة خلال فترة الحروب الفرنجية (الصليبية)، وتأتي أهميته بظروف انعقاده ومكانه، إذ كان في الجمعة الثانية لفتح بيت المقدس. فبعد الانتهاء من صلاة الجمعة أمر السلطان صلاح الدين بنصب سرير للوعظ واختار الواعظ ابن نجية لهذه المهمة[1].

تظافرت عوامل عدة أسهمت في ترشيح الشيخ ابن نجية لوعظ المسلمين بما ينفعهم في هذه الظروف الحرجة من تاريخ الصراع مع الفرنجة حيث خدماته الجليلة للسلطان صلاح الدين والحفاظ على دولته من السقوط[2] وثقافته الدينية لبراعته في الفقه والتفسير[3] وشهرته في الوعظ[4] وما كان لقبوله عند الناس بشهادة العماد الأصفهاني به لقوله: "كان زين الدين ذو مهمة في الوعظ فصيحة، ولهجة في الفضل صبيحة، وقبول في القلوب، وفصول في فصل الخطاب"[5].

تناول الشيخ ابن نجية في مجلس وعظه بعد فتح بيت المقدس مسائل عدة دارت جميعها حول فتح بيت المقدس، وأجر فاتحيه، والاستمرار بالمحافظة عليه، كما تناولت فضل الجهاد في سبيل الله. فبيّن في بداية مجلسه أهمية هذا الفتح العظيم الذي أحرزه المجاهدون، معتبراً هذا الفتح أول الفتوح، وواصفاً إياه بالبكر لعظمته، وخطورته، مُندداً بالفرنج، ومبرزاً فرحة المسلمين بخلاص بيت المقدس من أيديهم، مُذكراً المسلمين بالجنة والنار، وأن الجنة مأوىً للمجاهدين، على ما بذلوه من جهدٍ وبسالة شارحاً أهمية الجهاد وفضائله، ومركزاً على دور القيادة في إحراز النصر

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص91-92؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص447-448.

(2) أبو شامة، الذيل، ص54؛ العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص378.

(3) أبو شامة، الذيل، ص54.

(4) ذكر النعيمي أن ابن نجا تأثر بخالة الواعظ والفقيه عبد الوهاب الشيرازي ت 536هـ/1141م حيث حضر مجالس وعظه وعمره عشرة سنوات ثم نصب له كرسي للوعظ في داره، وأحضر له جماعة فتكلم فيهم. انظر: الدارس،ج2، ص67.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص138.

للإسلام، وفي هذا دعوة للالتفاف حولها ومعاضدتها، مُذكراً المجاهدين بفضائل بيت المقدس وقدسيته عند الله بقصد المحافظة عليه، وعدم التفريط بـه لقـول العمـاد الأصفهاني: "... وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانته، والظفر وإبانتـه، والـصخرة وإصـراخها، والروّعـة وإفراخها، والنارُ وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرّحمة وبابها من باب الرحمة، والجنَّة وجناها لهذه الزحمة، وما أعده الله لهذه الطائفة، وما أنزله من الأمن علـى القلوب الخائفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفـضائله، والخيـر ودلائلـه والـنُّجح ووسائله، والشَّرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله..."[1].

كما نبه الشيخ ابن نجية في مجلسه إلى مسائل هامة ممهدة للجهاد ومرتبطة به، متعلقة بالنفس الإنسانية وضرورة تهذيبها، والمعصية والحساب والعقاب وطاعة الله، وتمثل ذلك بدعوته أمة الإسلام للعودة إلى الدين، والالتـزام بـه، واجتنـاب نواهيه، بهدف إعدادها إعداداً صحيحاً قبل الجهاد، ودليل ذلك أنه ميّز لهم بين الفئة الناجية والهالكة، والفائزين برضى الله عز وجل والمـستحقين لعقابـه، كمـا نبـه المتقاعسين والمتخاذلين عن الجهاد بضرورة الاستيقاظ من سباتهم، وفي هذا دَعوة صريحة لهم للانخراط بصفوف المقاتلين لقول العماد: "فذكَّر من خاف ومن رجـا، ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا، وخوَّف بذي الحِجَّة ذوي الحِجـا، وجـلا بنور عِظاتِه من ظُلَم الشُّبهات ما دجا، وأتى بكل عِظةٍ، للرَّاقدين موقظة، وللظَّالمين محفظة، ولأولياء الله مرّققة ولأعداء الله مغلظة ..."[2] وفي هذا دلالة واضحة على أن هذه الموعظة لم تكن موجهة لفئة بعينها بل كانت عامة لمن لبّى الجهاد، ومـن تقاعس عنه، وللملتزمين والعاصيين.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص248؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص228.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص92؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص246.

تركت مواعظ ابن نجية آثاراً واضحة في نفوس الحاضرين، ولامست بواطن قلوبهم، فبكى بعضهم واعترف المذنبون بذنوبهم، وأكدوا إقلاعهم عنها، حتى رقت قلوب كثير منهم للإيمان، والعمل الصالح، والإقبال على ما يُرضي الله بعدما سمعوا منه ما سمعوا، ومما يؤكد أثر هذه المواعظ قول العماد الأصفهاني: "وضجَّ المتباكون، وعجَّ المتشاكون، ورقّت القلوب، وخفّت الكُروب، وتصاعدت النعرات، وتحدَّرت العبرات، وتاب المذنبون ... وصاح التوَّابون، وناح الأوابون..."[1]. وقوله في موضع آخر "فكان أنور مجلس وأشرف جمع، فحقق ورقق، وأشهر وأشهق، وصلب بعباراته الحلوة العبرات..."[2].

ومن مجالس الوعظ الأخرى التي ذاع صيتها أبان فترة الحروب الفرنجية (الصليبية) مجلس العلامة الشيخ أبو المظفر شمس الدين سبط ابن الجوزي[3]، الذي تنقل بعد خروجه من بغداد بين مدنٍ عِدة يعظ فيها الناس حتى استقر به المقام بدمشق، حيث نزل عند المقادسة بجبل قاسيون، وصحب الشيخ أبا عمر (شيخ المقادسة)[4]. ولعل في ملازمته لهم دلالة واضحة على أهمية الدور الذي يُمكن لقاسيون أن تكون قد لعبته في هذه الفترة لكونها ملتقىً للعلماء، ومكاناً للتحريض ضد الغزاة، لما كانت عليه مواقف المقادسة من العداء للفرنج.

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص92.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص248.

(3) يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله، وهو سبط الشيخ الفقيه أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، كان تركياً، بغدادي المولد والمنشأ عام 581هـ/1185م، تفقه على يد جده، عمل محدثاً ومفسراً، وواعظاً، كان حنبلي المذهب ثم أصبح حنفياً، عمل مدرساً، وصنف في علوم مختلفة كالتاريخ والفقه، وتوفي بدمشق عام 654هـ/1256م. انظر: أبو شامة، الذيل، ص299؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج6، ص239، ج3، ص242؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج1، ص39-43.

(4) أبو شامة، الذيل، ص72-73.

وقد اشتهرت مجالس وعظ الشيخ سبط بن الجوزي في دمشق شهرة واسعة لما كان لها من أثر بالغ في مقاومة الفرنج من خلال حثها الناس على الجهاد، ودعوتهم لعدم التقاعس عنه[1] وقد وصف سبط ابن الجوزي إحدى مجالسه بقوله "فنزلت بقاسيون عند المقادسة، وجلست به وبجامع دمشق، فكانت مجالسي ولله الحمد مثل غدوات الجنة"[2]. وقد كان لاسلوبه في الوعظ دور كبير فيما بلغته مجالسه من صيت بالغين حيث تفوق على علماء عصره في هذا الفن حتى وصف بأنه "أوحد زمانه في الوعظ، حسن الإيراد، ترقّ لرؤيته القلوب، وتذرف لسماع كلامه العيون"[3] طيب الصوت[4] في وجهه نضارة وتواضع[5] وعذوبة في الوعظ، ولطف في الشمائل[6]. وأضيف لذلك كله أنه كان صاحب ظرافة[7] كما كان لجرأته على أرباب الدولة وإنكاره عليهم ما يقومون من المنكر دور كبير في تهافت الناس لسماع وعظه وما ترتب عليها من ازدحام وقبول لمجالسه[8]. حتى قيل إن الناس كانوا يبيتون ليلة مجلسه في جامع دمشق يتسابقون على مواضعهم لكثرة من يحضر مجالسه[9]. وعادةً ما كان يعقد مجلسه كل يوم سبت[10] وكثيراً ما يحظى بزيارة العلماء والصلحاء والملوك والوزراء[11] ومن المرجح أن زيارة الأمراء والملوك له

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص245-246؛ أبو الفداء، المختصر، ج6، ص40-41؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص58.

(2) أبو شامة، الذيل، ص72-73.

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج1، ص40.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص194؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص478-479.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص194.

(6) الذهبي، العبر، ج3، ص474.

(7) أبو شامة، الذيل، ص299.

(8) أبو شامة، الذيل، ص299؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج1، ص40.

(9) أبو شامة، الذيل، ص72-73؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج1، ص40.

(10) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 194؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 478-479.

(11) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج1، ص 40-43.

كانت بهدف استرضائه لما كان عليه من مكانه، ويضاف لذلك ما كان من حاجتهم للاستفادة من علمه وفوائده[1].

أدى تجدد المواجهات بين الفرنج والمسلمين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى الحاجة لمجالس الوعظ لوعظ الناس بأهمية الجهاد، والتنديد بتاركيه، منها المجلس الذي عقده سبط ابن الجوزي في عام 607هـ/1210م بدمشق[2] رداً على اعتداءات الفرنج على الشام، التي لم تلقى المقاومة الكافية من الجانب الإسلامي وقد وصف سبط ابن الجوزي مجلسه هذا بقوله: "وجلست بجامع دمشق يوم السبت خامس ربيع الأول وكان الناس من باب المشهد الذي لزين العابدين إلى باب الناطفانيين، إلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق وحرز ثلاثين ألفاً، وكان يوماً لم ير بدمشق مثله، ولا بغيرها..."[3]. هذا التأثير الذي مارسه ابن الجوزي كان سبباً في وصف أحد الباحثين له بأنه أحد أكبر دعاة الحض على الجهاد إذ لم يتعد دوره التأثير على الحاكم بل استعمل مهاراته لتحريك الشعب[4].

وقد كان لحادثة المرأة الشامية التي قامت بتقطيع شعرها، وعملها منه أشكالاً لخيل المجاهدين –، وبعثها لرجل شامي يدعى أبو قدامة وقولها له: "اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله–"[5] أكبر محرك ومثير للشيخ ابن الجوزي لعقد مجلسه وقيامه بوعظ الناس للجهاد، لإثارة حماستهم له. لأن ما قامت به تلك المرأة لا يمكن السكوت عنه؛ لما يحمله من دلالات خطيرة. وعلى الرغم من بساطة تصويرها

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص99؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج1، ص43.

(2) ذكر أبو شامة أنه في هذه السنة وصل الفرنج تدمر من حمص وعبروا نهر العاصي وضايقوا أهلها، فتصدى المسلمون لهم كما وصلوا في نفس السنة ساحل دمياط فسبوا أهلها وأخذوا ذخائرها. انظر: الذيل، ص103، 118.

(3) أبو شامة، الذيل، ص107.

(4) Hillenbrand, The Crusades, Islamic Perspectives, P. 22382.

(5) أبو شامة، الذيل، ص107؛ ابن كثير البداية والنهاية، ج13، ص58.

لخيول المسلمين المقيّدة والمفتقدة لمن يقودها إلا أنه كان تعبيراً عن استنكارها واستهزائها لحالة المسلمين المتمثلة بضعفهم وقعودهم عن الجهاد، مما كان له تأثيره على ابن الجوزي الذي عمل بدوره على استغلاله لإثارة دافعية المسلمين بدمشق للجهاد، فما أن صعد منبرها حتى أحضر هذه الخيول وقد بلغت ثلاثمائة – والتي كان أبو قدامة الشامي قد عمل منها شكلاً لخيل المسلمين وكرفسارات[1] ثم ترك ابن الجوزي صورة هذه الخيول المقيّدة أمام الحضور لتتحدث عن واقع المسلمين وتخاذلهم عن مقاومة الفرنج، ثم بدأ حديثه بالوعظ عن الجهاد، فما أن رآها من في المسجد حتى رقت قلوبهم، وأدركوا عجزهم، فانهال من بداخل المسجد بالبكاء والعويل. حتى قامت قيامتهم لهول الموقف[2].

لقد ظهرت استجابة أهل الشام لمواعظ ابن الجوزي في الجهاد واضحة على أثر الانتهاء من مجلسه، حيث لبّى العامة والخاصة دعوته فما أن نزل عن منبره حتى تلقاه أمير دمشق آنذاك – المبارز المعتمد بن إبراهيم – ماشياً بين يديه حتى أوصله إلى فرسه والناس محيطون بهما، وما أن جاء اليوم الثاني حتى اجتمع عنده عدد من المجاهدين بعدتهم وأسلحتهم لقول ابن كثير: "... ثم ركب من الغد في الناس إلى الكسوة، ومعه خلائق كثيرون، خرجوا بنية الجهاد إلى بلاد القدس ..."[3].

ومما يدل على أثر مواعظ سبط ابن الجوزي في هذه الفترة ما كان من سرعة انتشارها إذ لم تقتصر على أهل دمشق فقط، بل امتدت لتشمل القرى والمدن المجاورة إذ كان الاستنفار للجهاد عاماً، فقد توافدت أعدادٌ غفيرةٌ من المجاهدين لقتال الفرنج لقول سبط ابن الجوزي نفسه: "... وكان معنا من قرية واحدة – يقال

---

(1) كرفسارات (كرفست): والكرفسة: مشية المقيّد، وتكرفس الرجل دخل بعضه في بعض. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج12، ص 74، مادة كرف.

(2) أبو شامة، الذيل، ص107-108؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص58.

(3) البداية والنهاية، ج13، ص58.

لها زَملُكا* – نحو من ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح، وأما من غيرهم فخلقٌ كثير والكل خرجوا احتساباً وجئنا إلى عقبة أفيق والطير لا تقدر من فوق الفرنج فسرنا على الجادة إلى نابلس ... وخرج المعظم [الملك عيسى] فالتقانا وجلستُ بجامع نابلس، وأحضرنا الشعور، فأخذها وجعلها على وجهه وجعل يبكي، وكان يوماً عظيماً ... وخرجنا نحو بلاد الفرنج فأخربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم وأسرنا جماعة، ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا..."[1].

ومن مجالس الوعظ الأخرى التي اشتهر بها الفقيه سبط ابن الجوزي مجلسه في دمشق عقب تسليم الملك الكامل بيت المقدس للفرنج عام 626هـ/1228م لما لهذا الحدث من آثار سياسية ومعنوية سلبية على المجتمع الإسلامي، إذ ظهرت آثاره واضحة من حيث الشعور بالحزن والضعف واليأس. كما ترك أصداءً واسعة على المسلمين بعامة وأهل القدس بخاصة لما كان من ضياع هذه المدينة وتسليمها للفرنج، وقد وصف المؤرخون المعاصرون هذا الحدث وما كانت عليه حالة المسلمين إزائه لقول جمال الدين بن واصل عن والده: "لما نودي بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج، وقع في أهل القدس الضجيج، والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا بخروج القدس من أيديهم"[2]. أما سبط ابن الجوزي فقد صوّر آثار هذا الحدث الجلل بقوله: "فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم بحيث أن أقيمت المآتم"[3].

---

* قرية بغوطة دمشق، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص 150.

(1) أبو شامة، الذيل، ص107-108.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243؛ غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص69؛ Stevenson, The Crusaders in The East, P. 313.

(3) مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654.

وقد شهدت حادثة تسليم بيت المقدس استنكاراً رسمياً وشعبياً واضحين في كل العالم الإسلامي إلا أن دمشق كانت أشدها لمعارضتها لسياسة الملك الكامل في ذلك الوقت، وبرزت مساهمة العلماء واضحة من خلال توعية الناس بمخاطره والتشنيع على الملك الكامل لما قام به فقد قام الملك الناصر داود – وكان مقيماً بدمشق آنذاك – بالطلب من الشيخ سبط ابن الجوزي الجلوس للوعظ بجامع دمشق، وتنبيه الناس وتوعيتهم بالآثار السلبية المترتبة على تسليم بيت المقدس للفرنج[1]. كما طلب منه أن يذكر فضائل بيت المقدس وأخبارها، وآثارها، وأن يبين لهم أن ما قام به الكامل كان سبباً في صغار المسلمين وإذلالهم[2]. وقد لبى الشيخ سبط ابن الجوزي طلب الملك الناصر داود، وعدد غفير من أهل دمشق، وهو معارضٌ ومستنكرٌ لما قام به الملك الكامل[3].

لقد أنكر الفقيه والواعظ سبط ابن الجوزي على ملوك الإسلام جميعهم ما فعله الملك الكامل، مبدياً حزنه وأسفه على ما وقع معتبراً هذه الحادثة عزاء للمسلمين كافة، كما نجح في الوصول لقلوبهم وحثهم على الجهاد لاسترجاعه (بيت المقدس) بتذكيرهم بما خسروه من الأجر والثواب بفقدانهم لها، معتبراً أن تسليمها للفرنج عارٌ على جميع ملوك المسلمين، ولكنه في الوقت نفسه جعل من هذا الحدث حافزاً لهم للجهاد في سبيل الله لاسترجاعها وذلك ببقائها خالدة في أنفسهم لمكانتها الدينية عندهم، لقوله "جلست بجامع دمشق، ... وكان يوماً مشهوداً لم يتخلف من أهل دمشق أحد، انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت أحسن الله

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654؛ Hillenbrand, The Crusades, Islamic Perspectives, P. 221.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص245-246؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص40-41.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654.

عزاء المؤمنين يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات لمثلها تعظم الحسرات"[1].

وقد سجل والد المؤرخ جمال الدين بن واصل وهو أحد الحاضرين لهذا المجلس بعض أبيات شعر القصيدة التائية التي قالها سبط ابن الجوزي بهذه المناسبة حتى قيل أن قصيدته بلغت ثلاثمائة بيت ذكر منها:

مدارسُ آيات خلت من تلاوةٍ ومنزلُ وحي مقفر العرصات
على قبة المعراج والصخرة التي تُفاخر ما في الأرض من ضجرات[2]

حادي عشر: دور الإمام المحدث المنذري في الحث على الجهاد:

ساهم استمرار الصراع العسكري بين المسلمين والفرنج وتتالي حملاتهم العسكرية على مصر تحديداً في الربع الأول من القرن السابع الهجري في ازدياد اهتمام الملوك الأيوبيين بالحديث النبوي الشريف، سواء بتدريسه أو جمعه لما له من أبلغ الأثر في استثارة همم المسلمين، وحفزهم على الجهاد، فشجعوا العلماء على الإفادة منه وخاصة تلك الأحاديث المتعلقة بالدعاية للجهاد وقتال المشركين[3]. فبرز من بين تلك المؤلفات في هذا الحقل ما ألفه الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري المتوفي 656هـ/1258م[4].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص245-246؛ أبو الفداء، المختصر، ج6، ص40-41؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص233.

(3) انظر: المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ج3 (كتاب الجهاد)، ص69-161؛ كيلاني، الحروب الصليبية، ص113-118.

(4) أبو شامة، الذيل، ص308؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص303.

ولد الإمام المنذري بمصر عام 581هـ/1185م أي في أثناء الصراع بين المسلمين والفرنج، وقد كان لهذه الظروف أكبر الأثر في نفسه وتوجهاته الفكرية فأقبل على دراسة الحديث لما له من أهمية في تقوية جبهة المسلمين، فبرع فيه حتى وصف بأنه لم يكن له نظير في معرفته به على اختلاف فنونه، متبحراً في أحكامه، ومعانيه ومشكله وغريبة[1]. وقد برزت جهوده في مقاومة الغزو من خلال تدريسه الحديث بالجامع الظافري بالقاهرة، ثم التدريس بدار الحديث الكاملية[2]، وتوجهت جهوده في الحديث بما قدّمه للمجاهدين من كتاب في الجهاد ضمن كتابه المسمى الترغيب والترهيب من الحديث الشريف[3].

لم يكن هذا الكتاب هو الأول من نوعه في باب الحث على الجهاد، بل كان استمراراً لجهود سابقيه من العلماء كالسلمي، وابن عساكر، وابن شداد، وغيرهم، إلا أن كتابه جاء استجابة للظروف السياسية والعسكرية التي كانت تمر بها مصر في هذه الفترة نتيجة تعرضها لغزو الفرنج حيث شهد النصف الأول من القرن السابع الهجري حملتين للفرنج وهما بالحملة الصليبية الخامسة 615-618هـ (1218-1221م)[4]. والحملة الصليبية السابعة 647-648هـ (1249-1250م)[5]. فكان هذا الكتاب محاولة منه لحث المصريين على الجهاد ضد الفرنج، وإخراجهم من البلاد وتمثل ذلك ببيانه أهمية الجهاد وفضله، والترغيب به،

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص259-260؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص303.

(2) الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص366-367؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص260.

(3) انظر: المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ج3 (كتاب الجهاد)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ص69-161.

(4) أبو شامة، الذيل، ص164-166.

(5) أبو شامة، الذيل، ص281-283.

والتحذير من تركه والتقاعس عنه. فجاء هذا الكتاب مشابهاً لكتاب ابن عساكر في مضمونه في الحث على الجهاد إلا أنه يمتاز بالتوسع حتى جاء في خمسة عشر موضوعاً[1]. وقد فسر أحد الباحثين سبب كثرة أحاديث الجهاد في هذه الفترة إلى كثرة وضعها في الدرجة الأولى إذ أخذت تكثر يوماً بعد يوم وجيلاً بعد جيل حتى بلغت في عصر الحروب الفرنجية (الصليبية) ذروتها وذلك لجعلها مادةً دسمة في إذكاء روح الجهاد[2].

ركز الإمام المنذري في كتابه الترغيب والترهيب من الحديث الشريف على أهمية الرباط في سبيل الله وفضله، والترغيب بالجهاد مستشهداً على ذلك بعدد من الأحاديث لقول رسول الله ﷺ: "رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والرّوحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وعليها"[3] كما شجع المنذري على الحراسة في سبيل الله مبيناً مكانة صاحبها عند الله عز وجل يوم القيامة من خلال إيراده عدداً من أحاديث الرسول ﷺ[4].

استخدم المنذري الأحاديث التي ترغب بالجنة وتبيّن أجر المجاهدين في سبيل الله كواحدة من أهم أساليب الدعاية للجهاد بهدف غرس فكرة الجهاد لدى الناس"[5].

كما أدرك الإمام المنذري كغيره من العلماء الذين سبقوه أهمية الجهد بالمال لما له من دور في تحقيق التقدم والتفوق العسكري على الأعداء، بالإضافة لدوره

---

(1) انظر: الكتاب كامل المنذري، الترغيب والترهيب، ج3، ص69-161.

(2) كيلاني، الحروب الصليبية، ص118-122.

(3) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3 (كتاب الجهاد)، ص69؛ أخرجه البخاري (2892) في الجهاد باب فضل رباط يوم في سبيل الله.

(4) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3 (كتاب الجهاد)، ص75-76.

(5) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3 (كتاب الجهاد)، ص94.

في تفويت الفرصة على المتقاعسين عن المشاركة في الجهاد وقد برز ذلك بقوله: "من جهز غازياً حتى يستقل كان له مثلُ أجره حتى يموت، أو يرجع"[1].

كما أورد الإمام المنذري عدد من الأحاديث التي تشجع على اقتناء الخيل وتبيّن أهميته، وكذلك تعلم فن الرمي، لما في ذلك من دور في مساعدة المسلمين على الفرنج[2] وقوله: "**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**"[3] ألا إن القوة الرّمي، ألا إن القوة الرَّمي، ألا إن القوة الرّمي"[4]. ويبدو واضحاً أن تكرار الرمي ثلاث مرات دليل أهميته في القتال وضرورة تعلمه وإتقانه، ومن المرجح أن المنذري ساق هذه الأحاديث ليؤكد من خلالها على دور الأمة في المشاركة في عملية التسليح والإعداد للمواجهة، فكأنه قصد التأكيد على المسؤولية الجماعية للأمة عن الاحتلال ومقاومته، وتكاتف الجميع بشتى الوسائل المتاحة لهم.

كما نهج الإمام المنذري نهج ابن عساكر في الحث على الجهاد بالاستشهاد بعدد من الأحاديث التي تبين مكانة الجهاد في الإسلام وعظمته[5] وأكثر المنذري من الأحاديث المرغبة في الجهاد كتلك التي تبين فضل الشهادة في سبيل الله[6] وأكد على أهمية إخلاص المجاهدين في نيتهم بالجهاد، وعدم القتال لمغنمٍ أو ذكرٍ بين الناس لقول أبي موسى الأشعري أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر ليُرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال النبي

---

(1) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3 (كتاب الجهاد)، ص81. أخرجه ابن ماجه (2758) في باب من جهز غازياً.

(2) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3 (كتاب الجهاد)، ص83. أخرجه البخاري (2853) في الجهاد والسير: باب من احتبس فرساً في سبيل الله، ص293.

(3) سورة الأنفال، آية 60.

(4) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3 (كتاب الجهاد)، ص101. أخرجه ابن ماجه (2813) في باب الرمي في سبيل الله. أخرجه أبي داود (2514) باب الرمي.

(5) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3 (كتاب الجهاد)، ص110.

(6) انظر: المنذري، الترغيب والترهيب، ج3، ص135-150.

ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله"[1]. ثم ذكر فضل الغزو في البحر عنه في البر[2] لما كان من جهاد المصريين وحثهم على منع الفرنج من عبور النيل واقتحام مدينة دمياط.

لم يقتصر تركيز المنذري على أحاديث الجهاد التي تبرز أهميته وترّغب به فقط بل أبدى اهتماماً كذلك بالأحاديث التي تظهر ما يفسده، ويُقلل من أجره، والدعوة إلى الابتعاد عنه ومنها: تحذيره من الفرار من المعركة واعتباره من السَّبع الموبقات[3]، وكذلك النهي عن الغلول[4] في الحرب. وبهذا يكون المنذري قد برع في استغلال الحديث النبوي وتوظيفه للدعاية للجهاد ضد الفرنج، فيكون بذلك قد أكمل جهود من سبقه.

---

(1) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3، ص120-121.

(2) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3، ص128-130.

(3) المنذري، الترغيب والترهيب، ج3، ص125.

(4) الغلول ما يأخذه أحد الغزاة من الغنيمة، ولا يحضره إلى أمير الجيش ليقسمه بين الغزاة. المنذري، الترغيب والترهيب، ج3، ص130.

الفصل الثالث

دور العلماء في العمليات العسكرية

أولاً: مقاومة العلماء العسكرية للحملة الصليبية الأولى

- مقاومة علماء بيت المقدس
- دور قاضي جبلة المعروف بابن صليحة عام 494هـ/1150م
- الحملة المصرية بقيادة ابن قادوس إلى يافا عام 496هـ/ 1102م
- مقاومة قاضي طرابلس فخر الدين أبي علي بن عمار (495-502هـ) (1101هـ- 1109م)
- مقاومة العلماء لحصار صيدا عام 504هـ/ 1110م
- مقاومة العلماء لحصار صور عام 505هـ/1111م
- مقاومة القاضي أبي الفضل بن الخشاب للفرنج في حلب (513- 518هـ) (1124-1129م)
- خطة القاضي كمال الدين الشهرزوري للسيطرة على دمشق
- مشاركة العلماء في فتح الرها عام 539هـ/ 1144م

ثانياً: مشاركة العلماء في التصدي للحملة الصليبية الثانية

ثالثاً: مشاركة العلماء العسكرية في عهد نور الدين زنكي

رابعاً: الدور العسكري لعلماء الإسكندرية ضد الفرنج عام 562هـ/1166م

خامساً: مشاركة العلماء في الغزو ضد الفرنج في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي

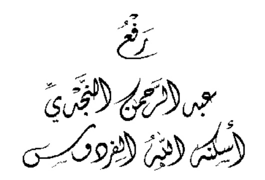
سادساً: المستشارون العسكريون للسلطان صلاح الدين الأيوبي من العلماء

سابعاً: مقاومة العلماء للفرنج زمن الملك العادل بن نجم الدين

ثامناً: الدور العسكري للعلماء في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط عام 615هـ/1218م

تاسعاً: الدور العسكري لأبناء شيخ الشيوخ

عاشراً: مشاركة العلماء العسكرية في الحملة الصليبية السابعة



أولاً: مقاومة العلماء العسكرية للحملة الصليبية الأولى:

- مقاومة علماء بيت المقدس:

أدرك كثر من العلماء الدور الملقى على عاتقهم اتجاه الغزو الفرنجي منذ وقوعه متمثلاً فكرياً بالدعاية للجهاد، ومحاولة رص الصفوف، بعيداً عن المشاركة في العمليات العسكرية ضد الفرنج إذ رأوا في ذلك أمراً خارجاً عن مهامهم الأساسية، وبرز ذلك واضحاً بقول الفقيه العماد الأصفهاني على أثر عدم مشاركته بوقعة الرملة عام 573هـ/1177م: "وأنا صاحبُ قلم لا صاحب علَم، ... وهذه نوبة السُّيوف لا نوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الإسلام، والواجب على كل منا أن يلزم شُغْلَه، ولا يتعدَّى حدّه، ولا يتجاوز محلّه..."[1]. وعلى الرغم من ذلك فقد شهدت فترة المواجهات العسكرية بين المسلمين والفرنج (الصليبيين) في الفترة (490-648هـ) (1097-1250م) مشاركة كثير من العلماء ورجال الدين في المقاومة المسلحة ضد الفرنج سواءً كان ذلك بحملهم السلاح، أو المشاركة في الحصار وقيادة الحملات أو وضع الخطط العسكرية. وتأكدت تلك المشاركة باستشهاد كثير منهم أثناء حصار الفرنج للمدن الإسلامية، أو في ساحات القتال، وفي هذا دليل واضح على تعدد مساهماتهم من جهة، وأهمية دورهم في المقاومة من جهة أخرى، وقد هدف العلماء من وراء هذه المشاركة، إلى الدفاع عن الإسلام، ونيل شرف الشهادة في سبيل الله، إضافة إلى ترغيب غيرهم من أبناء المجتمع بالجهاد، تأسياً بهم.

تكاد تندر مواقف مقاومة العلماء للفرنج أثناء احتلالهم للرها، وأنطاكيا، ومعرّة النعمان[2]. في حين يأتي احتلال بيت المقدس عام 492هـ/ 1099م ليظهر تصدرهم لهذه المقاومة، ومشاركتهم الفاعلة فيها على أثر محاصرتهم لها آخر شهر

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص301.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص134-136، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص119-121، 163-172. انظر: رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص354-369.

رجب، وإطالتهم أمد الحصار لأربعين يوماً، استخدموا خلاله مختلف أسلحة الحصار المعروفة آنذاك، ومع ذلك فشلوا في البداية بالاستيلاء عليها لمناعة حصونها، واستماتة أهلها في الدفاع عنها حتى لجأوا في النهاية لبناء برجين خشبيين كبيرين عاليين ملاصقين للسور تغلبوا من خلالهما على مقاومة المدافعين، ونجحوا بتسلق الأسوار، والدخول للمدينة، مما اضطر أهلها للانسحاب، وهروب عددٍ منهم للصخرة المشرفة والمسجد الأقصى للاحتماء إلا أن ذلك لم يمنعهم من القتل لقول ابن القلانسي: "وانتقلوا إلى بيت المقدس، فقاتلوا أهله، وضيّقوا عليهم ونصبوا عليه البرج وأسندوا إلى السور وانتهى إليهم خروج الأفضل من مصر في العساكر الدثرة لجهادهم والإيقاع بهم وإنجاد البلد عليهم وحمايته منهم، فشدوا في قتاله ولازموا حربه إلى آخر نهار ذلك اليوم ونزل الناس عن السور وقت المغرب فعاود الإفرنج الزحف إليه وطلعوا البرج وركبوا سور البلد فانهزم الناس عنه وهجموا على البلد فملكوه وانهزم بعض أهله إلى المحراب، وقُتِل خلق كثير"[1].

وتتضح الصورة التي يعرضها ابن الأثير لاحتلال الفرنج للمدينة المقدسة، وما تخللها من ممارسات للقتل أكثر من تلك التي قدّمها ابن القلانسي، والتي يكشف فيها عن عمليات ملاحقة المسلمين وقتلهم، ولمدة أسبوع بأكمله، مما اضطر بعضهم للاعتصام بمحراب داود، وقيامهم بمقاتلة الفرنج ثلاثة أيام حتى بذل لهم الفرنج الأمان، فخرجوا على أثرها لعسقلان[2]. في حين أضاف ابن ميسر أنهم قاموا بإحراق المصاحف الشريفة داخل المحراب[3].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص136-137. وعن نجاح الفرنج في اختراق بيت المقدس انظر: الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص73-74. ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص236-247. حبشي، الحملة الصليبية الأولى، ص175-179. الحياري، القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، ص40-42.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص405؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص66.

(3) المنتقى من أخبار مصر، ص66.

لم تقتصر الآثار السلبية للحملة الصليبية الأولى على احتلال بيت المقدس فحسب، بل بما تخللها من مذبحة بشعة لم تشهد المدينة لها مثيلاً من قبل، إذ قتل الفرنج المندفعون إليها كل ما وجدوه في طريقهم من الرجال والنساء والأطفال في الطرقات والبيوت التي دخلوها[1]. وقد قدرت المصادر[2] عدد شهداء المذبحة بسبعين ألفاً، لقول ابن الأثير: "وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان، وجاور الموضع الشريف..."[3]. وعلى الرغم من ضخامة عدد القتلى إلا أنه جاء مؤكداً وحشية الفرنج، وعظمة ما اقترفوه بحق أهلها، وتأتي أهمية هذه الرواية بإبرازها لدور العلماء، ورجال الدين واستهدافهم بالقتل، وما ذلك إلا دليلٌ على الدور الذي مارسوه سواءً بإثارتهم للناس وتحريضهم على المقاومة، أو من خلال مشاركتهم بأنفسهم بالقتال. ومما يؤكد على وقوع هذه المذابح في بيت المقدس استياء مؤرخي الفرنج أنفسهم مما حصل من سفك لدماء المسلمين حتى نعتوها بالمجزرة[4].

---

[1] فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص74-75؛ الحياري، القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، ص42، يقول فوشيه: "أما الشرقيون الذي صعدوا إلى قبة هيكل سليمان فقد أطلقت عليهم السهام وخروا صرعى يتساقطون على رؤوسهم. وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى..."

[2] انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص405؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص447. انظر: أيضاً رواية المؤرخ المسيحي الشرقي ابن العبري الملطي، تاريخ مختصر الدول، ص242 لقوله: "ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل في المسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً".

[3] ابن الأثير، الكامل، ج8، ص405.

[4] وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص436؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص405.

رصد عدد من المؤرخين[1]، أشهر العلماء الذين استشهدوا دفاعاً عن بيت المقدس وفي مقدمتهم ابن عساكر مُبرزاً بذلك بطولاتهم في مقاومة الفرنج أثناء محاصرتهم للمدينة، وبعد اقتحامها ومنهم المقرئ أبو بكر الطوسي[2] الصوفي إمام صخرة بيت المقدس، والذي قتله الفرنج عند دخولهم المدينة، وصار قبره مزاراً...[3] وفي هذا إشارة واضحة لحجم مشاركته في المقاومة. كما برزت مقاومة علماء بيت المقدس ممثلة بالشيخ عبد السلام الأنصاري المعروف بابن الرُمَيْلي الذي استشهد في الثاني عشر من شعبان سنة دُخول الفرنج لبيت المقدس[4]، في حين أشار السمعاني لذلك بالقول إنه كان متقدماً ومحارباً غير فارٍ وقت استيلاء الفرنج على بيت المقدس، وشوهد وهو يقاتل الفرنج محاولاً إخراجهم من المسجد حتى أنه تمكّن من قتل عددٍ منهم[5]. ومما يؤكد على أهمية دوره أن الفرنج اقتادوه أسيراً وعندما علموا أنه من علماء الدين نودي به في البلاد ليُفتدى بألف دينار، ولما لم يفتده أحد بالمبلغ المطلوب رماه الفرنجة بالحجارة على باب أنطاكية حتى قتلوه[6].

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج15، ص89، ج6، ص256؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 491-500هـ، ص136-140.

(2) هو محمد بن أحمد كان محدثاً بدمشق انتقل لبيت المقدس. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج51، ص89.

(3) أبو شامة، الذيل، ص85. وهذا العالم أحد جدود المؤرخ المعروف أبو شامة.

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج6، ص256؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 491-500هـ، ص139.

(5) السمعاني، الأنساب، مج2، ص326.

(6) العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص436.

واستشهد دفاعاً عن بيت المقدس علماء آخرون قتلهم الفرنج عند أخذهم المدينة عُرف منهم: القاضي أبو القاسم النَّسويّ[1]، والفقيه أبو الحسن النصري[2]، والمحدث الصوفي أبو الفتح يوسف بن إبراهيم الزنجاني[3]. والفقيه الشافعي عبد الجبار الرازي الأصبهاني[4]. كما أبرز ابن الأثير دوراً بطولياً لعالم آخر من المغرب من الملثمين دون أن يذكر اسمه سوى الإشارة أنه عرف بالفقيه، ووصفه بالشجاعة والفتك والإقدام، وأنه شارك مع أمير الجيوش الأفضل الجمالي في حروبه مع الفرنج، ومنها حملته على بيت المقدس، حتى استشهد عام 499هـ/1105م[5].

تركت العمليات العسكرية التي شهدها بيت المقدس عام 492هـ/1099م آثاراً سلبية على العلماء استدعت هجرة كثير منهم لدمشق مثل المحدث محمد بن كامل المقدسي[6]، والمحدث المعروف بابن الخواتيمي[7]، والفقيه أبو الفتح نصر المقدسي[8].

---

(1) سعد بن أحمد، كان راوية للحديث بدمشق ثم انتقل لبيت المقدس وقتل فيها. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج20، ص204؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حودث ووفيات 491-500هـ، ص122.

(2) كامل بن دَسيم بن مجاهد كان محدثاً. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج50، ص12.

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج74، ص215.

(4) أحمد بن يوسف تفقه بأصبهان ثم انتقل لبغداد ثم لبيت المقدس، كان ورعاً واستشهد على أيدي الفرنج. انظر: العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص436.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص492.

(6) خرج على أثر الغزو وتوفي عام 536هـ/1141م ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج55، ص116-117.

(7) عبد الجليل بن عمر المقدسي، استوطن دمشق، وكان ناظراً لأوقاف الجوامع فيها. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج34، ص41.

(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج62، ص40-41.

دور قاضي جَبَلَةُ المعروف بابن صليحة عام 494هـ/1100م:

كان تأسيس الإمارات اللاتينية في الشرق من أبرز النتائج التي خلفتها الحملة الصليبية الأولى، حيث أنشأوا عند قدومهم إمارتي الرها أنطاكيا، ثم بيت المقدس، وبدأوا بعدها بالتوسع التدريجي[1] فامتدت أنظارهم إلى بقية مُدن الشام كطرابلس، وجبلة[2]، وصيدا وصور وعسقلان، وحلب ودمشق. وتعد جبلة[3] من أولى المدن التي استهدفها الفرنج، وكانت تخضع آنذاك لسلطة القاضي أبو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صُليحة[4] الذي أظهر أبان الحملة الصليبية الأولى مقاومة واضحة للفرنج من خلال دفاعه عن مدينته بحمايتها من السقوط بأيديهم عندما داهموها عام 494هـ/ 1100م.

بدأت مساهمة القاضي ابن صُليحة العسكرية منذ حصار الفرنج لجبلة بمراوغتهم، وخداعهم، مظهراً لهم أن السلطان السلجوقي بركيارق متوجهاً لنجدته مما دعاهم لفك الحصار عن المدينة، وعندما تأكد للفرنج عدم صحة ذلك أعادوا حصار المدينة ثانية فأظهر لهم نجدة المصريين له، فرحلوا عنها أيضاً، ثم لجأ في الثالثة لاستغلال نصارى المدينة بأن دعاهم لمراسلة الفرنج والاتفاق معهم على تسليم المدينة عند واحد من أبراجها، فصدّق الفرنج ذلك وأرسلوا ثلاثمائة رجل من

---

(1) انظر: سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص23. Holt, The Age of the Grusades, P. 31.

(2) هي قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية كانت حصناً للروم ففتحها المسلمون سنة 17هـ/638م عنوة وبقيت بأيديهم حتى أخذها الروم عام 357هـ/967م. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج2، ص104-105 مادة جبلة.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص139.

(4) كان والده منصور رئيساً للمدينة أيام ولاية الرومان ويقضي بينهم، وعندما ضعف أمر الرومان ملكها المسلمون، وصارت تحت حكم جلال الملك أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس، وبوفاة منصور تولاها عبيد الله، لم يلبث أن عصى جلال الملك بعد محاولته القضاء عليه. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص424-425؛ ياقوت، معجم البلدان، مج2، ص105، مادة جبلة.

أعيانهم وشجعانهم وتقدموا للبرج، وصعدوا إليه فما كان من ابـــن صُـــليجة إلا أن خرج وقتلهم كُلهم[1].

أثبت القاضي ابن صليجة جدارته في القتال حتى وصفه ابن الأثير بأنه كان مُحباً للجندية بعد اختياره لها[2] وقد برزت مقاومته للفرنج ثانية عندما أعاد الفـــرنج حصارهم للمدينة، ونصبوا عليها بُرجاً من الخشب، وقاموا بهدم برج من أبراجهـــا فأعاد بناءه ثم وضع خطة عسكرية محكمة أوهمهم فيها بالانسحاب بعد قتاله لهـــم، ثم عاد لينقض عليهم من الخلف بعد أن نقب نقوباً في السور ليتمكن من مـــداهمتهم من الخلف لقول ابن الأثير: "نقب في السور نقوباً، وخرج من الباب وقاتلهم، فانهزم منهم، وتبعوه فخرج أصحابه من تلك النقوب، فأتوا الفرنج مـــن ظهـــورهم فولـــوا منهزمين، وأسر مقدمهم المعروف: بكند اصطبل"[3] وعندما أيقـــن القاضـــي ابـــن صُليجة أن لا مفر من ملاحقة الفرنج له، وطمعهم بمدينته، راسل طغتكين صاحب دمشق طالباً منه إرسال من يثق به ليسلّم له ثغر جبلة للحيلولة دون وقوعـــه بيـــد الفرنج فأجاب بذلك، وأرسل ولده تاج الملوك بوري، فتسلم المدينة، ورحل القاضي عنها لدمشق ثم لبغداد[4]. ثم لم تلبث المدينة أن عادت لحكم قاضي طرابلس فخـــر الملك أبي علي عمار بن محمد بعد سوء سيرة واليها تاج الملوك[5].

- الحملة المصرية بقيادة القاضي ابن قادوس إلى يافا عام 496هـ/1102م:

اتسم موقف الدولة الفاطمية عند قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق، وخاصة أثناء حصار الفرنج لأنطاكية بشيء من السلبية حيث أُخذ عليها محاولتهـــا

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص425.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص424-425.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص425.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص139؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص425؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص213-214.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص139-140؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص426.

كسب ود الفرنج، وإقامة علاقات صداقة معهم، والوقوف إلى جانبهم ضد السلاجقة الأتراك حتى أنهم طالبوهم بإطالة أمد الحصار[1]. إلا أن هذا لا يمنع من إبراز الجهود التي بذلتها الدولة الفاطمية في مقاومة هذه الحملة بعيداً عن حجم هذه المقاومة، وإن كان هدفهم منها إبقاء نفوذهم السياسي في الشام، لذلك حاول الأفضل بن بدر الجمالي، أن يتفق مع الفرنجة على مقاسمة بلاد الشام فيما بينهم، بحيث يملك الفرنج شمال الشام ويكون جنوب بلاد الشام للمصريين[2]، غير أن الفرنجة خدعوه، واتجهوا بزحفهم نحو بيت المقدس، عندها شعر الأفضل بالخديعة بعد فوات الأوان، وجاءت مقاومته فيما بعد على أثر مساعه بوصول الفرنج لبيت المقدس لاحتلالها حيث سيّر حملة للتصدي لهم، إلا أن حملته وصلت متأخرة وقد فات الأمرُ على رأي ابن القلانسي فنزل عسقلان، وهناك مُني هو وعساكره بهزيمة نكراء عام 492هـ/1099م[3].

تمكن الفرنجة عام 494هـ/ 1100م من الاستيلاء على بعض مراكز الدولة الفاطمية في الشام كأرسوف وقيسارية[4] وقد ساهمت هذه التوسعات بشكل كبير في التقليل من هيبة الدولة الفاطمية، والحد من نفوذها إلا أن عجزهم عن التصدي للفرنج لم يستمر طويلاً إذ قاموا عام 496هـ/ 1102م بتسيير حملتين متتابعتين إلى مدينة الرملة لتهديد بيت المقدس فالتقى المسلمون والفرنج في الحملة

---

(1) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج2، ص297-298؛ الغوانمة، الأفضل بن بدر الجمالي وموقفه من الحملة الصليبية الأولى، ص79-80.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 398.

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص137. انظر: أيضاً وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص458-161؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص24؛ حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ص192-193.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص133؛ وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص493-496؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص26.

الأولى قرب الرملة، وكان النصر للفرنج، فقتل قائد الحملة وعدد من رجالها[1]. ثم ألحقها الأفضل بحملة ثانية بقيادة ولده شرف المعالي فألحق بهم هزيمة نكراء بمنطقة يازور قرب الرملة[2]. والتي أدت إلى تمكين الفاطميين من السيطرة على الرملة عام 496هـ/1102م[3].

وقد استغل الأمير بلدوين وصول بعض الفرنج للحج إلى بيت المقدس، فدعاهم لمساعدته في الغزو ضد المسلمين مما جعل الجيش الفاطمي يتقهقر نحو عسقلان ثم إلى القاهرة[4]. على أثر هذه الهزيمة أرسل الوزير الأفضل حملتين لمقاومة الفرنج كانت الأولى منها بقيادة أحد مماليكه المسمى تاج العجم عن طريق البر، في حين كانت الثانية عن طريق البحر برئاسة القاضي ابن قادوس ووجهته يافا، إلا أن سوء التخطيط والتعاون بينهما أدى إلى إفشال مهمتها بعد رفض تاج العجم معاونة القاضي ابن قادوس للإيقاع بالفرنج إلا بأمر من الوزير الأفضل، فأرسل القاضي ابن قادوس إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وأعلمهم أنه أقام على يافا عشرين يوماً، إلا أن تاج العجم لم يساعده، فلما علم الأفضل بذلك قبض عليه، واستبدله بآخر بدلاً منه[5].

على الرغم من قيام الأفضل بتسيير عدة حملات للشام لمقاومة الفرنجة فيها، إلا أن حملاته العسكرية كانت عديمة الفائدة، لإنها لم تحرز أي نجاح يُذكر[6]، ومرد ذلك تقاعسه، وضعف أسطوله وعساكره[7]. إلا أن ذلك لا يُلغي دوره في

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص459؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص295.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص459؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص32.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص459؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص32.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص32.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص459؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص33.

(6) غوانمة، الأفضل بن بدر الجمالي، ص82.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص177.

المقاومة، والتي كان للعلماء نصيب فيها، والتي تمثلت بقيادة القاضي ابن قادوس لأحد حملاته، وإن لم يظهر فيها حجم مشاركته العسكرية.

- مقاومة قاضي طرابلس فخر الملك أبي علي بن عمار (495-502هـ) (1101-1108م):

ساهمت سياسة التنافس بين أمراء الفرنج في الشرق خلال الحملة الصليبية الأولى في ظهور قاضي طرابلس فخر الملك أبي علي بن عمار (الشيعي) على مسرح العمليات العسكرية في طرابلس ضد الفرنج حتى تبوأ دوراً قيادياً في مقاومتهم. وتعود البدايات الأولى لظهوره أثر تنازل الأمير ريموند الرابع كونت تولوز[1] Raimund IV Von Toulouse المعروف بصنجيل[2] عن أطماعه في إمارة أنطاكية لصالح الأمير تنكرد، مما دفعه بعدها للتطلع إلى إقامة إمارة مستقلة له في الشرق، فصوب أنظاره نحو طرابلس فبدأ بمحاصرة أنطرطوس -وهي من أعمال طرابلس- عام 495هـ/1101م لجعلها نواة لإمارته، فتمكن منها واحتفظ بها لنفسه، ثم أخذ بالاستعداد للسيطرة على طرابلس[3]. ونتيجة لسياسة الفرنج هذه وجد القاضي فخر الملك نفسه مضطراً لتغيير سياسته التي سبق له أن انتهجها مع الفرنج أثناء مرورهم من بلاده في طريقهم لبيت المقدس والتي اتسمت بتودده إليهم

---

(1) تستخدم هذه التسمية عند مؤرخي الفرنج. انظر: ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص69؛ ماير، الحروب الصليبية، ص67.

(2) عن هذه التسيمة في المصادر العربية. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 445-447، في حين يرى سعيد عاشور أن ريموند عرف بالصنجيلي نسبة إلى مقاطعة Saint- Gilles الحركة الصليبية، ج1، ص214، 360.

(3) انظر: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص123-125؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص353-355؛ Holt, The Age of the Crusades, P. 24.

ومفاوضتهم، والإغداق عليهم وذلك للحيلولة دون تصادمه معهم، واحتلالهم لبلاده[1].

حاصر الكونت ريموند (صنجيل) طرابلس لأول مرة عام 495هـ/1101م فخرجت عساكر طرابلس لمقاومته لكن ريموند تمكن من كسرهم حتى قدر قتلى المسلمين بسبعة آلاف قتيل، ثم هادنهم ورحل عنهم[2]. وحاصر المدينة مرة أُخرى عام 497هـ/1103م براً وبحراً فضايقها، وقاتل أهلها، ولكنه لم يتمكن منها فرحل عنها باتجاه مدينة جبيل[3]. وفي هذه الأثناء كان الكونت ريموند (صنجيل) قد استولى على انطرطوس وجبيل واضعاً بذلك إطاراً لإمارة طرابلس الصليبية، ولم يبق أمامه سوى الاستيلاء على عاصمة هذه الإمارة وهي طرابلس. ونظراً لحصانة هذه المدينة لجأ ريموند لبناء حصن أُطلق عليه حصن طرابلس أو قلعة صنجيل نسبة له[4]. لإحكام رقابته على المدينة، وشحنه بالمال والرجال والسلاح وذلك عام 497هـ/1103م، فما كان من القاضي فخر الملك إلا أن خرج بعساكره وهاجم الحصن وقتلوا من فيه ونهبوه، وأحرقوه وأخربوه وجردوه من السلاح والمال، ثم عاد القاضي لمعسكره سالماً[5].كما أشار ابن الأثير إلى هجوم آخر شنه القاضي

---

(1) انظر: قول وليم الصوري: "وتخلى الآن حاكم المدينة (طرابلس) ... عن الموقف المتعجرف الذي كان قد أبداه، ... وأرسل وفداً لمباشرة مفاوضات السلام، وقدم خمسة ألفاً قطعة ذهبية بالإضافة إلى هدايا ..." تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج2، ص397؛ ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص189؛ حبشي، الحملة الصليبية الأولى، ص164-170؛ ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص91.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص445-446؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص907.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص464-465.

(4) يدعى هذا الحصن عند الفرنج جبل الحاج. انظر: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص144.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص146؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص1؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص360.

فخر الملك ضد الفرنج عام 499هـ/1105م حيث خرج من مدينته وهاجم الحصن، وأحرق ربضه، فأصيب ريموند على أثرها بحروق كانت سبباً في وفاته[1].

كما حاصر المدينة بعد وفاة الكونت ريموند (صنجيل) ابن أخيه وليم جوردان[2] الذي واصل سياسة سلفه فتوالت حملاته على طرابلس في سنة 499هـ/1105م، حيث جاءه مدد من أسطول الروم في اللاذقية، فخرج إليه القاضي فخر الملك بأسطوله، وجرى بينهما قتالٌ شديد حتى تمكن المسلمون من الظفر بقطعة من الروم[3]. وبالرغم من تتالي الحصار حول مدينته إلا أنه بقي صامداً، ومظهراً شجاعة فائقة حتى اضطر بعد طول الحصار إلى توزيع ما كان يخرجه على الناس في باب الجهاد، واضطر الأهالي لبيع حليهم وأوانيهم للإنفاق على أنفسهم[4] وعندما استبد اليأس بالقاضي فخر الملك من المساعدة خرج بنفسه لطلب النجدة من الخليفة العباسي، والسلطان السلجوقي[5]. إلا أنه تفاجأ بعد رجوعه من مهمته باستيلاء الفاطميين على المدينة، وتسليمها للملك بلدوين الأول عام 502هـ/1109م على شرط السماح لهم بمغادرة المدينة بحرية[6]. ولعل في دور القاضي فخر الملك في مقاومة الفرنج إشارة إلى فكرة الجهاد عند الشيعة.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص491؛ سالم، عبد العزيز، (1962). مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج16، ص52-53.

(2) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص519.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص491.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص491.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص160-161؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 516.

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص163-164؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص535؛ وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص533؛ معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص110-113.

- مقاومة العلماء لحصار صيدا عام 504هـ/ 1110م:

لم يتخل الفرنج بقيادة الملك بلدوين الأول عن مخططاتهم العدوانية في الاستيلاء على بقية مدن الساحل التي تقع تحت النفوذ الفاطمي، كعسقلان في الجنوب، وصور، وصيدا، وبيروت في الشمال، وكان الملك بلدوين الأول مدركاً لأهمية مدينتي عسقلان وصور، وما تتمتعان به من القوة والمنعة، ولهذا فضل البدء بحصاره لمدينة صيدا، وقد تزامن ذلك مع قدوم عدد من الحجاج لبيت المقدس، فاستغل ذلك وطالبهم بمساعدته في الحصار[1]. فحشدوا حولها حشداً كبيراً، وأحكموا عليها الحصار براً وبحراً، وقد كان لطول الحصار المفروض عليهم - لأكثر من سبعة وأربعين يوماً - وتأخر نجدة الأسطول المصري المعسكر في صور، وخوفهم مما ارتكبه الفرنج في طرابلس وغيرها من المدن الشامية دور كبير في طلبهم الأمان من الفرنج[2].

وساهم علماء صيدا في رفع الحصار عن مدينتهم محاولة منهم تجنيبها سفك الدماء، وظهر ذلك عندما أخذ قاضيها الأمان من الفرنج على الأهل والمال والنفس، لقول ابن القلانسي: "فلمّا عاين من بصيدا هذا الأمر ضعفت نفوسهم، وأشفقوا من مثل نوبة بيروت فخرج إليها قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين [بلدوين] الأمان فأجابهم إلى ذلك ..."[3]، ثم فرض عليهم ضريبة بعشرين ألف دينار، مما دعا كثيراً من أهالي المدينة لمغادرتها لدمشق على أثر احتلالها[4].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص171؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص309؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص150-151.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص171؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص538؛ وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص543.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص171؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص538؛ وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص543.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص171؛.

وباستيلاء الفرنج على هذه المدينة أضحوا يسيطرون على جميع الساحل الشامي ما عدا عسقلان في الجنوب، وصور في منتصف الساحل[1].

- مقاومة العلماء العسكرية لحصار صور عام 505هـ/1111م:

كما برز دور العلماء العسكري وبشكل واضح في الحصار الذي فرضه الملك بلدوين الأول على مدينة صور عام 505هـ/1111م فتصدى له والي صور من قبل الفاطميين عزّ الملك الملقب الأغر، وأهل مدينته، ثم قاموا بمراسلة صاحب دمشق ظهير الدين أتابك يستصرخونه، ويطلبون منه المعونة وإلا وقعت البلدة بيد الفرنج، فبادر لمساعدتهم. وعندما علم الفرنج بذلك نزلوا حول صور وبنو بيوتاً حولها وأحكموا الحصار عليها، ثم زحفوا إليها عدة مرات، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، فشرعوا ببناء برجين من الخشب للزحف إلى سور المدينة[2]، وقيل ثلاثة أبراج على كل واحدٍ منها ألف رجل[3] كما حفروا خنادق حول المدينة. وعلى الرغم من محاولات المسلمين لفك الحصار عنهم بالإغارة حيناً، ومنع الميرة، ورشقهم بالنفط والقطران حيناً آخر إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً إذ تمكن الفرنج من إطفاء نيران الأبراج، واستمروا في زحفهم للمدينة، ونجحوا في تقريب أبراجهم من سور البلدة حتى أشرف أهلُ البلد على الهلاك"[4].

ولما طال أمد الحصار، استشار والي المدينة أهلها فتقدم منه شيخٌ من أهل طرابلس ضمن له إحراق أبراج الفرنج[5]. وقد وصف ابن القلانسي شجاعته

---

(1) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، 152.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص178؛ وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص546.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص545.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص179.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص545.

ودرايته بفنون القتال بقوله بأنه "رجل من مقدّمي البحرية عارفٌ بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب[1] فاستقدم معه ألف رجل بأسلحتهم، وبدأ مهاجمةِ الفرنج، فعمل في بداية أمره كلاليب من حديد لمسك الأكباش التي تنطح الأسوار، ثم ابتكر طريقة جديدة لإشغال من في البرج، وذلك برميهم بجرار من الكدر والنجاسة تطلق رائحة كريهة، ثم اتبعها بقذف الأبراج بسلال وقفاف مملوءة بالزيت والقير[2] بعد إشعال النيران فيها، ثم رميهم بقدور من الزيت المغلي لزيادة لهيب النار، استمر الشيخُ الطرابلسي هو ورجاله في ذلك حتى أرهق من بالبرج، فقتل أحدهما وهرب الآخر، فدبت النيرانُ بالأبراج من أعلاها لأسفلها حتى عجزوا عن إطفائها مما استدعى هروبهم كُلهم بعد حصارٍ للمدينة استغرق أربعة شهور ونصف، فخرج على أثرها أهل صور لأماكن العدو، فنهبوا وغنموا من السلاح والآلات ما لا يوصف[3]. وقد وصف المؤرخ وليم الصوري شجاعة الصوريين، ودورهم في إفشال الحصار بقوله: "هذا وأظهر الصوريون أنفسهم أنهم رجال شجعان ودعاة ومهرة في جميع أنواع الأسلحة، فقد قابلوا كل خطة بواحدة مشابهة ..."[4]. وبعد فشل الحصار سلّموا مدينتهم لظهير الدين أتابك دمشق في السنة التالية[5].

إن ما قام به الشيخ الطرابلسي لدليلٌ واضحٌ على مساهمة العلماء في الجهاد بأنفسهم في ساحات القتال، ومشاطرتهم للجند في العمل العسكري.

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص179.

(2) نوع من القار والحمر، وهو زفت معدني وقيل هو جمع أقيار وهو شمع وأصله رومي وقيل هو الزفت الرطب. انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج8، ص 432.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص179-181؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص545-546، ذكر ابن الأثير أن هذه الأبراج أحرقت بعد أن رماها بحطب "سقاه بالنفط والزفت والكتان، والكبريت".

(4) تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص546.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص182.

- مقاومة القاضي أبي الفضل بن الخشاب للفرنج في حلب (513-518هـ) (1119-1124م):

كان للاضطرابات السياسية التي تعرضت لها مدينة حلب خـــلال الفتـــرة (507-513هـ) (1113-1119م) دورٌ كبيرٌ في جعلها مطمعاً لكل من الفــرنج، والممالك الإسلامية المحيطة بها, وقد تأجّجت الاضطرابات بعــــد وفــاة الملــك رضوان بن تُتُش عام 507هـ/ 1113م، فخلفه ولده ألب رسلان الذي مــات قــتلاً على يد مدبر أمر دولته لؤلؤ البابا عام 508هـ/ 1114م لخوفه منه وكان عــاجزاً عن الدفاع عن المدينة، فاستعان بطغتكين صاحب دمشق لإدارتها له، ومساعدته في دفع خطر الفرنج[1]. فما كان من طغتكين إلا أن استنجد بالأمير الفرنجي، روجــار صاحب أنطاكية محاولةً منه لإبعاد خطر السلطان السلجوقي، وعساكره عن تهديــد مدينة حلب، وقد أسفر تدخل الفرنج عن انتصارهم على عساكر السلطان في موقعه دانيث[2] عام 509هـ/ 1115م. وجاء انتصارهم لينهي أي محاولة أُخرى من قبل السلطة السلجوقية لاستعادة الشام من أيدي الفرنج[3].

ساهم الفراغ السياسي الذي عاشته حلب بعد مقتل مدبر أمرها لؤلؤ البابا في وصول أحد خُدام الملك رضوان والمدعو يارقتاش للسلطة، فبادر إلى مكاتبة الأمير نجم الدين إيلغازى، والأمير روجار صاحب أنطاكيا طالباً منهما حمايـــة حلـــب[4]. ولعب إيلغازي دوراً بارزاً في تهدئة أوضاعها بعد أن تولى أمرها، إلا أنـــه رجـــع لماردين عام 511هـ/ 1117م مما أدى إلى إضعافها، وفتح المجال لتجدد أطمـــاع

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج9، ص 204-205؛ ابن العديم، زبـــدة الحلـــب، ج1، ص372-377؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9، ص 350. يرد اسم قاتل ألب رسلان عند ابن العـــديم لؤلـــؤ اليايا.

(2) بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج2، ص434.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص382؛ رنسمان، تاريخ الحروب الـــصليبية، ج2، ص216؛ مـــاير، تاريخ الحروب الصليبية، ص116؛ Holt, The Age of the Crusades, P. 29

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص384.

طغتكين صاحب دمشق فيها، ولكن أهل حلب رفضوا مساعدته لهم لقولهم: "ما نريد أحداً من الشرق"، واستعانوا بالفرنج، فاستغل صاحب أنطاكيا استنجادهم به، واتخذ دفع طغتكين عنهم ذريعة للتدخل في شؤونها، ثم أخذ بالتوسع، فاحتل عزاز وشارف على أخذ حلب كاملة، وعاث فيها فساداً حتى عدمت الأقوات مما اضطرهم للعودة للاستنجاد بالأمير إيلغازي لدفع خطر الفرنج عنهم[1].

شكّل قدوم الأمير إيلغازي صاحب ماردين إلى حلب مرحلة جديدة في تاريخ المقاومة المسلحة ضد الفرنج، والتي تمثلت بقيادتها السياسية والعسكرية حيث أخذ إيلغازي على عاتقه حماية المدينة، والتصدي للغزاة، يؤازره في ذلك علماء المدينة وأعيانها يترأسهم القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي وكل إليه مسؤولية حفظ المدينة، والنظر في مصالحها[2]. فتمكن إيلغازي من جمع أربعين ألفاً من عساكر المسلمين وسار بهم إلى حلب لمواجهة الفرنج، فنزل بقنسرين عام 513هـ/ 1119م في حين كان الفرنج يعسكرون بمنطقة تُدعى البلاط مما يلي سَرْمَدْ[3] شمالي الأثارب بحلب، وهناك أخذ إيلغازي بالاستعداد لحربهم، وأخذ الأيمان على أمرائه، ومقدّميه، فانطلقوا جميعهم تحت قيادته حتى باغتوا الفرنج، وأحاطوا بهم من كل جانب[4].

ظهر دور القاضي أبو الفضل بن الخشاب في هذه المعركة كمحرض للناس على القتال، حيث تصدّر قيادة الجيش، وأخذ ينتقل بين المقاتلين، وقد تجهز برمحه

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ص 384-387.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص386-387؛ Holt, The Age of the Crusades, P. 28؛ Hillenbrand, The Crusades, Islamic Perspectives, P. 108-109.

(3) موضع من أعمال حلب. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص 215.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص388-389؛ Cahen, La Syrie du Nord a l'epoque des croisades, P. 284-285؛ Setton, Ahistory of the Crusades, P. 450-451.

وسلاحه لقول ابن العديم: "وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يُحرِّض على القتال، وهو راكبٌ على حجر[1]، فرآه بعضُ العسكر فازدراه وقال: "إنما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمّم!" فأقبل على الناس، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم بين الصفّين، فأبكى الناس وعَظُم في أعينهم"[2].

ضرب القاضي ابن الخشاب مثلاً رائعاً للعالم المجاهد بلسانه ونفسه، ورسم صورة مشرقة لمواقف العلماء الجهادية ضد الفرنج حتى أن ابن العديم عدّ موقفه البطولي سبباً في نصر المسلمين في هذه الموقعة لقوله: "وحمل التُّرك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات وكانت السّهام كالجراد ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السَّهام عادت منهزمة،..."، وكثر عدد أسراهم، وقتل صاحب أنطاكية الأمير روجر، وبلغ عدد قتلاهم ما يقارب خمسة عشر ألفاً[3]. أما ابن القلانسي فوصف هذا النصر بأنه "من أحسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتفق قبله للإسلام..."[4]. كما كان له أثره الواضح في رفع معنويات المسلمين وزيادة ثقتهم بأنفسهم حتى اعتقد المقاتلون أن الملائكة كانوا عوناً لهم على الفرنج في هذه المعركة[5]. ولكثرة الدماء التي أريقت سمّاها الفرنج ساحة الدم[6].

تكررت ظاهرة تفاني علماء حلب في الدفاع عن مدينتهم ضد الفرنج عام 518هـ/1224م لكنها أخذت شكلاً آخر مختلفاً عن سابقتها، لتبدل ظروفها السياسية الداخلية، وقلة إمداداتها الخارجية ويعود ذلك إلى اعتداءات الفرنج

---

(1) أنثى الخيل.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص390؛ Hillenbrand, The Crusades Islamic perspectives, P. 109.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص390.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص201.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص391؛ عاشور، جهاد المسلمين في الحرب الصليبية،ص165.

(6) ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص120.

المتكررة عليها وخاصة خلال الفتـــــرة (514-517هـــ/ 1220-1223م)[1]، وإلى ما لاقاه الفرنجة من مقاومة عنيفة من صاحب حلب الأمير بلك بن بهرام، مما دفعهم إلى التحالف ضده، والسعي إلى احتلال مدينته[2]، وترتب علـــى ذلـــك فـــتن داخلية بين المسلمين والمسيحيين في المدينة نتج عنها قيام الفـــرنج بهـــدم مـــشاهد المسلمين ومساجدهم مما دعا القاضي ابن الخشاب إلى هدم كنائسهم، وتحويلها إلى مساجد مما أسهم في إضعاف الجبهة الداخلية للمدينة[3] وجاء مقتل بلك بن بهـــرام على يد الفرنج عام 518هـــ/1124م صعقة قوية أضعفت صمودها، فتكاتف الفرنج عليها وطال حصارها حتى قلّت الأقوات[4].

تصدى العلماء للذود عن مدينتهم، وتمثل ذلك بالقاضي أبـــي الفـــضل بـــن الخشاب، حيث أسندت إليه رئاسة المدينة وحفظها، وتنظيم أمورها، مما مكّنه مـــن القيام بحركة دعائية قوية للجهاد ضد الفرنج، فأرسل وفداً إلى تمرتـــاش صـــاحب ماردين برئاسة القاضي أبي غانم محمد هبة الله بن أبي جرادة[5]، طالباً منه النجدة، كما أرسل وفداً لصاحب الموصل آق سُنْقُر البرسقي طالباً منه النصرة والعون، ولم تمض أيام حتى جاءت النجدة من الموصل فتمكنوا من دحر الفرنج عن حلـــب[6]. وقد أظهر ابن الخشاب في هذه المواجهة بطولة فائقة في مُلاحقتهم، والانقـــضاض

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص398-407.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص410-415. وعن تهديد بلك بن بهـــرام لأنطاكيـــا انظـــر: ولـــيم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج3، ص590-593.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص412؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص263.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص416-422.

(5) ولد سنة 446هـــ/1054م كان فقيهاً ومحدثاً كما تولى قضاء حلب، كان حنفي المذهب، تـــوفي عـــام 534هـــ/1139م؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص 28-30.

(6) ياقوت، معجم الأدباء، ج16، ص30؛ ابن العديم، زبدة الحلـــب، ج1، ص421-423؛ Holt, The Age of the Crusades, P. 29.

عليهم، تمثل ذلك بقوله لأق سُنْقُر البرسقي: "يا مولانا لوساق العسكر خلفهم أخذناهم، فإنهم منهزمون والعسكر محيطة بهم"[1].

تراوحت مواقف القاضي ابن الخشاب بين الدعاية للجهاد من خلال خطبه الرنانة المؤثرة، وبين دوره العسكري، المتمثل بحمله للسلاح وتقدمه الصفوف وخوض غمار الحرب ووضع الخطط العسكرية ضد الفرنج، فكان ذلك سبباً في تداخل الدورين، والتي كانت تصب جميعها في طور المقاومة، ودلّ على اتساع نشاطاته هذه وآثارها قول أحد الباحثين في وصف أعماله: "وإنا لنعلم أن ابن الخشاب بعناده وثقوب نظره لم ينقذ مدينته من الاحتلال فحسب، بل أسهم أيضاً أكثر من مرة من أيّ كان في تمهيد السبيل أمام كبار القادة في مجاهدة الغزاة"[2].

- خطة القاضي كمال الدين الشهرزوري للسيطرة على دمشق:

شارك العلماء في العهد الزنكي مشاركة فاعلة في العمليات العسكرية تحت قيادة عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود، وتبلور ذلك بمشاركتهم الفعلية في الغزو بحمل السلاح ومرافقة الحملات والمشاركة في وضع الخطط العسكرية. ويعد الفقيه والقاضي كمال الدين الشهرزوري من أكثر العلماء نفوذاً عند الملك عماد الدين زنكي وكان من كبار مستشاريه في شؤون السياسة والحرب، حتى غدا مدبراً أمور الدولة، ومكلفاً بتهيئة المناخ الملائم لمدينة دمشق تمهيداً لدخول العساكر إليها وإخضاعها لسيطرته، حتى يتمكن من غزو الفرنج في بيت المقدس. فبعد تملكه لشهرزور عام 534هـ/1139م عاد للموصل عاقداً العزم على المسير للشام فكلف

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص424.

(2) معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص134.

القاضي الشهرزوري بمكاتبة جماعة من مقدمي أحـداثها وزناطرتهـا[1] عارضـاً عليهم مساعدته لتسليم البلدة، وفتح أبوابها عند اقتحامها، فوافقه خلق كثير على ذلك بعد استمالته لهم بالأموال والصلات، وأخذه العهود والمواثيق عليهم إلا أن عمـاد الدين أبدى تحفظه على هذه الخطة لقوله "لا أرى رأياً" فإنّ البلـد ضـيق الطـرق والشوارع، ومتى دخله العسكر، لا يتمكنوا من القتال فيه لـضيقه، وربمـا كثـر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم"[2]. وسواء نفذت هذه الخطة العسكرية أم لا فإنها إشارة واضحة إلى عظم المهمة التي أنيطـت بالقاضـي الـشهرزوري، بـصفته مستشاراً للملك عماد الدين زنكي، وما ذلك إلا دليـل كفاءتـه وحكمتـه، وعمـق تجربته.

- مشاركة العلماء في فتح الرها عام 539هـ/ 1144م:

خلّف تأسيس الإمارات الصليبية في الشرق آثاراً سلبية خطيـرة، سياسـية وعسكرية واقتصادية. وقد كانت إمارة الرها في الجزيرة الفراتية أول إمارة فرنجية (صليبية) في الشرق، وقد احتلت مكانة خطيرة لموقعها الاستراتيجي فهي مـصدر تهديد لخطوط مواصلات المسلمين من جهة، إضافة لفصلها قوات المـسلمين فـي شمال العراق عن شمال الشام[3]، كما شكلت خطراً على الجزيرة كاملة فمن خلالها وسع الفرنج مملكتهم نحو ماردين إلى الفـرات، وإلـى عـدة حـصون كـسروج

---

[1] من زنط ومنها زنطر أي شجع وتزنطر: تشجع وتجرأ وتجمع على زناطير بمعنى شجاع وجـسور وتجمع أيضاً على زَناطِر بمعنى نشيط ورشيق وخفيف الحركة، وتجمع على زناطرة، وتعني طبقـة من سكان بغداد يحبون الاضطراب والهيجان. رينهارت، تكملة المعاجم العربيـة، ج5، ص 368-369.

[2] أبو شامة، الروضتين، ج1، ص164.

[3] Stevenson, The Crusaders in the East, P. 153؛ الشيخ، عصر الحـروب الـصليبية فـي الشرق، ص252.

والبيرة[1]، ولهذه الأسباب مجتمعة رأى عماد الدين زنكي أن في القضاء عليها خلاصاً للإسلام من خطرها وشرها، واسترجاعاً لهيبة المسلمين، وتهديداً لقوى الفرنج (الصليبيين) عامة، وكسراً لشوكتهم ، لما لهذه الإمارة من أهمية دينية عندهم لقول ابن الأثير: "وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى..."[2].

مهّد عماد الدين زنكي لفتح الرها معتمداً على حملاته المتكررة لأرض الجزيرة، بهدف استطلاع أحوال الرها من جهة، والعمل على تطويقها من جهة أخرى، حتى تمكن من الاستيلاء على العديد من الحصون والقلاع والمدن في ديار بكر، وبعض الحصون التابعة لإمارة الرها[3]. فأخذ يتحين الفُرص للاستيلاء عليها لإدراكه صعوبة اقتحامها بوجود صاحبها جوسلين، ولهذا أظهر لجوسلين انشغاله عنها بديار بكر وعندها أيقن جوسلين انشغال عماد الدين عنها، فتركها وتوجه إلى الشام، فاستغل عماد الدين غيابه، وفرض عليها حصاراً حتى احتلها عام 539هـ/ 1144م[4].

كان فتح الرها على يد عماد الدين زنكي عملية عسكرية ناجحة، تم الإعداد لها بشكل منسّق، وبسرية تامة، وقد بذل في سبيل فتحها جهوداً مضنية تمثلت بطلبه من أمرائه وعساكره عدم التخلف عن المسير إليها[5] فباغتها ونصب منجنيقاته*[6]،

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص67؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص170-171.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص66-67.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص64-66.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص21؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص170-171؛ Holt, The Age of the Crusades, 42

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص68، الكامل، ج9، ص21؛ النقيب، مرتضى ، (1987). عماد الدين زنكي وسياسة الجهاد تجاه الصليبيين، مجلة المورد، بغداد، مج16، (ع 4)، ص103.

* من جَنق والجُنق حجارة المنجنيق ويقال جنَّقُونا بالمنجنيق أي رمونا بأحجارها. ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص 385، مادة جنق.

(6) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص69.

وأحاط بها من جميع الجهات[1]، وقدم النقابين، وألح على عساكره بالإسراع في اقتحامها تحسباً من اجتماع الفرنج واستنقاظها، فنقب النقابون أسوارها، حتى ملكها عنوة بعد حصار استمر ثمانية وعشرين يوماً، فلما دخلها قتل شجعانها وفرسانها، ورتب العساكر فيها، وكان هذا الفتح صدى واسعاً حتى وصفه ابن الأثير بالفتح العظيم الذي لم ينتفع المسلمون بمثله، وقد طار ذكره في الآفاق[2].

يؤكد ابن الأثير أن خلقاً كثيراً من الصالحين والأولياء قد شهدوا ذلك الفتح[3] وشاركوا فيه مشاركة عسكرية فاعلة تمثلت بمساهمتهم في حصار المدينة، واقتحام أسوارها، وتجلى ذلك بموقف الفقيه الشافعي أبي عبد الله بن علي بن مهران الذي وصفه ابن الأثير بقوله: "كان من العلماء العاملين، والزاهدين في الدنيا والمنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة"[4] وقد أكد عدد من المشاركين بالفتح رؤيته وهو يقاتل على أسوارها، وقد فارق زاويته التي يدرس فيها ذلك اليوم وعودته مسروراً هو ويحمل لهم بشرى فتحها لقوله لمن حوله: "حدثني بعض إخواننا، أن أتابك زنكي فتح مدينة الرها، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا"، ثم أخذ يثمن لعماد الدين زنكي هذا العمل في ميزان حسناته يوم القيامة لقوله: "ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم" وبقي يرددها مراراً. ومن الغرابة في موقف الفقيه ابن مهران أنه في الوقت الذي كان يؤكد شهود الفتح مشاركته، ووقوفه على أسوارها مُحرضاً على الجهاد بهتاف الله أكبر كان هو ينكر عليهم ذلك لقولهم له: "منذ

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص467.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص96؛ الكامل، ج9، ص21-22؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص170-172.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص96.

(4) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص70؛ انظر: أبو شامة، الروضتين، ج1، ص172؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص116-117؛ بول، صلاح الدين، ص71.

رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح" وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً[1].

إن في صعود الفقيه ابن مهران على أسوار الرها، ومقاتلته الفرنج لدليل ناصعٌ على دور العلماء في جهاد الفرنج بأنفسهم، لإدراكهم أهميته وثوابه، وما إنكاره لهذه المشاركة إلا مؤشراً على تواضع العلماء، وإخلاصهم في العمل لوجه الله تعالى.

وبرز يوم حصار الرها عالم آخر، وهو الشيخ أبو بكر الحراني[2] الذي وصفه الذهبي بالشجاعة لحُسن بلائه ضد الفرنج حتى قيل إنه كان أحد المحرضين على حصارها، وقتال الفرنج فيها، وقد ذكره الذهبي بأنه ممن اشتهر يوم وقعة الثلمة بالرها، وذلك لتمكنه من صعود المدينة وقتل من فيها، حتى صعد الناس وراءه. ومما يُدل على ثباته وقوة عقيدته رفضه تقبيل الصليب، بعد وقوعه في الأسر قبل فتح المدينة، إلا أنه تمكن من الفرار، بعد هول ما لقيه من شتى أنواع العذاب والإهانة، إلا أنه بقي ثابتاً على مواقفه حتى بعد هربه من الأسر لقوله: "كنت أمرّ إلى الرُّها في الليل، فأصعد إلى السّور، وأنزل إلى البلد، فإذا عرفوا بي صعدت إلى السور، فإذا صرت على السور ومعي سيفي وترسي لم أبال بأحدٍ، وصعدت مرة إلى السور، فلقيت اثنين، قتلت واحداً، ودخل الآخر إلى البرج، فدخلت خلفه وقتلته"[3].

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص70؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص172؛ Sivan, L' Islam Et la Croisade, P. 50.

(2) هو أبو بكر بن إسماعيل، كان زاهداً، وورعاً، مجاهداً، مجتهداً في الدين، عالمُ بأعمال الآخرة، ومن أهل العمائم، وكان من أصحاب الحكمة في أمر الدين، توفي عام 580هـ/1184م. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات 571-580هـ، ص338-340.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات، 571-580هـ، ص338.

لقد كان لفتح الرها ثمارٌ طيبة على حركة الجهاد، كان إيداناً بقرب نهاية الفرنج في الشرق، إذ تزعزت روحهم المعنوية، وأثارت مخاوفهم بسقوط أول إمارة يؤسسونها[1] كما أذكى استرداد الرها شعلة الجهاد. وقد تمثل ذلك بما ضربه العلماء من أمثلة رائعة في التصدي للفرنج، وبما سجله الشعراء والخطباء من أحداث هذا الفتح العظيم[2].

تمخض عن فتح الرها أسلوب جديد يتمثل بالهجوم على الفرنج بدلاً من الاكتفاء بالدفاع، كما جاء ليكشف متانة العلاقة بين العلماء والقادة، وقوة أواصر التعاون بينهما، متمثلاً بالترويج للجهاد، وتعزيزه في النفوس من خلال الإشادة بعماد الدين زنكي وبطولاته، حتى بلغ الأمرُ بالعلماء اعتبار ما قام به زنكي من تحرير للرها كافياً لمغفرة ذنوبه كما جاء على لسان أحد الصالحين أنه رأى عماد الدين زنكي في المنام بعد استشهاده فقال له: "ما فعل الله بك، فقال غفر لي فقلت بماذا: قال بفتح الرها"[3].

امتدّت الدعاية للجهاد زمن عماد الدين زنكي حتى وصلت حدود المغرب، مما دفع أحد علماء المغرب بالرد على ملك جزيرة صقلية عندما أظهر استهزاءهُ بالرسول ﷺ لعدم نصرته المسلمين في حروبهم ضد الروم في إفريقيا لقوله له: "يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت كيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟، فقال: كان قد حضر فتح الرها" وما هي إلا أيام حتى جاء خبر فتح الرها على يد المسلمين[4]. وقد رأى أحد الباحثين أن الروايتين السابقتين جعلتا من عماد الدين أسطورة واعتبرتا من أولى التباشير على الإحياء الشعبي للجهاد في الشرق[5].

---

(1) الشيخ، عصر الحروب الصليبية في الشرق، ص256؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص383.

(2) Sivan, L' Islam Et la Croisade, P. 59-67.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص70؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص172.

(4) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص70؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص172.

(5) آرمسترونغ، الحرب المقدسة، ص 247.

ثانياً: مشاركة العلماء في التصدي للحملة الصليبية الثانية:

لم تقتصر ردة فعل الفرنج على سقوط الرها على الفرنج المقيمين في الشام فحسب بل شملت المسيحيين في أوروبا أيضاً، إذ كان خبر سقوطها لطمة شديدة للفرنج في الغرب، إذ أيقنوا أن الأمور لا تسير بالشرق كما يشتهون فظهر على أثرها في أوروبا حركة تدعو للقيام بحملة صليبية جديدة لتعزيز وجودهم في الشرق، وتقوية الكيانات اللاتينية الباقية، وخاصة ببيت المقدس[1]. وهناك من يرى أن فكرة الحملة الصليبية الثانية ظهرت في بلاط لويس السابع ملك فرنسا عام 540هـ/ 1145م الذي أحزنه سقوط الرها، وضعف الإمارات الصليبية، مما جعله يُزمع على القيام بحملة لتعزيز هذه الكيانات، ومنع سقوطها بأيدي المسلمين[2] وسانده في الإعداد لهذه الحملة جملة من الوعاظ بقيادة القديس برنارد، ثم انضم إليهم الإمبراطور كونراد الثالث، وبذلك تألفت من جحفلين ويقودهما اثنان من زعماء العالم الكاثوليكي كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا[3].

تغيّرت أهداف الحملة فور وصولها الشام، واجتماع قادتها بملك مملكة بيت المقدس فاتخذت مساراً لا يقصد به استعادة الرها والحد من نفوذ الزنكيين كما كان مخططاً لها، بل استقر الرأي على احتلال دمشق التي كانت تخضع آنذاك للأمير

---

(1) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج4، ص758؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص383-384؛ Stevenson, The Crusaders in the East, 158

(2) الشيخ، عصر الحروب الصليبية، ص25؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص606؛ Stevenson, The Crusaders in the East, 158؛ Holt, The Age of the Crusades, P43

(3) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج4، ص758؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص606.

معين الدين أُنر[1]. الذي لم يأل جُهداً في التأهب والاستعداد لمــواجهتهم، فحــصن المدينة، وعمل كل ما يلزمها من قدرة على الصمود وترتيب الرجال فيها. وتقــدم الفرنج، وزحفوا نحو المدينة في ربيع الأول من عــام 543هـــ/1148م بجميــع جموعهم التي زادت عن خمسين ألفاً، وكان نزولهم بــالمزة لقربهــا مــن المــاء، واشتبكوا مع أهل دمشق الذين خرجوا بمختلف شرائحهم للدفاع عن مدينتهم تقــول ابن القلانسي: "واجتمع عليهم من الأضداد والأتراك القتّال وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجم الغفير..."[2]. إلا أن كثرة عدد الفرنج كان فيصلاً في استظهارهم حتى تغلبوا على المناطق التي تتوفر فيها المياه، وانتشروا في بساتين دمشق، يقطعــون أشجارها، حتى اقتربوا من البلد وتمكنوا من أحد مناطقها، إلا أن المسلمين استأنفوا القتال في اليوم الثاني، إذ بادروا بالهجوم عليهم، واستبسلوا في قتالهم، وزحفوا إليهم حتى استظهروا عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم[3]. وقد كان للنجدة التي تلقاهــا أهل دمشق من أهل البقاع أثرها في إعاقة الفرنج ومضايقتهم، حتى امتنعــوا عــن مواجهة المسلمين لشدّة بأسهم وبسالتهم[4].

كان لسياسة الأمير معين الدين أُنر وحنكته دور كبير في حماية دمشق من السقوط بيد الفرنج، وتمثل ذلك بمكاتبته ملوك المسلمين وأمرائهم لطلــب النجــدة، حتى وصلته تعزيزات من سيف الدين غازي صاحب الموصل، ونور الدين زنكــي صاحب دمشق[5] والتي كان لأنباء وصولها وقع كبير في نفوس الفرنج، مما مكّنــه من مفاوضة الفرنج على الانسحاب وإيقاعه الخلاف بينهم، وذلك بإرساله للفــرنج

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص298؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص48؛ ماير، تاريخ الحــروب الصليبية، ص156.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص298.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص298-299؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص204.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص299؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص204-205.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 48؛ Setton, Ahistory of the Crusades, P. 508.

الغرباء [القادمين من أوروبا] يخوفهم من الزنكيين لقوله: "إن ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم، وإلا سلمتُ البلد إليه..."، كما أخذ يحرض فرنج الشام على الغرباء بقوله لهم: "بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيدكم من البلاد الساحلية، ..."[1]. فشلت الحملة على دمشق فشلاً ذريعاً، وانسحب الفرنجُ عنها أذلاء منهزمين، وأعقبها تسلم فرنج الشام لبانياس[2]. وكان لهذا الفشل وقعه السيّء على الفرنج حتى ذهب أحد الباحثين إلى إمكانية وجود تعاون بين فرنج الساحل السوري وأهل دمشق[3].

وحدّت الحملة الصليبية الثانية على دمشق 543هـ/1148م مشاعر الدمشقيين فهبوا للدفاع عن مدينتهم بعساكرها وأهاليها، وكبار علمائها، وزهادها[4] وكان لعلمائها أثرٌ بارزٌ في التصدي للفرنج، وقد سجّل المؤرخون صوراً عديدة لبطولات علمائها وخاصة: الفقيه المالكي أبو الحجاج المغربي الفندلاوي[5]، والشيخ عبد الرحمن الحلحولي. وقد رد أحد الباحثين هذه الاستجابة الكبيرة لفكرة الجهاد إلى نجاح المسلمين في الرها إذ كانت سبباً قوياً في دفعه للأمام بإشارته أن كل جيل يطور تجربة الجيل الذي سبقه[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 48.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج2، ص236؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص49؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص30.

(3) Stevenson, The Crusaders in the East, 162.

(4) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج74، ص236؛ ابن منقذ، الاعتبار، ص94-95؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص89؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص200-201.

(5) يوسف بن دوناس، قدم الشام حاجاً وهو من أصل مغربي، سكن بانياس، وكان خطيباً بها، ثم انتقل لدمشق، ودرس بها الفقه المالكي، وحدّث بالموطأ. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج74، ص236؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، ج8، ق1، ص200.

(6) Hillenbrand, The Crusades Islamic perspectives, P. 116.

لم يكن تقدم عمر الفقيه الفندلاوي وضعفه عائقاً يحول بينه وبين الجهاد، فخرج لمقاتلة الفرنج، وضرب أروع الأمثلة وأصدقها على الرغم من محاولات الأمير معين الدين في ثنيه عن ذلك لقوله له أيها الشيخ الإمام: "ارجع، فأنت معذور للشيخوخة، فقال لا أرجع، بعنا، واشترى منا"، يريد قول الله عز وجل: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" [التوبة: 111]، فما انسلخ النهار حتى حصل له ما تمنى من بلوغ الشهادة[1].

خلد هذان العالمان المجاهدان اسميهما بأحرف من نور بدخولهما المعركة دون خوف، فأثناء استعدادهما للقتال سأل الفقيه الفندلاوي الشيخ الحلحولي: "ما هؤلاء الروم؟ قال "بلى" قال: فإلى متى نحن وقوف؟" قال: سر على اسم الله" فتقدّما وقاتلا حتى قتلا رحمهما الله في مكان واحد[2]. بالنيرب[3] تحت الربوة[4]. وعلى الرغم من كثرة مشاركة العلماء في العمليات العسكرية والمعارك الطاحنة ضد الفرنج، إلا أن هذين العالمين نالا أهمية خاصة لأنهما جمعا بين قوة اللسان، وقوة الجنان فلم يكتفيا بالتدريس والوعظ والدعاية للجهاد ورص الصفوف، بل خاضا غمار المعارك متمثلين بالآية الكريمة التي ألمحَ إليها الفقيه الفندلاوي: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ..." وهو نيل الشهادة والتضحية في سبيل الله، وهذا ما دعا المؤرخ والأديب أسامة بن منقذ أن يفرد لهما عُنواناً خاصاً يُظهر

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج74، ص236؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص89؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص205-206؛ مؤنس، نور الدين محمود، ص216-217.

(2) ابن منقذ، الاعتبار، ص94-95؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص204.

(3) قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين، وهي تلي الربوة من جهة دمشق، كما يراد بها سفح قاسيون. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج5، ص330؛ الصالحي، القلائد الجوهرية، ق1، ص55.

(4) رُبوة: أصلها ما ارتفع من الأرض وجمعها روابي وهي موضع بدمشق على جبل بينها وبين دمشق فرسخ. وتحته نهر بردى؛ ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص26.

دورهما تحت باب: "فقيه وزاهد يقاتلان للجنة"، وزاد على ذلك بقوله أن هناك من يقاتل كالصحابة للجنة لا رغبة في السمعة"[1].

نُسجت على أثر النصر المبين كثيرٌ من الرؤى والصور التي تُظهر ما حققه الدمشقيون من بطولات ضد الفرنج، وبيان فضل الشهادة، والترويج لحركة الجهاد، متزامناً ذلك مع استشهاد هذين العالمين، حيث ذكر الحافظ ابن عساكر أن أحد العلماء رأى في منامه الفندلاوي فقال له: "أين أنت قال: في جنان عدن على سررٍ متقابلين"[2].

ثالثاً: مشاركة العلماء العسكرية في عهد الملك نور الدين زنكي:

لم تزودنا المصادر التي تناولت مرحلة الغزو الفرنجي (الصليبي) بالقدر الكافي عن مساهمات العلماء العسكرية إلى جانب الملك نور الدين زنكي واكتفت بإشارات قليلة على الرغم مما تميّز به عصره من حركة تعليمية واسعة ودعاية واضحة للجهاد، وقيامه بمقاومة الفرنج في مناطق كثيرة سواءً كان ذلك بالشام أو بالجزيرة[3] منذ بداية حكمه وحتى وفاته (541-569هـ) (1146-1173م).

أشار أبو شامة إلى قدوم الواعظ أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي إلى الشام بقصد الغزو ضد الفرنج مع الملك نور الدين زنكي. وقد حاول الملك نور الدين التقرب منه بأن أرسل إليه مبلغاً من المال لكنه رفض قبولها مؤثراً الخروج في سبيل الله، دل على ذلك غلظته مع نور الدين، وتوجيهه لبعض الإصلاحات الاجتماعية ومنها رفع المظالم عن الناس لقوله له:

---

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص94-95.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج74، ص236؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص129.

(3) انظر: فتوحات نور الدين زنكي في إعزاز، وتل باشر، وتل خالد، وحارم، والرها، وأنطاكيا، وبانياس...إلخ؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص305-306.

أنهيت عن شرب الخمور وأنت   من كأس المظالم طافح مخمور
مهد لنفسك حُجة تنجو بها   يوم المعاد لعلّك المغدور[1].

فأبطل نور الدين المظالم، واشتغل بالغزو[2].

كما برزت في هذه الفترة مشاركة عالم آخر من "بني منقذ" وهو عز الدولة أبو الحسن علي بن منقذ أخو أسامة بن منقذ الذي استشهد في عسقلان عام 548هـ/1153م أثناء حصار الفرنج لها لقول أسامة بن منقذ: "فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي، بعسقلان، فخرج عسكرها إلى قتال غزة فاستشهد، رحمه الله، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبّادهم"[3].

ومن مشاركات العلماء الأُخرى في العمليات العسكرية ضد الفرنج في عصر الملك نور الدين محمود ما كان يوم فتح بانياس عام 552هـ/1157م، حيث اجتمع الملك نور الدين والأمير أسد الدين شركوه وعساكره عند بعلبك أثناء توجههم لقتال الفرنج، واتفقا على مواصلة مسيرة الجِهاد على أن يكون نزولهم في بانياس، فما كان من الملك نور الدين، إلا أن قفل دمشق للاستعداد، فجهّز المقاتلة، وأمر المنادي أن ينادي للجهاد، وأكد على أن يكون نداء الجهاد عاماً للجميع: للغزاة، والمجاهدين، والأحداث، والمتطوعة، والغرباء، وقد أظهر ابنُ القلانسي مشاركة العلماء في هذه الغزوة بقوله: "وبادر بالمسير في الحال إلى عسكره المنصور مُغذاً غير متلوّم ولا متريث في يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول وتبعه بين الأحداث والمتطوعة، والفقهاء والصوفيّة والمتديّنين العدد الكثير الأثر

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص112-113.
(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص113-114.
(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 17-18.

المباهي في الوفور والكثرة..."[1]. وقد أشار ابن عساكر إلى أحد العلمـــاء الـــذين حضروا وشاركوا في هذا الفتح وهو أبو الخير الكاتي الخوارزمي[2] الصوفي.

لقد اجتمعت الشجاعة والتصميم على دحر الغزاة في فتح بانياس حتى كان النصرُ حليف المسلمين فما أن وصل نور الدين وعساكره حتى نـــصب المجـــانيق حول المدينة، وبدأ بمضايقتها، وفي هذه الأثناء استدعى الفرنج من يساعدهم، فوثب عليهم المسلمون حتى أجهزوا عليهم لقول ابن القلانسي: "فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يفلـــت مـــنهم إلا اليسير، ووصلت الأسرى، ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبـــة ... إلـــى البلد ... وطيف بهم منه فسُرت القلوب بمشاهدتهم..."[3]. وفي اليوم الثاني فتحـــت بانياس بالسيف قهراً بعد أن أسقط المسلمون أبراجها[4].

تذخر المؤلفات في هذه الفترة بالمعلومات التي تركّز على الإعداد الفكـــري والدعائي للجهاد أكثر من تركيزها على الجانب العسكري للعلماء على الرغم مـــن كثرة الغزوات التي وجهها الملك نور الدين للفرنج، وسبب ذلـــك اهتمـــام العلمـــاء بالجانب التعبوي الذي يمهد الطريق للارتقاء بالجهـــاد، ولهـــذا نجـــد أن الاهتمـــام بالجانب العسكري للعلماء في عصر صلاح الدين أخذ حيزاً كبيراً مما كـــان عليـــه زمن نور الدين لأن الأمة كانت معدّة فكرياً في عهد نور الدين زنكي.

رابعاً: الدور العسكري لعلماء الإسكندرية ضد الفرنج عام 562هـ/1166م:

لم تقتصر مشاركة العلماء العسكرية ضد الفرنج على علماء الشام والجزيرة فحسب بل شملت عُلماء مصر أيضاً، وذلك على أثر تعرضها لسلسلة من غـــزوات

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص340.

(2) هو صالح بن إسماعيل، قدم دمشق، ودرس بها الحديث ولازم ابن عساكر، تـــوفي عـــام 554هــــ/1159م. تاريخ مدينة دمشق، ج23، ص301.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص340.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص341.

الفرنجة، كان ثانيها عام 562هـ/ 1166م بعد أن استنجد بهم الوزير الفاطمي شاور[1]، واستقدمهم لبلاده، بحجة خوفه من عساكر نور الدين زنكي، مما استوجب من الملك نور الدين تسيير حملة لمصر بقيادة الأمير أسد الدين شيركوه، وبمساعدة ابن أخيه الأمير صلاح الدين الأيوبي للحيلولة دون وقوع البلاد بيد الفرنج، وإضافة إلى تأديب شاور لنقضه العهود التي كان قد قطعها للملك نور الدين بعد أن ساعده في إعادته لمنصب الوزارة بعد صراعه مع الوزير ضرغام، واستعانته هو الآخر بالفرنج[2]، وقد كان لهذه الحملة أهمية بالغة في الصراع مع الفرنج لكونها الخطوة الأولى نحو اتحاد سورية مع مصر، بالإضافة لدورها في تضييق الخناق على الفرنج في بيت المقدس[3].

اتجهت الحملة التي يقودها أسد الدين شيركوه نحو الصعيد، وعسكرت في مكان يُعرف بالبابين حيث جرت هناك وقعة بين الفرنج والوزير شاور من جهة، وأسد الدين شيركوه وعساكره من جهة أخرى، وانتهت بانتصار المسلمين على الفرنج بعد أن حملوا عليهم، وأثخنوهم قتلاً، وأكثروا فيهم الأسر[4]. ثم اتجه أسد الدين شيركوه للإسكندرية فدخلها دون قتال ثم غادروها للصعيد وترك فيها ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فما كان من الفرنج بقيادة الملك مُري [أموري]،

---

(1) شاور بن مجير السعدي، وزير الخليفة العاضد، كان يلقب بأمير الجيوش، بقي وزيراً حتى ثار ضده ضرغام أبو الأشبال مما جعله يطلب مساعدة نور الدين زنكي، توفي عام 564هـ/1168م. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص95-96.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص36-38؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص10.

(3) بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص228؛ Stevenson, the Crusaders in The East, 186.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص98؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص150-151؛ المقريزي، الخطط، مج1، ص472؛ مؤنس، نور الدين محمود، ص398-399؛ Holt, The Age of Cruades, P47.

وبمساعدة الوزير الفاطمي شاور إلا أن رجعوا إليها، وقاموا بمحاصرتها، وأحكموا عليها الحصار[1].

لم يتوان أهل الإسكندرية عن مدّ يد العون للأمير صَلاح الدين أثناء حصار الفرنج للمدينة، مما عزّز من صموده، إذ قدموا له كل ما أمكنهم تقديمه، وقاوموا الفرنج بأنفسهم، على أثر مكاتبة الأمير أسد الدين شيركوه لهم لطلب النجدة وأمروا عليهم الأمير نجم الدين بن مصال، وجعلوه زعيماً لحركة المقاومة، كما أشركوا معهم أحد علماء الإسكندرية المشاهير، وهو الفقيه أبو طاهر بن عوف والذي برز دوره من خلال مساهمة ابن اخته بنقل خزائن السلاح للأمير صلاح الدين المحاصر في الإسكندرية، حتى قدر المقريزي أن ما أخرجه أهل الإسكندرية للأمير صلاح الدين أثناء حصاره أربعة وعشرين ألف قوس[2].

دل سوء الاستقبال الذي لاقاه علماء الإسكندرية وأهلها من الوزير شاور بعد خروج صلاح الدين منها على مواقفهم من الغزاة الفرنج، والتي تمثلت بمقاومتهم والتصدي لهم حيث أفاد المقريزي أنه بعد دخولهم إليه لم ينظر إليهم ولم يكرمهم حتى أنه لم يأذن لهم بالجلوس لما أظهروه من مقاومة[3] وفي هذا دلالة واضحة على دور العلماء في تزعمهم للمقاومة المسلحة ضد الفرنج، ومشاركتهم في القتال بأنفسهم.

كما قام شاور بجملة من العقوبات، وبعملية تطهير شاملة لأبرز أعيان المدينة وعلمائها، وكل من ساهم في مقاومة الفرنج، وما ذلك إلا تعبيرٌ عن حجم المقاومة التي أبداها أهل الإسكندرية بشرائحهم المختلفة وخاصة علمائها لما كان لهم من مكانة وأهمية، فكان في مقدمتهم قاضي ثغر الإسكندرية الأشرف بن الحباب

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص9؛ المقريزي، الخطط، مج1، ص472؛ لمزيد من التفاصيل انظر Poole, Ahistory of Egypt, P. 183.

(2) المقريزي، الخطط، مج1، ص472، اتعاظ الحنفا، ج3، ص283.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص285-286.

حيث تم إلقاء القبض عليه ومعاقبته، كما تمكن الوزير شاور من والي الإسكندرية نجم الدين بن مصال الذي كان له دور كبير في المقاومة إلا أنه عفا عنه بعد وساطة ملك الفرنج أموري وبقي بعضهم بمصر في حين عاد قسم كبير منهم للشام[1]. ورفض بعض الآخر الانصياع للوزير شاور كالفقيه أبي الطاهر بن عوف الذي امتنع بالمنارة خوفاً أن يطاله عقاب الوزير شاور، لما أبداه من تعاون فائق النظر ضد الفرنج، إلا أنه تمكن من القبض عليه فقال له ابن عوف "اعذرنا يا أمير الجيوش، وسامحنا بما فعلناه، فعفا عنه"[2]. أما القاضي رشيد الدين أبو الحسن الغساني[3] الأسواني فقد كان مصيره القتل على يد شاور لمعاضدته أسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبي، ومساهمته في القتال ضد الفرنج[4] ومن المرجح أن الدور الذي قام به القاضي الأسواني ضد شاور والفرنج فاق بقية علماء الإسكندرية وأعيانها، مما استوجب قتله.

خامساً: مشاركة العلماء في الغزو ضد الفرنج في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي:

تميّزت فترة حُكم السلطان صلاح الدين الأيوبي (567-589هـ) (1171-1193م) باستمرار مسيرة الجهاد ضد الفرنج، فتعددت فيها غزواته، وقد واكبها دور جليل للعلماء من خلال دعايتهم للجهاد ومشاركتهم في العمل العسكري بموافقتهم للسلطان وحضور غزواته، وحملهم السلاح، وتقدمهم للصفوف، واهتدائه بآرائهم، وخططهم العسكرية، وبتكليفهم ببعض المهام العسكرية الطارئة.

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص286.

(2) المقريزي، الخطط، مج1، ص473.

(3) أحمد بن علي، كان من أهل العلم والأدب، له كتاب الجنان ورياض الأذهان. انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص289.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج3، ص 289.

كانت وقعة الرملة عام 573هـ/ 1177م من أشهر الوقعات التي خاضها السلطان صلاح الدين، وقد تجلى فيها دور العلماء في الجهاد، وربما يعود سبب ذلك لما تخللها من أحداث أربكت عساكر السلطان، مما أدى إلى هزيمتهم، حتى وصفها ابن شداد بكسرة الرَّملة[1]. والتي جرت أحداثها في جمادى الأولى من هذا العام كما روى أحد المعاصرين لها وهو العماد الأصفهاني حيث عزم السلطان على نية الجهاد، وغزو الفرنج، فقصدهم في غزة وعسقلان، وكان العماد أحد الذين خرجوا مع السلطان للغزو لكنه عاد وتراجع عن مسيره معه بعد أن أدرك ما سيكون من طول الإقامة، وشدة الخطب إذ أعلمهم السلطان بالتزود لعشرة أيام أخرى، فما كان منه إلا أن استأذن بالرجوع فأجابه السلطان لذلك، ولكنه طلب منه الدعاء بالنصر على الفرنج[2].

تمكّن السلطان وعساكره بعد نزولهم عسقلان من إحراز تقدمٍ على الفرنج، ثم تراجعوا إثر نزولهم على النهر المشرف على تل الصافية، حيث ازدحمت العساكر أثناء عبورها، حتى باغتهم الفرنج فجأة وانقضوا فوق أطلابهم وجموعهم[3]، فحدثت كسرة المسلمين. وقد قدّم ابن شداد سبباً آخر للكسرة رده إلى قيامهم بإعادة تعبئة العساكر أثناء عبورها، وذلك بعبور جهة الميسرة إلى جهة الميمنة والميسرة إلى جهة القلب، بحيث تكون الرملة وراء ظهورهم عند اللقاء، وأثناء عملية التغيير هاجم الفرنج المسلمون وكسروهم كسرة عظيمة، واكتملت الكسرة بخلوا الموقعة من حصونٍ يأوون إليها، فاتجهوا نحو الديار المصرية دون مرشد، مما جعلهم يضلون طريقهم كلٌ في جهته[4] فتاه السلطان ومن معه، حتى لم يبق معهم ماءٌ أو زاد أو دليل[5].

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص73؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص304.

(2) البرق الشامي، ج3، ص32-33؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص301.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص37-38؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص59-60.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص53.

(5) العماد، البرق الشامي، ج3، ص40؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص305.

على الرغم من مرارة الهزيمة، بذل العلماء جهداً مضنياً فيها، ومنهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وأخوه الفقيه ظهير الدين عيسى[1]. إذ كانوا مع جماعة من المسلمين خلف العساكر، وقريبين من العدو، فضلوا الطريق حتى التقوا بمن زعموا معرفتهم بها حتى وقعوا بالأسر[2]، ولم يفك أسر الفقيه عيسى إلا بعد سنتين عندما افتداه السلطان بستين ألف دينار وبفكاك جماعة من الفرنج عند المسلمين في وقعة مرج عيون عام 575هـ/1179م[3]، وقد كان للفقيه عيسى أهميته في مرافقة السلطان في غزواته فهو مستشاره، وأكثر العلماء قرباً منه، ولم تكن حادثة احتجازه لسنتين، ورفضهم فداءه بمبلغ بسيط إلا دليلاً على رفيع منزلته، بالإضافة لشجاعته، وحسن بلائه وقد أكد ابن الأثير أن الفقيه عيسى كان من أشد الناس قتالاً في وقعة الرملة[4].

كما برزت في هذه الوقعة مساهمة عالم آخر وهو القاضي الفاضل، إذ كان له الفضل بإنقاذ السلطان وعساكره الذين ضلوا الطريق، فما أن تنامى إليه خبر السلطان حتى استصحب معه جماعة من الكنانية[5] والأدلاء والغلمان للبحث عنه ومن معه في تلك الرمال والتلال، ولم يرجع إلا بعد العثور عليه، ثم قام بتوزيع الماء والزاد عليهم، فكان لذلك أكبر الأثر في جبر ما انكسر في هذه الوقعة[6].

---

(1) أشار العماد الأصفهاني أنه كان من أهل الفتوة بينما أشار ابن الأثير أنه كان من أهل العلم والدين. انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص191؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص434.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص41.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص41، 166؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص353.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص308-309.

(5) قبلية عربية تعود أصولها لقريش نسبة إلى كنانة بن خزيمة كانت أرضها مكة توصف بالشجاعة يذكروا في مصر في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج26، ص 8076-8077.

(6) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص41؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص61؛ سعداوي، التاريخ الحربي في عهد صلاح الدين، ص111-112.

وبرز دور العلماء مع السلطان صلاح الدين أثناء حصاره للموصل في المرة الثانية عام 581هـ/1185م بعد أن استعصى عليه فتحها، فأشار عليه بعض أصحابه بخطة يُجبر فيها أهل الموصل على تسليم مدينتهم دون قتال، وذلك بتحويل مسار نهر دجلة إلى دَجلة نينوي، فيقطع بذلك المياه عنهم مما يضطرهم للتسليم، وأشاروا عليه الاستعانة بالفقيه البغدادي فخر الدين أبي شجاع بن الدهان، الذي جمع بين علمه بالفقه ومعرفته بعلم الهندسة فنجح بسد مياه نهر دجلة وتحويلها حتى وصفه العماد بأنه مهندس زمانه، إذ أبدى تجاوباً واضحاً مع السلطان بقوله: "هذا ممكن، ولا يتعذر، ويتيَسر ولا يتعسر"[1].

أما معركة حِطّين[2] الفاصلة عام 583هـ/1187م، فقد فاق النصر الذي تحقق بها على الفرنج كل الانتصارات السابقة، وكانت تعبيراً حقيقياً للقدرة العسكرية التي تحلّت بها جيوش المسلمين وما وصلت إليه من توحد في الكلمة وفاعلية عالية في التدريب والتخطيط[3]، وعدت هذه المعركة على درجة كبيرة من الأهمية بحيث كانت فاتحة لتحرير بيت المقدس[4]، ولم تخل هذه المعركة من مشاركة العلماء، إلا أن المعلومات عن حقيقة دورهم جاءت قليلة، ومحصورة بعض الشيء مقارنة بغيرها، فقد ذكر أبو شامة مشاركة الفقيه موفق الدين المقدسي بحضوره لمجريانها، وتكليفه بكتابة كتاب للخليفة العباسي يبشره فيها بالنصر الذي أحرزه جيش المسلمين على الفرنج قرب تل حطين لقوله: "ولو حمدنا الله عز وجل

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص145؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص167.

(2) نسبة لموضع يسمى حطين بين طبرية وعكّا، وبينه وبين طبرية فرسخي. ياقوت، معجم البلدان، مج2، ص274.

(3) عبد القادر، دريد، (1987). الفكر العسكري للقائد صلاح الدين، مجلة المورد، بغداد، مج16، (ع44)، ص 69-80.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص57، عبد القادر، الفكر العسكري للقائد صلاح الدين، ص 81.

طوال أعمارنا ما وفينا بعشر نعمته التي أنعم من هذا الفتح العظيم فإنا أخرجنا إلى عسكر صلاح الدين"[1].

تابع السلطان صلاح الدين مسيرته الجهادية بعد فتحه طبريا، وانتصاره بحطين بالتوجه إلى الساحل لفتحه فابتدأ بعكا لأهمية موقعها، ولتسهيل نقل المؤن وغيرها، ففرض عليها حصاراً لم يدم لأكثر من يوم واحد حتى جاءه أهلها في اليوم الثاني يطلبون منه الأمان، فخيّرهم بين الإقامة فيها أو الخروج منها، إلا أن كثيراً منهم هجرها، تاركين وراءهم أموالهم ودورهم وقد كان لفتح عكا عام 583هـ/1187م دور كبير في إبراز مكانة العلماء عند السلطان، **وتمثل بحجم المهام والمسؤوليات التي أوكلت إليهم بعد الفتح فقد منح السلطان الفقيه**، عيسى الهكاري كل ما كان للداوية[2] من أقطاع وضياع، ومواضع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع واستخراج دفائنها، وما كان بمخازنها[3]، وربما كان ذلك تقديراً لمساهمته في مقاومة الغزاة الفرنج، ومن المحتمل أن يكون لما عهد عنه من فعل الخير، وقضاء حاجات الناس[4]، كما قام القاضي الفاضل بتحويل كنيسة عكا العظمى إلى جامع ورتب بها المنبر، والقبلة، فأقيمت بها أول جمعة في الساحل بعد يوم الفتح[5].

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 190-192؛ Sivan, L' Islam Et la Corisaide P. 142.

(2) هم طائفة يقال لهم الفرسان الداوية Knights, Templar يعود إنشاء هذه الطائفة لفكرة دينية وعسكرية تقوم على السماح لعدد من الفرسان بالنزول لساحة المعبد وهو المسجد الأقصى، وهم يقسمون لثلاثة طبقات الفرسان، والأجناد وهم أساس الجماعة، ثم رجال الدين الذين اهتموا بالوظائف الدينية، واتخذوا الصليب الأحمر شعاراً لهم، ووضعوه على أرديتهم في حين قام الأجناد بمهمة تطهير الطريق في قطاع الطرق على ساحل البحر المتوسط إلى بيت المقدس، ثم اشتركوا في الحملات العسكرية. انظر: قنديل، التعريف بمصطلحات القلقشندي، ص 19.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 389؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 198-200.

(4) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، مج1، ص 215.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 64.

كان للمكانة الدينية التي احتلتها بيت المقدس في نفوس المسلمين جميعاً دور كبير في حرص الجميع على أن يكون لهم دور السبق في المشاركة في تحريرها من الفرنج، ولهذا شهد هذا الفتح حضوراً لا مثيل له من مختلف فئات المجتمع، إلا إن أكثر الحضور كان من العلماء وتمثل ذلك بإشارة ابن شداد لكن دون تصريحه بمشاركتهم العسكرية المتمثلة بحمل السلاح، وقتالهم، وفي الوقت الذي أشار لدعايتهم للجهاد. وهذا يعطي مرونةً حول تلك المشاركة بحمل السلاح من عدمها لقوله "وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلقٌ عظيم، ومن أرباب الخِرَق* والطرق، وذلك أن الناس ما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده المقدّس فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل"[1].

ذكر ابن رجب الحنبلي أسماء عدد كبير من العلماء المقادسة الذين شهدوا هذا الغزو، فأشار إلى حضور الشيخ أبي عمر المقدسي وأخيه الموفق المقدسي، حيث كانا مجتمعين في خيمتهم مع بعض الناس، فإذا بالملك العادل يأتي لزيارة الشيخ أبي عمر المقدسي في الوقت الذي كان الشيخ منشغلاً بالصلاة فما قطع صلاته ولا التفت إليه[2]، ولعل في زيارة العادل هذه دلالة واضحة على تقديره لقدوم العلماء ونيتهم المشاركة في فتح بيت المقدس كما شارك في هذا الفتح من المقادسة كل من الشيخ ضياء الدين المقدسي الذي شهد له ابن رجب بأنه "كان يجاهد في سبيل الله ويحضر الغزوات مع صلاح الدين[3]، والشيخ عبد الغني

---

* يقصد بهم الصوفية لأن الخرقة مصطلح صوفي يعني به ما يلبسه المريد من شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده. القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص 159-160.

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 82؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 213.

(2) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص 56؛ مصطفى، آل قدامة والصالحية، ص 64-65.

(3) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 56.

المقدسي[1]، الذي لم يقتصر حضوره على هذا الفتح بل أشار ابن رجب الحنبلي إلى أنه من المواظبين على حضور الغزوات ضد الفرنج[2]، وكذلك الفقيه أبو القاسم سيف الدين المقدسي[3] لقول الحافظ ضياء الدين المقدسي: "وشهدنا غزاة مع صلاح الدين، فجاء ثلاثة فقهاء فدخلوا خيمة أصحابنا .. ولم يكن السيف حاضراً، ثم حضر فشرع في المناظرة، فما كان بأسرع من أن انقطعوا من كلامه"[4].

كما شارك في هذا الفتح علماء آخرون منهم الفقيه ناصح الدين الشيرازي الحنبلي الذي اشتهر ببراعته في الوعظ، فلم ينزل مدينة إلا ووعظ بها[5]، ويظهر أنه آثر البقاء في بيت المقدس بعد فتحها ودليل ذلك أنه اجتمع بالسلطان بالقدس بعد فتحها بسنتين، وأن السلطان استفتاه في بعض المسائل الفقهية المتعلقة بالفرنج[6]، وأضيف إليهم المحدث والمقرئ طغدي بن ختلع[7]، كما أشار العليمي إلى مشاركة الشيخ شهاب الدين المقدسي المشهور بأبي ثور[8]، الذي دخل بيت المقدس لمقاتلة الفرنج وهو يمتطي ثوراً ومن هنا جاءت كنيته"[9].

---

(1) للتأكيد على هذه المشاركة انظر: نزوله عند أحد الجنود المرابطين حول القدس ومشاركته في شرب الماء؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 16.

(2) ابن رجب. ذيل طبقات الحنابلة، ص 10.

(3) هو عبد الله بن عمر، كان فقيهاً بارعاً في المذهب والمناظرة والخلاف، توفي بحران عام 586هـ/1190م. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 372.

(4) ابن رجب. ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 372.

(5) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 193- 194؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص 70.

(6) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 194.

(7) محدثاً بغدادي الأصل، سكن دمشق ودرس بها الحديث، توفي عام 589هـ/1193م. انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 378- 379.

(8) أبو العباس أحمد بن عبد الله، كان إماماً زاهداً عابداً، توفي عام 594هـ/1197م، وأصبح قبره مزاراً. انظر: العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص 238-239.

(9) العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص 238-239.

تحفل المصادر بأسماء العديد من العلماء إلا أن معلوماتها بشأن مشاركتهم العسكرية جاءت مقتضبة إذ لم تحدد مكان تلك المواجهة أو العام الذي وقعت فيه. فقد أشار ابن رجب إلى مشاركة الفقيه عز الدين الشيرازي الدمشقي[1] (ت 586هـ/1190م) في مقاومة الفرنج ووصفه بالشجاعة والإقدام في القتال حتى قيلت فيه حكايات عجيبة، ومنها أنه بارز فارساً من الفرنج، فضربه بدبوس، فقطع ظهره وظهر الفرس فوقعا جميعاً[2]، كما شارك معه في الجهاد أخوه الشيخ شرف الدين محمد الشيرازي[3]، وعلى الرغم من المبالغات في بعض الروايات إلا أن لها ما يبررها، إذ هدفت إلى إبراز مقاومة هؤلاء العلماء عملياً بمشاركتهم في ساحات الشرف والرجولة.

مثلت المواجهات بين المسلمين والفرنج في مدينة عكا نموذجاً ناصعاً في نضال العلماء، ومقاومتهم المسلحة ضد الفرنج والتي استمرت أحداثها قرابة السنتين (585-587هـ / 1189- 1191م) برزت خلالها مشاركتهم فيها، فخاضوا كثيراً من الوقعات، واستشهد عدد منهم في ميادينها.

لقد كانت المقاومة الفرنجية في عكا أشد ضراوة من مواجهاتهم السابقة حيث توافر العدد والعدة، وتواصل الإمداد من البحر، في حين كان المسلمون محاصرين في عكا، وإمداداتهم ضعيفة، وقد أشار العماد إلى نزول الفرنج بأرض عكا قرب عين بصة في رجب من عام 585هـ/1189م، وصوّر ضخامة هذه الجيوش بقوله: "ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد وافية المدد وافرة العدد، ونزلت على عين بصة، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصبة"

---

(1) كان فقيهاً فاضلاً، حسن الصوت بالقرآن الكريم، وشديد في السنة. انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 370؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص 70.

(2) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 370.

(3) كان فقيهاً، غازياً ضد الفرنج، توفي بدمشق. انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 370.

وعندما رأى السلطان ذلك المدد أرسل يطلب العساكر للجهاد[1]. وما أن توافدت الجيوش حتى عبأ السلطان عساكره وأنزلها بمرج عكا على تل كيسان وقد امتدت ميمنته إلى تل العياضية والميسرة إلى نهر الماء العذب، حيث دارت هناك رحى الحرب، واستمرت المناوشات لعدة أيام[2]، حتى تجمعت المسلمين وضيقوا الحصار على الأعداء ثم اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء مع الفرنج وقت صلاة الجمعة في أول شعبان من هذه السنة فأحاطت بهم العساكر ثم حملوا عليهم حملة واحدة حتى أوقعوا فيهم كثيراً من الخسائر، ثم عادوا الكرّة في اليوم الثاني حتى تمكنوا من هزيمتهم وإجبارهم على الانسحاب إلى تل المصلبين، فانفتح بذلك طريق عكا أمام المسلمين فدخلوها، وزودوها بالغلال وفكوا عنها الحصار[3].

كان الفقيه حسام الدين طمان[4] أبرز المشاركين في هذه المواجهة إذ أشار ابن شداد أنه شهد هجوم المسلمين على الفرنج بعد فتحهم الطريق إلى عكا عام 585هـ/1189م في الثامن من شعبان عندما صاح السلطان بالعساكر الإسلام "يا للإسلام..." فركب الناس بأجمعهم، ووافق فارسهم راجلهم، وشابهم وشيخهم، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول، فعاد ناكصاً على عقبيه، ثم رأى السلطان انتقال المسلمين لتل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين، مشرف على عكا وخيام العدو. محاولة منه لتوسيع الدائرة عليهم وخروجهم للقتال. وفي هذه

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 184.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 184.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 186؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 106.

(4) هو طمان بن عبد الله، صاحب مدينة الرقة، كان فقيهاً محباً للعلم والعلماء، بنى مدرسة للحنفية بحلب، كان شجاعاً حريصاً على الجهاد، ملازماً للسلطان في غزواته. انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 186؛ أبو شامة، الروضتين ج4، ص64؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 99.

المنزل توفي الفقيه حسام الدين طمان[1]، حيث صلى عليه القاضي بهاء الدين ابن شداد وجماعة من الفقهاء في منتصف شعبان من هذا العام[2]، وقد شهد ابن شداد وهو من المعاصرين لحصار عكا لهذا الفقيه بالشجاعة والبسالة في القتال لقوله "إنه كان من شجعان المسلمين"[3] في حين وصفه العماد الأصفهاني بـ "الحسام الفاضل والهمام الباسل المحترق لحمية الدين"[4]. كما دل على شجاعته وحبه للجهاد أنه كان كارهاً يوم وفاته أن يموت على فراشه دون أن ينال الشهادة فقال لأصحابه: "قدموا حصاني حتى أشهد الحرب واستشهد، وأجاهد إلى أن أقتل وأجهد فإني أرى موتي على الفراش غبناً وقد عرفتم مني شجاعة لا جبناً"[5].

ومن المعارك الأخرى التي شهدت قتالاً حامي الوطيس مع الفرنج أمام عكا، وشهدت حضوراً للعلماء تلك الوقعة التي أطلق عليها ابن شداد اسم المصاف الأعظم على عكا[6]، في حين ذكرها العماد الأصفهاني بالوقعة الكبرى[7]، والتي جرت أحداثها في شعبان من عام 585هـ/ 1189م حيث رتب فيها السلطان عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب بعد أن أدرك تحركات العدو وعزمهم على الحرب، وبرزت مشاركة العلماء في معظم مجرياتها ابتداءً باتخاذ الفقيه عيسى الهكاري، مقدمة القلب، وهي من أكثر المواقع حساسية في المعركة[8].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 188-189؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 108، صبرة، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص 54-55.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 108؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 49.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 108.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 189.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 189.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 109.

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 190.

(8) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 110؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 296؛ صبرة، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص 55.

وقد ابتدأت هذه الوقعة بتحرك العدو على ميمنة المسلمين حتى انكسرت، مما اضطرها إلى الانهزام حتى أن الفرنج تعقبوا فلولهم فبلغوا العياضية، فكانت بذلك كسرة عظيمة، وزاد على ذلك ما كان من صعود طائفة من العدو لخيمة السلطان، وتمكنهم منها حيث استشهد هناك شيخ من حاشية السلطان[1] في بيت الطشت[2] لم يذكر اسمه، إلا أن السلطان تمكن من الإمساك بزمام الأمور، بأن أخذ يطوف على الأطلاب لإنهاض هممهم، وحثهم على الجهاد منادياً "يا للإسلام". حتى تجمعت الرجال وتمكن المسلمون من الإجهاز على عدد كبير من الفرنج، وعاد السلطان مسروراً لخيمته راضياً عما بذله المسلمون في القتال[3]، وبذلك تمكن السلطان لشجاعته ورباطة جأشه، وسرعة خاطره أن يحول الهزيمة المؤكدة إلى نصر مؤزر[4]، حتى بلغ قتلى الفرنج في هذه الوقعة سبعة آلاف قتيل[5].

ومما يدل على حجم مشاركة العلماء في هذه الوقعة استشهاد عدد منهم ذكرت المصادر بعضهم مثل: الشيخ الصوفي إسماعيل الأرموي المكبس[6]، والذي وصفه العماد بسدادة الرأي، والعفة، والترفع عن الشبهات[7]، والفقيه أبو علي بن رواحة[8]. أحد أحفاد الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة – الذي استشهد في غزوة

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 196؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 111.

(2) هي إحدى الوظائف السلطانية التي كان صاحبها يتبع للطشت خاناه السلطانية، إلا أن الطشت خاناه كانت تعرف زمن الأيوبيين ببيت الطشت، وقد سميت كذلك نسبة إلى الطشت الذي تغسل فيه القماش السلطاني والطشت خطأ وصوابها الطست وهي كلمة فارسة الأصل معربة عن تست وهو إناء غسل اليد. قنديل، التعريف بمصطلحات القلقشندي، ص 231.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 111-112؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 53.

(4) قلعجي، صلاح الدين، ص 374.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 112.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 196؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 111.

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 196.

(8) هو جمال الدين الحسين بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الحسين بن رواحة، ولد بحماة ونشأ بها، اشتغل الفقه والحديث حتى وصفه العماد بأنه رجلاً عالماً وفاضلاً، ترك حماة وانتقل لمصر، فكان له

مؤتة- والذي وصفه العماد الأصفهاني بأنه جمع العلم والشجاعة معاً لقوله: "قد أكمل الشجاعة والرجاحة، وهو شاعر مفلق، وفقيه محقق"[1]. وقد ذكر ابن واصل أنه في اليوم الذي استشهد فيه أبو علي رأى في المنام أن رجلاً يحلق رأسه، فقيل له هذه أضغاث أحلام، فما هي إلا ساعة حتى نقل لدار السلام[2]، إذ ذكر العماد أنه كان راكباً على فرسه وقت الوقعة حتى طال وقوفه فقال لمن معه "وقوفنا يطول" فمضى لخيمته وودع من بها ثم علم باندفاع العساكر، فانساق وراءها، فقاتل حتى استشهد[3].

وتستمر قافلة العلماء الشهداء، ويلحق بالركب الفقيه ظهير الدين الهكاري أخو الفقيه ضياء الدين عيسى[4]، الذي استشهد بعد سقوطه عن فرسه أثناء قتاله الفرنج. وقد برزت بشهادة هذا الفقيه فرحة المؤمن وسروره بنيل الشهادة، وتمثل ذلك بموقف أخيه الفقيه عيسى الذي روي عنه بعد استشهاد أخيه وقد بدت عليه آثار الفرح والسرور، والضحك والناس يعزونه بأخيه وهو يقول لهم "هذا يوم الهناء لا يوم العزاء"[5].

أما الفقيه عيسى الهكاري، الذي كان من كبار أمراء عسكر السلطان، وأكثرهم ملازمة له في غزواته، والذي وصف بشجاعته، وحسن بلائه في هذه المعركة وقد ذكره ابن الأثير بقوله: "وهو من أعيان أمراء عسكره، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً جندياً شجاعاً ذا عصبية ومروءة"[6]. لكنه لم ينل فضل الشهادة

بها مكانة عظيمة عند الخليفة العاضد، أسره الفرنج في البحر ثم أطلقوا سراحه، استشهد بعكا. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج10، ص 46. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 301.

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 196؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 58.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 302.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 302.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 191؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 302.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 112؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 54.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 437؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص 102.

في هذه المعركة، بل كانت منيته في الخروبة[1] التي انتقل إليها السلطان بعساكره وأثقاله بعد انتهاء هذه الواقعة خشية على نفسه، وعساكره من روائح قتلى الفرنج[2]، حيث توفي على أثر مرض كان يلازمه في التاسع من ذي القعدة من عام 585هـ/ 1189م[3].

ومن الوقعات الأخرى إلى شهدت مواجهات حقيقية بين الجانبين الفرنجي والإسلامي في عكا ما تعارف المؤرخون على تسميته بوقعة الكمين، إلا أن ابن شداد لم يصرح علانية باشتراك العلماء في هذه الوقعة، لكنه أشار إلى فئة أطلق عليها اسم أولياء الله، وقد جرت أحداث هذه الوقعة بنصب السلطان كميناً للفرنج في سفح تل شمالي عكا بعيداً عن عسكر العدو، حيث نجح في استدراجهم، ثم انقضّ عليهم المسلمون وكان ذلك في شوال من عام 586هـ/ 1190م لقوله "هجموا عليهم هجوم الأسد على فريستها، فثبتوا، وصبروا، وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فتمكن أولياء الله منهم ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى أفنوا منهم جمعاً عظيماً"[4]. كما استشهد دفاعاً عن عكا علماء آخرون منهم القاضي أبو المجد عبد الرحمن بن علي المخزومي[5].

أخذت مسألة سيطرة الفرنج على عسقلان حيزاً واهتماماً بالغين، مما دعا السلطان صلاح الدين للعمل على تخريبها حماية لبيت المقدس وما حولها، وقد

---

(1) هو حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج2، ص 362.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 114.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 116؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 334.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 150-151.

(5) كان محدثاً، وفقيهاً، استشهد بظاهر عكا في جمادي الأولى من عام 586هـ/1190م، ودفن بالقدس، وهو من سلالة القائد خالد بن الوليد. انظر: المنذري، التكملة بوفيات النقلة، ج1، ص 239-240، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مج4، ج1، ص 246.

ساهم الفقيه الحنفي علم الدين الأسفوني[1] مساهمة فاعلة في هذا الجانب حيث عهد له السلطان بمهمة خرابها عام 588هـ/1190م، فسير معه جماعة من النقابيين والحجاريين، وتمكن هو ومن معه من إنجاز المهمة في السابع عشر من شعبان لهذا العام[2]. كما برزت جهوده في العام نفسه في مواجهة مع الفرنج قرب عسقلان أثناء نزوله بظاهرها هو وجماعة من المسلمين بعد رحيل الفرنج عنها، حيث رأى الفرنج بعض الدخان يتطاير من جهتها فلما جاؤوا وجدوا المسلمين هناك فهاجموهم حتى تخلصوا منهم ولم يفقدوا سوى أربعة أفراد، مما دعا العماد الأصفهاني أن يصفها بالنوبة العظيمة[3].

كان لسقوط عكا بيد الفرنجة عام 587هـ/1191م[4] أثره الكبير في تزايد ثقة الفرنج بأنفسهم، واستقوائهم على المسلمين وطمعهم بالسيطرة على المزيد من أراضي المسلمين، فتوجهوا للساحل بجيوشهم، وتمكنوا من حيفا، ثم قيسارية واستطاعوا عبورها بعد مواجهات مع عساكر المسلمين[5]، ثم نزلوا أرسوف في شعبان من العام نفسه حيث وقعت معركة ضارية تكبد فيها المسلمون خسائر فادحة، وتضعضعت فيها عساكرهم[6]، وقد كان لهذه المعركة أثرها على الفرنج إذ بعثت

---

(1) هو قيصر بن أبي قاسم، والمعروف بتعاسيف، ولد بأسفون بمصر عام 564هـ/1168م، كان فقيهاً حنفياً، ومحدثاً عارفاً بالقرآن، عمل مدرساً بالمدرسة النورية بدمشق، وكان عالماً بالرياضيات ومهندساً أيضاً توفي عام 649هـ/1251م، بدمشق انظر: الأدفوي، الطالع السعيد، ص 469-470؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 232.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 235-236.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 342-343.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 355-360.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 176-180؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 313-315.

(6) انظر: الأصفهاني، الفتح القسي، ص 318-319؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 183-185.

الثقة في نفوسهم، وأضعفت معنويات جيش المسلمين[1]، وعلى أثرها بدأوا الاستعداد لاسترجاع بيت المقدس ثانية من المسلمين.

وتكاد أن تكون عملية تحصين المسلمين لبيت المقدس عام 588هـ/ 1191م، تخوفاً من هجوم فرنجي متوقع عليها هي آخر مساهمات العلماء المسلمين في العمليات العسكرية زمن السلطان صلاح الدين في جهاده ضد الفرنج، فبعد تخريبه لعسقلان توجه للرملة لمقاومتهم بعد أن علم أنهم يخططون قصد بيت المقدس، وفي الرملة أمر بتخريب حصنها، ثم توجه لبيت المقدس، وشرع في تحصينها وعمارتها يساعده في ذلك أمراؤه، وعدد من العلماء والفقهاء لقول ابن واصل: "وشرع السلطان في تحصين القدس وعمارة أسواره، وحفر خنادقه، وأرسل إلى البلاد في جمع رجال يقومون بهذه الأعمال، وعمل السلطان فيه بنفسه، بنقل الحجارة هو وأولاده وأجناده ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء"[2].

سادساً: المستشارون العسكريون للسلطان صلاح الدين الأيوبي من العلماء:

رافق السلطان صلاح الدين أثناء رحلته الجهادية ضد الفرنج كثير من العلماء الذين اضطلعوا بأدوار هامة، فبعضهم كان محرضاً على الجهاد، وبعضهم حاملاً للسلاح، في حين خص السلطان عدداً منهم ليكونوا مستشارين له، يلازمونه ويعاضدونه أثناء حروبه، فلا يمكنه الاستغناء عنهم في مجالسه، يأخذ برأيهم ونصائحهم، إن أشكل عليه أمر في قتال الفرنج أو التعامل معهم، والذي يمكن أن تدرج أعمالهم هذه تحت بند المقاومة العسكرية، وقد اشتهر منهم: القاضي بهاء الدين بن شداد، العماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل، وأمير المدينة الشيخ عز الدين أبو الفليتة وغيرهم.

---

(1) البيطار، تاريخ العصر الأيوبي، ص 157، قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص 408.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 375؛ Hillenbrand, The Crusades Islamic perspectives, P. 192

على الرغم من ملازمة الفقيه ابن شداد للسلطان في سنوات عمره الأخيرة إلا أنها كانت أكثرها حسماً، وتأتي أهمية وقوفه إلى جانب السلطان صلاح الدين في هذه الفترة الحرجة لما تخللها من حوادث جسام ونكبات أثقلت كاهل السلطان وعساكره، فكان بحاجة لمن يقوّي عزائمه، ويستشيره فيما يشكل عليه فاتخذه مستشاراً له.

لم يقف ما عرف عن مكانة الفقيه ابن شداد وقربه من السلطان صلاح الدين حائلاً دون مشاركته في ساحات القتال بانت بصورة بارزة خلال حصار الفرنج لعكا عام 585هـ/ 1189م، إذ كان أحد المدافعين عنها لقوله: "وكنت فيمن دخل، ورقي على السور ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور.."[1]. كما برزت مشاركته مرة أخرى في حصار قلعة بغراس عام 584هـ/1188م حيث كان في مقدمة الجيش الفاتح لهذه القلعة على الرغم من منعتها، وحصانتها لقول ابن شداد: "وأنا ممن كان في اليزك[2] في بعض الأيام لرؤية البلد..." ولم يزل يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان.."[3] ولم تكن هذه الحملة استكشافية كما يفهم من بداية الرواية بل شهدت مواجهات حامية تمخض عنها فتح القلعة، وفي هذا تأكيد على مساهمة القاضي أبو شداد في العمليات العسكرية التي خاضها المسلمون ضد الفرنج.

نال ابن شداد ثقة السلطان لكفاءته فعهد إليه القيام ببعض المهام العسكرية الخطيرة كتلك التي كلفه بها عام 588هـ/1192م عندما عزم الفرنج على محاصرة قلعة يافا ومهاجمتها، فأمره بالاستيلاء على تلك القلعة وإخراج من بها من الإفرنج المحصورين قبل أن تأتيهم نجدة من الخارج وتخلصهم، ويعزى إليه أنه كان

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 108؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 49.

(2) اليزك: الجمع أيزك، ومعناها طلائع الجيش. انظر: قنديل، التعريف بمصطلحات القلقشندي، ص 364.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 93-94؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 24.

المحرض للسلطان على أخذها من الفرنج، مما دعا السلطان لاستدعائه حتى ينجز هذه المهمة لقول السلطان له: "لاشك أن النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الإسلام من تمنعهم النزول، والمصلحة أن تسير إلى الملك الظاهر، وتقول له: يقف ظاهر الباب القبلي، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة، وتخرجوا القوم، وتستولوا على القلعة وما فيها من الأموال والأسلحة، وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر وهو خارج البلد.." [1]. فسار ابن شداد ومعه بعض الأمراء، وأمروا الفرنج بالخروج حتى تهيئوا لذلك، وقد كان ابن شداد من المتشددين في مسألة الإسراع بإخراج الفرنج من القلعة حتى تمكن من إخراج سبعة وأربعين منهم، في حين استعصى عليه البعض، بعد أن علموا بقدوم من ينجدهم من الفرنج، وبدأوا بالمقاومة، فما كان من ابن شداد إلا أن نبه الأمراء المرافقين له إلى خطرهم وضرورة الحرص منهم: "خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم"، فما كانت ساعة حتى هجم العسكر على المُحاصرِين بالقلعة، وأخرجوهم، وبعد نجاح ابن شداد في أداء مهمته هذه رجع للسلطان وأخبره بما حدث، ثم طلب منه مددا"[2].

كما شارك ابن شداد السلطان في كثير من قراراته الخطيرة، والمتعلقة بالتكتيك العسكري ضد الفرنج ومنها عزمه على خراب عسقلان عام 587هـ/1191م بعد أن وصل لمسامعه سيرهم نحو يافا بنية عمارتها وشحنها بالرجال والسلاح، فأحضر أهل مشورته وشاورهم في أمرها، أيعمل على خرابها أم لا؟ فكانت أكثر الآراء مؤيدة لخرابها منطلقين في رأيهم هذا من تخوفهم على بيت المقدس في حالة تمكن الفرنج من عسقلان، إذ تصبح الطريق إلى بيت المقدس أكثر يسراً، ولهذا أجمعت الآراء على خرابها لتفويت الفرصة على الفرنج لتحقيق أهدافهم، إلا أن السلطان لم يكن مرتاحاً لقراره، وكان في حيرة من أمره، مما دعاه إلى استدعاء القاضي ابن شداد للأخذ برأيه في أمر خرابها بحضور ولده الملك

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 225.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 225-226.

الأفضل حتى انتهى النقاش بينهما لقول السلطان لابن شداد "والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب إليّ من أهدم فيها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعيّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع؟"[1]. وقد علل جيمس رستون تمسك السلطان بعسقلان لما لها من أهمية كونها مفتاحاً لبيت المقدس من جهة ولما في تخليه عنها من خرق لإمبراطوريته الموحدة التي صنعها، كما فيه إلغاء لإنجازاته السابقة[2].

لعب ابن شداد دوراً هاماً بصفته مستشاراً عسكرياً للسلطان صلاح الدين بحضوره مجالس الحرب التي كان يعقدها السلطان للتشاور مع أمراء جيشه في شؤون القتال، ووضع الخطط العسكرية، ومنها يوم وقعة عكا، وبعد انتقال العساكر لمنطقة الخروبة حيث استحضر السلطان الأمراء وأرباب المشورة[3]، وكان الفقيه ابن شداد في مقدمة الحضور، حيث عرض السلطان لأمرائه تقريراً عن أوضاع جبهة المسلمين في هذه المرحلة، فبيّن لهم أن لوائح النصر قريبة، ولم يبق إلا القليل لأمر الغزاة واقتلاعهم، وبعد انتهائه من كلامه طلب من كل واحد منهم أن يعط رأيه، وما يجب فعله في هذه الظروف الصعبة، فاتفقت آراؤهم على تأخير العسكر في الخروبة بضعة أيام حتى يستريح الجند من القتال، لكثرة تضجرهم من استمرار القتال، فوافقهم السلطان على ذلك[4].

تطلبت وظيفة القاضي بهاء الدين بن شداد كقاضٍ للعسكر ومستشارٍ للسلطان أن يكون قريباً من السلطان وعساكره ومضطلعاً على كثير من التفاصيل المتعلقة بالمواجهات مع الفرنج، وأن يكون مرافقاً للحملات العسكرية ومقيّماً

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 186؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 163.

(2) رستون، مقاتلون في سبيل الله، ص 328.

(3) هم أمراء المئين، كان للسلطان جماعة من كبار المماليك يسمون الأمراء أرباب المشورة ومجلسهم يسمى المشورة أو مجلس السلطنة، وكانوا مقدمي الألوف، وعدة كل منهم مائة فارس. قنديل، التعريف بمصطلحات القلقشندي، ص 43.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 114؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 56؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 303-304.

لنتائجها وآثارها على العساكر، ومبدياً آراءه في كثير منها،و تمثلت مساهمته هذه بتغطية الأحداث العسكرية في الوقعة العادلية عام 586هـ/ 1190م. والتي أحرزت فيها عساكر الملك العادل نجاحاً على الفرنج حيث خرج إلى ساحات القتال لتفقد آثارها وقتلاها لقوله: "وقد خضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم.."[1].

ومن المستشارين الآخرين الذين كان لهم مساهماتهم في العمليات العسكرية ضد الفرنج الفقيه العماد الأصفهاني كاتب السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كان بحكم عمله بديوان الإنشاء ملازماً للسلطان في حروبه، ومضطلعاً على كثير من تفاصيلها، إذ لم ينقطع عن أي غزوة من غزواته، إلا في وقعة الرملة[2]، ولكن ملازمته للسلطان لم يترتب عليها مشاركته بحمل السلاح، بل اقتصرت مشاركته بقلمه وليس بسيفه[3]. إذ لم تشر المصادر أن السلطان أسند إليه أيا من المهام العسكرية كغيره من العلماء، كقيادة عساكر أو غيره، كتلك التي عهد بها لابن شداد بل اقتصرت مساهماته أثناء العمليات العسكرية على التغطية الشاملة لأحداثها كاملة ورصده لتحركاتها باتخاذه أحد المواقع الحساسة في المعركة، ولقيامه برصد أحداثها، وتسجيلها لقوله يوم حصار حلب: "وضربتُ خيمتيٍ عن يمينها على العادة في البستان. وكان لي خيمة فويق نهر قُويق مضروبة، وهي محجبة عمن يشغلني عن مهام الخدمة محجوبة..."[4].

أما القاضي الفاضل فقد كان هو الآخر أكثر العلماء قرباً من السلطان صلاح الدين، واعتماداً عليه، ومرافقة له في كثير من حروبه مع الفرنج[5]. فلم

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 130؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 84.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 32.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 32.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 116.

(5) انظر: مرافقة القاضي الفاضل للسلطان عند فتح حلب، وحصار الكرك عام 580هـ/1184م؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 104، ص 131-133.

يتخذ السلطان أمراً إلا بعد استشارته، وقد كانت مراسلتهما شاهداً على دوره؛ ومما يدلل على مساهمته العسكرية كمستشار للسلطان صلاح الدين في حروبه ما أشار إليه ابن واصل في عام 584هـ/ 1188م بعد أن عزم السلطان على الخروج للغزاة قام بزيارة القاضي الفاضل للأخذ برأيه في خططه المستقبلية ضد الأعداء لقوله: "فاستضاء برأيه فيما يريد أن يفعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه..."[1]. وقد أبرز أبو شامة الدور الفاعل الذي لعبه القاضي الفاضل بتجهيز العساكر، وإمدادها بالأقوات والأموال والأسلحة، وتسييرها لعكا أثناء حصارها عام 586هـ/ 1190م، لقوله: "كان القاضي الفاضل رحمه الله في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره في تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته.. مشيراً وناصحاً ومسلياً، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً"[2]. وأضيف إلى أعمال القاضي الفاضل هذه كلها أنه كان له اليد الطولى في فكاك أسرى المسلمين من الفرنج حتى أنه أوقف داراً تدعى دار التمر لفكاك الأسرى"[3].

برز دور العلماء أثناء حصار السلطان لمدينة صور من خلال حضهم له على الاستمرار في مقاومة الفرنج، وكانت آراؤهم موضع تقدير السلطان واهتمامه، فبعد نزولهم لصور ومحاصرتهم لها، أظهر الفرنج تفوقاً على المسلمين، فتمكنوا منهم، وأخذوا خمسة من الشواني[4]، وأسروا مقدمها، فكان لذلك وقع سيئ في نفوس الأمراء، والجند، وخاصة ما عانوه من طول الحصار والضجر والملل، وقلة الأقوات، والأموال والخوف على الرجال من الفناء، وأضيف إليها برد الشتاء، مما

---

(1) ابن واصل، مفرّج الكروب، ج2، ص 255.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 101.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص 78-79.

(4) جمع شيني أو شينية وهي سفن حربية كبيرة وتجمع شون. انظر: قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 207.

دعاهم للمطالبة بالرحيل، وفي هذه الأثناء عارض هذه الاقتراحات عدد من العلماء منهم الفقيه عيسى الهكاري، وحسام الدين طمان، الذين أشاروا عليه بلزوم الثبات للفتح، فما كان من السلطان إلا أن استجاب لآرائهم لكنه عاد وأجبر على الرحيل بعد ما شاهده من تخاذل العساكر وتقاعسهم عن القتال[1].

ومن الشخصيات المهمة التي ذاع صيتها أثناء حروب السلطان صلاح الدين ضد الفرنج، والذي اشتهر بملازمته لهفي فتوحاته والأخذ برأيه[2]، في كثير من المسائل المتعلقة بمقاومة الفرنج أمير المدينة المنورة الشيخ عز الدين أبو فليته الحسيني لقول العماد: وسار ساراً سره باراً بأرباب الدين بره، وكان أمير المدينة المنورة صلوات الله على ساكنها في موكبه فكأن رسول الله ﷺ سير للفقير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته، مأثور المآثر ميمون الصحبة مأمون المحبة، مشاركاً في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولا أشرف مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايراً"[3]. وكثيراً ما كان السلطان صلاح الدين يشاوره، ويحاوره لقول العماد: "ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما" وكان ذلك عند فتح السلطان لعكا عام 583هـ/ 1187م[4]. ومما يدل على أهمية الدور الذي كان لهذا الشيخ في غزوات السلطان أنه إذا غاب عنه استوحش لقول العماد الأصفهاني أثناء توجه السلطان لفتح قلعة حماة عام 584هـ/ 1188م، "وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحباً، وعلى معاضدته مواظباً،... وكان بجنب السلطان جالساً"[5].

---

(1) عن حصار صور عام 583هـ/1187م. انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 99-108.

(2) ذكر ابن الأثير أن السلطان كان عاكف على ملازمته، والاسترشاد برأيه، ودائم التبرك به والتيمن بصحبته، والرجوع إليه في أقواله، الكامل، ج9، ص 420؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص 100.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 63؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 199.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 63.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 27.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

سابعاً: مقاومة العلماء للفرنج زمن الملك العادل بن نجم الدين:

استمرت المواجهات بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلا أنها كانت متقطعة، وأقل حدة من ذي قبل، فقد باغت الفرنج حماة عام 601هـ/1204م بعد انتهاء هدنتهم المعقودة مع الملك المنصور بن تقي الدين، فعاثوا فساداً بالقتل والنهب والسبي[1]، ثم اتجهوا إلى ضيعة على باب حماة تدعى الرُقيطا فخرج إليهم الملك المنصور تقي الدين صاحب حماة وتصدى لهم، ومعه خلق عظيم من أهلها، فثبت الملك المنصور وأبلى بلاءً حسناً، وتخندق أهلها في خنادقهم، إلا أن الدائرة دارت عليهم فكسرهم الفرنج، وأكثروا فيهم السبي[2]، وكان من بينهم الفقيه شهاب الدين البلاّعي[3]، الذي أظهر شجاعة فائقة في مقاومتهم، حتى وقع عن ظهر فرسه فأخذه الفرنج أسيراً، وحملوه إلى طرابلس، فبات بها ليلة واحدة، ثم تمكن من الهرب والرجوع لبلاده[4]، وقد كان لموقف هذا الفقيه في التصدي للفرنج أثرٌ كبير في الحفاظ على المسلمين لقول أبي شامة: "لولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحداً"[5].

كما برزت زمن الملك العادل مساهمة علماء آخرين في التصدي للفرنج ومقاومتهم منهم الشيخ عبد الله اليونيني الملقب بأسد الشام[6]. الذي وصف بشجاعته

---

(1) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص44؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 163.

(2) أبو شامة، الذيل، ص 77؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 163؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 166.

(3) أحمد بن شداد من قرية تدعى البلاعة بحماة كان فقيهاً، وشجاعاً، تزيا بزي العلماء ثم خلعها وتزيا بزي الجند، تولى ولاية حماة ثم سلمية. انظر: أبو شامة، الذيل، ص 77؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 163؛ أبو الفداء، المختصر، ج5، ص 138.

(4) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص 44؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 163.

(5) الذيل، ص 77.

(6) أصله من إحدى قرى بعلبك يقال لها يونين، كان له زاوية يقصدها الناس للزيارة، صاحب كرامات، ورياضات، ومجاهدات ويعد من كبار الصالحين والعباد والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، توفي عام

وعدم انقطاعه عن غزوات أهل الشام لقول سبط ابن الجوزي وكان قوسه ثمانين رطلاً، وما فاته غزاة بالشام قط، وكان يتمنى الشهادة، ويلقى بنفسه في المهالك[1]، وقد أورد أبو شامة حكايات عجيبة في شجاعته، وعدم خوفه من الفرنج أثناء القتال، إذ لم يكن يبالي قل عدد الفرنج أو كثر[2].

سطع نجم الشيخ اليونيني في الجهاد على أثر دخول الملك العادل لبلاد الفرنج، حيث كان نزوله صافيتا والعزيمة، فما أن علم الشيخ بنزوله حتى خرج من زاويته مسرعاً وحمل سيفه، وامتطى فرسه وتوجه نحو حصن الأكراد[3]، حيث ظهر له الفرنج فأشهر سيفه وقال: "الله أكبر ما أبركك من يوم، اليوم أمضي إلى صاحبي، وساق إليهم، وقد تعجب خادمه من شجاعته حتى قال في نفسه شيخ وتحته بغلة وبيده سيف يتوق إلى طلب الفرنج، فما هي إلا ساعة حتى دخل مع الفرنج في قتال، فعل فيه العجائب[4].

وشارك في هذه الفترة علماء آخرون منهم الشيخ أبو الفرج المقدسي ابن الشيخ أبي عمر[5]، الذي شهد كثيراً من الغزوات ضد الفرنج منها نوبة صفد، ونوبة الشقيف، وحصن الأكراد[6].

617هـ/1220م. انظر: أبو شامة، الذيل، ص 191-192؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 93؛ P. 142 .Sivan. L' Islam Et la Corisaide

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 615؛ أبو شامة، الذيل، ص 191-192.

(2) أبو شامة، الذيل، ص 191-192.

(3) حصن منيع حصين يقع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين بعلبكّ وحمص، وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعةً للوقوف على غارات الفرنج ثم قاموا بتحصينه حتى أصبح قلعة حصينة. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج2، ص 264.

(4) أبو شامة، الذيل، ص 191-192.

(5) عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة، كان محدثاً وفقيهاً وقاضياً للقضاة، توفي عام 682هـ/1283م. انظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 420-421.

(6) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج6، ص 420-421.

ثامناً: الدور العسكري للعلماء في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط عام 615هـ/ 1218م:

كان لتولي الملك جان دي برين السلطة في بيت المقدس بزواجه من الملكة ماري الوريثة الشرعية للملكة إيزابيل ملكة بيت المقدس دور كبير في تأجيج الصراع مع المسلمين، والتحريض على إرسال حملة جديدة للمشرق الإسلامي تحسباً من تحركات الأيوبيين ومخططاتهم في مملكة بيت المقدس، وخاصة بعد قيامهم ببناء حصن منيع على جبل الطور، وشحنه بالرجال والذخائر[1]، وقد تبنى مشروع هذه الحملة التي دعيت بالحملة الصليبية الخامسة البابا إنوسنت الثالث، ومن بعده الباب هورنوريوس الثالث سعياً لتعويض الخسارة التي حلت بهم من الحملة الصليبية الرابعة التي كانت وجهتها القسطنطينية[2].

وصلت مراكب الحملة الصليبية الخامسة إلى المشرق الإسلامي عام 615هـ/ 1218م وكان أول نزول لها في عكا وتبعها زحف إلى مدن الشام، ثم عادوا وحولوا أنظارهم نحو مصر، وتمكنوا في ربيع الأول من العام نفسه من النزول على برجيزة دمياط، حتى صار النيل بينهم وبين البلد فبنوا أسواراً وخنادق، وشرعوا في قتال أهل دمياط[3]، ثم بدأوا بالاستعداد لعبور دمياط التي لم يكن أمر العبور إليها سهلاً؛ لما تتمتع به من حصانة فائقة، بفضل برجها المنيع في وسط النيل والمكوّن من سلاسل حديد تمتد به من النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر[4]. وقد وصف أبو شامة هذا البرج بقوله "إنه برج

---

(1) الشيخ، عصر الحروب الصليبية، ص 445-449؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 237-240، يرد اسم الملك جان دي برين عند المؤرخ رنسمان تحت اسم يوحنا بريين.

(2) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 259-260، Holt, The Age Of the Crusades, P. 63.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 186-187.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 654؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 186-187.

عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه" وفـــي ناحيتـــه سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى الجيزة، فتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إن أريد ذلـــك حـــين قتـــال العـــدو[1]، وزاد (رنسمان) على ذلك بأن دمياط محمية من الخلف ببحيرة تدعى المنزلة، وإذا تحقق الهجوم عليها لا يتم إلا بمهاجمتها براً وبحراً"[2]. وقد حاول الفرنج الزحـــف نحـــو برج السلسلة، إلا أن الملك الكامل تصدى لهم، وأحبط محاولاتهم بعد نزوله بناحية تدعى العادلية القريبة من دمياط، حيث بدأ بمقاتلتهم، إلا أنهم ألحّوا في عبور البرج حتى تمكنوا منه بعد أربعة أشهر متواصلة من الحصار[3].

قام الملك الكامل بالتصدي للفرنج بعد نجاحهم في اجتيـــاز بـــرج السلـــسلة فوضع جسراً عظيماً لمنع سفنهم من العبور، ولكنهم قاتلوا حتى تمكنوا منـــه، ثـــم وضع أمامهم عوائق أخرى، وعندما استعصى عليهم العبور قصدوا خليجـــاً قـــديماً للنيل كانت تجري فيه المياه يدعى بؤرة فحفروه، وأنزلوا مراكبهم فيه حتى دخلـــوا جيزة دمياط، وقابلوا الملك الكامل، لكنهم لم ينالوا منه شيئاً[4]، إلا أن وفـــاة الملـــك العادل كانت سبباً في احتلال الفرنج للعادلية على أثر التمرّد الذي حصل من بعض أمراء الجيش، فترك الملك الكامل العادلية إلى أشمون طناح[5]، مما أدى إلى انقسام العساكر على أنفسها وتفرقها، فركب كل واحد منهم هـــواه[6]، فتركـــوا أســـلحتهم، وغادروا العادلية ولحقوا بالكامل حتى خلا مكانهم من العسكر مما ســـاعد الفـــرنج

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص 166.

(2) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 270.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 16-17؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 188-190.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 16؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 199.

(5) هي بلدة بمصر قرب دمياط وهي مدينة الدقهلية. انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج1، ص 200.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 654؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 16-17.

على عبور النيل إلى بر دمياط دون قتال وذلك في ذي القعدة من عام 615هـ/1219م[1].

قوي أمر الفرنج بعد وصولهم لدمياط، فأحاطوا بها براً وبحراً وحاصروها، وبدأوا بالتضييق عليها، ومع ذلك فقد قاومهم المسلمون، وصبروا على الحصار الذي فرضه الفرنج عليهم حتى دخل عام 616هـ/ 1219م، فضاق الحال بأهل دمياط حتى عجزوا عن حفظ المدينة، فتمكن الفرنج منها في رمضان من العام نفسه[2]، وقد أسرف الفرنج في قتل المسلمين عند أخذهم المدينة حتى عبّر المقريزي عن ذلك بأنه لم يُعرف عدد من قتل لكثرتهم[3].

قام الملك الكامل على أثرها ببناء مدينة على النيل عرفت بالمنصورة (على رأس بحر أشموم ورأس بحر دمياط) فأنزل عساكره بها[4]، وبدأت استعدادات الطرفين للمواجهة حيث أظهر الفرنج استعداداتهم، فنزلوا تجاه المنصورة، ومعهم مائتي ألف رجل، وعشرة آلاف فارس، وقدّم الكامل الشواني صوب المنصورة، وأظهر الفرنج نيه الزحف نحو مصر والقاهرة، وفي هذه الأثناء برز دور الفقيه تقي الدين طاهر المحلي الذي قام بإخراج الناس من مصر والقاهرة، والدعوة إلى النفير العام، وكان يساعده في ذلك الأمير حسام الدين يونس، حتى اجتمع الناس من مصر والقاهرة وسائر النواحي[5].

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 16-17؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 196؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 221.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 19-33.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 199-200.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 33.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 201-202؛ صبرة، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص 66.

اكتملت استعدادات المسلمين، وأنزل الملك الكامل ألفي فارس على ناحية شار مساح[1]، ليحولوا بين الفرنج ودمياط، وسارت الشواني، وتصادف ذلك مع قدوم النجدات للملك الكامل من الشام، فكثر عدد المسلمين حتى بلغوا أربعين ألفاً، فحاربوا الفرنج براً وبحراً فاحتجزوا عدداً من شواني الفرنج، وأسروا ألفين ومائتي رجل منهم، ثم ظفروا بثلاثة قطائع حتى ساءت أحوالهم، وقد عبّر المقريزي عن ذلك بقوله: "فتضعضع وضع الفرنج بذلك، وضاق بهم المقام، وبعثوا يسألون الصلح.."[2]. وقد استمرت الحرب بين المسلمين والفرنج حتى نهاية عام 617هـ/1220م[3].

وقد لمعت في سماء دمياط كوكبة من العلماء الذين تصدوا للفرنج وعلى رأسهم الفقيه المالكي جلال الدين الجذامي المشهور بابن شاس[4]، الذي استشهد في رجب عام 616هـ/1219م، أثناء محاصرة الفرنج لدمياط لقول ابن خلكان: توجه لثغر دمياط لما أخذها العدو بنية الجهاد فاستشهد هناك.."[5] كما استشهد أثناء الحصار كل من المحدث أبو التُّقي الشارعي[6]، الذي اختلف في تاريخ وفاته ومكانها، ففي الوقت الذي ذكر الذهبي أنها كانت عام 616هـ/1219م بثغر دمياط

---

(1) قرية الدقهلية الحالية، تقع على فرع دمياط، بينها وبين دمياط خمسة فراسخ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص 232.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 202-203.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 205.

(4) عبد الله بن محمد، كان فقيهاً عارفاً بالمذهب، اشتهر بغزارة علمه، عمل مدرساً بمصر، وكان شيخاً للمالكية، بمصر. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 61؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 611-620هـ، ص 296-297؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 378.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 61.

(6) صالح بن أبي الحرم مكي بن عثمان، كان راوية للحديث. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص 272-273؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 611-620، ص 292.

أثناء الحصار[1]، أشار الصفدي أنها كانت بالمحلة[2] عام 617هـ/1220م[3]. كما استشهد أثناء قتال الفرنج بدمياط القاضي أبو عبد الله المصري قاضي طوس المعروف بابن أبي صادق[4]، الذي توفي بالمعسكر ظاهر دمياط[5]. وكذلك الكاتب والمحدث الرئيس تاج الدين أبو الحسين[6]. كما شارك علماء مقادسة في القتال بدمياط ومنهم الفقيه والمحدث عبد الله بن عبد الغني (ت629هـ/1231م) الملقب بجمال الدين إذ ذكر ابن رجب الحنبلي أنه قدم من الشام إلى مصر للمشاركة في الجهاد ضد الفرنج المحاصرين لدمياط[7].

لقد كان عام 618هـ/1221م عاماً حاسماً بالنسبة للحملة الصليبية الخامسة على دمياط، وبقيت جذوة الحرب مشتعلة بين المسلمين والفرنج، إلا أن عزائم الفرنج قويت في هذا العام لكثرة النجدات التي وصلت إليهم، وكذلك حال الملك الكامل فقد وصلته نجدات من أخويه الأشرف، والمعظم، ومن صاحب حماة وحمص وبعلبك، فتقاتل الفريقان براً وبحراً، وقويت عساكر المسلمين على الفرنج، ومع ذلك فقد بقيت رسائل الصلح مترددة بين الجانبين[8].

---

(1) تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات، 611-620هـ، ص 292.

(2) المحلة، مدينة مشهورة بالديار المصرية، وهي عدة مواضع. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج5، ص 63.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص 272-273.

(4) محمد بن إسماعيل، كان محدثاً، استشهد في ذي الحجة عام 616هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص 217-218؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 611-620هـ، ص 315.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص 217-218.

(6) يحيى بن منصور بن الجراح، عمل بديوان الإنشاء بمصر، قاعات محدثاً، توفي في شعبان أثناء حصار دمياط عام 616هـ/1219م، وعمره خمسة وسبعون سنة. الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 611-620هـ، ص 327.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 92-96؛ أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 26-27.

(8) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص 92؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 93-95؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 206.

تقدّم المسلون على الفرنج بعرض يضمن تنازلهم عن القدس ومدن شامية أخرى مقابل تسليم دمياط، إلا أن الفرنج امتنعوا عن ذلك وطلبوا عوضاً عن خراب أسوار القدس، فرفض المسلمون ذلك[1]. ويرجع (رنسمان) سبب رفض الكاردينال بيلاجيوس قائد الحملة لهذه العروض لما كان ينتابه من شعور بقوة جبهته، وما تنامى إليه من وصول إمدادات عسكرية وخاصة نبأ وصول لويس دوق بافاريا[2].

أدى رفض الفرنج للتنازلات التي قدمها المسلمون إلى استمرار القتال حتى عبرت طائفة من المسلمين إلى مواقع الفرنج، وفتحوا مكاناً عظيماً في النيل، وكان فيه زيادة، فغرق أكثر الفرنج، وصار الماء حائلاً بينهم وبين دمياط، ولم يكن أمامهم جهة يسلكونها إلا طريقاً واحدة ضيقة، فقام الكامل بسدها فانحصروا من جميع الجهات، وبدأت عساكر المسلمين بمناوشتهم، فلم يتمكنوا من مغادرة أراضي دمياط لكثرة الوحل والمياه وشدة الحصار، عندها راسلوا الملك الكامل يطلبون منه الأمان، وتسليم دمياط بغير عوض وشروط واتفقوا على الجلاء عن دمياط وتسليمها للمسلمين في شهر رجب من عام 618هـ/1221م[3].

تاسعاً: الدور العسكري لأبناء شيخ الشيوخ:

تنوّعت مساهمات أولاد شيخ الشيوخ صدر الدين محمد أثناء فترة الغزو الفرنجي لمصر وبلاد الشام، إلا أن مساهمتهم في الجانب السياسي والعسكري كانت

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 92-95؛ أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 26-27؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 207-208.

(2) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 295-296.

(3) أبو شامة، الذيل، ص 196؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 96-99؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 207-209، زيادة، محمد، (1962). حملة لويس التاسع على مصر، مجلة العربي، الكويت، ع(45)، ص 47.

أكثر وضوحاً، وقد كان لمعين الدين بن الشيخ[1]، دور كبير في حصار دمشق عام 642هـ/ 1244م على أثر الوقعة التي حدثت بين الخوارزمية وعساكر الملك الصالح نجم الدين صاحب مصر من جهة، والصالح إسماعيل صاحب دمشق، والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص يساندهم جيش الفرنج حيث كان لقاؤهما في أريحا، وكانت عساكر الفرنج في الميمنة في حين عساكر الملك الناصر في الميسرة، وكانت جيوش المسلمين تتبع جيش الفرنج لقول سبط ابن الجوزي " وساق صاحب حمص وعسكر دمشق تحت أعلام الفرنج، وعلى رؤوسهم الصلبان". وقد كسر الفرنج في هذه الوقعة[2].

على أثر هزيمة الفرنج ومن معهم من جيوش الشام جهز الصالح نجم الدين أيوب الأمير معين الدين بن الشيخ وأمره بحصار دمشق، فتقدّم بعساكره، وكتب إلى ملوك الخوارزمية للسير معه، فساروا إلى دمشق وحاصروها حصاراً شديداً[3]، وقد استمر حصاره لدمشق لعدة أشهر حيث نصبت المنجنيقات، وتقاتل الفريقان حتى أرسل الصالح إسماعيل لمعين الدين سجادة، وعكازاً وإبريقاً وقال له: "اشتغالك بها أولى من اشتغالك بقتل الملوك"[4] تقليلاً من شأنه وإشارة إلى أن الحرب ليس من اختصاصه لأنه من العلماء الصوفية ورجال الدين، إلا أنهم اتفقوا على تسليم دمشق والقلعة لمعين الدين، على أن يكون للملك الصالح إسماعيل ما كان له أصلاً كبعلبك، وبصرى[5].

---

(1) هو معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين، كان وزيراً للملك الصالح نجم الدين أيوب، توفى عام 643هـ/1245م بدمشق. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص 171.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص745-746؛ ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 152-153؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 164-165.

(3) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 153؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 165.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 752؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 166.

(5) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 153؛ زيان، العلماء بين الحرب والسياسة، ص 42-43.

برز عالم آخر من أولاد الشيوخ، وهو الأمير فخر الدين يوسف الذي خرج عن نطاق التدريس والعلوم الدينية والحياة العلمية إلى المشاركة في مضمار الحكم والسياسة[1]، فقد عهد إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب مهمة الاستيلاء على عسقلان وطبرية من الفرنج عام 645هـ/ 1247م، فجّهزه وجرّد معه العساكر وأمره بالمسير، فنزل عسقلان وفتحها بعد حصار شديد لها، ثم خرّبها ورحل بعدها لفتح طبرية حتى تم له ذلك[2].

عاشراً: مشاركة العلماء في الحملة الصليبية السابعة على دمياط (647-648هـ) (1249-1250م) (حملة لويس التاسع):

بعد انقضاء تسعة وعشرين عاماً على انتهاء الحملة الصليبية الخامسة على مصر عاد الفرنج ثانية إليها عام 647هـ/1249م بقيادة الملك ريدا فرنس الذي كان يقال له الفرنسيس[3]، والمعروف بالملك لويس التاسع، والذي اشتهرت الحملة باسمه[4]. وفور سماع الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ملك مصر بقدوم الفرنج نزل بأشموم طناح وبدأ بتحصين دمياط للتصدي لهذه الحملة، فأمر الأمير حسام الدين بن أبي علي بتجهيز الشواني، وعهد للأمير فخر الدين يوسف – أحد علماء أسرة شيح الشيوخ – بتولي قيادة الجيش والنزول بالعساكر إلى جيزة دمياط لمقابلة

---

(1) زيان، العلماء بين الحرب والسياسة، ص 47، Gottschalk, Awlad Al Shaykh, EI, P. 766.

(2) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 173؛ أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 79؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 79. انفرد المقريزي بالقول أن فتح هذه المدن تم في عام 644هـ/1146م. انظر: المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 327.

(3) هو لويس بن لويس، وريّدا فرنس هو لقب بلغة الفرنج ومعناه ملك افرنس، وكان من أجل ملوك الفرنج وأعظمهم قدراً، أسره الملك المعظم تورا نشاه ثم أطلق سراحه بعد تسليم دمياط. انظر: الكتبي، فوات بالوفيات، ج1، ص 231؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 333.

(4) جوانفيل، القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ص 5؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 439.

الفرنج، فنزل حتى صار النيل بينه وبينهم[1]، ولعل في إسناد هذه المهمة للأمير فخر الدين دليل واضح على مساهماته في القتال ضد الفرنج.

اغتر الفرنج بكثرة أساطيلهم، فحاولوا ثني الملك الصالح نجم الدين عن المقاومة، فأرسلوا له رسالة يخوفونه فيها، إلا أنه أرسل لهم رداً بقلم القاضي بهاء الدين زهير بن محمد[2]، يتهددهم فيه لقوله: "فنحن أرباب السُّيوف وما قتل منا قِرْن إلاّ جّددناه، ولا بغى علينا باغٍ إلا دَمرناه". "كم من فئةٍ قليلة غلبت فئةً كثيرة، بإذن الله، والله مع الصَّابرين"*[3]. وعلى أثر ذلك نزل الفرنج إلى البر الذي يعسكر فيه المسلمون فناوشهم المسلمون وقاتلوهم، واستشهد يومئذٍ الأمير نجم الدين يوسف بن شيخ الإسلام[4]، والأمير صارم الدين إزْبَك الوزيري[5].

قام الأمير فخر الدين يوسف بالرحيل مع عساكره إلى الجانب الشرقي الذي تقع فيه دمياط، يريد بذلك اشموم طناح، فخلا بعمله هذا البر الغربي من عساكر المسلمين، وتبعه أهل دمياط، حتى خلت دمياط كلها من أهلها فدخلها الفرنج واستولوا عليها دون قتال[6]، وقد أُخذ هذا الانسحاب على الأمير فخر الدين حتى عُد سبباً لهزيمة المسلمين في دمياط لقول المقريزي "فَعدت هذِه الفعلة من الأمير

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 333. انظر: وصف جوانفيل لمكانة هذا الشيخ وشجاعته، جوانفيل، القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ص 108.

(2) كان عالماً فاضلاً وبارعاً في البديع والإنشاء، وزيراً متنفذاً زمن الملك العادل والكامل، والصالح نجم الدين أيوب؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص 255.

* سورة البقرة، آية 249.

(3) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 185-186؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 334-335.

(4) كان من أشهر الأمراء الصالحية، مكث فترة عند صاحب الكرك. انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 641-650هـ، ص 370؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 335، المواعظ، مج1، ص 597.

(5) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 186؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 335.

(6) أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 186؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 335-336. زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، ص 49؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 232.

فخر الدين من أقبح ما يُشنع به"[1]. وقد أحكم الفرنج على المدينة واستولوا على أسلحتها وذخائرها[2]، وعندما التقت العساكر المنسحبة بالملك الصالح بأشموم طناح أنّبهم لما قاموا به، وخاصة الأمراء الكنانيين حتى أنه أمر بشنقهم جميعاً، كما وبخ الأمير فخر الدين بقوله: "أما قدرتم تقفون بين يدي الفرنج لما دخلوا إلى دمياط، وما قتل من العسكر، إلا هذا الضعيف" يقصد الشيخ نجم الدين (سابق الذكر)[3] وعلى الرغم مما نسبه المقريزي للأمير فخر الدين يوسف من تحميله هزيمة المسلمين إلا أن (جوانفيل) Joinville وهو مؤرخ الحملة الصليبية السابعة على دمياط، رأى في الخطة التي نفذها الشيخ فخر الدين ضرراً كثيراً بالفرنج حتى أنها كبدتهم خسائر بشرية كبيرة بإشغالهم في سوق المدينة[4].

جاءت وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة في ظروف سياسية صعبة للغاية، إلا أنه أخذ العهد قبل وفاته على الأمير فخر الدين يوسف، والأمير محسن الطواشي بالملك لولده الملك المعظم تورانشاة الذي كان مقيماً في حصن كيفاً. وفي ظل هذه الظروف الحرجة برزت شخصية الأمير فخر الدين حيث أسندت إليه مهمة تدبير المملكة لحين حضور ولي العهد[5].

استغل الفرنج وفاة الملك الصالح لتسير دفة القتال لصالحهم، فخرجوا من دمياط بفارسهم وراجلهم وشوانيهم، وبدأوا بالاستعداد للمواجهة، وكذلك حال المسلمين فقد أظهروا رغبة واضحة في الجهاد لقول المقريزي "ارتجت القاهرة ومصر لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحي لجهاد

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 335.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 336

(3) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 189؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 336.

(4) القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ص 96؛ صبرة، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص 75.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 339-345.

الفرنج عالم عظيم، واشتد كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأخذهم البلاد"[1].

إلا أن الفرنج أظهروا تقدماً عسكرياً عند نزولهم شارْ مِسَاح واقترابهم من المسلمين في المنصورة، حيث كان معظم جيش المسلمين قد غادرها للبر الشرقي، فأنزل الفرنج شوانيهم في بحر النيل، في حين كانت شواني المسلمين بإزاء المنصورة، فوقع القتال براً وبحراً، إلا أن المسلمين استبسلوا في اسر الفرنج وقتالهم في البحر بحيل كثيرة حتى كان النصر إلى جانبهم[2].

استمرت المناوشات بين الجيشين الإسلامي والفرنجي حتى تمكن الفرنج من اجتياح عسكر المسلمين بعد خيانة أحد المنافقين في العسكر الإسلامي[3]، في حين أشار جوانفيل أن بدوياً دلهم على مخاضة توصلهم إلى المنصورة دون علم المسلمين مقابل مبلغاً من النقود[4]، فهاجموا معسكر المسلمين مباغتة؛ مما أدى إلى إيقاع الهزيمة بمعسكر المسلمين، وقد تفاجأ الأمير فخر الدين يوسف بنزول الفرنج فخرج لقتالهم مذعوراً، وبقي يقاتلهم وحده بعد تخلي مماليكه عنه حتى استشهد على يد أحد رجال الداوية لقول المقريزي: "وكان الأمير فخر الدين في الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر، فخرج مدهوشاً، وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب، فلقيه طلب الفرنج الداوية وحملوا عليه، ففر من كان معه، وتركوه وهو يدافع عن نفسه، فطعنه واحد برمح في جنبه، واعتورته السيوف من كل ناحية، فمات..." وذلك في ذي القعدة من عام 647هـ/ 1249م[5].

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 347.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 347-348.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 349؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 234.

(4) جوانفيل، القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ص 113؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 458.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 349؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 321، زيان، العلماء بين الحرب والسياسة، ص 86. انظر: Poole, Ahistory of Egypt, P. 235.

وقد مثل استشهاد هذا العالم على يد الفرنج صورة مضيئة لجهاد العلمـــاء، وما وصلوا إليه من منزلة رفيعة في تدبير أمر الجيش، والتخطيط والمقاومة، وكان شاهداً على دور أسرة شيخ الشيوخ التي جمعت بين فنون العلم والقتال لقول أبـــي الفداء عنهم: "إن كل منهم حاز فضيلتي السيف والقلم، فكانوا يباشرون التـــدريس، ويتقدمون على الجيش"[1].

ترك استشهاد الأمير فخر الدين يوسف أثره في معنويات الجنـــد، فـــاقتحم الفرنج المنصورة وقصدوا قصر السلطان حتى تفرق الناس وانهزموا، وكـــادت أن تحدث كسرة المسلمين لولا ما أبداه المماليك البحرية من ثبات وشجاعة فائقة فـــي قتال الفرنج، وذلك باتخاذهم مواقع حصينة بداخل المدينـــة بـــشوارعها وأزقتهـــا، بوضعهم الكمائن لهم، وانقضوا عليهم بعد دخولهم المدينة حتى بلغ عدد قتلى الفرنج في هذه الوقعة ألف وخمسمائة فارس بالإضافة لعدد كبير من الداوية[2].

أما فيما يتعلق بمشاركة العلماء في التصدي لهـــذه الحملـــة، فقـــد بـــرزت واضحة بحضور عدد كبير منهم لحصار دمياط أو الوقـــائع التـــي جـــرت أثنـــاء الحصار، وبعده، دل على ذلك استشهاد عدد كبير منهم على ثغـــر دميـــاط وفـــي المنصورة، فبالإضافة للجهود المضنية التي بذلها الأمير فخر الـــدين يوســـف فـــي التصدي للفرنج برز علماء آخرون كالشيخ ضياء الدين الصويتي صـــاحب ديـــوان الجيش[3]، الذي استشهد دفاعاً عن دمياط بعد أن طعنه أحد الفـــرنج بالمنـــصورة،

---

(1) أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 63.

(2) أبو شامة، الذيل، ص 283؛ المقريـــزي، الـــسلوك، ج1، ق2، ص 350-351؛ رنـــسمان، تـــاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 460، زيادة، حملة لويس التاســـع علـــى مـــصر، ص 50؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 236.

(3) هو القاضي أبو الحسين محمد بن إسماعيل بن أبي الحجاج، كان أديبـــاً وكاتبـــاً ومحـــدثاً. انظـــر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص 218-219؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيـــات، 641-650هـــ، ص 367-368.

فحمل إلى القاهرة، وتوفي بسمنهود عام 647هـ/1249م[1]، وبرز الشيخ أبو الحسن الدمياطي[2] الذي وقع أسيراً بيد الفرنج عند استيلائهم على دمياط[3]، والعالم أبو إسحاق الدمياطي[4]، الذي جمع إلى جانب علمه بالحديث علمه بالهندسة، وفنون الحرب حتى عرف بابن بقاء المنجنيقي وقد قتله الفرنج على رأس المنجنيق لما فتحو دمياط[5]، ولم يكن هؤلاء العلماء هم الوحيدون بل كانوا الأكثر شهرة[6].

وثمة عالم جليل شهد الحملة الصليبية السابعة على دمياط وهو عز الدين بن عبد السلام الذي كان أحد المرابطين مع العسكر على ثغر دمياط، وقد ظهر دوره بشكل جلي عندما استظهر الفرنج على المسلمين لكثرة مراكبهم، وكان لقوة الرياح أثر في تغيير مسار السفن في النيل، مما زاد من ذعر المسلمين وخوفهم، فما كان من الفقيه ابن عبد السلام، إلا أن أخذ يستجير بالله عز وجل، ونادى بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح: "يا ريح خذيهم عدة مرات، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتحُ، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سخّر له الريح"[7]. وعلى الرغم مما احتوته هذه الرواية من مبالغة واضحة في دور هذا الشيخ في مقاومة الفرنج لدرجة تسيير الريح بأمر الله إلا أنها كانت تهدف إلى بيان حجم المشاركة الفعلية لهذا العالم وجهاده.

---

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص 218-219.

(2) علي بن أبي القاسم بن غزي، كان راوية للحديث، اشتهر بعلمه وصلاحه؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 641-650هـ، ص 366.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 641-650هـ، ص 366.

(4) إبراهيم بن ظافر، كان عالماً برواية الحديث، وعالماً بالهندسة، توفي عام 648هـ/1250م. انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 641-650هـ، ص 379.

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 641-650هـ، ص 379.

(6) Sivan, L' Islam Et La Croisade, P. 142.

(7) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص 216؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص 280-281.

إن المتتبع لمشاركة العلماء في قتال الفرنج يرى فيها استمراراً واضحاً منذ بداية الغزو وحتى نهايته إلا أنه برز بشكل أكبر زمن صلاح الدين، من بعده زمن العادل والكامل في الحملة الصليبية الخامسة وانتهاءً بالسابعة، وقد علل الباحث Sivan ذلك إلى التعاون القائم بين رجال الدين والسلطة، إلا أنه يرى أن فكرة انتشار الجهاد بدأت منذ زمن نور الدين زنكي، وتأصلت في هذه الفترات (صلاح الدين وخلفائه). بحيث أصبح من الصعب اقتلاعها، مما جعل العلماء يشاركون في القتال[1]، وهنا يكمن سر المشاركة الفاعلة، لعدد كبير من العلماء في ساحات الوغي بمعنى أنها أصبحت متجذرة في نفوسهم.

أما فيما يتعلق بمصير الحملة السابعة، فقد تابع الملك توران شاة مسيرة الجهاد، وأخذ يشدد الحصار على الفرنج مما اضطرهم لمراسلته لعقد الصلح، فقويت بذلك جبهة المسلمين، وضعفت جبهة الفرنج حتى تمكن المسلمون منهم مع مجيء شهر محرم عام 648هـ/ 1248م، مما دعا الملك لويس التاسع للدخول في مفاوضات مع المسلمين، وطلب الأمان حتى أعطي له، ثم اقتيد أسيراً هو ومن معه، وأمر الملك توراتشاه بقتل أسرى الفرنج جميعهم، وتسلم توران شاه دمياط، ورحل الفرنج عنها، وبذلك فشلت الحملة الصليبية السابعة على مصر[2].

(1) .Sivan, L' Islam Et La Croisad., P. 142

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 352-357.

الفصل الرابع

دور العلماء السياسي



أولاً: سفارة الفقيه عبد الوهاب الشيرازي لبغداد عام 523هـ/ 1128م.

ثانياً: سفارة القاضي الشهرزوري للسلطان السلجوقي مسعود بن محمد عام 532هـ/1137م.

ثالثاً: دور العلماء في ضم مدينة دمشق لنفوذ الزنكيين.

رابعاً: دور الفقيه عيسى الهكاري في توطيد حُكم السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر.

خامساً: دور الفقيه زين الدين بن نجا في إفشال المؤامرة الشيعية ضد السلطان صلاح الدين.

سادساً: دور العلماء في الوحدة بين السلطان صلاح الدين والزنكيين.

سابعاً: رُسل السلطان صلاح الدين لدار الخلافة العباسية أثناء فترة الغزو الصليبي.

ثامناً: دور القاضي بهاء الدين بن شداد في مراسلات الصلح مع الفرنج.

تاسعاً: سفارة شيخ الشيوخ صدر الدين محمد أثناء غزو الفرنج لدمياط عام 615هـ/1218م.

عاشراً: سفارة سبط ابن الجوزي للملك الأشرف عام 618هـ/ 1221م.

حادي عشر: دور العلماء في اتفاقية تسليم بيت المقدس للفرنج عام 626هـ/1228م.

اثنا عشر: معارضة الفقيه العز بن عبد السلام لسياسة المهادنة [التحالف مع الفرنج].

ليس غريباً أن يبرز علماء المسلمين من محدثين وفقهاء ووعاظ في المجال السياسي والدبلوماسي، وأن يكلفوا بصفة رسمية – من قبل راس النظام السياسي- بمهام كهذه خلال فترة الحروب الصليبية؛ وربما يعود السبب في ذلك إلى ما اشتملت عليه شخصياتهم من صفات ومزايا لم تتوافر في غيرهم من أبناء المجتمع الإسلامي، بالإضافة لما كان لديهم من علوم دينية، وإلمام واسع بعلوم اللغة والشعر والتاريخ، وفصاحة بفن القول، وقدرة على الإقناع، ولهذا كله تم اختيارهم رسلاً بين الحكام ودار الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية، وغيرهم من ملوك العالم الإسلامي، وأمرائه، وملوك الفرنج وسادتهم.

مر المشرق الإسلامي بظروف صعبة جراء الغزو الفرنجي (الصليبي) تمثلت بمعاناة المسلمين من غدر الفرنج، وكثرة غاراتهم، ومحاصرتهم للمسلمين، مما أدى في كثير من الأحيان إلى طلب المساعدة من ولاة الأمر (خلفاء وأمراء)، أو السعي إلى مهادنة الفرنج للتفرغ إلى مسألة الوحدة لرص الصفوف، ولهذا تعددت إسهامات العلماء السياسية خلال هذه الفترة، وتبلورت بين طلب المساعدة، وحشد الطاقات الإسلامية ضد الفرنج من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وبين سعي العلماء للإصلاح بين حكام المسلمين تحقيقاً للوحدة المنشودة بين إمارات العالم الإسلامي حتى تتمكن من الوقوف في وجه الغزاة، كما قام بعضهم بدور مفاوضات مع ملوك الفرنج عندما تستدعي الحاجة إلى ذلك.

أولاً: سفارة الفقيه عبد الوهاب الشيرازي لبغداد عام523هـ/1128م:

تركت وفاة أتابك طغتكين المعروف بظهير الدين صاحب دمشق عام 522هـ/ 1128م[1]، آثاراً سلبية على الأوضاع السياسية في الشام تمثلت باضطراب أوضاعها، وتجرّؤ الفرنج على قصدها، فبعد وفاة طغتكين تولى ولده تاج الدين بوري الذي قضى على الباطنية بمعاضدة أهل دمشق له، وبمقتل داعيتهم

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 218-219.

بهرام استولى صاحبه إسماعيل العجمي على بانياس ولم يلبث أن راسل الفرنج، وتنازل لهم عنها خوفاً على نفسه وفرقته بعد ما سمع فيما حلّ بالباطنية في دمشق[1]. وقد كان لهذه الأسباب مجتمعة دور كبير في تقوية نفوذ الفرنج في الشام وحشد عساكرهم على دمشق[2].

على الرغم من تأهب تاج الدين بوري واستعداده لمقاومة الفرنج، إلا أنه لم يكن بوسعه مقاومتهم وحده، فما أن نزل الفرنج جسر الخشب، والميدان حتى بدأ بمراسلة ملوك الأطراف والخلافة العباسية لطلب المساعدة[3]، واستعان بالعلماء لما لهم من أهمية في رص صفوف أبناء الأمة، وقد اختار الفقيه الحنبلي شرف الإسلام عبد الوهاب الشيرازي[4]، ليكون رسوله إلى الخليفة العباسي المسترشد، لما عرف عنه من علم وورع وفصاحة وجاه[5].

حاول الفقيه الشيرازي استعطاف الخليفة مبيناً له ما تعانيه الشام من خطر الفرنج حيث تمكنوا من بانياس، ويتطلعون إلى دمشق، فاقتصر الخليفة على إكرامه، ووعده بإنفاذ العساكر[6]، ولم ينتظر صاحب دمشق مساعدة دولة الخلافة

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 220-224؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 128-130.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 224.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 225؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 130-131.

(4) هو عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج عبد الواحد الأنصاري الشيرازي الحنبلي ، كان فقيهاً وواعظاً وواقف المدرسة الحنبلية بدمشق، وذو حرمة وقبول بالشام، توفي 536هـ/1143. النعيمي، الدارس، ج2، ص 64-65.

(5) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 198. انظر Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P.110.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 131؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص 198-199؛ سالم، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص 72.

بعد مداهمة الفرنج لمدينته بل خرج بعساكره - ومن حضر لمساعدته من التركمان والعرب - لمقاومتهم ففتك وقتل الكثير منهم حتى عاد هو وعساكره منصورين[1].

ثانياً: سفارة القاضي الشهرزوري للسلطان السلجوقي مسعود بن محمد عام 532هـ/1137م:

مثلت حركة الجهاد الإسلامي التي كان يقودها الملك الشهيد عماد الدين زنكي واحدة من أبرز صور المقاومة الإسلامية ضد الفرنج أثناء غزوهم للمشرق الإسلامي، وقد توّج جهوده باستعادة حصن بارين[2] منهم عام 534هـ/1139م، لما كان من منعته، وتهديده لأمن المسلمين، فكان لتملك المسلمين له حفظاً لحماة وحمص اللتين كانتا من توابع مدينة دمشق[3].

كان الملك عماد الدين زنكي يمتلك قوة يعتد بها وكان الفرنج يتحينون الفرص للإطاحة به، والتخلص من قوته، يؤكد ذلك اعتراف المؤرخ الفرنجي وليم الصوري بخطة صليبية لإضعافه في حلب[4]، فتكالب عليه ملوك الروم والفرنج المرابطين في الشام، ورأوا مهاجمته في حلب للتعويض عن فشلهم في إنقاض الحصن لقول ابن الأثير[5]: "لعلهم يظفرون بما يذهب عنهم مصيبتهم ويجبر كسرتهم"[6]. فقرروا السير نحو بُزاعة()، ثم قصدوا حلب وحاصروها وقاتلوا أهلها

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 225-226. وانظر: أيضاً سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 131.

(2) بلدة بين حمص والساحل، وقال ياقوت الصحيح أنها بارين وليس بعرين. ياقوت، معجم البلدان، مج1، ص 452.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 59-61؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 326- 327؛ Cahen, La syrie Du Norda L' epoque Des Croisades, P. 155.

(4) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج4، ص 656-663، صبرة، دراسات تاريخ الحروب الصليبية، ص 32.

(5) ذكرها ياقوت بزاعة، وبزعا: وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، وبينهما وبين كل واحدة مرحلة. انظر: معجم البلدان، مج1، ص 409.

(6) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 62.

لمدة ثلاثة أيام، ثم حاصروا قلعة شيزر[1]، وعلى أثرها استغاث جماعة من أعيان حلب بالملك عماد الدين زنكي مستنصرين به فسير معهم الكثير من عساكره لحلب لمنع الروم من أخذها[2].

أدرك الملك عماد الدين زنكي ما كان يصبوا إليه الفرنج والروم من استهدافه، فرأى في خروجه لمقاومتهم بعساكره وحده وهم بهذا الحشد العظيم[3]، مخاطرة بالمسلمين وإضعافاً لموقفه، ولهذا رأى تفويت الفرصة عليهم فلجأ أثناء عسكرة الفرنج والروم ببزاعة إلى طلب مساعدة السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاة منعاً لسقوط حلب بأيديهم، فأرسل بعثة دبلوماسية برئاسة أحد كبار علماء المسلمين وأهم رجالات دولته، وهو القاضي كمال الدين الشهرزوري[4]. الذي كان يمتلك من الصفات ما يجعله مؤهلاً لتحمل أعباء هذه المهمة السياسية، فقد كان ذا رأي وعقل[5]، فطلب منه عماد الدين زنكي إطلاع السلطان السلجوقي على الأوضاع الخطيرة التي تعاني منها الشام جراء هذا التحالف، طالباً منه الإسراع في النجدة والمساعدة العسكرية[6].

أدرك القاضي كمال الدين أبعاد مهمته قبل خروجه لبغداد، فصارح الملك عماد الدين بأن السلاجقة إن دخلوا البلاد فإنهم سيتملكونها، إلا أن عماد الدين زنكي أظهر عدم ممانعته لذلك، والمهم ألا تقع بأيدي الفرنج، وفي هذه دلالة على تأزم أمور المسلمين آنذاك، لقول القاضي كمال الدين: قلت للشهيد لما أرسلني: "أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر فإذا توسطوا البلاد ملكوها". فقال الشهيد: "إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وأن أخذ حلب لم يبق

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 739؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 77-79.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 739.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 165-166.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 740؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 165-166.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 63.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 740؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 165-166.

بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار"[1]. ولعل في محاورتهما هذه دلالة واضحة على عمق فهم القاضي كمال الدين الشهرزوري بما يدور حوله من اضطرابات وألاعيب سياسية قد تضر ببلاده، وهذا يعني إدراكه لخطورة هذه السفارة وما قد ينتج عنها من إنقاذ للبلاد.

باشر القاضي كمال الدين الشهرزوري مهمته، وأبلغ السلطان رسالة الملك عماد الدين زنكي، وأوضح له حقيقة الوضع طالباً المساعدة العسكرية، فما كان من السلطان إلا أن وعده بإنفاذ العساكر دون أن يفعل شيئاً يبين صدق وعده لقول كمال الدين الشهرزوري، "ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء"[2]. وعندما أدرك الشهرزوري قلة اهتمام السلطان بدأ بالتفكير بخطة يعمل فيها على إثارة عامة بغداد ضد السلطان، وأحضر فقيهاً كان ينوب عنه في القضاء وأعطاه كمية من الدنانير ليفرقها على جماعة من أوباش بغداد وأعاجمها، لإثارة الناس يوم الجمعة وقت الصلاة لقوله: "وإذا كان يوم الجمعة، وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد، وإسلاماه، وا دين محمداه..." ثم يخرجون من الجامع لدار السلطان مستغيثين، كما عيّن شخصاً آخر للقيام بنفس المهمة في جامع السلطان فلما كانت صلاة الجمعة قام ذلك الفقيه وشق ثوبه، وألقى عمامته من فوق رأسه وصاح، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء حتى بكى كل من بالجامع وبطلت صلاة الجمعة، واجتمع أهل بغداد جميعهم عند دار السلطان "يبكون ويصرخون ويستغيثون"، وخرج الأمر عن الضبط" فخاف السلطان، من تفاقم الوضع وعندما استفسر عن سبب ذلك عرف أن السبب يعود لتقاعسه عن نجدة المسلمين في حلب، فقال لهم السلطان: "أحضروا ابن الشهرزوري"[3]. فلما حضر سأله السلطان عن

---

[1] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 62؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 167. انظر: عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص 194.

[2] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 62؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 167.

[3] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 62؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 167-168.

سبب إثارته الفتنة فأجابه: "إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر"[1]. وفي رواية أخرى: "ما فعلت شيئاً، وأنا كنت في بيتي، وإنما الناس يغارون للدين والإسلام، ويخافون عاقبة هذا التواني"[2]. ولعل في هذه الخطة التي رسمها القاضي كمال الدين دليل على ذكائه وفطنته محاولة منه لإثارة اهتمام السلطان بالقضية الأساسية التي قدم لأجلها.

تمكن الشهرزوري من تعظيم أمر الفرنج، وأشعر السلطان بخطرهم الذي قد يمتد إلى بلاده إن لم يتداركه في هذه اللحظة بقوله: "ولا شك أن السلطان يعلم كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، وإن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد"، وقد نجح الشهرزوري في إقناع السلطان برأيه حتى أنه جعله يفكر بالأمر ملياً، فدعا الشهرزوري لرد العامة، وأخذ ما يريد من العساكر، فاختار عشرين ألفاً من عسكر السلطان، وكتب لعماد الدين زنكي يعلمه باستعداد العساكر للنجدة، مجدداً بذلك استئذانه بقدومهم والأمر بتسييرهم[3].

شاءت الأقدار أن جاء خبر من الملك عماد الدين زنكي للقاضي كمال الدين يبلغه رحيل الروم والفرنج أثناء تجهز العساكر وحركتها، ويأمره بترك استصحاب العساكر فلما خوطب السلطان بذلك رفض، وأصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد، وقصد بلاد الفرنج، وهنا ظهرت حكمة الشهرزوري مرة أخرى بتخلصه من هذا الأمر، فقد أدرك هدف السلطان من ذلك والمتمثل بتملكه للبلاد بحجة طرد الفرنج مما دعا الشهرزوري لاستخدام كافة الوسائل للحيلولة دون قدوم عساكره للبلاد،

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 167.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 740.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 63؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 167-168. يرد عدد العساكر عند أبو شامة عشرة آلاف وليس عشرين ألفاً.

لقوله: "فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد"[1].

دلت تلك المهمة السياسية التي كلف بها الشهرزوري، وما حققته من نجاح على براعته وحنكته السياسية، وقد أبدى ابن الأثير إعجابه بالشهرزوري لما أحرزه من تقدم في مهمته بوصفه إنه كان خيراً من عشرة آلاف فارس، وأكد نور الدين منزلة الشهرزوري عندما عاتبه الكثيرون لكثرة عطاياه له بأنه لم يوفه حقه لكثرة أعماله الجليلة لقول ابن الأثير: "قيل للشهيد [عماد الدين زنكي]، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد عن عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال خير من مائة ألف دينار"[2]. ولا شك أن في هذا دليلاً واضحاً على أهميته ومكانته ودوره في تسيير أمور دولة عماد الدين زنكي في الداخل والخارج[3].

احتفظ القاضي كمال الدين الشهرزوري بمكانته الرفيعة عند آل زنكي حتى بعد وفاة الملك عماد الدين زنكي فقد اعتمد عليه ولده الملك نور الدين محمود، وقربه منه، وصار إليه الحكم في كثير من أمور الدولة وإداراتها، حتى أصبح بمثابة وزيره ومستشاره[4]، كما كلفه بكثير من المهام السياسية ومنها ما كان 568هـ/1172م عندما بعثه رسولاً للخليفة العباسي وحمّله رسالة فيها إعلان طاعته للخلافة، وإعلامه بالدور البارز الذي يقوم به في التصدي للفرنج، ثم يطلب

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 63؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 167-168. انظر: النقيب، عماد الدين زنكي، ص 102.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 63. انظر: حامد، عبد الجبار، (1988م). أبناء الشهرزوري ودورهم السياسي والقضائي والعلمي في القرن السادس الهجري، آداب الرافدين، جامعة الموصل، ع(18)، ص 117-118.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 340؛ أبو شامة الروضتين، ج2، ص 281.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات، 571-580هـ، ص 106.

منه تقليداً بالبلاد التي تحت يده كمصر، والشام، والجزيرة، والموصل، وديار بكر، وخلاط، ومطالب أخرى للملك نور الدين، وقد أجيبت كاملة[1]، ولعل في طلب نور الدين تفويضاً من الخليفة دليل علىَ إدراكه لأهمية الخلافة واعترافها بشرعيته.

ثالثاً: دور العلماء في ضم مدينة دمشق لنفوذ الزنكيين:

احتلت مدينة دمشق خلال فترة الحروب الفرنجية (الصليبية) أهمية سياسية وعسكرية بالغتين، وكانت مطلباً وهدفاً للزنكيين في حلب سعوا من خلالها إلى تحقيق وحدة بلاد الشام، والوقوف بقوة ضد الفرنج لاستعادة بيت المقدس من أيديهم[2]. ولهذا فقد حاولوا مِراراً إخضاعها لحكمهم، وكأن أولاها عام 529هـ/ 1134م، على أثر مراسلة صاحبها شمس الملوك إسماعيل بن بوري للملك عماد الدين زنكي عارضاً عليه تسليمها بعد ما رآه من اضطراب أوضاعها، ورغبته الانتقام من أمرائها وأعيانها، وجاء في رسالته السرية له: "وأن اتفق إهمالٌ لهذا الأمر، وإغفالٌ أو إمهال أُحوجتُ إلى استدعاء الإفرنج من بلادهم، وسلَّمتُ إليهم دمشق"[3].

على الرغم من وفاة صاحب دمشق وخلافة الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك - والذي كان رافضاً تسليمها لعماد الدين زنكي - إلا أن ذلك لم يكن عائقاً أمامه فاقتحمها، وقاومه أهلها وصدوه عن الدخول إليها، إلا أنه عندما رأى طول حصاره لها قام بمراسلة أهلها لطلب الصلح شريطة أن يدخل صاحب دمشق في طاعته حتى انقضى الأمر على ذلك[4].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 265.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 272؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 238-239؛ Elisseeffe, Damas et le djihad contre les croises, (Damas), P. 40-41.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 245؛ عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص 189.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 247؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 313.

وقد ساهمت السفارة التي بعث بها الخليفة العباسي المسترشد بالله لدمشق والتي كان يرأسها الرئيس بشير بن كريم بن بشر بدور كبير في انعقاد أمر الصلح بينهما، وتزامن وصول هذا الوفد مع حضور القاضي بهاء الدين الشهرزوري في دمشق فتعاون معهم وشارك في مفاوضات الصلح[1]، حيث طلبا من الملك عماد الدين زنكي الرحيل عن دمشق، والمحافظة على استقلالها، فانعقد الصلح على ذلك، وقام زنكي على أثرها بزيارة رسمية لدمشق لإصلاح ما فسد لقول ابن القلانسي: "ودخل الرسول المذكور، والقاضي بهاء الدين ابن الشهرزوري إلى دمشق لتقرير الأمر ولإحكام القاعدة في الثامن والعشرين من جمادى الأولى فتقرّر الأمر ووكدت الإيمان وحضرا الجامع لصلاة الجمعة وخطب للسلطان [ألب أرسلان] على المنبر بأمر أمير المؤمنين، وعاد إلى العسكر الأتابكي وخرج بهرام شاه فأكرمه.." [2].

كانت المحاولة الثانية للملك عماد الدين زنكي للسيطرة على دمشق عام 534هـ/1139م حيث نزلها مرتين في نفس العام، كانت الأولى بعد تسلمه بعلبك حيث بعث لصاحبها الأمير جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري – برسالة يدعوه فيها لتسليم المدينة على أن يعوضه عنها، إلا أنه رفض ذلك، فما كان من عماد الدين إلا أن نزل بظاهرها، زاحفاً إليها حتى تمكن من الظفر بعدد من أهلها، وأسر البعض الآخر، ثم عاد لمراسلة صاحبها مرة أخرى يطالبه بتسليمها، على أن يتنازل له عن حمص وبعلبك، فوافق على ذلك مضطراً حقناً لدماء المسلمين إلا أن وفاته وقفت حائلاً دون تنفيذ اتفاقهما[3]. في حين يذكر ابن الأثير أن عدداً من أعيان

---

(1) كان القاضي بهاء الدين الشهرزوري صاحب عزيمة، وهمة ماضية نافذة ويقظة ثاقبة توفي بحلب عام 532هـ/1137م. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 266.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 240؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 57-58؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 313.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 270-271.

دمشق ومقدميها كانوا يعارضون دخوله إلى دمشق لخشيتهم من غدره بهم مثلما فعل بأهل بعلبك من قبل[1].

قام عماد الدين زنكي بحصار دمشق على أثر وفاة صاحبها مستغلاً بذلك تحاسد أمراء دمشق وخلافاتهم وذلك بتوسيع شقة الخلاف فيما بينهم إلا أن سياسته باءت بالفشل لتوحدهم ضده وحثهم على التصدي له، فعاد بعسكره دون تحقيق غرضه[2]، إلا أن تخوف أمراء دمشق من أطماع زنكي ببلادهم، ورغبته بتوسيع نفوذه بهدف جهاد الفرنج، كان سبباً في قيامه بمراسلة الفرنج والطلب منهم التصدي لعماد الدين زنكي ووقف مخططاته التوسعية مقنعين الفرنج بأن عماد الدين إذا ملك دمشق ملك بيت المقدس، وتعهد أهل دمشق للفرنج مقابل حمايتهم، أن يدفعوا لهم مبلغاً من المال، وتسليمهم مدينة بانياس. وعندما علم عماد الدين زنكي بهذا التحالف توجه بعساكره نحو دمشق فنزل دارياً ثم حوران ثم عذراء، فأحرق بعض ضياع غوطة دمشق والمرج إلا أنه ما لبث أن رحل عنها بعد أن علم بنزولهم الميدان[3].

أما النزول الثاني لعماد الدين زنكي على هذه المدينة في عام 534هـ/1139م فقد كان بعد قيام معين الدين أنر بتسليم بانياس للفرنج فداهمها في ذي العقدة على حين غرة فخرج أهلها لمقاومته، ونشبت بينهما حرب استولى فيها عماد الدين على كثير من الغنائم إلا أنه رجع لبلاده دون السيطرة عليها[4]. وعلى

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 753.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 271.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 272؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 754، توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص 62-63.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 272؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 755.

الرغم من محاولات زنكي المتكررة لفتح دمشق وبقائها حلماً في مشروعه الوحدوي الإسلامي إلا أن القدر لم يُمهله إذ اغتيل عام 541هـ/1146م[1].

لم تتوقف محاولات الزنكيين لضم دمشق لنفوذهم بوفاة عماد الدين زنكي، بل استمرت وبشكل أقوى على يد ولده الملك نور الدين محمود، وقد برزت أولى محاولاته هذه عام 544هـ/1149م بعدما ترامي لمسامعه ما كان من عبث الفرنج وإفسادهم بأعمال حوران، وطلبه من أهل دمشق التحالف معه لمقاومتهم ورفضهم لطلبه، وما كان من إدراكه لضعف حكام دمشق عن صد هجمات الفرنج، وتحالفهم معهم ضده، وتخوفه من سيطرة الفرنج على دمشق، وقد بعث نور الدين لأهل دمشق رسالة أثناء نزوله عند مدينتهم يبين لهم فيها أهدافه من الحصار بقوله: "إنني ما قصدتُ بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وعدم الناصر لهم...، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء[2].

تصدى أهل دمشق لنور الدين زنكي بعد عزمه على محاصرتهم، واستعانوا بالفرنج وأعلنوا العداء له لقولهم: "ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا"[3]. وعلى الرغم من زحفه نحو دمشق إلا أن ظروف الشتاء حالت دون وصوله لها حتى تقرر أمر الصلح بنيهما في محرم من

---

(1) عبد العزيز، صورة من التعاون بين دمشق والقاهرة، ص 298.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 309؛ مؤنس، نور الدين محمود، ص 240.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 309.

عام 545هـ/1150م حسماً للنزاع بينهما بعد أن أعلنوا طاعتهم له، وذكرهم اسمه في الخطبة على منابر دمشق[1]، والذي عد بأنه نجاح جزئي[2].

يبدو أن الصلح المنعقد بين نور الدين محمود وأهل دمشق والخطبة له على منابرها لم تثنه عن هدفه الأساسي والمتمثل بضمها لملكه وإنقاذها من أطماع الفرنج، فنزلها في محرم من عام 546هـ/1151م، واستمرت عساكره بالتنقل بين أعمال دمشق[3]، وهم يعيثون فساداً وخراباً بزروعها حتى ضاقت صدور أهل دمشق منهم، فبدأوا بالتأهب لحفظ البلدة منه، وفي هذه الأثناء بدأت رسل نور الدين محمود بالتردد لدمشق لتبرير حصاره لهم من جهة، وعرضه عليهم توحيد صفوفهم ضد الفرنج بالتحالف معه لقوله: "أنا ما أُوثر إلاَّ صلاح المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد... فذلك غاية الإيثار والمراد..." ولكنهم رفضوا ذلك[4]. في حين يذكر سبط ابن الجوزي أنه أخذ عليهم تحالفهم مع الفرنج ضده، واشترط عليهم لفك حصاره عنهم تحالفهم معه للجهاد ضد الفرنج[5].

حرص نور الدين زنكي على عدم إراقة دماء أهل دمشق رغم استنجادهم بالفرنج، وتتابع حشوداتهم للتصدي له، واستمرار المناوشات بينهما إلا أنه لم

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 309-310؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 240-241.

(2) Stevens on, The Crusaders in the East, P. 167.

(3) انظر: نزول عسكر نور الدين زنكي على عذراء، والنيرب، عيون فاسريا، ثم أراضي مجيرا؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 312.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 313.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 209-210.

يزحف إليهم، ولم يحارب أهلها[1]، لقوله: "لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً وأنا أرّفههم[2] ليكون بذلُ النفوس في مجاهدة المشركين"[3].

من المرجح أن طول حصار نور الدين لدمشق، وحرصه على حقن دماء أهلها كان سبباً في قبول الطرفين بمبادرة الصلح حيث أشار ابن القلانسي، وسبط ابن الجوزي إلى تردد المراسلات بينهما لعقد الصلح في ربيع الآخر من العام نفسه 546هـ/1151م، والتي كان للعلماء فيها دور واضح وخاصة الفقيه برهان الدين البلخي[4]، دون ذكر للشروط التي اتفق عليها كما جاء عند ابن القلانسي: "وحدثت مع هذه النية تردد المرسلات في عقد الصلح في أيام شهر ربيع الآخر على شروط أشير إليها واقتراحات عيّن عليها، وتردّد فيها الفقيه برهان الدين علي البلخي، والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب وتقارب الأمر في ذلك وترددت المراسلات إلى أن استقر الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرضا به..."[5].

يؤكد الاتفاق الذي عقد بين الأمير مجير الدين بن ابق صاحب دمشق والملك نور الدين محمود على سمو الدور الذي بذله المترسلون لإنجاز أمر هذا الصلح لا سيما الفقيه البلخي لما يمتاز به من صفات جعلته أهلاً للقيام بهذه المهمة كما ذكر ابن القلانسي: "... ما هو مشهور شائع مع الورع والدين والعفاف

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 313-315.

(2) من الفعل رفه وتعني رغدُ الخصب ولين العيش وتأتي بمعنى إزالة الضيق والتعب والتنفيس عن الآخرين والتخفيف عنهم. ابن منظور، لسان العرب، مج5، ص 277-279.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 315-316.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 316؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 210.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 316.

والتصوّن وحفظ ناموس الدين والعلم والتواضع والتردُّد إلى الناس علـى طريقـة مرضية وسجية محمودة لم يشاركه فيها غيره..." [1].

لا تزودنا المصادر [2] بالطرف الذي ابتدأ بأمر الصلح، ولا نعرف إن كـان الفقيه البلخي قد مارس تأثيراً على الملك نور الدين زنكي للشروع في أمر الصلح، لما كان له من مكانة مميّزة عنده[3].

بد الفرنج يتطلعون إلى دمشق على أثر سقوط عسقلان عـام 548هـ/1153م، فشرعوا يمارسون الضغوطات عليها، وقد كانت سياستهم هذه – بالإضافة لسوء صاحبها الأمير مجير الدين – سبباً في قيام الملك نـور الـدين بمهاجمتهـا والسيطرة عليها قبل وقوعها بيد الفرنج، فراسله أهلها، وطالبوه بالقدوم فدخلها عام 549هـ/1154م دون مقاومة[4]. وقد كان لفتحه هذا وقع كبير على الفرنج لما كان فيه من القضاء على أطماعهم، كما كان لذلك أهمية سياسية وعسكرية لنور الـدين بامتداد نفوذه المتمثل بتوحد سوريا[5]، وجعلها تحت قيادته إذ اصـبحت الطريـق ممهدة لاسترجاع بيت المقدس وجعلها قاعدة للتحرّك نحو مصر لإكمال مـشروعه الوحدوي[6].

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 323.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 316؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 210.

(3) ذكر سبط ابن الجوزي أن البلخي كان يخاطب الملك نور الدين محمود دون ألقاب لقول نور الـدين "إن البلخي إذ قال لي محمود، قامت كل شعرة في جسدي هيبة له، ويـرق قلبـي...). سـبط ابـن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 220.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 326-328؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمـان، ج8، ق1، ص 220-221، عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص 223؛ مؤنس، نور الدين محمـود، ص 242-244.

(5) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 551.

(6) مؤنس، نور الدين محمود، ص 244-245. Holt, The Age of the Crusades, P. 45.

رابعاً: دور الفقيه عيسى الهكاري في توطيد حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر:

تعد الفترة الممتدة بين عام (564- 570هـ/1168-1174م) من أكثر الفترات التاريخية خطورة في تاريخ البيت الأيوبي، وتحديداً بالنسبة للسلطان صلاح الدين الأيوبي؛ لما تمخض عنها من أحداث سياسية هامة أسهمت بشكل كبير في تأسيس بنيان قوي للدولة الأيوبية التي تمكنت من مواجهة الغزو الفرنجي في مصر وبلاد الشام. وسطع نجم العلماء بإسهاماتهم الواضحة في الوقوف إلى جانب صلاح الدين ضد المؤامرات التي حيكت ضده عقب توليه الوزارة، وعند انهيار الدولة الفاطمية.

تركت الحملة العسكرية الثالثة التي سيّرها الملك نور الدين محمود لمصر عام 564هـ/1168م بقيادة أسد الدين شيركوه وبرفقة ولد أخيه الأمير صلاح الدين يوسف آثاراً كبيرة على مصر بشكل خاص، وعلى دفع حركة الجهاد الإسلامي ضد الفرنج بشكل عام، إذ شهدت الدولة الفاطمية بعد هذه الحملة تغيرات وتطورات سياسية داخلية وخارجية تمثلت أولاها بالتخلص من الوزير شاور على أثر مماطلته للملك نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه بعد ما قرره لهما من البلاد[1]، بعد حمايتهم له من الفرنج وإعادته لوزارته، كما كان لمخططاته ونيته الإيقاع بأسد الدين شيركوه وأمراء نور الدين محمود دور كبير في تسريع حادثة قتله[2].

تولى الأمير شيركوه الوزارة في مصر – بعد مقتل شاور– من قبل الخليفة الفاطمي العاضد، إلا أن القدر لم يمهله كثيراً ولم يمكث فيها سوى ثلاثة وستين

---

(1) قرر شاور أن يبذل الأموال والإقطاع للعساكر، وأن يفرد ثلث البلاد لنور الدين. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 38.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 38-39؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 304.

يوماً[1]، إذ توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام 564هـ/1168م[2]، في حين تولى الوزارة من بعده (في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من العام نفسه) الأمير صلاح الدين الأيوبي[3].

كانت وفاة شيركوه وتولية صلاح الدين الأيوبي للوزارة من أبرز الأحداث السياسية التي حدثت بمصر في هذه الفترة حتى يمكن عدها حدثاً مفصلياً في تاريخ الحروب الفرنجية (الصليبية)؛ لما ترتب عليها من تطور في حركة الجهاد ضد الفرنج، والتي كان للعلماء اليد الطولى في معاضدة صلاح الدين وتثبيت حكمه، والتصدي لكل المحاولات التي كانت تهدف لإظهار فشله.

على الرغم من وجود وصية من الوزير شيركوه لابن أخيه صلاح الدين بتولي الوزارة من بعده، فقد ظهر عدد من أمراء نور الدين زنكي الطامحين، والمنافسين له، ومن أبرزهم: عز الدين الياروقي وهو من الأتراك، وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري الملقب بالمشطوب، وهو من الأكراد، وشهاب الدين محمود صاحب حارم خال صلاح الدين الأيوبي[4]، والأمير قطب الدين بن تليل[5]، إلا أن هذه المنافسة لم تكن عائقاً أمام توليته الوزارة، فقد استدعاه الخليفة العاضد وخلع عليه بالوزارة[6]، وذكر ابن الأثير أنها كانت بمشورة من أصحاب الخليفة الفاطمي لاعتقادهم أنه من السهل عليهم تسيير دفة الحكم كما يريدون في حالة تنصيبه، لقلة

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 304.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 47.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 80-81.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 223؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 278-279؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 309.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 49؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 309.

(6) الكامل، ج9، ص 223؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 76.

خبرته وتجربته: "ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأي أن يولى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا.."[1].

لم يكن استقرار السلطان صلاح الدين في الحكم أمراً سهلاً فقد واجهته مصاعب عدة تمثل أولاها برفض أمراء نور الدين محمود طاعته وخدمته لقول المقريزي: "ولما نزل صلاح الدين إلى الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولا خدموه"[2]، إلا أنه تمكن بمساندة أحد العلماء الأكراد – المخلصين لشيركوه – وهو الفقيه عيسى الهكاري من التغلب عليهما[3]. حيث نجح بحنكته ودبلوماسيته في تحييدهم وإقناعهم بضرورة طاعته لما في ذلك من مصلحة سياسية للجميع، وقد زودنا ابن الأثير بتفاصيل محاوراته معهم إذ خلا بكل أمير منفرداً محاولاً إثارة عواطفه وإيهامه بقوة الآخرين، ومنافستهم له للرجوع عن هذا الأمر.

ابتدأ الفقيه الكهاري محاولاته لثني أمراء زنكي عن معارضة صلاح الدين الأيوبي بالأمير سيف الدين المشطوب حتى استماله وقال له: "إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما"، ثم قصد الحارمي وقال له: "هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك، وقد استقام هذا الأمر فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل إليك". فمال إليه هو أيضاً[4]. ولم يبق أمامه، إلا عين الدولة الياروقي، وقطب الدين بن تليل، فتمكن من إقناع ابن تليل بقوله له: "إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك والياروقي فعلى كل حال يجمع بينك

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 223؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 621، Stevenson, The Crusaders in the East, P. 195.

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 309.

(3) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، مج1، ص 213-215؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 497، Holt, The Age of the Crusades, P, 49.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 223؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 48-49؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 309-310.

وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتـــراك". ثـــم وعده بزيادة إقطاعه، فأطاعه[1]. أما الأمير عين الدولة الياروقي فقد رفض الخدمة في ظل صلاح الدين، وعاد إلى خدمة نور الدين بالشام، ومعه عدد من الأمراء[2].

حفظ السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري موقفه الجريء فجعله من كبار أمرائه، ومن أهل القدر والحرمة والرأي والمشورة، وقد أشار ابن خلكـــان أن السلطان كان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً حتى أنه "لم يكن يخرج عن رأيه" ويخاطبـــه بما لا يقدر أحد أن يخاطبه به من الكلام"[3].

كما تعرّض صلاح الدين بعد توليه الوزارة عام 564هـ/1168م لحركـــة مناهضة يقودها أحد المتنفذين السابقين في قصر الخليفة الفاطمي المـــدعو مـــؤتمن الخلافة، وذلك على أثر شعور عدد من السودان، والمتحكمـــين بقـــصر الخلافـــة وحاشية القصر من تضرر مصالحهم، وتهميشهم عن إدارة الدولة وسياستها، ولمـــا كانوا يرونه من قرب زوال دولتهم مما دعاهم للاتصال بالفرنج ومكاتبتهم وطلـــب مساعدتهم للقضاء على السلطان صلاح الدين[4]. كما وعدوا الفرنج بمقاسمتهم البلاد في حالة نجاح حركتهم[5]، إلا أن صلاح الدين وعساكره تمكنـــوا مـــن اكتـــشاف المؤامرة وإخمادها، فقتلوا مدبرها والمشاركين فيها[6]. وبهذا نجح السلطان صـــلاح

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 49؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 169.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 223؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 49.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج3، ص 497.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 49، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج4، ص 67.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 175.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 86-88، Holt, The Age Of the Crusades, P. 50. للمزيـــد من التفاصيل عن هذه الحادثة انظر: ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج4، ص 68-72.

الدين بجهود علمائه المخلصين من الوقوف بحزم ضد كل المؤامرات التي استهدفت النيل من سلطته.

خامساً: دور الفقيه زين الدين بن نجا في إفشال المؤامرة الشيعية ضد السلطان صلاح الدين:

شهدت مصر بعد تولي السلطان صلاح الدين الوزارة الفاطمية جملة من التغيرات في النظم السياسية والإدارية والقائمين عليها، استخدم فيها صلاح الدين سياسة جديدة تمثلت بمحاولة كسب عامة الناس إلى جانبه، إلا أن بعض مفكري الدولة الفاطمية ورجالاتها السابقين وخاصة أولئك الذين فقدوا نفوذهم وامتيازاتهم ظلوا على ولائهم لدولتهم السابقة، فحاولوا بعثها للوجود إلا أن محاولاتهم هذه لم تنجح في ظل القوة العسكرية التي كان يتمتع بها صلاح الدين مما دعاهم للاستعانة بالقوى الخارجية المتمثلة بالفرنج في فلسطين، والروم في صقلية"[1].

بقيت فكرة القضاء على السلطان صلاح الدين ودولته تراود الكثيرين من الشيعة الإسماعيلية في مصر والموالين لهم، حتى تمكن عدد منهم عام 569هـ/1173م من نسج خيوط مؤامرة محكمة للإطاحة به بعد سلسلة من الاتصالات مع الفرنج، وقد تمت المؤامرة بزعامة أحد المتنفذين في البلاط الفاطمي وهو فقيه سني يدعى عمارة اليمني[2]، وعدد من كبار رجال الدين الشيعة كعبد

---

(1) الحياري، صلاح الدين وعصره، ص 168-169؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 197.

(2) نجم الدين عمارة بن علي، أصله من اليمن، قدم مصر عام 550هـ/1155م، فمدح الخلفاء الفاطميين بشعره فقربوه منهم حتى كان عندهم بمكانة الوزير، كان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي، ولم يكن شيعياً كما كان يجيد الشعر. انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 302؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 196-200؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص 240؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص342.

الصمد الكاتب[1]، والقاضي العويرس[2]، وداعي الدعاة الفاطمي ابن عبد القوي[3]، وغيرهم من جند مصر والسودان وحاشية القصر[4]، وقد برز دور العلماء في هذه الحادثة الخطيرة بشكل واضح بتصديهم لها، والوقوف على أحداثها، والعمل على كشفها ببراعة سياسية ودقة متناهيتين.

وضع المتآمرون خطة محكمة، وحددوها بالزمان، ورسموا تصوراً لدولتهم فعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الأدوار والأملاك[5]، إلا أن ابن الأثير يشير إلى أنهم اختلفوا فيمن يتولى الوزارة منهم[6]. وقد اتسمت هذه المؤامرة بكثرة مراسلة المتآمرين للفرنج، إلا أن تنفيذ خطتهم كان يعتمد بشكل أساسي على حركة السلطان صلاح الدين ونشاطاته، وفي كل مرة تسنح الفرصة بذلك كان المتآمرون يخاطبون الفرنج، ويطلبون منهم الإسراع بالقدوم، ففي المرة الأولى استغلوا خروجه لغزو الكرك والشوبك فاستدعوهم لما كان من قلة العسكر وغياب السلطان لقولهم: "إنه بعيد والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى أيلة، ثارت حاشية القصر وكافة الجند،... وعامة الإسماعيلية.."[7]، كما كاتبوهم في مرة ثانية للقدوم وبينوا لهم إنه في حالة خروجه للقائهم فإن القاهرة ستثور، وفي حالة بقائه

---

(1) أحد الأمراء المصريين ذكره أبو شامة بعبد الصمد القشة. انظر: الروضتين، ج2، ص 186؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 275.

(2) كان ناظراً للديوان وتولى القضاء. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 186؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 275.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 149. كان هذا الداعي يعرف بعبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي. انظر: المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 53.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 245.

(5) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 147-148؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 185.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 296، نيكيتا أليسيف، السلطان نور الدين بن زنكي، ص 402.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 189.

بالبلاد لن يبقى معه أحد للدفاع عنه، فإنهم سيهاجموه ويتمكنوا منه[1]. كما أحكم المتآمرون خطتهم بإبعاد أخيه السلطان شمس الدولة تورانشاه لليمن بعد أن زين له زعيم المؤامرة عمارة اليمني السيطرة عليها بهدف إبعاد العساكر عن مصر، وتقليل أعدادهم[2]. في حين أن هناك رأي آخر يقول أن صلاح الدين نفسه هو الذي أرسله للبحث عن بلد أفضل من السودان وكان التفكير باليمن حيث أرض الخيرات[3]. كما لم يفتهم أن يطلبوا مساعدة الحشاشين للوقوف إلى جانبهم ضد السلطان صلاح الدين[4].

أجمعت المصادر الأولية[5] التي ذكرت تفاصيل هذه المؤامرة على الدور البارز للفقيه زين الدين بن نجا في التصدي لها، وكشفها بعيداً عن اختلاف الروايات فيها، إذ كان من المطلعين على تفاصيلها – بحكم ثقتهم وعلاقتهم به منذ أيام الدولة الفاطمية، فقد أشار البنداري إلى قيام المتآمرين بإدخال جماعة من اتباع صلاح الدين[6] معهم وفي مقدمتهم الفقيه ابن نجا وذلك باطلاعهم له على خطتهم، فبدأ بمسايرتهم فيما عزموا عليه لكشف نواياهم لقوله: "وكان الفقيه والواعظ زين الدين بن نجا يناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم مطلعاً على أحوالهم..". ثم قام بإطلاع السلطان على ما يخططون له، فطلب منه إظهار معاضدته لهم، وتنفيذ مطالبهم حتى لا يساورهم الشك نحوه، بل يزدادوا ثقة به،

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 245، نيكيتا أليسيف، السلطان نور الدين بن زنكي، ص 401.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 186.

(3) Poole, Ahistory of Egypt, P. 197.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 188-189؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 250.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 269-270، البنداري، سناء البرق الشامي، ج1، ص 148؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 304؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 185.

(6) ذكر ابن أبي طئ أن الأمير... ابن مصال كان أحد المطّلعين على تفاصيل هذه المؤامرة دون أن يسند إليه أي مهمة، وهذا لا يتعارض ولا ينفي دور ابن نجا لأن البنداري يذكر أن المتآمرين أدخلوا معهم جماعة من الناصرية. انظر: البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 148؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 186.

ولكنه طلب منه إخباره بما يستجد من أمرهم حتى استطال أمرهم، وفشت مؤامرتهم بكثرة الحديث فيها مما دعا السلطان لإعتقالهم ومعاقبتهم[1].

أما فيما يتعلق بالرواية الثانية فعلى الرغم من إبرازها لدور الفقيه ابن نجا في الكشف عن هذه المؤامرة إلا أنها مختلفة بعض الشيء في أحداثها بحيث تجعل من الرواية الأولى أكثر قبولاً إذ يذكر كل من ابن الأثير وابن واصل أن اللقاء الذي جمع بين القاضي الفاضل وعبد الصمد الكاتب كان السبب في الكشف عن هذه المؤامرة إذ كان من عادة عبد الصمد الكاتب إذا التقى القاضي الفاضل أن يكثر من التقرب منه، وذات مرة لم يلتفت للقاضي الفاضل عندها أدرك الأخير أن أمراً غريباً سيحدث وهو متعلق بالسلطان صلاح الدين، فخاف أن يكون لعبد الصمد باطن مع صلاح الدين فأخبر الفقيه بن نجا بالأمر وطلب منه الاستقصاء عن الأمر بحنكته وسياسته فسعى في كشفه، فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئاً، فعدل إلى الجانب الآخر، فكشف الحال" فأعلم القاضي الفاضل بذلك، وأمره بإخبار السلطان، فقام على أثرها باعتقالهم[2].

إن ما قام به الفقيه ابن نجا من جهود مضنية في الكشف عن هذه المؤامرة التي كانت تهدف إلى النيل من صلاح الدين وحركته الجهادية لدليل واضح على الدور السياسي الهام الذي ساهم به العلماء في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين والذي مثّل فيه العلماء أبهى صور التعاون مع السلطة السياسية.

وقد كشف القاضي الفاضل في رسالة مفصلة بعثها لنور الدين زنكي عن أحداث هذه المؤامرة أظهر فيها مراسلة المتآمرين للفرنج وإغرائهم بالقدوم لمصر، كما أبرز فيها دور السلطان في الكشف عن هذه المؤامرة من خلال تردد رسول الفرنج المدعو جرج [جورج جورجيوس] على المتآمرين حيث أخبر السلطان

---

(1) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 148-149، عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص 246.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 270، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 246.

بالحذر منه ومراقبته لمخادعته له، ومشاركته للمتآمرين فوضع السلطان من يراقبه حتى تبين له اجتماعه بالمتآمرين لقول القاضي الفاضل: "إنه رسول مخاتلة (خداع) لا رسول مجاملة، فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم". وعندما شاع أمر مؤامرتهم أمر السلطان بالقبض عليهم[1].

اعترف المتآمرون بجريمتهم بعد انكشاف أمرهم أمام السلطان صلاح الدين فحاولوا تبرير ما قاموا به بحجة ما كان من قطع أرزاقهم وأخذ أموالهم[2]. إلا أن ذلك لم يحل دون معاقبتهم، وهنا برز دور العلماء ثانية من خلال الفتوى التي قدموها للسلطان عندما استفتاهم في أمر عقاب المتآمرين المتعاونين مع الفرنج فأفتوا له بقتلهم وصلبهم ونفيهم[3]، وقد نفذ حكم الصلب فيهم في الثاني عشر من رمضان عام 569هـ/1173م[4]. فصلب منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الدّاعي، والعوريس، وكاتب السر عندهم وعبد الصمد القشة، ونجاح الحمامي ورجل منجم نصراني أرمني، وعمارة اليمني الشاعر[5]. وقد كان لنجاح السلطان في القضاء على هذه المؤامرة بمساعدة رجال دولته وعلمائه من الأهمية، بحيث أنهى أي دور سياسي للدولة الفاطمية وبدت مصر موحدة مذهبياً تمهيداً لمقاومة الفرنج وطردهم من مصر والشام.

سادساً: دور العلماء في الوحدة بين السلطان صلاح الدين والزنكيين:

شكلت وفاة الملك العادل نور الدين محمود عام 569هـ/1173م نهاية مرحلة وبداية أخرى جديدة مكملة لها من مراحل الجهاد الإسلامي بقيادة السلطان

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 188؛ الحياري، صلاح الدين وعصره، ص 169-172.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 304؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 186.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 186.

(4) البنداري، سنا البرق، ج1، ص 148-149.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 186.

صلاح الدين الأيوبي تمثلت بالسير في مشروع الوحدة الإسلامية استعداداً لمقاومة الفرنج لما كانت تقتضيه طبيعة تلك الفترة.

ابتدأ السلطان صلاح الدين مسيرته الوحدوية من مدينة دمشق لموقعها الاستراتيجي سياسياً وعسكرياً، ولما كانت تعانيه من ضعف أمرائها وانقسامهم[1]. وتركهم فيها قوة عسكرية ضعيفة غير قادرة على مواجهة الفرنج بقيادة الأمير شمس الدين بن المقدم الذي خرج للقائهم حينما قصدوا بانياس فتمت مهادنتهم بعد فرضهم قطيعة على المسلمين[2].

لم تنل سياسة المهادنة التي اتبعها أمراء دمشق رضى السلطان صلاح الدين مما اضطره لمراسلة علمائها لأهمية دورهم وتأثيرهم محاولة منهم لكسبهم إلى جانبه، ولتحريك الرأي العام وتمهيداً لمد جسور التعاون معهم بهدف مساعدته في التصدي للفرنج، وبرز ذلك واضحاً برسالته للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون والتي بيّن له فيها الآثار المرتبة على مهادنة أمراء دمشق للفرنج وتركهم الجهاد، ومبرزاً له أهمية الوحدة في مقاومة الفرنج بقوله: "وورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقيةُ بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد والعدو لهما واحد، ... وإن قعدنا فالعدوُّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد.. وإن العدو طالبٌ لا يغفل وجادٌ لا يَنْكُل وليثٌ لا يضيع الفُرصة، فإنه ما دام يعلم أنّا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، ولا يُمكنه أن يُزايل مراكزه"[3].

بعث السلطان صلاح الدين رسالة أخرى للأمير شمس الدين بن المقدم مقدم العسكر في دمشق وغيره من أمراء دمشق يلومهم على ما فعلوه، ويظهر لهم عزمه

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 62؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 470.

(2) البنداري، سنا البرق، ج1، ص 155-156؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 215-216.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 216. انظر: عبد القادر، الفكر العسكري عند صلاح الدين، ص 70-71.

على دخول دمشق حماية لهم من الفرنج[1] إلا أنهم أغلظوا له في الكلام خاصة ابن المقدّم إلا أن السلطان كشف له عن هدفه من القدوم لدمشق والمتمثل بتوحيد بلاد الشام، ورص صفوفها لمقاومة الفرنج لقوله: "إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم.. ولنا في الصلاح مراد، ولن يبعدنا عنه المراد.." [2].

لم تتكشف مواقف علماء الشام السياسية – بعد وفاة الملك نور الدين محمود – بوضوح تجاه سياسة صلاح الدين الوحدوية والمعادية للفرنج إذ حملت طابع التأييد الحذر تخوفاً من قوته العسكرية، دل على ذلك قول القاضي كمال الدين الشهرزوري لكبار أمراء دمشق: "قد علمتم أن صلاح الدين من ممالك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج من طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر.." [3]. إلا أن سياسة العلماء –فيما بعد– أخذت طابع التأييد المطلق لجهوده الوحدوية، بعد إدراكهم ضعف دمشق أمام الفرنج، وحاجتهم لمساعدته[4].

دخل صلاح الدين دمشق في ربيع الأول عام 570هـ/1174م دونما مقاومة[5] حتى عزي هذا الاستسلام السريع إلى تأثير رسالة السلطان صلاح الدين للقاضي ابن أبي عصرون وما كان له من تأثير على أهلها[6]. وما كان من عصيان خادم قلعتها جمال الدين ريحان فاستعان السلطان عندها بأحد كبار علماء المدينة، ومتولي أمرها القاضي كمال الدين الشهرزوري الذي حمّله بدوره رسالة له يدعوه

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 8.

(2) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 179؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 18؛ Sivan, L'Islam, Et la Croisade, P. 94.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 162؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 3.

(4) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 176-177؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 280؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 288.

(5) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 177؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 222-223.

(6) Sivan L' Islam Et la Croisade, P. 94.

لتسليم القلعة لما فيه وحدة المسلمين لقوله: "أنا مملوك الملك الصالح، ما جئت إلا لأنصره وأخدمه، وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه...". ثم دخل معه في مفاوضات لإقناعه بالتسليم حتى تم الأمر[1].

قامت استراتيجية السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق على قاعدتين (هدفين) اثنين: توحيد مصر وبلاد الشام والفرات تحت قيادة سياسية وعسكرية واحدة، والتحول التدريجي من سياسة المهادنة المتجددة (الدفاع) إلى سياسة الهجوم في العمق داخل المناطق التي كان الفرنجة يسيطرون عليها، وحتى يتمكن من تحقيق هذين الهدفين كان لابد له من اتباع سياسة تتسم بالمرونة والصبر والدبلوماسية، سواءً أكان ذلك مع دولة الخلافة أم الإمارات الأخرى، وتطلب ذلك منه إيقاف العمليات العسكرية ضد الفرنج ولو بشكل مؤقت، وعقد مهادنات معهم لأنه من الصعب العمل على جبهتين: الفرنج من جهة، والإمارات المعارضة للوحدة من جهة أخرى[2]. وقد كان للعلماء المعاصرين له الأثر الأبرز في تحقيق هذه الوحدة فكثير من المدن التي سلمت، وهادنت، وانصهرت بالوحدة كانت ثمرة طيبة لجهود العلماء ودبلوماسيتهم وحنكتهم حتى تحقق الهدف المنشود وهو وحدة البلاد الإسلامية.

وجه السلطان صلاح الدين أنظاره بعد استقراره في دمشق إلى فتح مدينة حلب، فنازل حمص وأخذها في جمادى الأولى من عام 570هـ/1174م ثم نزل حلب فاجتمع الزنكيون لمقاومته مما اضطره للرحيل عنها في رجب من العام نفسه[3]، ثم امتدت سيطرته على حماة في جمادى الآخرة من العام نفسه[4]، ثم عاود حصار حلب إلا أنه لاقى معارضة شديدة من الزنكيين حتى أنهم راسلوا الحشاشين،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 280.

(2) الحياري، صلاح الدين وعصره، ص 186.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 50.

(4) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 180.

وحرضوهم على قتله؛ مما أجبره على الرحيل للمرة الثانية[1] بعد عقده صلحاً مع الملك الصالح إسماعيل الذي لم يستمر طويلاً لتحريض صاحب الموصل سيف الدين غازي لهم ضده لما رآه من خطر، يهدد ممتلكاتهم، فحشدوا الحشود ضده لإخراجه من الشام فقاتلهم وهزمهم في موقعة تدعى تل السلطان عام 571هـ/1175م[2]. لكن الزنكيين عادوا لمصالحته عام 572هـ/1176م بعد أن وجدوا أنفسهم مضطرين لذلك وشمل هذا الصلح جميع الملوك الزنكيين[3].

كان استمرار النزاع السياسي على بلاد الشام بين السلطان صلاح الدين والأسرة الزنكية سبباً في لجوء السلطان صلاح الدين إلى التقرب من الخلافة العباسية ببغداد، وعقد مزيد من التعاون معها لما يعنيه اعترافها بشرعية حكمه من دلالة سياسية ودينية واضحتين، وتمثل ذلك بكتابه للخليفة عام 570هـ/1174م، بقلم القاضي الفاضل أوضح فيه سياسة السلطان صلاح الدين، والمتمثلة بسعيه لتوحيد الأمة وجمع شملها، ومطالبته الخلافة بتقليده ما ما تحت يديه من البلاد (مصر وبلاد الشام واليمن والمغرب، وكل ما تشتمل عليه البلاد النورية، وما يفتح باسم العباسيين على يد عساكره)[4]. وقد جاء رد الخلافة بالإيجاب والموافقة على "التقليد والتمليك والتحكيم والتفويض"[5].

تأتي أهمية كتاب السلطان صلاح الدين ورد الخلافة عليها بتحديد علاقة كل منهما بالآخر، وعلاقة السلطان بالأسرة الزنكية في الشام والجزيرة الفراتية

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 226-232. Stevenson, The Crusaders in the East, P. 211.

(2) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 190-203؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 247-248، 261 رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 659.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 278.

(4) انظر: نص الرسالة كاملة عند أبي شامة، الروضتين، ج2، ص 233-239، سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص 55-56.

(5) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 191.

والموصل، واعترافها بسلطته الحالية، وبمثابة حجة قوية بيده لتبرير مشاريعه الوحدوية للجهاد ضد الفرنج.

أدت بعض التطورات السياسية كوفاة صاحب الموصل عام 576هـ/1180م ووفاة صاحب حلب عام 577هـ/1181م[1] إلى تجدد النزاع بين آل زنكي والسلطان صلاح الدين حول شرعية كل منهما في الولاية على الشام بعد أن آلت حلب والموصل لحكم الملك عز الدين مسعود زنكي، فطمع على أثرها بالسيطرة على الشام كلها وذلك للحد من نفوذ صلاح الدين وسعياً لإعادة مجد دولة نور الدين زنكي[2]. إلا أن هذه السياسة لم ترق لصلاح الدين فبدأ بالاستعداد لمقاومتهم فتوجه للشام، وناشد الخلافة العباسية بالتدخل لبيان أحقيته بحلب بناء على تقليد الخليفة المستضيئ له، إلا أن موقفها كان سلبياً بتركها الأمر دون حسم بين الطرفين[3].

رأى السلطان صلاح الدين أن إحراز النصر على الفرنج لا يمكن تحقيقه إلا بتوحد الممالك الإسلامية جميعها بما فيها مصر والشام والموصل والجزيرة الفراتية والبلاد الشرقية وإشراك جميع عساكرها بالجهاد ضدهم، ولهذا سعى بجد لتحقيق هذا الهدف منذ خروجه من مصر للشام عام 578هـ/ 1182م. فاستهل ذلك بالمسير إلى البلاد الشرقية وحلب بعدما بلغه من مكاتبة أهل الموصل للفرنج، وترغيبهم لهم بقصد الثغور الإسلامية لإشغال السلطان عن قصدهم، فتوجه إلى بعلبك ثم حمص فحماة، ثم عبر الفرات[4]، وهناك رغبّه صاحب حران - مظفر الدين كوكبوري - بترك حلب والسير إلى الجزيرة الفراتية معقل الأسرة

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 180-182.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 182.

(3) انظر: تفاصيل الكتاب بقلم العماد الأصفهاني لدار الخلافة عند ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 110-112.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج2، ص 17-23.

الزنكية[1]. فعسكر السلطان صلاح الدين على الفرات غربي البيرة، وبعث بكتاب لملوك الأطراف يدعوهم للدخول في طاعته لقوله: "من جاء مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان واتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة". فجاء صاحب حصن كيفاً مذعناً وطائعاً[2]. ثم تابع سيره في البلاد الجزيرية فنازل الرُها وتسلمها من صاحبها، ووصل حران ورتّب أمورها، واتجه للرقة فسلم له صاحبها البلاد، ثم مد سلطته للخابور ونصيبين ومدن أخرى[3]. وبهذه الفتوحات يكون السلطان قد استعاد البلاد التي كانت بيد نور الدين سابقاً شرقي الفرات، ولم يبق خارج نفوذه إلا البلاد التي بيد أمراء آل زنكي: كالموصل وسنجار، وجزيرة ابن عمر، فبدأ بمنازلة الموصل[4].

كانت محاولة السلطان صلاح الدين لاحتلال الموصل سبباً في بروز الدور الدبلوماسي للعلماء، فعندما علم صاحب الموصل بنية السلطان لاحتلال بلاده استعان بصاحب همذان - بهلوان بن ايلدكز- طالباً التحالف معه ضد السلطان صلاح الدين، فوافقه على ذلك لكنه اشترط عليه شروطاً قاسية كان من الصعب عليه قبولها؛ مما دعاه للجوء للحل الدبلوماسي بالاستنجاد بالخليفة العباسي الناصر لدين الله بإرساله الفقيه، بهاء الدين بن شداد رسولاً للخليفة للتوسط لدى السلطان صلاح الدين لوقف تهديداته للموصل في رجب عام 578هـ/1182م فما كان من الخليفة إلا أن أسند القيام بهذه المهمة لعالم آخر[5]، وهو صدر الدين شيخ الشيوخ[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 23-24؛ الحياري، صلاح الدين وعصره، ص 197.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 24-26؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 77-88.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 27-30؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 80-81.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 118؛ الحياري، صلاح الدين وعصره، ص 197.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 57؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 122. انظر: العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص 199.

(6) هو عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد كان من كبار رواة الحديث ومشايخ الصوفية، تولى مشيخة الشيوخ ببغداد بعد وفاة والده عام 541هـ/1146م. وكان فاضلاً ورسولاً بين الخلافة والسلطان

الذي سبق أن أنيطت له بعض المهام السياسية المتعلقة بدار الخلافة[1]، وقد كان لمكانة هذا الفقيه وعلاقته بالسلطان صلاح الدين أثرها في تكليفه بهذه المهمة[2].

توجهت رسل الخلافة العباسية لدمشق يتقدمهم صدر الدين شيخ الشيوخ، وشهاب الدين بشير، فاستقبلهم السلطان وعدد من مستشاريه ومنهم العماد الأصفهاني، وقد أظهر صدر الدين شيخ الشيوخ مساعيه للصلح بين الطرفين فبدأ بتهدئة غضب اتباع السلطان[3] ثم أرسل وراء رسل الموصل للبدء بالمفاوضة معهم كما طلب من السلطان أيضاً أن يبعث له بعض رسله ممن يثق بهم للمشاركة في مفاوضات الصلح، فأرسل إليه السلطان ثلاثة من كبار العلماء: القاضي الفاضل، والفقيه ضياء الدين الهكاري، والعماد الأصفهاني[4]، وفي هذا بيان لمساهمة العلماء في المفاوضات حرصاً على وحدة العالم الإسلامي أثناء المواجهة مع الفرنج.

بدأ صدر الدين مفاوضاته مع أهل الموصل مستوضحاً منهم عن شروطهم لقبول الصلح، فاشترطوا على السلطان لقبول المفاوضات انسحابه من البلاد التي أخذها (بالعودة إلى الفرات)، وعلى الرغم من مماطلتهم له، إلا أنه وافق على الانسحاب الذي طلبوه ولكنه اشترط في المقابل أن ترد إليه حلب[5]، لكنهم رفضوا شرطه هذا.

صلاح الدين والمماليك الأخرى، توفي عام 580هـ/1184م، بالرحبة. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 135-136؛ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 571-581هـ، ص 308؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 89.

(1) انظر: قيامه بحمل التفويض والتقليد من الخليفة العباسي لصلاح الدين الأيوبي عام 576هـ/1180م. البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 253.

(2) عن علاقته بالسلطان صلاح الدين ومرافقه له لمصر عام 576هـ/1180م. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 101؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 70-71.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 36-37.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص38.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص38.

لم يكن مفاوضو أهل الموصل جادين في الوصولِ للصلح ودليلُ ذلك اعتذار عدد من العلماء المرافقين للسلطان صلاح الدين عن الاستمرار في المشاركة في المفاوضات إلا العماد الأصفهاني الذي أبدى تحفظاً على طريقتهم في المفاوضات بأنهم يظهرون الوفاق ويذهبون إلى الخلاف في سرهم، وعلى الرغم مما قدّمه السلطان من تنازلٍ لهم عن البلاد بشرط "أن يتركوا إنجاد صاحب حلب عليه"، إلا أن صاحب الموصل عز الدين مسعود رفض ذلك بحجة عهوده ومواثيقه المعقودة مع أخيه عماد الدين زنكي والتي لا يُمكنه نكثها، ونتيجة لتشدد مواقف أهل الموصل انتهت المفاوضات بينهما دون حلٍ للخلاف، مما دعا شيخ الشيوخ صدر الدين الرجوع لبغداد دون أن يحقق نجاحاً بأمر الصلح[1].

أدى فشلُ المفاوضات بين السلطان صلاح الدين وأهلُ الموصل إلى توجه السلطان لفتح بلدة سِنجار[2] لضمها للمالك الإسلامية الأخرى لما كان لعساكرها مَن ضرر بقطعهم الميرة، والإغارة على عساكره أثناء حصاره للموصل، حتى تمكن منها في رمضان عام 578هـ/1182م[3]، ثم نازل آمد[4] في ذي الحجة من العام نفسه. بعد أخذه إذن من الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فتمكن منها هي الأخرى في محرم عام 579هـ1183م[5].

وتبرز أهمية ضم مدينة آمد لنفوذ السلطان صلاح الدين بما تركته من أثرٍ في تقوية جبهته العسكرية لما كان فيها من ذخائر وأسلحة[6]، ولمشاركة أهلها في

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص39-40؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص112-123.

(2) مدينة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص262. مادة سنجار.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص40-42؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص70.

(4) كانت بيد شيخ كبير يخضع للسلاجقة، ولكنه لم يكن له من السلطة سوى الاسم. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص136-137.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص95-97.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص95-97؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص134-126.

الجهاد ضد الفرنج، إذ عهد السلطان بولايتها للأمير نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن أرتق – صاحب حصن كيفا – بعد أخذ العهود والمواثيق عليه للإنضواء تحت لوائه للجهاد لقول ابن واصل: "وأنه متى استمّده لقتال الفرنج سارع إليه"[1]. كما كان فتحها سبباً في تتالي رُسل ملوك الأطراف إلى السلطان طالبين الأمان، وجعلهم من أنصاره ومنهم صاحب ماردين، وميَّافارقين فأجابهم السلطان[2].

توجه السلطان صلاح الدين بعد فتح آمد لحلب بقصد فتحها فقد كانت مطلباً له لما لها من أهمية في حركة الجهاد ضد الفرنج، فهي تربط البلاد الشرقية بغيرها من مدن الشام فحاصرها في محرم عام 579هـ/1183م وعلى الرغم مما أبداه عساكرها من استعدادٍ للقتال إلا أن ضعف واليها عن المواجهة وعدم رغبته في إنفاق الأموال على جنده وأمرائه جعله يُظهر ميلاً لتسليم المدينة، وأخذ العوض عنها، وعلى أثرها جرت مفاوضات للصلح بين السلطان وصاحب حلب فخضعت له دونما مشقة[3].

برز الدور السياسي للعلماء بشكل جلّي من خلال مساهمتهم في التوسط لدى صاحب حلب لعودتها لنفوذ السلطان صلاح الدين دون إراقة الدماء. وتمثل ذلك بموقف الفقيه حسام الدين طمان، فعلى أثر الضعف العسكري الذي كان يعاني منه صاحب حلب استدعى الفقيه طُمان واستشاره في أمر حلب قائلاً له: "ما عندك في أمرنا ؟ هذا الملك الناصر قد نزل محاصراً لنا، ... والظاهر أنه يطيل الحصار ... وتعلم أنني أخذتُ حلب خالية من الخزائن والجند ... ولا أدري عاقبة هذا الأمر

---

(1) مفرج الكروب، ج2، ص136-137.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص102.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص59؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص553. وعن خضوع حلب للسلطان صلاح الدين انظر: Cahen, La syrie Du Norda L' epoque Des Croisades, P. 421.

إلى ما ينتهي"، وطلب منه أن يكون رسولاً لدى السلطان صلاح الدين، فوافقه وأشار عليه بتسليم المدينة للسلطان، إلا أن صاحب حلب اشترط عليه أن تكون مفاوضات التسليم في غاية السرية[1]. ومما يدل على سرّيتها أنها تمت دون أن يشعر أحد من الرعية أو العسكر[2]. وفي هذا دليل على عظمة نشاط العلماء ومهارتهم.

أظهر الفقيه حسام الدين دهاءً وحكمة واضحتين في إقناع صاحب حلب بتسليم المدينة للسلطان صلاح الدين بقوله: "أرى من الرأي في حلب أن تسلمها إلى الملك الناصر[3]، بجاهلها وحرمتها قبل أن تنتهك حُرمتها ... وتفنى الأموال وتضجر الرجال ... فيتقوى هو وعساكره، ونحن لا نزداد إلا ضعفاً ... ثم قد أصبح ملكاً عظيماً، وهو صاحبُ مصر وأكثر ملوك الشام، وملوك الشرّق قد أطاعوه، ومعظم الجزيرة..."[4]، فخرج الفقيه حسام الدين لمقابلة السلطان[5]، والتفاوض معه في أمر الصلح وتسليمه حلب، وقد تفاوضا حتى أفضى أمرهم لتسليم حلب مقابل تسلّم عماد الدين زنكي بلدة سنجار عوضاً عن حلب، وزاده السلطان الخابور ونصيبين، والرّقة وسروج[6] وعلى الرغم من النجاح البارز الذي حققه الفقيه حسام الدين طمان في هذه المفاوضات والتي كوفئ عليها بإعطائه ولاية

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص553.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص59.

(3) يقصد به السلطان صلاح الدين.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص553.

(5) عن العلاقة القديمة بين السلطان صلاح الدين والفقيه طمان. انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص118.

(6) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص12؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص105؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص376.

الرقة[1] إلا أنه كان للعماد الأصفهاني دورٌ مماثل في هذه المفاوضات من خلال كتابته لاتفاق الصلح وإقرار شروطه[2].

حظي هذا الصلح بأهمية بالغة لفعاليته في دفع حركة الجهاد وتقويتها، وذلك بالاشتراط على صاحب حلب إرسال عساكره للجهاد ضد الفرنج عند الغزو، وقد أوضح القاضي الفاضل أهمية ذلك بقوله: "فتحنا مدينة حلب ... فهي بيدنا بالحقيقة لأن مرادنا من البلاد رجالها ... ومناظرتها للعدو ... وأن تعظم في العدو الكافر نكايتها"[3].

كانت مسألة الموصل ورفض أهلها الدخول في الوحدة مع السلطان وانصياعها لسلطته من أبرز القضايا التي استعصت عليه، ونالت منه جهوداً دبلوماسية كبيرة جداً، لما كان يشكله أمر الصلح معها وانضمامها له من أهمية؛ لتوسيع جبهة المسلمين لمقاومة الفرنج، ولهذا فقد استغرقت مراسلاته لتحقيق ذلك فترة طويلة امتدت بين (578-581هـ) (1182-1185م). وقد كان للعلماء الدور الأبرز في إتمامها، من خلال قيامهم بالسفارة بين الطرفين.

أدى الخلاف المحتدم بين السلطان صلاح الدين وصاحبِ الموصل إلى لجوء كلّ منهما للتحالف مع قوى أخرى وقد كان تمرد كل من أميّري[4] إربل – زين الدين يوسف– وجزيرة ابن عمر –الأمير معز الدين سنجر شاة–[5] على صاحب الموصل سبباً في تأزم العلاقة بينهما عام 579هـ/1183م، وذلك

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص108؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص26.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص120.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص105.

(4) يعود سبب تمردهما غضباً للأمير مجاهد الدين نائب الأمير عز الدين مسعود صاحب الموصل ومدبر دولته أثر القبض عليه دون سبب إذا كان مدبراً لأمر (إربل وشهرزور، ودقوق وجزيرة ابن عمر). انظر: ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص183.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص166؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص183.

لمراسلتهما صلاح الدين، وإعلانهما الطاعة له، فأجابهما لطلبهما[1]. مما أثار حفيظة صاحب الموصل ولجوئه للخليفة العباسي الناصر لدين الله للوساطة لدى السلطان صلاح الدين لرد المتمردين إلى طاعته وتراجعهما عن مخالفته، طالباً منه إرسال صدر الدين شيخ الشيوخ سفيراً لمفاوضة السلطان صلاح الدين بشأن الصلح[2].

وافق الخليفة على القيام بأمر الوساطة بينهما فبعث برسول دار الخلافة المعهود إليه بالترسل – صدر الدين شيخ الشيوخ – إلى السلطان، وسيّر معه شهاب الدين بشير الخادم، فنزلا الموصل عند صاحبها، والذي بدوره كلف اثنين من كبار علماء الموصل لمرافقة الوفد لنقل وجهة نظر أهل الموصل للسلطان وهما: القاضي محي الدين الشهرزوري[3] وبهاء الدين بن شداد. وذلك في ذي القعدة عام 579هـ/1183م[4]. وفي هذا تأكيدٌ واضح على نشاطهم السياسي في هذه الفترة لرأب الصدع بين المسلمين وتحقيق وحدتهم.

يظهر أن هذه المفاوضات كانت كسابقتها، فعلى الرغم من مفاوضة الوفد للسلطان، لعِدةٍ أيام ومراجعته لمرات عديدة للفصل في أمر الصلح إلا أنهم لم يتوصلوا معه لاتفاق، مما دعاهم لمغادرة دمشق إلى الموصل[5]. وقد زودنا كل من العماد الأصفهاني، وابن واصل بتفاصيل ذلك اللقاء فذكرا أن القاضي الشهرزوري حاول إقناع السلطان صلاح الدين بالتخلي عن عهوده التي قطعها لصاحب إربل،

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص166؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص154.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص64.

(3) محمد بن كمال الدين محمد بن عبد الله، ولد عام 515هـ/1121م كان فقيهاً تفقه ببغداد ثم انتقل للشام فولي قضاء دمشق وحلب، وبلغ مكانة عالية عند الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، ثم انتقل للموصل فعمل فيها مدرساً ثم قاضياً. توفي عام 586هـ/1190م. انظر: المنذري، التكملة لوفيات النقلة، مج1، ص241-242؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4، ص246-248.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص65. انظر: حامد، أبناء الشهرزوري، ص121.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص65.

وجزيرة ابن عمر لردهما لطاعة صاحب الموصل لكن السلطان رفض ذلك لقولـه: "...ولكن قد سبق مني يمينٌ لأولئك السلاطين فأنا أستثنيهم وأَرُدُّهم إلى اختيارهم لي أوْ له"[1]. بمعنى إعطائهم الحرية والخيار كما ذهب السلطان إلى استبعاد ذكرهم في هذا الاتفاق كحلٍ للخلاف القائم بينهما إلا أن هذا الرأي لم ينـل إعجـاب العمـاد الأصفهاني (كاتب السلطان ومستشاره) الذي لم يكن من المشاركين في مفاوضـات الصلح هذه منذ بدايتها[2]؛ ولكنه تدخل في اللحظات الأخيرة منهـا حيـث تحريـر النسخ والتحليف مما جعل السلطان يطلب مشورته ويأخذ برأيه لقوله: "اكتب شرطاً يكون لنا في الوفاق قدوة" وهنا أبدى العماد اعتراضه على استثناء حلفاء الـسلطان من الاتفاق وضرورة الوفاء بالعهود المقطوعة لهم بقوله: "فكيف تـستثني بأولئـك الذين توثقوا بعهدك... وهؤلاء لا يرضون بالاستثناء [يقصد أهـل الموصـل] ولا يأتون إلا بالإباء، وكيف تتسبب إلى ترك الوفاء ..." فأشار عليه العماد الأصـفهاني بقوله: "تحـلّف لصاحب الموصل على موصِله... وتجعل أمر أصحاب تلك الـبلاد إلى اختيارهم، وتجريهم على إيثارهم..."[3].

نال هذا الاتفاق موافقة شيخ الشيوخ إلا أن القاضي محي الدين الشهرزوري عارضه وأصر على عودة المتمردين (صاحب إربل، وجزيرة ابن عمر) إلى طاعة صاحب الموصل رافضاً إعطائهما الحرية للانضمام إلى أي من الطرفين كمـا أراد السلطان والعماد الأصفهاني لقول الشهرزوري: "لا تقبل وهذا ممـا يـستحيل ... وأولئك من بلادنا ونوّابنا ... وفي خروجهم علينا ما لا خفاء من تفريق الكلم..."[4] وبهذا فشلت محاولة العلماء الصلح بين السلطان وأهل الموصل.

---

[1] أبو شامة، الروضتين، ج3، ص129؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص155-156.

[2] لقد أعفي من هذه المهمة لصداقته للقاضي محي الدين الشهرزوري منذ أيام المدرسة النظامية ومـا بعدها في عهد الملك نور الدين. انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص167.

[3] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص167؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص355-356.

[4] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص167؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص65؛ الحيـاري، صلاح الدين وعصره، ص199-200.

لم تنقطع السفارات بشأن مسألة الموصل وإنهاء خلافاتها مع السلطان صلاح الدين، فقد وصلت سفارة أخرى من قبل الخليفة الناصر لدين الله للسلطان صلاح الدين إلى دمشق عام 580هـ/1184م أثناء حصاره الكرك والتي تكرر فيها دور صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل، إلا أن هذه السفارة فشلت كسابقتها، فرجع صدر الدين شيخ الشيوخ لبغداد ولكنه توفي أثناء عودته بمنطقة تدعى الرحبة[1].

بدأ السلطان صلاح الدين الاستعداد للجهاد، فأرسل منشوراً لصاحب إربل يُقره فيها على البلاد، ويدعوه للإعداد للجهاد، والسعي لجمع كلمة المسلمين لقوله: "رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله، ... وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه، ونجمع كلمتهم ..."[2]، ولكن أهل الموصل وصاحب العجم ردوا على ذلك بنزولهم إربل، إلا أن صاحبها تمكن من كسرهم، وكانت تلك الحادثة سبباً في تعجيل السلطان بالتوجه للموصل، ومحاصرتها[3].

نزل السلطان الموصل في ربيع الأول من عام 581هـ/1185م بعدما كان من تحالف ملوك الشرق ضده، ويساندهم في ذلك صاحب الموصل لمنعه من قصد بلاده، وبلدة ماردين[4] وقام السلطان صلاح الدين قِبل مهاجمته المدينة بإرسال القاضي ضياء الدين الشهرزوري[5] رسولاً من قبله للخليفة العباسي[1] لإخباره

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص135، مفرج الكروب، ج2، ص162.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص143؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص163.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص67.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص67.

(5) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله، كان فقيهاً ومحدثاً وهو ابن أخي القاضي كمال الدين الشهرزوري، تولى قضاء دمشق بعد عمه، حظي بمكانة عظيمة عند خلفاء بني العباس ببغداد، توفي بحماة عام 599هـ/1202م ودفن بدمشق. انظر: أبو شامة، الذيل، ص56؛ ابن خلكان، وفيات

بعزمه على محاصرة المدينة، محاولة منه لكسب تأييده ضد أهل الموصل لما كانوا عليه من سياسة معرقلة لوحدة المملكة الإسلامية لقوله: "إن أهلها يخطبون لسلطان العجم، وينقشون السكة باسمه، وإنهم يراسلون الفرنج، ويغرونهم على قصد بلاد المسلمين ... وإنه لم يأت لأجل الازدياد في الملك ... وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام، ... وقطعهم عن مواصلة العجم..."[2].

استجدت أثناء حصار السلطان للموصل مستجدات أجبرته على الرحيل عنها، والتوجه لخلاط بعد مراسلة صاحبها له لتسليم البلاد لحمايته من صاحب العجم – بهلوان ابن ايلدكز – الذي كان يتطلع لأخذها منه، فقام السلطان صلاح الدين بتسيير الفقيه عيسى الهكاري إلى صاحب خلاط لتسلم المدينة منه، إلا أن صاحبها تراجع عن وعوده للسلطان صلاح الدين، واعتذر لرسله[3]. وعلى الرغم من فشل مهمة الفقيه الهكاري هذه إلا أنها تؤكد على أهمية النشاط السياسي الذي مارسوه خلال هذه الفترة.

ظهرت مساهمة العلماء في توحيد الممالك الإسلامية بعد الحصار الثالث للموصل[4] من قبل السلطان صلاح الدين في ذي الحجة من عام 581هـ/1185م، وبرزت واضحة بمساعي الفقيه بهاء الدين بن شداد ممثل صاحب الموصل للسلطان صلاح الدين.

فبعد يأس السلطان صلاح الدين من أمر خلاط عاد لحصار الموصل، إلا أن ظروف مرضه حالت دون تحقيق ما يريد الأمر الذي دعاه للرحيل إلى حرّان.

الأعيان، مج4، ص244-245. وقد سبق للفقيه ضياء الدين أن كُلف من قبل صلاح الدين بمهام سياسية لدار الخلافة. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج3، ص34.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص147.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص147؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص166.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص69.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص70؛ العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص200.

هذه الظروف دفعت السلطان باتجاه قبول فكرة الصلح مع أهل الموصل، ومن مظاهر ذلك أن بعث رسولاً لصاحب سنجار طالباً منه التوسط في الصلح[1]، في الوقت الذي بعث فيه صاحب الموصل رسولاً لصاحب العجم لنجدته ضد السلطان صلاح الدين فلم يجبه لذلك؛ مما دعاه لتسيير الفقيه بهاء الدين بن شداد للخليفة للغرض نفسه لكن دون نتيجة تُذكر[2].

استغل أهل الموصل فرصة مرض السلطان ورقة قلبه لإقناعه بأمر الصلح بعد أن فقدوا الأمل في النجدة، فعهد صاحبها للفقيه بهاء الدين بن شداد بالسير إليه للتوسط في أمر الصلح لقول ابن شداد: "فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب، وفوَّض إلي أمر النسخة التي يحلف بها، وقالوا امضيا ما وصل إليه جُهدكما وطاقتكما، فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم آيسون من السلطان. وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة ... وجلس لنا ... وأخذنا منه بين النهرين، وكان أخذها من سنجر شاه، فأعطاه المواصلة، ..."[3].

أشار العماد الأصفهاني إلى وقوع الصلح، وما ترتب عليه بقوله: "تنزل لنا صاحب الموصل عن جميع ما وراء الزَّاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور معاقلها وأعمالها وولاية بني قفجاق، وولاية القرابلي والبوازيج وعانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أن يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا وتكون الخطبة والسِّكة باسمنا،..."[4].

كان لجهود السلطان صلاح الدين وعلماء عصره آثارها الواضحة فيما تحقق من وحدة وتقوية لجبهة المسلمين للتصدي للفرنج لدرجة أنه: "خطب في

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص152؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص171.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص70.

(3) ان شداد، النوادر السلطانيةن ص 70..

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص52. انظر: أيضاً أبو الفداء، المختصر، ج5، ص93، قلعجي، صلاح الدين، ص292.

جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقية، وفي ديار بكر والولايات الأرتقية..."[1] وبهذا تمكن السلطان بدبلوماسيته أحياناً وبالتهديد والقوة العسكرية تارة أخرى من تحقيق وحدة مصر والشام وبلاد شرق الفرات تحت سيادته، وإلزام بقية القوى حتى حدود بلاد العجم بالمشاركة في الجهاد[2]. فاجتمعت جميع عساكر البلاد بيد السلطان صلاح الدين وكان من ثمرة الوحدة التي تحققت أن هزم الفرنج في حطين وغيرها من المواجهات[3].

سابعاً: رسل السلطان صلاح الدين لدار الخلافة العباسية أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي):

على الرغم مما كانت تعانيه الخلافة العباسية من ضعفٍ في أحوالها العامة بسبب تسلط العناصر غير العربية، إلا أنها احتفظت بمكانتها المعنوية مما جعل الكيانات التي تحكم العالم الإسلامي تُبقي على علاقاتها مع الخلافة طلباً للشرعية كالزنكيين والأيوبيين[4]، وظهر ذلك واضحاً بكثرة تراسلها وتبادل السفارات بينهما بهدف طلب المساعدة والإنجاد[5]، أو لبيان حجم انتصاراتها على الفرنج والتي كان

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص152.

(2) الحياري، صلاح الدين وعصره، ص203؛ Cahen, La syrie Du Norda L' epoque Des Croisades, P. 421.

(3) القزاز، الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير، ص263-264.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 233-239. انظر: مبعوث الخليفة العباسي للسلطان صلاح الدين لطلب الخطبة لولي عهده؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص38-39؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص332.

(5) انظر: بعثة القاضي ضياء الدين الشهرزوري والعماد الأصفهاني لدار الخلافة عام 574هـ/1178م والتي كانت بهدف طلب المساعدات المادية. العماد الأصفهاني، البرق، ج3، ص88/89. انظر: مساعدة الخليفة العباسي للسلطان صلاح الدين أثناء حصار عكا عام 585هـ/1189م والتي تمثلت بحملان من النفط، وكمية من الأموال تقترض من التجار باسم الخليفة، وبعض آلات الحرب. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص118.

العلماء في الأغلب حملة لهذه الرسائل، لما عرف عنهم من مكانة اجتماعية ودينية وثقافية. كما حاولت الخلافة العباسية التقليل من شأن ضعفها أحياناً، ومحاولة تبريره بإيفادها الرسل والسفارات، وتقديم وعودها بالمساعدة ولكن دون أية نتائج عملية ملموسة[1].

تعد سفارة القاضي ضياء الدين الشهرزوري لدار الخلافة عام 585هـ/1189م بعد انتصار السلطان صلاح الدين في عكا – من أهم السفارات التي تم تبادلها مع دولة الخلافة لما حملته من دلالات سياسية بالغة الأهمية في هذه الفترة الحرجة، وقد حمل القاضي الشهرزوري معه في هذه البعثة هدايا وبعض أسارى الفرنج، وصليب الصلبوت، بالإضافة لبعض التحف لقول أبي شامة: "وسيّرت معه الهدايا، والتّحف السّنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وعُددها النفائس، وتاج ملكهم السّليب والملبوس والطّيب، والصّليب، وهو الذي كان فوق قبة الصخرة المقدسة ليدلّ على تطهير ما كان هناك من الأسباب المدنّسة – وسار – رسولهم رسول السلطان، ودخلا بغداد وأسارى الفرنج على هيئتها يوم قراعها راكبة حُصنها في طوارقها وبيارقها وأدرعها..."[2]. ثم قام أهلُ بغداد بدفن صليب الصلبوت تحت عتبة باب النوبى من دار الخلافة، فأصبح يُداس بالأقدام بعد ما كان يُعظم ويباس[3].

عكست هاتان الروايتان دلالتين سياسيتين واضحتين أولهما: محاولة السلطان صلاح الدين إبراز انتصاراته وبطولاته في الشام وهزائمه للفرنج، وفي هذا دعاية واضحة لإنجازاته السياسية والعسكرية، وثانيهما: تقديمه الدعم السياسي

---

(1) انظر: مبعوث الملك سيف الدين غازي بن أتابك (الشريف شمس الدين محمد بن محمد الحسيني إلى دمشق بعدما كان من قيام الخلافة العباسية بندب رسولٍ من عندها لملوك المسلمين تدعوهم لنجدة أهل دمشق ضد الفرنج عام 543هـ/1148م. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص301.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص39؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص279-280.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص39؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص102.

لدار الخلافة، ومحاولته إشراكها بهذه الإنجازات، ولو بشكل معنوي لما تمثله الخلافة من هيبة وسلطة شرعية ودينية عند المسلمين وفي هذا أيضاً اعتراف بدورها السياسي وأهميتها ولو بشكل صوري.

كان لتطور الأحداث السياسية والعسكرية على الجبهة الإسلامية في عكا عام 585هـ/1189م وما بعدها دورٌ كبير في تزايد السفارات بين السلطان صلاح الدين والخلافة العباسية طلباً للمساعدة والنجدة، حيث كان لتواصل الأخبار بقدوم ملك الألمان (بربروسة) وخروجه للقسطنطينية بجموعٍ عظيمة وقع كبير على السلطان، مما استدعاه لإرسال عدد من السفراء للخليفة العباسي، وأمراء الممالك الإسلامية لإعلامهم بما تشهده بلاد الشام من مواجهات مع الفرنج، وما يعانوه من ظروف صعبة في عكا بقصد إنجادهم ومساعدتهم فانتدب لهذه المهمة اثنين من العلماء وهما: الفقيه بهاء الدين بن شداد[1]، والقاضي ضياء الدين الشهرزوري[2].

كشف ابن شداد عن تفاصيل هذه المهمة السياسية التي أسندها السلطان إليه عام 585هـ/1189م لقوله: "فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل وصاحب إربل، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى محروسة بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة..."، ثم يتابع الحديث عن نجاحه في هذه المهمة بإجابة جميع الأمراء لمطالب السلطان، ووعدهم له بأن يلحقوا به، فقفل راجعاً وبشر السلطان بإجابة الأمراء له، وتأهبهم للمسير، فأبدى فرحه وسروره بذلك[3].

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص115؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص310-311، القزاز، الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير، ص257، رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص40.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص310-311.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص115.

أما فيما يتعلق بمهمة القاضي ضياء الدين الشهرزوري التي تزامنت مع مهمة الفقيه بهاء الدين بن شداد فلا نعرف القصد من إرسال سفارتين في آن واحد، بدليل التقاءهما في حلب أثناء رجوع القاضي ضياء الدين من مهمته، وقدوم ابن شداد إلى بغداد لتأدية هذه المهمة، الأمر الذي أغضب القاضي الشهرزوري، وجعله يتساءل عن سر إرسال ابن شداد وراءه لقوله: "إني قد بلغت المراد، فما هذا الرسول الرايح"[1] إلا أنه من المرجح أن المهمتين كانتا منفصلتين، فمهمة ابن شداد كانت أكبر، ولم تكن مقصورة على جهة واحدة كما هو حال مهمة الشهرزوري إلى الخليفة العباسي، بدليل صداقتهما ومكانته عنده، والجواب الذي أعطي لبهاء الدين بن شداد عندما سئل عن رد الخلافة على مطلب السلطان لقولهم له: "جواب ما أتيت به مع ضياء الدين"[2]. أضف إلى ذلك أن مهمة الفقيه بهاء الدين بن شداد كانت لممالك إسلامية أخرى غير دار الخلافة، سببها تضعضع الأوضاع بعد ذهاب القاضي الشهرزوري مما اقتضى تسيير سفارة ثانية. وأضاف الحياري سبباً آخر يكمن في معرفته لحكام هذه الإمارات، وللخليفة العباسي أيضاً[3]. إذ سبق له الاستنجاد بدار الخلافة من قبل عندما تأزمت العلاقة بين صاحب الموصل والسلطان صلاح الدين.

ثامناً: دور القاضي بهاء الدين بن شداد في مراسلات الصلح مع الفرنج:

برزت مساهمات القاضي بهاء الدين بن شداد السياسية أثناء فترة الحروب الفرنجية (الصليبية) من خلال نشاطه في مفاوضات الصلح بين المسلمين والفرنج عام 587هـ/1191م، لمكانته ومنزلته عند السلطان صلاح الدين وأخيه الملك العادل، حيث تمكن من الاطلاع على تفاصيل شروط الصلح بين الملك العادل وملك

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص310-311.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص311.

(3) الحياري، صلاح الدين وعصره، ص391.

انكلترا Richard of England (ريتشارد قلب الأسد) المدعو بملك الإنكتار[1] فكان الواسطة والرسول بين الملك العادل وأخيه السلطان صلاح الدين بعد أن استدعاه الملك العادل هو وعدد من أمراء صلاح الدين شارحاً لهم ما استقرت عليه قاعدة الصلح بينه وبين الأنكتار[2] ثم طلب منه تبليغ السلطان بما استقرت عليه الأمور لكنه اشترط عليهم أن يوكل أمر الحديث مع السلطان للقاضي بهاء الدين بن شداد لقوله: "وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون..." وطلب الملك العادل من ابن شداد عرض ذلك على السلطان صلاح الدين فإن رأى فيه مصلحة للمسلمين شهد عليه بالإذن في ذلك والرضى به؛ وإن رفض ذلك شهد عليه ابن شداد والأمراء الذين معه أن الصلح انتهى إلى هذه الغاية، وأن السلطان هو الذي رأى إبطاله[3].

تمكن ابن شداد من إيصال رسالة الملك العادل للسلطان صلاح الدين بعد وصوله إليه وبحضور الأمراء، فبادر السلطان بالموافقة عليها؛ لاعتقاده أن الملك لانكتار لا يوافق على ذلك أصلاً، وكرر ابن شداد ذلك على السلطان ثلاث مرات للتأكد من موافقته حتى أكد السلطان له ذلك، ثم رجع ابن شداد لإخبار الملك العادل

---

(1) الانكتار هو لقب عُرف به الملك ريتشارد قلب الأسد في بلاد المسلمين وهذا اللقب يعني الإنكليزي وهو تحوير للمفرد الفرنسي، انكتير مع إسقاط اللام للتسهيل وما يزال يستخدم في الإنكلتير والانكتار عند ابن الأثير وابن واصل. انظر: رستون، مقاتلون في سبيل الله، ص341.

(2) استقرت القاعدة بينهما على زواج الملك العادل باخت الانكتار وأن يكون مستقرها ببيت المقدس على أن يعطيها أخاها الملك بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان، ويجعلها ملكة الساحل وأن يُسلم الصلبوت، وأن تكون القرايا للداوية والاسبتارية، والحصون لهما، وأن تفك أسارى المسلمين وأسرى الفرنج، ثم يرحل الانكتار لبلاده، وينقضي بذلك الأمر. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص195؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص195.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص195.

بما جرى وعرّفه موافقة السلطان بشهادة الأمراء"[1] وعلى ذلك استقرت قاعدة الصلح بينهما. وبموافقة السلطان سيّر العادل رسولاً للملك الانكتار فأعلمه الانكتار رفض الملكة الزواج من الملك العادل، وإنكارها لذلك إنكاراً عظيماً، إلا أنه وعد بإتمام الأمر إن تنصّر الملك العادل[2].

أما فيما يتعلق بمعاهدة الصلح الموقعة مع الفرنج عام 588هـ/1192م والمعروف بصلح الرملة[3] فلا نعرف طبيعة المهام التي مارسها الفقيه بهاء الدين بن شداد في التأثير على السلطان صلاح الدين، إلا أن يوميات ابن شداد تؤكد على أن حواراً ونقاشاً قد حدث بينهما بأمره، وأن السلطان صلاح الدين لم يكن راغباً في عقد الصلح[4] بدليل قوله لابن شداد في أثناء محاورته له: "أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تلٍّ – يعني – حصنه ..." وقال: "لا أنزل، ويهلك المسلمون"[5]. ولم يكن إقدام السُلطان على قبول المفاوضات وعقد اتفاقية سلام مع الفرنج بسبب عجزه عن الاستمرار في الجهاد بقدر ما كان لتزايد الخطر الفرنجي (الصليبي) على المسلمين خاصة عقب وصول الحملة الصليبية الثالثة، وما نتج عنها من ظروف عسكرية واقتصادية جعلت السلطان مجبراً على قبول هذا الصلح[6].

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص196.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص196، رستون، مقاتلون في سبيل الله، ص342-343.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص352-357؛ الحياري، صلاح الدين وعصره، ص458-456.

(4) لقد رأى السلطان في الصلح مصلحة المسلمين بعدما رأى من صعوبة الاستمرار في القتال لسآمة العسكر ولمظاهرتهم له بالمخالفة. انظر: النوادر السلطانية، ص235.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص235.

(6) غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص43، توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص171.

تاسعاً: سفارة شيخ الشيوخ صدر الدين محمد أثناء غزو الفرنج لدمياط عام 615هـ/ 1218م:

ومن العلماء الآخرين الذين اشتهروا بنشاطاتهم السياسية أثناء غزو الفرنج للمشرق الإسلامي شيخ الشيوخ صدر الدين محمد الذي برز دوره واضحاً عندما تعرضت مصر لغزو الفرنج عام 615هـ/1218م حيث كان بمثابة رسولٍ طوّاف بين البلاد يرص صفوفها، ويدعوها للمقاومة وتمثل ذلك بداية بإرسال الملك الكامل له رسولاً إلى أبيه الملك العادل في مرج الصفر لإخباره بأخذ الفرنج لبرج السلسلة بدمياط، والاستنجاد به، فاجتمع به وأعلمه بالأمر، فمرض على أثرها[1]، ثم كلفه الملك الكامل بمهمة أخرى أكثر خطورة بأن بعثه رسولاً للخليفة العباسي للاستنجاد به على الفرنج وذلك عام 617هـ/1220م إلا أنه توفي في العام نفسه بالموصل[2]. وقد ذكر ابن واصل أنه كان يحمل رسالة أخرى لصاحب الموصل للغرض نفسه[3]، وهذا يعني أنه بعد أن انتهى من إبلاغ الخليفة العباسي أنباء سقوط دمياط بيد الفرنج غادر بغداد ليطوف بعددٍ من البلدان الإسلامية الشرقية في جولة دبلوماسية لحشد الطاقات بقصد حث أمراء المسلمين وملوكهم على الوقوف إلى جانب أهل مصر ضد الحملة الصليبية الموجهة ضدهم[4].

على الرغم من نجاح شيخ الشيوخ صدر الدين محمد في تأدية مهمته السياسية التي كُلف بها إلا أن موقف الخلافة من تقديم المعونة العسكرية

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص593.

(2) أبو شامة، الذيل، ص190. أشار المقريزي أنه سبق لشيخ الشيوخ صدر الدين محمد أن كان سفيراً لدى الخليفة العباسي الناصر لدين الله عام 614هـ/1217م من قبل الملك العادل لكن دون تحديد هدف السفارة وغرضها. انظر: السلوك، ج1، ق1، ص186.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص91.

(4) زيان، العلماء بين الحرب والسياسة، ص19.

للمحاصرين في دمياط كان سلبياً كعادته، وذلك بالاكتفاء بإرسال الكتب والأمراء[1] ودعوتهم للجهاد دون متابعة الأمر، ومما يؤكد ذلك الحديث الذي دار بين رسول الخليفة العباسي – الظاهر بأمر الله – والفقيه الواعظ سبط ابن الجوزي والملك المعظم عيسى عام 623هـ/1226م عندما حضر ومعه الخلع لأولاد الملك العادل وبهدف الإصلاح بينهم، ودعوتهم لقطع صلتهم بجلال الدين الخوارزمي، حيث أظهر سبط ابن الجوزي استعداد الخلافة للمساعدة، فقال له المعظم: "ما لكم عادة تنجدون أحداً هذه كُتب الخليفة الناصر لدين الله عندنا ونحن على دمياط نكتب ونستصرخ به، فيجيء الجواب بأنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة، ولم يفعلوا"[2].

دلت سفارة شيخ الشيوخ لدار الخلافة، ومن بعدها سفارة سبط ابن الجوزي لمصر على استمرار المراسلات بين الجانبين، وحرص كل منهما على استمرار علاقتهما في هذه الأوقات الحرجة، بهدف الإبقاء على لحمة المسلمين ودعمهم لبعضهم البعض ضد الفرنج، وعلى الرغم من تيقن ملوك بني أيوب مما كانت تعانيه الخلافة من ضعف سياسي وعسكري، وعدم قدرتها على الإنجاد إلا أنهم كانوا يهدفون من مراسلاتهم هذه محاولة التأثير على أمراء الممالك الإسلامية الأخرى.

عاشراً: سفارة سبط ابن الجوزي للملك الأشرف عام 618هـ/1221م:

برز النشاط السياسي للفقيه الواعظ سبط ابن الجوزي أثناء الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي من خلال سعيه الواضح لتوحيد جهود الأسرة الأيوبية للتصدي للفرنج إثر مداهمتهم لدمياط 615هـ/1218م، فقد كان كل من الملك

---

(1) أشار ابن نظيف أن كتب الخليفة الناصر وصلت في عام 617هـ/1120م إلى جميع الممالك يأمر فيها بنجدة الملك الكامل. انظر: ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص80.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص234، القزاز، الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير، ص274.

الكامل صاحب مصر، والأشرف صاحب الجزيرة على خلاف في الرأي، وقد جهد الملك المعظم في السعي لإزالة هذا الخلاف بين اخوته لتوحيد جهودهما ضد الفرنج، وأشار أبو شامة إلى انزعاج الملك المعظم من سيطرة الفرنج على دمياط وسعيه الدؤوب للتخلص منهم لقوله: "كان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة"[(1)].

حادي عشر: دور العلماء في اتفاقية تسليم الملك الكامل بيت المقدس للفرنج عام 626هـ/1229م (اتفاقية يافا):

لم تقتصر مساهمات العلماء المسلمين السياسية في فترة الحروب الفرنجية (الصليبية) على الإصلاح والوحدة بين أمراء المسلمين وملوكهم، والتي تمثلت بسفاراتهم في العهدين الزنكي والأيوبي، بل امتدت مشاركتهم لتشمل السفارات إلى الفرنج، ومنها ما كان عام 624هـ/1226م بعدما تفاقمت الخلافات بين أولاد الملك العادل، وسعي كل منهما البحث عن حليف للاحتماء به ضد أخيه ومن ذلك تحالف الملك المعظم مع الخوارزمية ضد أخيه الملك الكامل، مما دعا الكامل لمراسلة ملك الفرنج المدعو بـ الأنبرور[(2)] (الإمبراطور فردريك الثاني)[(3)]، ودعوته للقدوم لمعاضدته ضد أخيه الملك المعظم ومشاغلته عنه[(4)].

ساهم العلماء مساهمة فاعلة في تلك المراسلات، وكان أكثرهم شهرة فيها الأمير فخر الدين يوسف بن صدر الدين محمد – أحد علماء أسرة شيخ الشيوخ،

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص194؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص210-211.

(2) انظر: لفظة الانبرور عند ابن الأثير، الكامل، ح9، ص777؛ أبو شامة، الذيل، ص233-234.

(3) ذكر ابن واصل أن الانبراطور فردريك كان صاحب انبولية وجزيرة صقلية، انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206، وقد نذر هذا الإمبراطور (فردريك الثاني) ملك ألمانيا يوم تتويجه ملكاً أن يقوم بحملة صليبية وهي المعروفة بالخامسة لكن أموراً أعاقته ثم استعد لمساعدة الحملة والسير معها لكنه فشل في ذلك، فاستنكر البابا ذلك، أعقبها زواجه من ايزابيلا ابنة ملك القدس فأصبح ملكاً للقدس بفضل زوجته ثم بدأت في الأفق استعدادات لحملة صليبية جديدة في صيف 1227م فأجل سفره معها بسبب حالته الصحية مما دعا البابا لإصدار حرمان بحقه، ثم سار أخيراً بالحملة المعروفة بالسادسة لفلسطين. انظر: رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص311-318، Stevenson, Crusaders in The East, P307-310

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص221-222؛ Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P. 217.

وأبرز رجال دولة الملك الكامل والذي تعود شهرته لبراعته في السياسة، وقيامه بالسفارة لدى بلاط الملك فردريك الثاني[1] ولقائهما بصقلية عام 1226م[2].

عهد الملك الكامل لفخر الدين يوسف بالسفر إلى الإمبراطور فردريك الثاني، وإبلاغه رسالته بالقدوم إلى عكا على أن يعطيه بيت المقدس، وبعض ما فتحه السلطان صلاح الدين[3] في حين ذكر المقريزي أنه وعده بأن يعطيه ما بيد المسلمين من بلاد الساحل، فأجابه الإمبراطور وبدأ بالاستعداد لذلك[4]. وقد رد الإمبراطور على سفارة الملك الكامل هذه في العام نفسه بإرسال رسولٍ من عنده محملاً بالهدايا أعقبها إرسال الملك الكامل بهدية مماثلة[5].

كان للمستجدات السياسية على أرض الشام أثر كبير في محاولة الملك الكامل التنصل من وعوده التي قطعها للإمبراطور بعد وفاة أخيه الملك المعظم عام 624هـ/1226م[6] الذي كان السبب في استدعائه للفرنج، وثانيهما استيلاء الملك الناصر داود على أملاك أبيه ومخالفته لعمه الملك الكامل، مما دعا الكامل للمسير للشام، ومحاولته أخذ دمشق منه عام 625هـ/1227م واتفاق كل من الملك الكامل والأشرف على اقتسام ممتلكات أخيهما المعظم شريطة أن تكون من أملاك الملك الأشرف[7].

---

(1) Gottschalk, Awlad Alshaykh, EI, P. 765-766.

(2) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص327.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206؛ مؤنس، حسين، (1971). المغول والإسلام، مجلة العربي، ع(151)، ، ص 21؛ Stevenson, Crusaders in The East, P. 310.

(4) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص221.

(5) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص148؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص223.

(6) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص153، الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص249.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ح4، ص225-231.

وصلت عساكر ملك الفرنج لساحل الشام عام 625هـ/1227م بجموع كثيرة من الألمان وغيرها من الفرنج، فنزلوا عكا ثم تبعهم الإمبراطور[1] وبنزول الإمبراطور بعكا وقع الملك الكامل في حيرة من أمره لما كان من زوال الأسباب التي أدت لاستدعائه، وزاد حرجه بعد مراسلة الإمبراطور له ومطالبته بما بذله لنوابه من الفرنج يوم حصار دمياط وليس بأقل من ذلك[2]. فلم يعرف الملك الكامل ماذا يفعل بحيث "لم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق..."[3] مما إضطره لملاطفته ومراسلته حتى انتهت هذه السنة[4]، وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين ابن الشيخ[5].

رأى أحد الباحثين أن الإمبراطور فردريك الثاني لجأ أثناء إقامته بعكا إلى استعطاف الملك الكامل مستخدماً في ذلك كافة الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه واستعادة بيت المقدس لحفظ ناموسه، لأنه لم يكن يملك جيشاً كبيراً، ولما كانت عليه ظرف الشام السياسية والتي لم تكن في صالحه، يضاف إلى ذلك حرمانه من الكنيسة[6]. في حين تحدث المؤرخ (رنسمان) عن قيام الأمير فخر الدين بإطالة أمد المفاوضات حتى تسقط دمشق بيد الكامل، أو ينتهي الأمر برحيل الإمبراطور فريدرك الثاني[7].

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص233-234؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص229.

(2) انظر: رسالته عند ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص164؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص228-229.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص235.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص235؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص229.

(5) المقريزي؛ السلوك، ج1، ق1، ص229.

(6) عاشور، سعيد، (1963). الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، المجلة التاريخية المصرية، مج11، ص 204-207.

(7) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص329؛ الخطيب، إبراهيم، (1998). الملك الكامل محمد بن الملك العادل الأيوبي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ص 240.

استمر تردد السفارات بين الإمبراطور فردريك الثاني، والملك الكامل حتى نهاية عام 626هـ/1228م حيث تمّ الاتفاق والصلح بينهما، وقد كان للعلماء دور كبير فيهما اتفقا عليه، وكان أكثرهم تردداً ومشاركة في هذه المفاوضات الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[1]، وقاضي عسكر الملك الكامل شمس الدين الأرموي[2]. وانفرد ابن نظيف الحموي بإضافة الفقيه صلاح الدين الإربلي إليهما[3]. ومما يؤكد جهودهما في هذا الاتفاق ما كان من إطالتهما أمد المفاوضات، وثنيهما الإمبراطور عما أراده من البلاد لقول ابن واصل: "ولم تزل الرسل تتردد بينه وبين الإمبراطور ملك الفرنج وأطماعه متعلقة بما استقر بينه وبين الملك الكامل أولاً قبل موت الملك المعظم، وأبى ملك الفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه، وبعض الفتوح الصلاحي، وامتنع الملك الكامل أن يُسلم إليه كل ذلك"[4].

أسفر الاتفاق المنعقد بين الفرنج والمسلمين على تسلم الفرنج لبيت المقدس وبعض المدن الفلسطينية، والسماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة على ألا يؤثر ذلك على مكانة المسلمين وشعائرهم لقول ابن واصل: "إنه تقرر بينهما أن يسلم إليه القدس على شريطة أنه يبقى خراباً، ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره ألبته، بل يكون جميع قراياه [قراه] للمسلمين، وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس من شماليه، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين، واستثنى الفرنج

---

(1) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص176؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص242؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص230.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص203. هو أبو عبد الله محمد بن الحسين كان فقيهاً شافعياً، ومتولياً لنقابة الأشراف. توفي عام 649هـ/125م. انظر: ابن دقماق، نزهة الأنام، ص214.

(3) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص177.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص241، الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص267.

قرايا معدودة وهي طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القدس، وتكون هذه القرايا بأيديهم خوفاً أن يغتالهم أحد من المسلمين"[1]. وكان مما أعطاه الملك الكامل لهم بيت لحم[2]، والناصرة[3]، وتبنين، وصيدا[4].

لقد حددت مدة الاتفاقية والهدنة بين المسلمين والفرنج بعشر سنين وخمسة أشهر وأيام[5]، وحلف كل من الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني على ما اتفقوا عليه وبحضور الأمير فخر الدين يوسف أبرز العلماء المشاركين والمشرفين على هذه الاتفاقية، وبحضور الفقيه الصلاح الأربلي[6]. وعندما شعر الإمبراطور بالإحراج الذي تسبب به للملك الكامل بتوقيعه هذه الاتفاقية استتسر للأمير فخر الدين بقوله: "لولا أن يخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، ومالي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم[7]. وفي اعتراف الإمبراطور للأمير فخر الدين دلالة واضحة على ما بلغه من مكانة عنده، وما كان له من دور بالغ الأهمية في هذه الاتفاقية.

لم تقتصر مهمة الأمير فخر الدين على إنجاح عملية المفاوضات، بل قام أيضاً بالرد على استفسارات الإمبراطور ومنها عندما سأله عن خليفة المسلمين وأصله فقال له الأمير فخر الدين: "هو ابن عم نبينا محمد ﷺ، أخذ الخلافة عن

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص241-242. انظر: غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص68. وقد ذكر المقريزي القرى الداخلة في حدود الفرنج بقوله: "... وأن تكون القرى التي فيما بين عكا وبين يافا، وبين لدّ وبين القدس، بأيدي الفرنج دون ما عداها من قرى القدس...". السلوك، ج1، ق1، ص230.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص664؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص330.
Stevenson, Crusaders in The East, P312

(3) Stevenson, Crusaders in The East, P312؛ Pool, Ahistory of Egypt, P. 227.

(4) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص331.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص230.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243، عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص968.

أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرة في بيت النبوة، لا تخرج منهم"، فقال الأنبراطور: ما أحسن هذا لكن هؤلاء قليلوا العقول ... يعني الفرنج - يأخذون رجلاً من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب ... يجعلونه خليفة عليهم، ملكاً مقام المسيح فيهم"[1].

ساهمت سعة ثقافة الإمبراطور فردريك الثاني وتعدد معارفه في العلوم كالمنطق والطب والحكمة، والهندسة والرياضيات[2] في فتح المجال لمشاركة علماء آخرين أثناء إقامته بعكا، وذلك عندما سيّر الإمبراطور للملك الكامل أثناء مراسلتهما مسائل حكمية، ومسائل هندسية ورياضية مشكلة ليمتحن بها من عنده من الفضلاء فعرضها الملك الكامل على الفقيه الشيخ علم الدين قيصر فأجاب عليهما[3]. وفي هذا إبراز آخر لدور العلماء وتعدد مشاركاتهم.

كما ظهرت في حملة الإمبراطور فردريك هذه مساهمة عالم آخر في بيت المقدس وهو القاضي شمس الدين[4] قاضي نابلس الذي تمثل دوره بتسليم بيت المقدس للإمبراطور[5] ومرافقته له أثناء زيارته للأماكن المقدسة في المدينة، والتأكد من تطبيقه لبنود الاتفاقية من رفع شعار الإسلام وغيره، والتحرز من بعض الممارسات الخاطئة للمسيحيين داخل الحرم القدسي، فقد ذكر ابن واصل أنه بعد الهدنة دخل الإمبراطور المدينة برفقة القاضي شمس الدين فدخلوا الحرم الشريف ورأوا من المزارات ثم دخلوا المسجد الأقصى "فأعجبه عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة، ولما وصل نزل وأخذ بيدي وخرجنا من الأقصى، فرأى قسيساً وبيده الإنجيل وهو يريد دخول الأقصى فصاح عليه صيحة منكرة وقال: ما الذي

---

[1] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص251؛ صبرة، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص68.

[2] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص232.

[3] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص242؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص232.

[4] اكتفى الصفدي بالقول أنه شمس الدين بن نجم الدين قاضي نابلس. الوافي بالوفيات، ج3، ص84، في حين ذكر ابن واصل أنه كان متقدماً عند ملوك بني أيوب. مفرج الكروب، ج4، ص244.

[5] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص656.

أتى بك إلى هاهنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى هاهنا بغير إذني لأخذن ما في عينه، ..."[1].

ذكر سبط ابن الجوزي أن الملك الكامل كان قد أمر القاضي شمس الدين أن يأمر المؤذنين بعدم الأذان في الحرم القدسي بوجود الإمبراطور فردريك الثاني احتراماً له إلا أن القاضي تجاهل إعلام المؤذنين بذلك، فصعد المؤذنون في الليلة الأولى وأذنوا، وأخذ المؤذن يقرأ آيات تخص النصارى مثل قوله (ما اتخذ الله من ولد) (وذلك عيسى ابن مريم)، ونحوها فلما طلع الفجر استدعى القاضي المؤذن وأنّبه لما قام به[2]. وفي الليلة الثانية امتنع المؤذن عن الأذان وفي الصباح، استدعى الإمبراطور فردريك الثاني القاضي وقال له: "يا قاضي أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة" وذكر ذاك الكلام فأعلمه أن هذه هي وصية الملك الكامل فقال له الإمبراطور "أخطأتم يا قاضي تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي فلو كنتم عندي في بلادي هل كُنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم..."[3]. وعلى الرغم من اعتذار القاضي للإمبراطور فردريك الثاني عن عدم رفعه الأذان إجلالاً لقدره إلا أن الإمبراطور أظهر له رغبته بسماع مثل هذه الآيات، وإن تضمن ذلك شيئاً من المبالغة كنوع من الدعاية والتغطية على اتفاقه مع الكامل لقوله: "والله إنه أكثر غرضي من المبيت في القدس أن أسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل"[4].

تعرضت معاهدة تسليم بيت المقدس لاستياء المسلمين والمسحيين، فقد عارضها المسيحيون منطلقين أن كرامتهم كانت تتطلب أخذ بيت المقدس بالسيف وليس بالاستجداء أو العطف كما فعل فردريك الثاني، أما المسلمون فقد رأوا في

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص244.

(2) سبط ابن الجوزي،مرآة الزمان، ج8، ق2، ص656.

(3) سبط ابن الجوزي،مرآة الزمان، ج8، ق2، ص657.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص245.

تسليم بيت المقدس للفرنج طوعاً أمراً مخزياً[1]. كما تركت آثاراً خطيرة على المجتمع الإسلامي بحيث كان لها من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه حتى استعظمه المسلمون[2]، وكانت سبباً في نشوب أزمة بين القيادة والرأي العام[3]، والتي عبّر عنها أبو شامة برصده غضب الدمشقيين واستيائهم بقوله: "وكانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين، وكانت سبباً في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه، ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة عليهم"[4]. في حين كانت أكثر وقعاً على أهل بيت المقدس، وخاصة عندما تقررت المعاهدة، ونودي بخروج الناس فقد حزنوا، وأكثروا من البكاء والتشنيع على الكامل لما أصابهم من ضرر جراءها[5] حتى قيل إن المؤذنين خرجوا إلى مخيم الملك الكامل، وأذّنوا على بابه غير وقت الأذان، فانزعج من ذلك وأمر بمعاقبتهم[6]. حتى امتد التشنيع عليه في سائر الأقطار[7].

لقد كانت هذه المعاهدة سبباً في قيام الملك الكامل بحملة دعائية واسعة محاولة منه لإقناع الرأي العام بما فعله والتخفيف من معارضتهم لسياسته فكتب مناشير ورسائل[8]، وأخذ بالدفاع عما صدر عنه بالتذرع بتقييد حرية المسيحيين، وأن شعائر المسلمين في بيت المقدس لم تنتهك لقوله: "إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس

---

(1) عاشور، الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، ص209، Stevenson, Crusaders in The East, P. 313؛ Pool, Ahistory of Egypt, P. 192-193.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص782.

(3) Sivan, L' Islam Et la Croisade, P. 147.

(4) أبو شامة، الذيل، ص234. وعن معارضة أهل دمشق لتسليم القدس للفرنج. انظر: مجلس سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243.

(6) المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص231. Sivan, L' Islam Et la Croisade, P.147

(7) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص231.

(8) Sivan, L' Islam Et la Croisade, P.148-149

وأُدَرٌ* خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه..."[1] كما حاول استرضاء دار الخلافة والبلاد الشرقية بأن سيّر إليهم الأمير فخر الدين يوسف رسولاً من عنده لتسكين قلوبهم، وتطمين خواطرهم، والدفاع عما تنازل عنه للفرنج[2].

اثنا عشر: معارضة الفقيه العز بن عبد السلام لسياسة المهادنة "التحالف مع الفرنج":

ساهمت الصراعات السياسية التي اندلعت بين أبناء البيت الأيوبي – ومنذ العقد الرابع للقرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي – بشكل واضح في إضعاف جبهة المسلمين أمام الفرنج[3]. وتمثلت بانشقاق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الملك الكامل صاحب مصر حتى قويت الوحشة بينهما مع حلول عام 634هـ/ 1236م[4] وبوفاة الملك الأشرف عام 635هـ/1237م أصبح أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحباً لدمشق الذي استمر على مخالفته للملك الكامل، وشكل حلفاً مضاداً له يضم عدداً من ملوك بن أيوب[5]، وأدت سياسته هذه إلى قيام الملك الكامل بحصار دمشق، وتسلمها منه عام 636هـ/ 1238م[6]. إلا أن وفاة الملك الكامل 636هـ/1238م كانت نذيراً بتفكك الدولة

---

* أصلها من الفعل دور ومنها الدَّارُ وتعني اسم جامع للعرصة والبناء والمحلّة، وجمع الدار آدَرٌ وتجمع على ديارات ودُورٌ وديران. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج4، ص 440.

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243-244؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص230.

(2) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص183؛ المقريزي، السلوك، ج1،ق1، ص232.

(3) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص135-136؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص203.

(4) أبو الفداء، المختصر، ج6، ص60.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج6، ص60-61؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص256؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 229.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص256-257؛ Poole, Ahistory of Egypt, P. 229.

الأيوبية، وقيام حرب أهلية بين ملوك بني أيوب أنفسهم[1] وخاصة أولاد الملك الكامل (العادل الصغير ونجم الدين أيوب)، ومن انضم إليهم من أبناء البيت الأيوبي الآخرين، والتي أسفرت عن استرداد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل لدمشق 637هـ/1239م[2]، وتحالف الصالح نجم الدين أيوب مع الملك الناصر داود، وعزله العادل الثاني من مصر 637هـ/1239م وتوليه السلطة بمصر[3].

أدى استمرار الخلاف بين الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والملك نجم الدين أيوب، وتهديد كل منهما للآخر، ويأس الملك الناصر داود من وعودات الملك الصالح نجم الدين بتسليمه دمشق إلى تحالف الملك الناصر داود، والملك الصالح إسماعيل، واتفاقهما على محاربة الصالح نجم الدين صاحب مصر عام 638هـ/1240م[4] إلا أن تخوف الملك الصالح إسماعيل من ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين، ورغبته بتقوية جبهته دعته إلى مكاتبة الفرنج عام 638هـ/1240م والاتفاق معهم على معاضدته ومحاربة صاحب مصر على أن يتنازل لهم عن عددٍ من الحصون والمدن الإسلامية[5]، ولكي يبرهن لهم على صدق نواياه قام بتسليمهم بعض الحصون[6] لقول ابن دقماق: "وأعطاهم قلعة صفد وبلادها

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص985؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص369. Holt, The Age of Crysades, P. 65.

(2) انظر: التفاصيل ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص ؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 267-287.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص298-297؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص269.

(4) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص135؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص302. يبدو أن الملك الناصر داود عاد وانقلب على الصالح إسماعيل بدليل قتالهما في نفس العام. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص304.

(5) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص135؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص303.

(6) عاشور، الحركة الصليبية، ص990.

وقلعة الشقيف وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة، وجميع بلاد الساحل"[1].

وقد كان لهذا الحدث الخطير وقعٌ كبير على المسلمين، عارضه عدد من علماء الأمة ومفكريها، وتجلى ذلك بإنكارهم ذلك على الملك الصالح إسماعيل والتشنيع عليه، وفي مقدمتهم شيخ الشافعية بدمشق، وسلطان العلماء الفقيه عز الدين بن عبد السلام السلمي، وشيخ المالكية أبو عمر ابن الحاجب[2]. وقد تمثلت ردة فعل الفقيه ابن عبد السلام بقطعه الخطبة للملك الصالح إسماعيل عن منبر جامع دمشق[3]، وتكمن خطورة ذلك بدلالتها السياسية الواضحة التي تتمثل بعدم الاعتراف بشرعية حُكمه، ثم قام باستبدال دعائه المعتاد بدُعاء آخر لقوله: "اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً يعز فيه أولياؤك، ويذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك" والناسُ يصيحون بالتأمين والدعاء للمسلمين[4].

لم تقتصر سياسة الملك الصالح إسماعيل على محالفة الفرنج ضد المسلمين وتسليمهم بعض المدن والحصون فقط، بل قام أيضاً بالسماح للفرنج بالدخول إلى دمشق، وشراء الأسلحة منها[5] حتى أكثروا من ابتياع الأسلحة، فأنكر أهل دمشق عليه ذلك وكان الفقيه ابن عبد السلام أشد الفقهاء معارضة له، فعندما استفتاه الناس في بيع الأسلحة للفرنج حرّم ذلك عليهم[6]. لقوله: "يُحرم عليكم مبايعتهم، لأنكم

---

(1) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص135. انظر: أيضاً المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص303.

(2) أبو شامة، الذيل، ص261؛ أبو الفداء، المختصر، ج6، ص71؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص155.

(3) أبو شامة، الذيل، ص261؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص243.

(4) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص136؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص243.

(5) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص135؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص304.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص304.

تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين"[1] لما في ذلك من إضعاف لبلاد المسلمين بتجريدها من الأسلحة من جهة، وزيادة كمية الأسلحة بيد العدو من جهة أخرى.

لاقى العلماء المعارضون لسياسة المهادنة التي انتهجها الملك الصالح إسماعيل عقوبات رادعة لما تركته معارضتهم هذه من أثر بالغ في المجتمع بالدعاية والتحريض ضده فأرسل إلى نوابه بعزل الفقيه ابن عبد السلام عن الخطابة، كما أمر باعتقاله هو وشيخ المالكية أبو عمر بن الحاجب، ثم قام بسجنها بقلعة دمشق، ولكنه عاد وأخرجهما، وفرض على الشيخ ابن عبد السلام حصاراً شديداً بأن ألزمه بيته، ومنعه من الاختلاط بالناس والاجتماع بهم، كما مُنع من إصدار الفتاوى[2]. فما كان منهما إلا أن غادرا دمشق، فنزل ابن الحاجب عند الملك الناصر داود صاحب الكرك[3]، في حين توجه الشيخ عز الدين بن عبد السلام لمصر حيث حظي بإكرام الملك الصالح نجم الدين، فولاه خطابة جامع عمر بن العاص بمصر، وقضاء مصر والوجه القبلي[4].

حاول الملك الصالح إسماعيل استرضاء الشيخ العز بن عبد السلام بعد خروجه من دمشق، وتوجهه لمصر حين التقاه ببيت المقدس، فأرسل إليه أحد خواصه يتلطف به، ويدعوه للعودة، على أن يكون مُعززاً ومكرماً مشترطاً عليه أن يُقبل يد السلطان، فسخر الشيخ ابن عبد السلام منه وقال له: "والله يا مسكين، ما

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص243.

(2) أبو شامة، الذيل، ص261؛ ابن دقماق، نزهة الأنام، ص135-136؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص155؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص304.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص155. انظر: غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص347.

(4) أبو شامة، الذيل، ص263؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص308؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص273.

أراه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده، يا قوم، أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به"[1] فاعتقلوه ثانية بخيمة بجانب الملك الصالح إسماعيل، فجلس يقرأ القرآن، وفي أثناء قراءته سمعه الملك الصالح إسماعيل فروى قصته لملوك الفرنج، وحدثهم عن معارضته لتسليم الحصون للفرنج وما كان من حبسه وعزله عن الخطابة، وقد أظهر الملك تباهيه أمام الفرنج بحزمه ضد الشيخ إرضاءً للفرنج لقوله: "وقد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جدّدت حبسه واعتقاله لأجلكم". فقال له ملوك الفرنج: "لو كان هذا قسّيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مَرقتها"[2].

إن ما قام به الشيخ ابن عبد السلام من معارضة للملك الصالح إسماعيل لتفريطه بأراضي المسلمين، ومهادنته للفرنج لمصالحه الخاصة لدليل واضح على عظمة دور العلماء، ووقوفهم بصلابة في مقاومة المحتل وكل من يحاول أن يتعاون معه حتى لو كان رأس السلطة السياسية للمسلمين.

وقد تكررت تحالفات ملوك بني أيوب بالفرنج لمعاضدتهم ضد بعضهم البعض، كما فعل الملك الصالح إسماعيل مرة أخرى بمعاضدته هو والناصر داود صاحب الكرك للفرنج ضد صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 641هـ/1243م، فتنازلا عن مدن أخرى، وسلّما للفرنج عسقلان، وطبرية، والقدس بما فيها من المزارات[3]. وفي الوقت الذي لم تبرز على أثر هذه الحادثة

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص244.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص244.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج6، ص75؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص285؛ العليمي، الأنس الجليل، مج1، ص34-35.

أية معارضة سياسية واضحة للعلماء، اللهم تحفظ المؤرخ جمال الدين ابن واصل[1] وأسفه على أخذ الفرنج لبيت المقدس لمعاصرته ومشاهدته وتمثل ذلك بقوله "مررت إذ ذاك بالقدس متوجهاً إلى مصر، ورأيت القسوس قد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان، فالحكم لله تعالى الكبير"[2].

---

(1) محمد بن سالم الحموي والمعروف بابن واصل كان بارعاً في العلوم الشرعية والعقلية والأخبار، درس وأفتى وكتب في التاريخ وكان قاضياً بحماة توفي عام 697هـ/1297م. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص85-86. انظر: العماد، شذرات الذهب، ج5، ص438.

(2) العليمي، الأنس الجليل، مج2، ص36.

الفصل الخامس

مساهمات العلماء في مجالي التأليف والكتابة



أولاً: مؤلفات العلماء المعاصرين للحروب الفرنجية (الصليبية) ودوافعهم في التأليف

ثانياً: المواضيع التي عالجها علماء فترة الحروب الفرنجية (الصليبية):

أ. الجانب السياسي والعسكري.

ب. الجانب الإداري والاقتصادي والاجتماعي.

ج. الجانب التعليمي والثقافي.

ثالثاً: صورة الفرنج في مؤلفات العلماء.

أولاً: مؤلفات العلماء المعاصرين للحروب الفرنجية (الصليبية) ودوافعهم في التأليف:

نشطت حركة التأليف نشاطاً واسعاً خلال عصر الحروب الفرنجية (الصليبية)، وساهم علماء كثر في هذه الحركة من شتى أنحاء العالم الإسلامي خاصة في بلاد الشام ومصر والعراق وبلاد فارس، وستركز هذه الدراسة على العلماء المعاصرين لغزو الفرنج الذين عالجوا بمؤلفاتهم أحداثه التي غلب عليها الطابع السياسي والعسكري والاجتماعي والإداري والثقافي والاقتصادي.

تعددت دوافع الكتابة والتأليف لدى علماء المسلمين خلال فترة الدراسة، فقد كان للظروف السياسية التي عايشها المسلمون آنذاك دور كبير في ظهور بعضها، وهناك دوافع أخرى يمكن إرجاعها لأهداف محددة وخاصة تلك التي قصد بها الحض على الجهاد والدعاية له، ومنها ما كان سيرة شخصية لقائد مجاهد كصلاح الدين الأيوبي تخليداً لبطولاته وإظهاراً لمساهماته في مقاومة الفرنج، وأخرى لأسرة حاكمة لإظهار فضائلها ودورها في حقبة ما كالدولة الأتابكية في الموصل، ومنها ما كان تاريخاً عاماً، تناول أحداث الغزو لمعاصرة صاحبه جزءاً منها، ونقله عن معاصريه في بعضها الآخر كالكامل في التاريخ لابن الأثير (ت630هـ/1232م) ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (ت 654هـ/1256م). وجاء بعضها تاريخاً للمدن كتاريخ دمشق لابن عساكر (ت571هـ/1175م) أو لإبراز فضائل بعض المدن كبيت المقدس أو عسقلان للتذكير بها والدعوة لتحريرها.

يلحظ الدارس لمؤلفات علماء فترة الدراسة أن غالبيتها صنفت في الجهاد وبيان فضائله، وبعضها الآخر سير لقادة الجهاد اعترافاً بفضلهم ومنجزاتهم، ومن أبرز مؤلفات القسم الأول مخطوطة أبي الحسن علي بن طاهر السلمي (ت500هـ/1106م) في الجهاد[1]. وهناك مؤلفات أخرى شابهتها في العنوان

---

[1] انظر: ترجمته ص 101، من هذه الرسالة.

والقصد، مثل كتاب فضل الجهاد الذي ألفه الفقيه مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل[1]. وتحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين للمحدث عبد الغني المقدسي[2]، والإنجاد في الجهاد للواعظ عبد الرحمن بن نجم الدين الشيرازي المعروف بناصح الدين الحنبلي[3]، وفضائل الجهاد للمحدث ضياء الدين الحنبلي[4].

أما في تواريخ المدن نجد أن تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر يتصدرها، لما حظيت به دمشق من دور فاعل في مواجهة الفرنج، ويعد هذا الكتاب كتاب تراجم بالدرجة الأولى[5]. وقد أسهمت السلطة السياسية ممثلة بنور الدين محمود في تشجيع ابن عساكر على إنجاز مؤلفه إبرازاً لأهل دمشق في مقاومة الغزو، وقد عبّر ابن عساكر عن ذلك بقوله: "وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز له والاستتمام"[6].

كشف ابن عساكر في مقدمة مؤلفه عن المواضيع التي عالجها كتابه والتي اشتملت على بيانه لفضائل الشام وذكره لخطط دمشق ثم رصده وتدوينه أخبار طبقات العلماء والمثقفين وكبار رجال الدولة، وإنجازاتهم في دمشق وظهور الدعوة للوحدة بين المسلمين واضحاً في قوله: "فإني كنت بدأت قديماً الاعتزام على جمع تاريخ لمدينة دمشق أم الشام، حمى الله ربوعها من الدثور والانفصام، وسلم جُرعها من كيد قاصد يهم بالاختصام، فيه ذكر من حلها من الأماثل والأعلام، وهو كتاب

---

(1) العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج6، ص 530.

(2) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 18.

(3) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 196؛ ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 112.

(4) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص 239.

(5) الصواف، أبو بكر (1979). ابن عساكر مؤرخاً بحث ضمن كتاب الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته (499-1399هـ)، وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ص 548.

(6) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج1، ص 4 (مقدمة المحقق صلاح الدين المنجد).

مشتمل على ذكر من حلها من أماثل البرية، واجتاز بها أو بأعمالها من ذوي الفضل والمزيد من أبنائها وهداتها وخلفائها وولاتها وفقهائها وقضاتها وعلمائها... وقرائها ونحاتها وشعرائها ورواتها"[1]. فكانت سجلاً وتاريخاً لكل من دخل الشام واستوطنها وساهم فيها بعلمه ونشاطه السياسي والعسكري والثقافي والإداري، وكل من عاصر الغزو وشارك بمقاومته بأي وسيلة كانت، ولم يقصره على أهل دمشق بل تعداه للشام كاملة[2].

أتاحت مشاركة العلماء وقربهم من السلطان صلاح الدين الأيوبي، والعمل في خدمته الفرصة لهم ليقدموا مادة كافية لأحداث غزو الفرنج لمصر والشام، وظهر ذلك جلياً في كتاباتهم ومؤلفاتهم فصنف العماد الأصفهاني (ت597هـ/1200م) في ذلك كتاب "البرق الشامي" وخريدة القصر وجريدة العصر" والفتح القسي في الفتح القدسي"[3]. وصنف بهاء الدين بن شداد (ت 632هـ/1234م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" أو كما يسمى سيرة صلاح الدين[4].

تعد مؤلفات العماد الأصفهاني من أهم المصادر وأكثرها معالجة لفترة الغزو الفرنجي وخاصة في كتابيه: البرق الشامي، والفتح القسي في الفتح القدسي، وقد جاء كتاب البرق في سبعة مجلدات حفظ معظمه في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة[5]، عالج فيه الفترة الممتدة من عام (562هـ/1166 –

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج1، ص 4 (مقدمة المحقق صلاح المنجد).

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، (د.ط) تحقيق صلاح الدين المنجد، ص 33(مقدمة المحقق).

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص 150.

(4) انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية (ط1)، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1964؛ Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, P. XXIX.

(5) انظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 53، 93-97، 111، 117-126، 148، 156، 171-172، ج3، ص 121،92-123، 133، 138، 152.

589هـ/ 1177م) أي الفترة النورية والصلاحية، ولم يبق منه سوى جزئين الثالث والخامس، ويتناول الثالث الفترة الممتدة من (573هـ/1177م - 575هـ/1179م) في حين يتناول الجزء الخامس من عام 578هـ/1182م) حتى بداية عام 580هـ/ 1884م[1]، وهما مطبوعان ومحققان[2] وقد سمى العماد كتابه بالبرق لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لِطِيْبِها وسرعة انقضائها[3].

هدف العماد الأصفهاني من وراء تأليفه لهذا الكتاب إلى تسليط الضوء على دولة السلطان صلاح الدين، وبيان محاسنه وسيرته لقوله في مقدمته: "وأنا أُقدِّم في هذا الكتاب ذكر نبذٍ من أحوالي مع السلطان. ثم ابتدئ بذكر معرفتي به وخدمتي له، وأصف مبادي دولته إلى أن وصل الشام، وحضرت خدمته، وأصف سيرته كلّ سنة، وآتي في شرح حسناته.." [4]. ويرى محقق الجزء الخامس أنه يخيل لقارئه بأنه سيرة ذاتية للمؤلف[5]، في حين يرى المؤرخ (جب) Jeb في إحدى دراساته عن المصادر العربية عن حياة صلاح الدين أن عرض العماد للأحداث جاء عادياً كفكرة مهنية أو سجلاً لنشاطاته الكتابية ثم زوده بمقتطفات من نسخ رسائله ومراسلاته مع القاضي الفاضل، واستشهاده بقصائد شعرية، بالإضافة لشؤونه الخاصة التي كانت سيرة ذاتية للمؤلف[6]. إلا أن محقق الجزء الخامس خلص إلى أن الكتاب ليس سيرة لصلاح الدين كما ادعى العماد الأصفهاني نفسه بل هو كتاب

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص 150؛ هاملتون جب، صلاح الدين الأيوبي، ص 73.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، تحقيق مصطفى الحياري. العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، تحقيق فالح حسين.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج5، ص 150.

(4) البنداري، سنا البرق الشامي، ج1، ص 53.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، تحقيق فالح حسين، ص 10(مقدمة المحقق).

(6) هناك عدة مقالات للمؤلف جمعت في كتاب واحد عنوانه "صلاح الدين الأيوبي"، دراسات في التاريخ الإسلامي، حررها يوسف إيبش، ص 73.

بالمعنى الأعم (فيه من السيرة السلطانية والناصرية والعادلية، وكافة الدوحة الكريمة الأيوبية)[1].

وللكتاب أهمية بالغة تتجلى بمؤلفه - وهو العماد الأصفهاني - الذي يعد من أكثر الشخصيات علماً بالإدارة وتحديداً زمن السلطان صلاح الدين وعلى صلة وثيقة بصلاح الدين وإنجازاته فهو قريب منه ويكتب عن خبرة ودراية بالأحداث المحيطة به[2]. في حين رأى محقق الجزء الثالث أن الأصفهاني كان يدون الأخبار حال وقوعها ويسطر الرسائل للأمصار في وقتها بالإضافة لتجربته المباشرة، وملاحظاته لما يسجله للأمصار، ولهذا فقد اعتمد على الوثائق الرسمية التي ترد إلى الديوان وكثيراً ما استقى معلوماته من المشاركين في الأحداث[3]، ومن هنا تأتي أهمية الكتاب.

أما كتاب الفتح القسى فقد عالج الفترة الممتدة من معركة حطين عام 583هـ/1187م وانتهى بوفاة صلاح الدين، وكان إظهار فتح بين المقدس وإبراز جهود السلطان في مقاومة الفرنج وانتصار المسلمين على الكفار، الهدف الأساسي من وراء تأليفه لقول العماد: "وأنا أرّخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى قائمها السلطان صلاح الدين... إلى بيت المقدس، هذه الهجرة أبقى الهجرتين"[4]. فكان كتاب الفتح القسي تسجيلاً تاريخياً منظماً للنشاط الحربي الذي قام به صلاح الدين بين سنتي (583هـ/1187-589هـ/1193م) وهي فترة الجهاد الأكبر التي قام بها لتحرير فلسطين وبلاد الشام

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص 10(مقدمة المحقق).

(2) جب، صلاح الدين الأيوبي، ص 183.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 20 (مقدمة المحقق).

(4) الفتح القسي في الفتح القدسي، 42.

من الاحتلال الفرنجي، واستعاد بيت المقدس وغيره من قلاع الفرنج وحصونهم، بما في ذلك الحملة الصليبية الثالثة، والتي انتهت بصلح الرملة[1].

وعلى الرغم مما أخذ على أسلوب العماد في مؤلفيه السابقين من سجع جعل قراءته أمراً صعباً[2]، إلا أنه اتسم بدقته وصراحته، فليس هناك دليل على أنه حرّف الوقائع أو أغرق في المديح حتى أنه كان ناقداً ووصل الأمر به لنقد السلطان صلاح الدين[3].

تميزت الكتابة التاريخية لهذه الفترة بظهور مؤرخين شغلوا مناصب رسمية، فكان لكتبهم صفة المذكرات ومنها كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لبهاء الدين بن شداد[4]، الذي يعد من أكثر المؤلفات قيمة. وكان سيرة للسلطان صلاح الدين قسمه ابن شداد لقسمين تناول في الأول منه مولده ومنشأه وصفاته وأخلاقه، وفي الثاني وقائعه وفتوحاته حتى وفاته[5]، وتأتي أهمية المعلومات بدقة راويها وأمانته في نقله للأحداث التي شاهدها وعاصرها في صراع السلطان مع الفرنج وفي ذلك يقول: "ما سطرت إلا ما شاهدته، أو أخبرني الثقة به وحققته..." [6]. وإقراره في حوادث أخرى بأنه لم يشاهدها"[7]. ولهذا كانت هذه السيرة أوثق المصادر التي ترجمت حياة السلطان صلاح الدين وخاصة الفترة

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 63 (مقدمة المحقق).

(2) انظر: ص 89، 283 من هذا الكتاب، وانظر: جب، صلاح الدين، ص 105، روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص 243-244؛ Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, P. XXX.

(3) جب، صلاح الدين، ص 183.

(4) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص 237.

(5) ص 6.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 34؛ Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, P. XXIX.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 116.

الأخيرة من حياته[1]. كما كان ابن شداد صادقاً فيما يدونه ولم يكن ناقداً أو منحازاً كابن الأثير، إذ تمكن من بسط خطط السلطان وسيرته بأسلوب سهل[2]، وقد شهد (جب) Jeb بقيمة مؤلفه لأنه صوّر صلاح الدين في شخصيته كإنسان تصويراً يعجز عن بلوغه أي مصنف عادي للتاريخ، وكان إعجابه بصلاح الدين إعجاب الصديق المستقيم النزيه، ولم يتعمد إخفاء الحقائق وتحريفها في رواياته، وقلما يوجد مصدر عن تاريخ أمير من أمراء العصور الوسطى مثله، وقد صوّر صلاح الدين في ذروة نجاحه في صراعه المستميت ضد الحملة الصليبية الثالثة. فكانت سيرته لصلاح الدين من الأدلة المباشرة على الكفاح الطويل الشاق الذي خاضه السلطان[3].

تعتبر مؤلفات القاضي الفاضل (ت 596هـ/1199م) من أهم المؤلفات وأكثرها قيمة تاريخية ودعائية لعصر صلاح الدين، والتي تضمنت مكاتباته ومراسلاته التي أنشأها لكونه كاتباً لديوان السلطان صلاح الدين ومستشاراً له، وقد وصلت آثاره في مؤلفات عماد الدين الأصفهاني، وأبي شامة وفي مجموعات مختلفة، من الوثائق[4]، وعرفت مدوناته هذه في تاريخه المعروف بالمتجددات والمياومات وفقاً لقول المقريزي، والرسائل الفاضلية عند السبكي فكانت بمثابة جريدة يومية رسمية لديوان الإنشاء[5].

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 4 (مقدمة المحقق).

(2) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ص 17.

(3) جب، صلاح الدين الأيوبي، ص 182.

(4) انظر: أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 28-30، 56-58، 77-80، 90-92، 98-102، 176-177، 201-202، 231-232، جب، صلاح الدين، ص 183.

(5) المقريزي، الخطط، مج1، ص 16، 675؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص 347؛ سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ص 36؛ دجاني، القاضي الفاضل، 338؛ روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص 239.

لقد كان تاريخ القاضي الفاضل سجلاً لمكاتباته الصادرة من الديوان والمتبادلة بينه وبين السلطان صلاح الدين في كل يوم والتي عالج فيها سياسة الدولة المصرية في الداخل والخارج، وما كان من تقويم الجبهة الإسلامية بين صلاح الدين وأمرائه وإزالة الخلافات بينه وأهله، وتصويره لأحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية، والعمرانية في تلك الرسائل[1].

وبرز إلى جانب ابن شداد من أهل الموصل عالم ومؤرخ آخر وهو عز الدين بن الأثير[2]، الذي كان من كبار علماء الحديث لبراعته فيه حتى عد إماماً فيه، إلا أنه اشتهر إلى جانب ذلك بمعرفته بالتواريخ. لاسيما كتابه الكامل في التاريخ[3]، وكتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)[4].

تعود أهمية مؤلفات ابن الأثير في التاريخ إلى مصادره التي استقى منها حيث توافرت له مادة تاريخية هامة بفضل صلة أسرته بأفراد البيت الزنكي بالموصل حيث كان والده يعمل في خدمته[5]. ويعد كتاباه السابقان من أهم الكتب التي عالجت في متونها بعض أحداث غزو الفرنج لمصر والشام، وأظهرت الأدوار البطولية الجهادية ضد الفرنج لعدد من الشخصيات كعماد الدين زنكي ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي. فكان الكتاب الأول موسوعة في التاريخ العام للعام الإسلامي ابتدأه بأول الزمان، وأنهاه بعام 628هـ/1230هـ. وقد سار فيه على طريقه الحوليات واستخلص ما وصله من مصادر تاريخية وتخيّر ما هو أقرب

---

(1) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص 37.

(2) علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري، ولد ونشأ بجزيرة ابن عمر وتعلم بها، كان إماماً في علم الحديث، وحافظاً للتواريخ، توفي بالموصل عام 630هـ/1232م. أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 54- 55.

(3) انظر: أبو الفداء، المختصر، ج6، ص 54-55، العزاوي، التعريف بالمؤرخين، ص 28-30.

(4) انظر: ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، 1963م.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 658؛ العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص 204-205.

للصدق لكل حادثة[1]، وفصّل في ذكر كثير من أحداث الغـزو كحمـلات الفـرنج ومقاومة المسلمين لها، ومفاوضات الصلح مع الفرنج[2].

أما المؤلف الثاني فقد جاء عن الدولة الأتابكية وهي دولة إسلامية أسـستها أسرة حاكمة (أسرة عماد الدين زنكي)، أطلق عليها ابن الأثير اسم الدولة الأتابكيـة نسبة إلى لقب أتابك والذي أطلق على عماد الدين زنكي[3]، استهل كتابه بولاية آق سُنْقُر والد زنكي على الموصل ثم امتداد سلطانه إلى حلـب ودمـشق، ثـم البـدء بالانحسار حتى أصبح قاصراً على الموصل، وانتهى إلى سنة 607هـ/1210م، حيث تولى القاهر مسعود ولاية الموصل حيث أهدي له هذا الكتاب اعترافاً بفـضل الزنكيين على أسرته[4].

تضمن كتاب التاريخ الباهر كثيراً من أحداث الغزو الفرنجي التي ارتبطت بملوك أسرة آل زنكي ودورهم في المقاومة[5] وتميّز عن كتاب الكامـل بإعطائـه معلومات أكثر عن عماد الدين زنكي، وحياة نور الدين الخاصة والعامة، وإبـراز الجهود الضخمة التي بذلها الزنكيون في مقاومة الفرنج واستماتتهم في القتال، كمـا تضمن معلومات عن دور الزنكيين في تحـسين أحـوال الموصـل الاجتماعيـة والاقتصادية والعلمية لم ترد عند ابن الأثير في كتابة الكامل[6]. وقد اعتمـد ابـن الأثير في كتابه هذا على الثقاة وعلى رأسهم والده[7]. في حين أخذ عليه عدم ذكـر مصادره الأصلية التي اعتمد عليها في كتابه الكامل[8].

---

(1) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص 9.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 405- 425، 459، ج9، ص 777.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 20 (مقدمة المحقق).

(4) العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص 205.

(5) انظر: ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 39-42، 59-61، 102-103، 116.

(6) انظر: ابن الأثير، الباهر، ص 32-35، 76-80، 152-154، 163-174.

(7) انظر: مثلاً ص 78، 82، 93 من كتاب التاريخ الباهر.

(8) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص 10.

على الرغم من أهمية مؤلفات ابن الأثير وقيمة أخباره خاصة تلك المتعلقة بالسلطان صلاح الدين إلا أنها لم تخلُ من التحيّز للزنكيين ضد السلطان، وكانت تعبيراً صحيحاً عما يجري في نفسه من عداء طبيعي لصلاح الدين، وذلك بتصويره أنه استخدم كل مواهبه العسكرية والسياسية لإشباع أطماعه العائلية وبناء إمبراطورية واسعة[1]، وقد رأى (جب) Jeb أن كثيراً من روايات ابن الأثير عن صلاح الدين استقاها من مؤلفات العماد الأصفهاني، وأعاد كتابتها بتحريف بعضها وبمزج بعضها في أحيان أخرى بشئ من تصوراته الخيالية[2].

ومن العلماء الآخرين الذين عالجوا بمؤلفاتهم فترة الغزو الفرنجي (الصليبي) المؤرخ الشيعي ابن أبي طيء[3]، الذي يعد من أهم العلماء الذين أرّخوا لهذه الفترة، وبرز ذلك واضحاً بمؤلفه السيرة الصلاحية[4] أو كما يسمى كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين[5]، وتبرز أهمية هذا الكتاب بتناوله تاريخ العالم الإسلامي كله بدقة وعناية، مع إعطاء مدينة حلب قدراً ملحوظاً من اهتمامه[6].

أرّخ ابن أبي طي للملك نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي، فكان تاريخه همزة الوصل بين حكم الأول وبداية حكم الثاني[7]، كما اعتبر كتابه مصدراً هاماً من مصادر الدولة الفاطمية في أواخر عهدها لكثرة ما عالجه ابن أبي

---

(1) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص 11.

(2) جب، صلاح الدين الأيوبي، ص 181.

(3) هو يحيى بن أبي طي حميد الحلبي، ولد بحلب عام 575هـ/1179م، كان بارعاً في الفقه على مذهب الإمامية والقراءات، كما نظم الشعر، له تصانيف كثيرة في مجال التاريخ مثل: "معادن الذهب في تاريخ حلب" سلك النظام في أخبار الشام" وأخرى عن صلاح الدين، توفي عام 630هـ/1232م. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج6، ص 344، حاجي خليفة، كشف الظنون، ج6، ص 523.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 56.

(5) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج6، ص 523.

(6) انظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 180-187، 215-218، 269-272. وانظر: أيضاً العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص 236.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 59-100، 120-122.

طيء من أوضاع الشيعة في حلب، ومصر، وما كان من انهيار دولتهم على يد السلطان صلاح الدين في مصر[1]، وعلى الرغم من اعتناق الملك نور الدين والسلطان صلاح الدين للمذهب السني، إلا أنه يصوّر نور الدين حاكماً مستبداً متعصباً لمذهبه المتحيز لأهله، والمضطهد لمخالفيه، ودليل ذلك تعرض والده للنفي من قبله؛ ولهذا نراه متحاملاً عليه بكثرة[2]، وهذا أمر متوقع لما كان من مقاومة الملك نور الدين لمذهبهم في حلب. إلا أنه نهج نهجاً آخر مع صلاح الدين فهو يؤازره في أقواله وأفعاله وكثيراً ما يعلل عجز السلطان عن الاستيلاء على بعض المدن مثل مصياف من يد الإسماعيلية[3]، ومن المرجح أن إنجازات صلاح الدين وقفت حائلاً دون تحامل ابن أبي طي ضده.

وعلى الرغم من أهمية الكتاب ومعالجته لفترة الغزو الفرنجي (الصليبي) إلا أنه في عداد المفقود فجاءت أخباره مبعثرة في تاريخ أبي شامة، وكيفما كان أسلوبه فهو مجرد من الزخرف، وواقعي ومختصر ومباشر في معالجته للموضوع فأشبه بذلك ابن شداد في كتابه[4].

كما لا يمكن تجاهل المساهمة الواضحة للعالمين الجليلين الواعظ والفقيه البغدادي سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان[5]، والمحدث المصري عبد العظيم المنذري (ت 656هـ/ 1258م) في أخباره المبعثرة في عدد من المصادر التاريخية، اللذين كان لهما دور كبير في رصد أحداث الغزو الفرنجي (الصليبي) في فترة خلفاء صلاح الدين، فقد استقى المقريزي[6] معظم أحداث الحملة الصليبية

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 69 (مقدمة المحقق).

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 77، سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص 5.

(3) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص 5.

(4) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص 6.

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج1، ص 39-40.

(6) المقريزي، الخطط، مج1، ص 590-605.

السابعة من مؤلفات المنذري، بالإضافة لمؤلفه التكملة لوفيات النقلة[1]، حيث ترجم فيها لعدد من الشخصيات التي كان لها مساهماتها الواضحة أثناء الغزو ولمعاصرته بعض أحداثها، وكذلك نحا ابن تغري بردي إذ نقل بعض أخبار الأيوبيين عن المنذري[2]، أما سبط ابن الجوزي فتأتي أهميته من معاصرته ومساهمته في كثير من أحداث الغزو خاصة زمن الملك الكامل والمعظم عيسى والناصر داوود[3].

امتاز العصر الأيوبي بازدهار الحركة الفكرية ازدهاراً واسعاً، تمثل ذلك واضحاً بكثرة عدد المدارس والعلماء المشتغلين بالعلوم المختلفة، وساعد على ذلك عوامل عدة منها بروز عدد من ملوك بني أيوب ممن عرفوا باهتمامهم بالعلم، والعلماء وتشجيع حركة التأليف ومساهمتهم بها[4]، فظهرت لهم مؤلفات عدة في مجال العلوم الدينية وغيرها نذكر على سبيل المثال منهم:

1. **الملك الكامل بن العادل:** الذي كان محباً لأهل العلم ومجالستهم، كما كان عنده شغف بسماع الحديث النبوي، حتى أجيز له بالحديث من عدد من الأئمة، وكان يناظر العلماء في مسائل غريبة من فقه ونحو، ويمتحن بها، فمن أجابه حظي باهتمامه وقد قيل عنه أنه لشدة حبه للعلماء كان يبيت عدد منهم عنده بالقلعة[5]. وقد شهد ابن تغري بردي بعلمه وشهامته، وذكر أن له شعراً حسناً واشتغالاً في العلم[6]، وأشار أبو المظفر سبط ابن الجوزي أنه كان يتكلم بصحيح مسلم بكلام مليح[7].

---

(1) انظر: المنذري، تكملة لوفيات النقلة، مج 3، ص 326-327، 332-333، 362-363، 387-388، 409.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 202-206.

(3) انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 654.

(4) بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص 256.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 259.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 207.

(7) مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 705؛ انظر: أيضاً ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 200.

2. **الملك المعظم عيسى بن العادل:** الذي وصفه ابن واصل بأنه عالم فاضل متفنن بالفقه والنحو، تتلمذ على شيخه تاج الدين أبي اليمن الكندي وبمشيخة الفقه الإمام جمال الدين الحصيري، وقد كان كثير التردد إليهما، وانفرد دون ملوك بني أيوب باعتناقه المذهب الحنفي وتعصبه له[1]، وقد وقف المعظم على كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي والذي احتوى مطاعن على الإمام أبي حنيفة والتي رواها الخطيب البغدادي عن جماعة من المحدثين ورد عليه بكتاب أسماه: "السهم المصيب في الرد على الخطيب" وتناول فيه قضايا كثيرة في الفقه والنحو[2]، كما ذكر ابن واصل بأنه عندما قدم القدس الشريف عام 623هـ/ 1226م، جلس خارج الصخرة واستدعى الفقهاء، وبدأ بالتباحث معهم في مسائل لغوية وفقهية[3]، حتى وصفه ابن تغري بردي بأنه "رجل بني أيوب وعالمهم بلا مدافعة"[4].

3. **الملك المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر:** (ابن أخي السلطان صلاح الدين) صاحب حماة (ت617هـ/1220م) كان عالماً فاضلاً يحب العلماء والفضلاء وأهل الأدب والشعر، وُرد إليه جماعة من العلماء منهم الشيخ الإمام سيف الدين الآمدي حتى قيل إنه صار في خدمته مئتان من النحاة والفقهاء، وأهل اللغة والمشتغلين بالعلوم الحكمية والمهندسين والمنجمين والشعراء والكتاب، كما جمع في خزانته عدداً كبيراً من كتب العلوم[5]، ومن

---

(1) ابن واصل مفرج الكروب، ج4، ص 210-211؛ الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص 242-244.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 212؛ الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص 242.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 213.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 238.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 78-80.

أشهر مصنفاته كتاب طبقات الشعراء، ومضمار الحقائق وهو كتاب في التاريخ يقع في عشرين مجلداً[1].

عُد كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق من أهم المؤلفات التي عالجت فترة الحروب الصليبية، لما تضمنه من تفاصيل عن عصر السلطان صلاح الدين وانتصاراته في عدة مجلدات توفّر منه جزء واحد محقق يعالج الفترة 575-582هـ/1179- 1186م[2]، وقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام خصص القسم الأول منه لدار الخلافة في بغداد[3]، والقسم الثاني لفتوحات السلطان صلاح الدين وأعماله بمصر والشام والجزيرة[4]، والقسم الثالث للبحث في حملة قراقوش التقوي على بلاد المغرب[5].

4. **الملك الناصر داود بن عيسى صاحب الكرك** (ت 656هـ/1258م) الذي وصف بأنه عالم فاضل ومناظر ذكي، شهد المؤرخ الصفدي بأنه سمع الحديث ببغداد والكرك حتى أجيز له[6].

ثانياً: المواضيع التي عالجها علماء فترة الحروب الفرنجية (الصليبية):

أ. الجانب السياسي والعسكري:

أسهمت مؤلفات العلماء المعاصرين للحروب الفرنجية(الصليبية) في الفترة (492-648هـ) (1099-1250م) في رصد كثير من أحداثها السياسية والعسكرية بدءاً بالحملة الصليبية الأولى، وانتهاءً بالسابعة على دمياط متناولين بذلك الاستعدادات العسكرية لكلا الجانبين، ومجريات المعارك التي وقعت بينهما وما

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 78؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص 259-260.

(2) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهناة، مضمار الحقائق، ص 7 (مقدمة المحقق).

(3) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهناة، مضمار الحقائق، ص 4-15.

(4) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهناة، مضمار الحقائق، ص 15-53، 95-161.

(5) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهناة، مضمار الحقائق، ص 229-230.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج13، ص 481.

تمخض عنها من نتائج، وما تخلل فترة الصراع من اتفاقيات للصلح، ومعالجة لأبرز القضايا الخاصة بالجبهة الإسلامية وما رافقها من عوامل فرقة ودعوات للوحدة ورص للصفوف، مع إبراز لدور بعض القيادات السياسية والعسكرية الإسلامية في هذا الصراع وجهادهم للفرنج.

رصد العالم والمؤرخ ابن الأثير (ت 630هـ/1232م) مجريات الحملة الصليبية الأولى على المشرق الإسلامي وما نتج عنها من تأسيس إمارات وممالك فرنجية، فذكر بداية ما كان من استيلاء الفرنج على الرها وأنطاكيا ومعرة النعمان ثم بيت المقدس مفصلاً في الحديث عما تخللها من مواجهات وأحداث عسكرية ومشيراً لردة فعل المسلمين عقب احتلال انطاكيا والمتمثلة بحملة الأمير كربوقا صاحب الموصل، ومن انضم إليه من ملوك السلاجقة في الشام، ومن أمراء محليين، مؤكداً على مقاومة الفاطميين للفرنج في عسقلان على أثر احتلالهم لبيت المقدس[1].

لم يقتصر حديث ابن الأثير على تأسيس الإمارات الصليبية الثلاثة الأولى بل تتبع ما كان من توالي هجمات الفرنج وسيطرتهم على بقية مدن الشام كجبلة وحيفا وآرسوف وقيسارية[2]، وطرابلس، جبيل، وعكاً[3]، مظهراً تصدى الأمير طغتكين أتابك دمشق للفرنج عام 502هـ/1108م[4]، وما تبعها من جهاد الأمير مودود صاحب الموصل لهم وتحالفه مع عدد من أمراء المسلمين[5]، ثم حملة الأمير آق سُنْقُر البرسقي إلى الموصل أيضاً عام 508هـ/ 1114م[6]، ثم ما كان من محاولات الفرنج لاحتلال حلب ومهاجمتها وإعاثة الفساد فيها عام

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 399-407.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 422-434.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 445-465.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 527.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 543-544.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 555.

513هـ/1119م، والمقاومة الضارية التي واجهوها[1]. وسيطرتهم على صور عام 518هـ/1124م كما صورها ابن عساكر[2].

أثارت قيادة الزنكيين لعمليات الجهاد ضد الفرنج منذ الربع الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي اهتمام عدد كبير من العلماء خاصة ابن الأثير الذي أبدع في وصف المعارك التي دارت بين المسلمين والفرنج مبرزاً استماتتهم في المقاومة حيث أسهب في الحديث عن أخبار عماد الدين زنكي منذ وفاة والده حتى وفاته عام 541هـ/1146م مركزاً على التحاقه بخدمة أمراء الموصل واشتراكه بحروبهم ضد الفرنج[3]. ثم ولايته على الموصل عام 521هـ/1127م[4]، والإشادة بجهوده في إقامة دولة قوية قادرة على الوقوف ضد الفرنج[5]، وتملكه لحلب عام 522هـ/1128م، وتهديده للفرنج بضمه حلب لنفوذه[6]، وفصّل في سرد الحروب التي خاضها ضد الفرنج حتى تمكّن من استرداد كثير من البلاد سواءً. كان ذلك في الشام أم في الجزيرة كالأثارب في حلب، والرها وغيرها[7].

ونالت إنجازات القائد المجاهد الملك نور الدين محمود العسكرية وبطولاته في التصدي للفرنج جانباً كبيراً من اهتمام العلماء ومؤلفاتهم وخاصة عند العماد الأصفهاني، وابن أبي طي وابن الأثير فقد ذكر ابن الأثير تملكه لحلب بعد مقتل والده[8]. في حين ذهب ابن أبي طي لإظهار دور الامير أسد الدين شيركوه في

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 592-593.

(2) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج71، ص 75-76.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 17-20.

(4) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 32-34.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 36-37.

(6) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 38.

(7) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 32-39.

(8) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 86.

مساعدته لتملكها محاولة للتقليل من دور الملك نور الدين[1]، وأظهر جهاده ضد الفرنج في مواقع متعددة كحصن حارم، وإِنِّبُ[2] مبرزاً انتصاره عليهم وقتله للبرنس صاحب أنطاكيا، وأسره العديد من الفرنج[3]، وما كان من مقاومته لهم عند محاولتهم الإغارة على حلب[4]، وفتحه العديد من حصون الفرنج[5]، ودفاعه عن حمص وحماة عام 552هـ/1157م ومحاصرته لبانياس وأسره عدداً من الفرنج[6].

كما حظيت مشاريع الملك نور الدين الوحدوية ابتداءً بضم دمشق[7]، وانتهاءً بمصر[8]، باهتمام العلماء فأشار العماد إلى استنجاد شاور بنور الدين وغدره به بعد توطيد حكمه[9]، وتولية أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر بعد قتل شاور[10]، والمناداة بصلاح الدين من بعده وزيراً للبلاد[11]. في حين زودنا ابن أبي طي بدور الملك نور الدين في التمهيد للوحدة بين مصر والشام وذلك بإرساله الفقيه عيسى الهكاري وما قام به من اتصالات سرية بالخليفة العاضد وتوحشه من شاور وسياسته القائمة على المهادنة مع الفرنج[12].

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 191.

(2) إِنِّبُ: حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب. ياقوت، معجم البلدان، مج1، ص 258.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 98-99.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 194.

(5) انظر: فتحه تل باشر، وعين تاب وإعزاز وحض البارة، وتل خالد. ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 102-103 وانظر: أيضاً منحه لبانياس والمنيطرة. ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 130-136.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 394.

(7) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 106-107.

(8) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 132- 140.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 36.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 38.

(11) أبو شامة، الروضتين، ج2،ص 50.

(12) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 68- 71.

أسهب ابن الأثير في الحديث عن الخلاف بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، واتهام صلاح الدين بالتباطؤ في الخروج لغزو الفرنج والرغبة في المُلك لدرجة استعداد نور الدين لغزو مصر إلا أن موته حال دون ذلك[1]. كما أظهرت رواية ابن أبي طيء الوحشة بن الرجلين وتوتر العلاقة بينهما وما تبعها من عتاب الخليفة العباسي لنور الدين محمود لتأخيره إعلان الخطبة للعباسيين بمصر[2].

كان للوحدة المذهبية بين مصر والشام أهمية بالغة في الاستعداد لمواجهة الفرنج والتي كان لكل من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي مساهمة فاعلة في إرساء قواعدها، فأشار ابن أبي طيء إلى إبطال صلاح الدين لشعار حيّ على خير العمل في مصر، وشروعه في الخطبة لبني العباس[3]، في حين أظهر ابن الأثير تردد صلاح الدين وتباطؤه في ذلك[4]. وأبرز العماد الأصفهاني وابن الأثير دور العلماء في إعلان الخطبة للعباسيين[5]. كما رصد العماد آثار إعلان الخطبة عند كل من نور الدين في الشام والخلافة العباسية في بغداد[6]، أما القاضي الفاضل فجاءت رسالته المطولة عام 567هـ/1171م إلىَ دار الخلافة العباسية لتوضيح ما تم على يد السلطان صلاح الدين من وحدة وجمع لكلمة أهل مصر[7].

أشار العلماء إلى الحركات المناهضة للسلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر، والتي استهدفت النيل منه على أثر إسقاطه الدولة الفاطمية. فقد كشف العماد الأصفهاني عن خطة الفقيه والشاعر عمارة اليمني لإضعاف قوة السلطان

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 158-161، الكامل، ج9، ص 246.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 77.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 129.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 243.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 123-124، التاريخ الباهر، ص 156.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 133.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 127-128.

العسكرية، وذلك بتحسين مسيره لليمن وبسط سلطته عليها[1]، كما أبرز دور السلطان وعلمائه في الكشف عن خيوط هذه المؤامرة[2]، في الوقت الذي حاول ابن أبي طيء تسويغ حركتهم هذه لما كان من قطع لأرزاقهم[3]، وجاء القاضي ليؤكد في رسالته المطوّلة للملك نور الدين محمود على اتصال المتآمرين بالفرنج والحشاشين بهدف القضاء على السلطان صلاح الدين في مصر[4].

وأولى العلماء اهتماماً بالفترة التي تلت وفاة الملك نور الدين محمود حيث توضحت الجوانب الهامة الممهدة لمقاومة الفرنج فأبرزوا فيها النشاطات السياسية والعسكرية للسلطان صلاح الدين الأيوبي في الشام، ورسموا صورة واضحة لعلاقته بالزنكيين في الشام والموصل، وأظهرت روايات العماد مواقف السلطان صلاح الدين من أهل دمشق وعدم رضاه عن سياستهم التي غلب عليها مواطأة الفرنج ومهادنتهم[5]، وانفرد ابن أبي طيء بالإشارة إلى الاضطرابات السياسية في حلب ودمشق وما ترتب عليها من انقسام شيعي سني في حلب[6]، في حين جاءت رسائل القاضي الفاضل معبرة عن سياسة صلاح الدين القائمة على الوحدة ونبذ الفرقة ورص الصفوف[7]، وما اتسمت به من دبلوماسية ومهادنة للفرنج حتى يتفرغ إلى وحدة بلاد الشام، فذكر العماد الأصفهاني عقده لمعاهدة صلح مع الفرنج

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 177-178.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 185-186.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 186.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 187-189.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 211.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 216-217.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 218.

عام 571هـ/1175م[1]. وأخرى مع أهل حلب وأهل الموصل عام 572هـ/1176م بعد نزاعٍ كبير بينهما[2].

أدى تجدد الصراع العسكري بين السلطان صلاح الدين والزنكيين بعد وفاة الملك الصالح إسماعيل إلى تظافر العلماء ووقوفهم إلى جانبه والدعاية له وتأييد مساعيه الوحدوية. وعلى الرغم من التفصيلات التي قدمها ابن الأثير من خلال حديثه عن هذا الصراع[3]، إلا أن العماد الأصفهاني عمل على تبرير مقاصد السلطان ومراميه من التوجه إلى الشام في إحدى رسائله لدار الخلافة العباسية، والمتمثلة بوضع حد للفرنج في الشام، ومنع اعتداءات الزنكيين على أملاكه[4]، وجاء القاضي الفاضل ليؤكد على أحقية السلطان في الموصل وحلب واعتبار الزنكيين معتدين على أملاكه[5].

وقد كان لمؤلفات العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ورسائلهما خلال هذه الفترة (576-581هـ) (1180-1185م) أهمية خاصة حيث مرافقة العماد الأصفهاني للسلطان في كل فتوحاته في البلاد الشرقية والجزيرة الفراتية وحلب[6]، وجاءت رسائل القاضي الفاضل ومنها رسالته عام 578هـ/1186م لدار الخلافة موضحة ما كان من تلك الفتوحات بعد عبوره الفرات ومبينة سياسته القائمة على مهادنة الفرنج، والتوسع في الجزيرة، والبلاد الشرقية معللاً ذلك بتحالف أهل الموصل مع الفرنج، وتحريضهم على أخذ الشام، موضحاً دعم أمراء البلاد له

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 255.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 277-278.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 181-183.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 55-56.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 56-58.

(6) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 24-30، 84-127.

ومؤازرته[1]، كما دوّن العماد الأصفهاني مباحثات الصلح بين السلطان حول حلب وتملكه لها بعد الاتفاق مع أهلها، ثم الموصل وما تمخض عنها من صلح معهم[2]، إلا أن ابن الأثير كان أكثر تفصيلاً في الحديث عن حصار صلاح الدين للموصل عام 581هـ/1185م، وإنكاره ذلك عليه، وما كان من أمر الصلح والخطبة له على منابرها، إلا أن ابن الأثير اعتبر ذلك حسماً للفتنة ومصلحة للمسلمين[3].

لم تخلُ فترة التحضير لتحرير بيت المقدس واقتلاع الفرنج من أرض الشام (570-581هـ) و(1174-1185م) من بعض المواجهات التي تباينت نتائجها بين النصر والهزيمة، وقد لازم العماد خلالها السلطان صلاح الدين في معظمها سوى إحداها[4]. ولهذا فقد لمع دوره في بيان أحداثها ونتائجها وأثرها على معنويات المسلمين، فوصف نوبة الرملة ومعاناة المسلمين فيها من ضياع للعسكر وأسر لعدد منهم[5]، وأظهر النصر المؤزر للمسلمين يوم مرج عيون عام 575هـ/1179م وأسرهم عدداً كبيراً من ملوكهم وكبار مقدميهم من الاسبتارية والداوية، وصاحب جبيل، وغيرهم[6]، ثم أبرز ابن أبي طيء خطورة حصن بيت الأحزان على المسلمين ورغبتهم في الخلاص منه[7]، وقام العماد الأصفهاني بوصف الحصن وكيفية اقتحام المسلمين له والتمكن منه[8].

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 115-127.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 165-169.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 365- 370.

(4) نوبة الرملة.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 38-41.

(6) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص 162-169.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 18.

(8) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 175-181؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 37؛ لمزيد من التفاصيل انظر: الحياري، مصطفى (1986). حصن بيت الأحزان: جانب من العلاقات بين

كشف العماد الأصفهاني في ثنايا مؤلفاته عن خطط السلطان صلاح الدين وتكتيكاته العسكرية في غزوة بيسان عام 579هـ/1183م مبيناً ما كان يرمي إليه وهو إخراجهم لملاقاته لضرب مصافهم واصفاً النصر الذي أحرزوه وما كان من إدبار الفرنج، وعودة المسلمين بالكثير من الغنائم والأسرى[1].

شكل عام 583هـ/1187م أهمية خاصة عند العماد الأصفهاني لما تخلله من أحداث خطيرة هامة أعلت من شأن المسلمين وقللت من شأن الفرنج، وظهر ذلك جلياً في كتاباته ورسائل البشرى بالنصر التي بعثها لكثرة ما تحقق في هذه السنة من فتوحات، ففيها استعد السلطان لفتح بيت المقدس، واستدعى العساكر وتمكّن من فتح طبريا ثم كسر الفرنج في حطين وأسر عدداً من ملوكهم ومقدميهم من الداوية، والاسبتارية وتم الاستيلاء على صليب الصلبوت[2]، وما تلاها من سقوط مدن الفرنج بيد المسلمين كعكا والناصرة وصفورية وقيسارية، ونابلس وغيرها من مدن الساحل[3]، وتابع العماد الأصفهاني حديثه عن فتح بيت المقدس إذ سجّل استعدادات الفرنج العسكرية بنصبهم المجانيق على الأسوار، واستماتتهم في الدفاع عن كنيسة القيامة، وأظهر في الوقت نفسه محاصرة المسلمين للمدينة ونصبهم المجانيق حولها وإضرامهم النيران في أسوارها حتى تم اقتحامها[4] وبرز دور العماد بعد الفتح بكتابة بشائر الفتح العظيم لدار الخلافة العباسية ودول الأطراف[5].

المسلمين والفرنجة الصليبيين، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية)، الجامعة الأردنية، عمان، مج13، ع(4)، ص 56-59.

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 147-149.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 57-61.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 63-74.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 82-83.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 87-88.

مثّل انضمام القاضي ابن شداد لخدمة السلطان صلاح الدين عام 584هـ/1188م مصدراً هاماً من مصادر دراسة أحداث الغزو الفرنجي للشام، حيث رصدة كثيراً من تفاصيلها العسكرية والسياسية، وأسهب في الحديث عن فتوحات السلطان للساحل وللعديد من قلاعها وحصونها مبرزاً ما كانت عليه كل مدينة من الحصانة واصفاً قلاعها وارتفاع أسوارها وكيفية فتح كل منها موضحاً المدن التي تم تسليمها للسلطان بالأمان كجبلة التي أخذ قاضيها الأمان للفرنج، في حين فُتحت بقيتها قسراً بقوة السلاح[1].

صوّر ابن شداد انتصارات المسلمين على الفرنج في العديد من الوقعات في عكا كالوقعة العادلية لقوله: "وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت فلم يكن إلا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية..". ودوّن ما تركته هذه الوقعة من صدى كبير في معنويات المسلمين[2] في حين أظهر العماد الأصفهاني شجاعتهم وقوة بأسهم في مقارعة الفرنج المحاصرين لعكا حتى تمكنوا من إحراق دبابتهم[3] والتي كانت تمثل أعتى وأعظم أنواع الأسلحة في ذلك الوقت[4]، كما تسامت جهود العماد في كتب الاستنفار والاستغاثة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم لنجدة المحاصرين في عكا، مضخماً قوة الفرنج وأعدادهم، وما عليه المسلمون من ضيق وحاجة للمساعدة[5].

ولم يقتصر دور العلماء المعاصرين لغزو الفرنج ديار المسلمين على إبراز انتصارات المسلمين فقط بل ساهموا بإظهار أحرزه الفرنج من تفوّق عسكري ومن إبراز انتصاراتهم، وما لاقاه المسلمون من صعوبات منهم أثناء تلك المواجهات، فقد

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 87-106.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 130-131.

(3) من دبب وهي آلة تتخذ للحروب وتصنع من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن لينقبوه، سميت بذلك لأنها تدفع فتدب. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج4، ص 277، مادة دبب.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 287-288.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 294-307.

صوّر ابن الأثير هزيمة نور الدين محمود أمام الفرنج تحت حصن الأكراد في الموقعة المعروفة بالبقيعة وما تخللها من قتل وأسر بين صفوف المسلمين[1]، كما أورد العلماء مقاومة المركيس[2] صاحب صور للمسلمين عام 583هـ/ 1187م أثناء محاولتهم فتح المدينة، وأظهر يأس المسلمين من حصانة المدينة وعجزهم عن فتحها وما ترتب على ذلك من ضجر العساكر من طول الحصار، وما أعقبها من محاولات تمرد بين صفوف عساكر السلطان وتمنعهم عن الاستمرار في القتال[3]، في حين حمّل ابن الأثير السلطان صلاح الدين وحده مسؤولية الفشل في فتح المدينة مظهراً في ذلك تحاملاً واضحاً ضده لقوله: "ولما رأى صلاح الدين أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره، فرحل عنهن ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين فإنه جهز إليها جنود الفرنج"[4].

كشف ابن شداد عن معاناة المسلمين أثناء محاصرتهم في عكا حتى اضطروا لشدة مضايقتهم إلى إلقاء موتاهم في الخندق المحيط بالمدينة[5]، وظهرت جهود العماد الأصفهاني أثناء ذلك الحصار من خلال كتب الاستنفار لتي بعثها شارحاً فيها استنفاذ قوى المسلمين وحاجتها للمساعدة[6] ورصد دخول الفرنج للمدينة بعد سقوطها وتنكيسهم أعلام المسلمين فيها، وحزن السلطان عند رؤيته

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 179-180.

(2) هو الماركيز كونراد الذي عرف في المصادر اللاتينية باسم Conrad de Montferrat وهو ابن الملك الإيطالي وليم دي مونتيفرات الذي اسر في حطين. سلامة، جلال حسني، (1993). عكا في أثناء الحملة الفرنجية الصليبية الثالثة، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ص 136.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 99- 101.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 400-402.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 160.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 301-302.

لها[1]، في حين عبّرت رسائل القاضي الفاضل آنذاك عن معاناة عساكر المسلمين في عكا وتقاعس أهلها عن الجهاد ويأسهم، ولكنه أظهر صبر السلطان على البلاء بعدما تكالب عليه الفرنج بقوله: "فإذا قتل المسلمون واحداً في البر، بعث ألفاً عوضه البحر، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة، والكلف الثقيلة في استطاعتهم.." [2]، وكاشفة عن عجز أهل المغرب عن مساعدة أهل المشرق ضد الفرنج[3]، أما ابن شداد فقد صوّر كسرة المسلمين يوم أرسوف عام 588هـ/1192م لقوله: "واتفق أني كنت في القلب، ففر القلب فراراً عظيماً فنويت التحيز إلى الميسرة، فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة، فنويت التحيز إلى الميمنة، فرأيتها وقد فرت أشد فرار.."[4].

وقد زوّدنا العلماء بمعلومات هامة تمتاز بالدقة وحسن التثبت عن أعددا القتلى من الفرنج في أكثر من وقعة، وفي ذلك دلالة على دقتهم في رصد الأحداث بكل تفاصيلها، فقد ذكر ابن الأثير أن عدد قتلى الفرنج يوم نوبة حارم بلغ عشرة آلاف قتيل بالإضافة للأسرى[5]. ورصد ابن شداد يوم المصاف الأعظم بعكا عام 585هـ/1189م سبعة آلاف قتيل بقوله: "ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه، فحرزتهم بدون سبعة آلاف[6]. وقد كانت كثرتهم سبباً في عجز ابن شداد عن تقدير أعدادهم يوم الوقعة العادلية لقوله: "ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفوقهم.." [7].

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 171.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 82-83.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 111-124.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 183-184.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 188-189.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 112.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 130.

وثمة مؤشر على تفوق المسلمين على الفرنج يتمثل بتقديرهم لأعداد الأسرى، فقد بلغوا يوم مرج عيون حوالي مائتين وسبع وستين من الفرسان سوى من كان من أكابرهم، وقد كان لهذه الرواية أهميتها لقيام العماد الأصفهاني بِعَدّ الأسرى بنفسه لقوله: " ثم أذن في تقديم الأساري، وأنا جالس بقرب السلطان منفرداً أستعرضهم بقلمي في الدستور"*[1]. وذكر القاضي الفاضل في إحدى رسائله للسلطان أن عدد أسرى الفرنج الذين تمكن المسلمون من أسرهم على أثر عبورهم بحر القلزم عام 578هـ/1182م بلغ مائة وسبعين أسيراً[2]، في حين شاهد العماد الأصفهاني بعينيه أسرى الفرنج يوم حطين إذ كان الثلاثون والأربعون في حبل واحد[3].

انفرد سبط ابن الجوزي بإيراد معلومات هامة وقيمة عما تميزت به مرحلة الصراع العسكري مع الفرنج بعد السلطان صلاح الدين، إذ غلبت عليها صفة المهادنة والضعف عن المواجهة، ودل عليها بوضوح معاهدة تسليم بيت المقدس للفرنج، وقد حمّل ابن الجوزي الملك الكامل مسؤولية ما حدث[4]، ثم تبعه الملك الصالح إسماعيل حيث تنازل هو الآخر عن كثير من الحصون والمدن الإسلامية وعقد اتفاقيات الصلح معهم[5].

ساهمت مؤلفات العلماء في الكشف عن أنواع الأسلحة المستخدمة زمن الحروب الفرنجية، فأشار ابن الأثير إلى استخدام نور الدين محمود للمنجنيق يوم

---

* قاعدة يعمل بمقتضاها كما تأتي مجموع قوانين أو مراسيم الأعمال، وأحياناً إجازة للعساكر، وإذن ورخصة وتستعمل بمعنى الدفتر الذي تكتب به أسماء الجند أو الجماعات، ويأتي بمعنى علامة أو دلالة. رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ج4، ص 353.

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 165-166.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 73-75.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 60-61.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق 2، ص 653-654.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق 2، ص 732-733.

حصاره لحارم عام (559هـ/1163م)[1]، واستخدمه صلاح الدين في حصار الكرك عام 579هـ/1183م[2] ويوم حصار حصن بيت الأحزان[3]، وفي غيرها من المدن التي شهد ابن شداد حصارها أثناء ملازمته السلطان في حروبه[4]، وأضيف إلى المنجنيق استخدام النفط لحرق أبراج الفرنج[5]، وكذلك أشار القاضي الفاضل إلى استخدام الشواني، وفي هذه دلالة على معرفتهم بفنون القتال البحرية والبرية.

أشار ابن شداد إلى استخدام الفرنج للدبابة[6]، والكبش[7] في حصارهم لعكا لهدم أسوارها[8]، وأفاض القاضي الفاضل بالحديث عن تعدد مكائدهم وطرقهم في الحرب بمقاتلتهم تارة بالأبرجة[9] وأخرى بالمنجنيق وباللوالب[10] ويوماً بالنقب

(1) ابن الاثير، الكامل، ج9، ص 188.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 153.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 178-179؛ الحياري، حصن بيت الأحزان: جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الصليبيين، ص 55-56.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 91-93.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 120.

(6) من دبب وهي آلة تتخذ للحروب وتصنع من جلود وخشب يدخل فيها الرجال وينقبونها من الحصن لينقبوه سميت بذلك لأنها تدفع فتدب انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 277، مادة دبب.

(7) آلة من آلات الحرب تستعمل في الحصار لقذف الحصون. المعجم الوسيط، ج1، ص 774 مادة كبش.

(8) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 91-93.

(9) آلة من آلات الحصار مصنوعة من الخشب المغطى بالجلود والمملوءة بالخل لمنع النيران من التهامها شديد الارتفاع لاقتحام الأسوار. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 120.

(10) اللولب: أداة من خشب أو حديد ذات محور منه دوائر حلزونية ناتئة أو داخلة، يعرف بـ"البرغي". مسعود، الرائد، معجم لغوي عصري، ص 1304.

وليلاً بالسربان[1]، وبطم الخنادق، وبنصب السلالم، ودفعه بالزحف في الليل والنهار وأحياناً بالبحر بالمراكب[2].

كما كشفت مؤلفات العلماء عن سر نجاح حركة الجهاد الإسلامي ضد الفرنج والمتمثلة بحسن استعداداتهم، فأشار ابن الأثير إلى الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي في التحضير لفتح الرها بتقديمه الشجعان والنقابين ونصبه المجانيق[3]، كما قام نور الدين محمود بعد هزيمته في البقيعة بالاستعداد للقاء الفرنج، ففرّق الإمدادات والأسلحة على جنده، فعادت عساكره وكأنها لم تصب بشيء، وأكد القاضي الفاضل اهتمام السلطان واستعداده لمواجهة الفرنج بعد شفائه من مرضه بحران[4]، وما كان من تكليفه لبعض عساكره بالقتال وإراحته القسم الآخر حتى لا تفتر عزائمهم عن القتال كما حدث يوم فتح برزية عام 584هـ/1188م[5]، واستعداداته العسكرية وبنائه أسوار بيت المقدس لمنع اقتحامها عام 588هـ/1192م[6] بالإضافة لاستصحابه النقابين والحجارين[7]، والخرسانية[8]، وحسن إداراته لدفة القتال، بتقسيم عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب[9]، تحسباً

(1) من السرب وهو القطيع، والسربة جماعة ينسلون من العسكر فيعبرون ويرجعون والسرية الجماعة من الخيل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص 225، مادة سرب.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 148.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 69.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 187.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 92.

(6) أبو شامة، الروضتين، مج4، ص 174.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية ، ص 235.

(8) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 57.

(9) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 109-111.

لمداهمة العدو لهم، كما أبرز الأصفهاني دور أمراء الجيش في مقاتلة الفرنج في عهدي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي[1].

كما بيّنت مؤلفات العلماء الاستعدادات العسكرية للفرنج والمتمثلة بتنظيماتهم وتشكيلاتهم وإعدادهم، فقد صور ابن الأثير ضخامة جيش الفرنج أثناء لقائهم الملك نور الدين في حارم عام 559هـ/1163م بكامل جموعهم من فرسان وراجله وبصحبة ملوكهم[2]، كما أبدع العماد الأصفهاني في وصف استعداداتهم العسكرية في البر والبحر عند لقائهم المسلمين بمرج عيون ذاكراً أنواع مقاتلتهم وإعدادهم[3]. ورصد ابن شداد تحركاتهم وترتيب عساكرهم يوم المصاف الأعظم بعكا عام 585هـ/ 1189م متتبعاً ضخامة جيشهم بعد وصول النجدات إليهم من خلال البحر موضحاً الأثر الكبير الذي تركته في إضعاف معنويات المسلمين وما اتخذه السلطان صلاح الدين من إجراءات تمثلت بجمعه لأمرائه واستشارتهم في كيفية الرد[4]، كما بيّن ابن شداد إشارات الأعلام عند استعداداتهم للرحيل والمتمثلة بإشعالهم النيران[5]، كما سجّل العلماء المسلمون المعاصرون للغزو مواطن الضعف التي عصفت بعلاقة الفرنج ببعضهم بعضاً وانقسامهم، أثناء مواجهاتهم مع المسلمين ومنها يوم محاصرتهم للقدس عام 588هـ/1192م والتي على أثرها أعلنوا انسحابهم عنها[6].

صورت مؤلفات العلماء في هذه الفترة بطولات القادة العسكريين المسلمين وحسن قيادتهم لمراحل الصراع ضد الفرنج، والتي أظهرها كل من ابن عساكر عند

---

(1) انظر: البرق الشامي، ج3، ص 92، 128، 149.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 188.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 167.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 136-137.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 175.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 217.

نور الدين محمود من خلال وصفه له بأنه مثال للقائد الثابت الجأش، حسن الرمي في مقارعة الأعداء، المستميت في قتال الأعداء[1]، كما أظهر ابن شداد مواقف السلطان صلاح الدين الأيوبي الدالة على مقاومته للفرنج، ومنها مواظبته على الجهاد والاهتمام به وتقدمه الصفوف كيوم لقائه الفرنج ببرزية، ورفعه لمعنويات عساكره يوم المصاف الأعظم بعكا بطوافه على الأطلاب لينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة، ويحثهم على الجهاد ومناداته فيهم: "يا للإسلام .." وتفقده أيضاً قتلى المسلمين بعد انتهاء معاركهم مع الفرنج، وإعطائهم دستوراً إثر انتهاء المواجهات، وحرصه على تأمين الميرة والأسلحة لهم لضمان صمودهم[2].

أظهر العلماء المعاصرون للحروب الفرنجية (الصليبية) العلاقات الدبلوماسية مع الفرنج وتمثل ذلك بإيراد ابن شداد كثيراً من تفاصيل المباحثات والاتفاقيات التي حدثت مع الفرنج، ففصّل بالحديث عن رسل ملوك الفرنج للسلطان صلاح الدين بقصد تسليمهم البلاد، وما كان من مماطلتهم له بالوعود لأكثر من ثلاثة أشهر، وتأتي أهمية معلومات ابن شداد بحضوره لتلك اللقاءات[3]، ثم تحدث أيضاً عن اتصالات الفرنج بالملك العادل ومراسلتهم له[4]، ومراسلة ملك (الانكتار) للسلطان صلاح الدين بعد سقوط عكا عارضاً مطالب الفرنج وشروطهم للصلح، والمتمثلة بإطلاق الأسرى وصليب الصلبوت ومبلغاً من المال[5]، ثم أشار إلى ادعائهم أحقيتهم ببيت المقدس، ورفض السلطان لذلك[6]، حتى آل الأمر لتوقيع صلح الرملة والذي أوضح ابن شداد مبرراته وشروطه كاملة[7].

---

(1) تاريخ مدينة دمشق، ج57، ص 120-121.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 92-118.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 97-103.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 182-183.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 173.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 190-194، 218-221.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 232-235.

وتعرض الإمام المنذري لمراسيم الصلح بين المسلمين والفرنج في مصر عام 618هـ/1221م، وتحديد مدة الاتفاقية بثماني سنوات[1]، في حين فصّل سبط ابن الجوزي بالحديث عن العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والفرنج زمن الملك الكامل، والتي تمثلت بتنازله للأمبراطور فردريك عن بيت المقدس عام 626هـ/1228م[2].

بيّنت مؤلفات العلماء ما تحلى به المسلمون من آداب الحرب في التعامل مع العدو كإشارة ابن عساكر لكثير من أحاديث الرسول ﷺ التي تدعو إلى عدم الغدر والتمثيل بالأعداء وقتل الأولاد أثناء الغزو[3], وأشار العماد الأصفهاني لعفو السلطان عن عدد من ملوك الفرنج ممن كانوا في عداد الأسرى[4].

لم تقتصر مؤلفات علماء فترة الدراسة على تصويرهم للأحداث السياسية والعسكرية فقط بل تعدتها إلى الكشف عن مواطن الضعف والخلل التي عصفت بالجبهة الإسلامية خلال المواجهات مع الفرنج، فقد رأى العماد الأصفهاني في هزيمة المسلمين يوم الرملة مراجعة للحسابات وتصويباً للأخطاء المستشرية في الجيش[5]، وأسهب في الحديث عن سقوط عكا بيد الفرنج عازياً ذلك لما كان من تبديل السلطان للجند والأمراء قليلي الخبرة بأمور الحصار، ودخولهم عكا كارهين للقتال[6]، وردّ سقوطها في مكان آخر إلى قلة الإنجاد[7]، وكُشف ابن شداد عن تخاذل بعض أمراء الأطراف المشاركين إلى جانب السلطان صلاح الدين الأيوبي في جهاده ضد الفرنج، وانسحابهم من معسكر السلطان، ورصده لآثارها في

---

(1) المقريزي، الخطط، مج1، ص 593.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 653-656.

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج35، ص 261.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 222-226.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، ص 36.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 306؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 137.

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 301.

زعزعة جبهة المسلمين[1]، وإبرازه محاولات الانقسام التي آثارها بعض أمـراء السلطان، ورفضهم خوض غمار الحرب ضد الفرنج[2]، وانتقاد العماد الأصـفهاني تلاعب أمراء المسلمين بالأموال التي أخذت كجزية من الفرنج الخارجين من بيـت المقدس بعد التحرير بالرشوة حيناً، والتفريط حيناً آخر مظهراً أهمية هذه الأمـوال لو حفظت[3].

وقد كان الفقيه أبو طاهر السلمي (ت 500هـ/1106م) من أول العلماء الذين نبهوا في مؤلفه كتاب الجهاد إلى قضايا هامة متعلقة بالجهاد، وقتال الفرنج بالحث عليه، والتركيز على رص الصفوف وإشارته لدور الخطط العسكرية في القتال، وبيانه لكيفية مقاومة العدو، والتنبيه لعدم الغدر به مبرزاً مكانة القائد وأهميته في إدارة دفة القتال، وتنظيمه للعسكر، إضافة لكثير من القضايا التي تعتبر من الآداب التي حث الإسلام على الالتزام بها في الحروب موضحاً أهمية الغنيمة في الحرب، وكل ما يتعلق بها والتي جاءت مفصلة في الكتاب كما يلي:

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 145-146.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 216-229.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 220.

الرقم	الموضوع	المصدر
.1	ضرورة الإخلاص في نية الجهاد	السلمي، مخطوطة كتاب الجهاد، ج2، ص 183
.2	عدم الرياء في الجهاد	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 183
.3	باب الأعذار في التخلف عن جهاد الكفار في ديارهم	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 184-186
.4	التغليظ على من يجاهد وعليه دين	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 187
.5	المشورة والأخذ بالحزم والوثيقة	المصدر نفسه، ج8، ص 193-194
.6	المواضع التي يحسن فيها الإقدام والمواضع التي يجوز فيها الإحجام	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 195
.7	حالة الصفوف في سبيل الله	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 195
.8	قدر ما يجب على المسلمين لقاءه من الكفار	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 195
.9	بعث السرايا إلى الكفار وتوجيه أمرائهم وتوديعهم والدعاية لهم	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 196
.10	إرسال البعوث	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 197
.11	وصايا الرسول ﷺ للأمراء بعدم التمثيل والغدر وقطع الشجر	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 199
.12	إنذار الكفار قبل قتالهم	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 201
.13	ما جاء في مغازي الرسول ﷺ	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 203
.14	ما كان النبي ﷺ يفعله إن أغار على الكفار	المصدر نفسه، والجزء نفسه ص 203
.15	النهي عن قتل من أظهر الإسلام	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 204

الرقم	الموضوع	المصدر
.16	ما جاء في قتل الشيوخ والنساء والصبيان من حظر وإباحة	المصدر ، والجزء نفسه، ص 206
.17	منع النساء من القتال	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 206
.18	ما يستدل على كفره بعد إيمانه ورجوعه عن ذلك وقبول توبته	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 210-211
.19	في المسلم إذا أطلع الكفار على شيء من عورات المسلمين وقبول عذره إذا أوضح عند الإمام	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 211
.20	الرخصة في المكر والخديعة في الحرب والنهي عنه عن الكذب	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 212
.21	المصافة في القتال وتعبئة الجيش والخيالة والرجال	المصدر نفسه، ج9، ص 2-15.
.22	المبارزة قبل المصافاة والاستشهاد بين الكافة	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 15-17
.23	ما جاء في الشجاعة وإن الإقدام لا يضر مع بقاء المدة	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 18-19
.24	الإنصاف في توزيع الغنائم	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 19
.25	أقوال الفقهاء والنظار في تولية الأدبار وأحكام الفرار	المصدر نفسه، ج12، ص 214
.26	من مختارات أقوال شعراء الجاهلية والإسلام في مدح الإقدام وذم الإحجام	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 215

الرقم	الموضوع	المصدر
.27	باب مجاهدة النفس ومجاشدة الأعداء	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 218
.28	باب من رأى ما أعد له من ثواب الجهاد قبل يوم المعاد	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 218
.29	المغانم وما جاء من إحلالها لمحمد ﷺ وأمته	المصدر نفسهن ج12، ص 222
.30	ما اشترك على من جعل له شيء ليقاتل في سبيل الله	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 224
.31	ما قيل في الجُعل	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 224
.32	قول بعض التابعين في ثواب الإجراء والعبيد	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 225
.33	ما يجوز للمسلمين أكله والانتفاع به في بلاد العدو قبل قسمة الغنائم وما لا يجوز	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 225
.34	اللقطة من بلاد العدو	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 227
.35	من اشترى من الكفار عبداً أو حراً وهب له أحدهما	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 227
.36	أحكام السبي	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 228
.37	ما جاء في الأنفال	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 230
.38	ما جاء في غنائم الكفار يبارك فيها للمسلمين	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 237

كما أبرز الحافظ ابن عساكر المساهمات العسكرية ضد الفرنج لعدد كبير من علماء المسلمين والتي جاءت مبعثرة في كتابه تاريخ مدينة دمشق والموضحة في الفهرس التالي:

الرقم	الاسم	تاريخ الوفاة	المساهمة العسكرية	المصدر
1.	علي بن القاسم الشهرزوري	532هـ/1137م	شارك في حصار دمشق مع عماد الدين زنكي في حصاره الأول لها	ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج43، ص 136
2.	الفقيه إبراهيم بن محمد	553هـ/1158م	كان جندياً في مدينة الرملة	المصدر نفسه، ج7، ص 112-113
3.	الحسن بن محمد بن أبي المضاء البعلبكي	537هـ/1142م	كان جندياً ومحدثاً	المصدر نفسه، ج13، ص 385
4.	علي بن مرشد بن منقذ	542هـ/1147م	كان محدثاً وشاعراً قتل شهيداً بعسقلان	المصدر نفسه، ج74، ص 240-243
5.	يوسف بن إبراهيم الزنجاني	492هـ/1099م	قاتل الفرنج وقتل يوم أخذ الفرنج لبيت المقدس	المصدر نفسه، ج74، ص 215
6.	الحسين بن عبد الله بن رواحة	585هـ/1189م	كان فقيهاً ومحدثاً وأديباً وشاعراً	المصدر نفسه، ج14،

الرقم	الاسم	تاريخ الوفاة	المساهمة العسكرية	المصدر
			(بدمشق وبمصر) وقتل شهيداً بمرج عكا	ص 82-85
7.	أبو علي الحسن بن مسعود	543هـ/1148م	كان محدثاً ووزيراً تزيا بزي الجند مرة ثم اشتغل بالفقه والحديث	المصدر نفسه، ج13، ص 393
8.	نور الدين محمود	569هـ/1173م	كان مواظباً على القرآن والحديث، وغازياً وقاهراً للفرنج في حوادث كثيرة	المصدر نفسه، ح57، ص 120-123

يلاحظ من الجدول ما يلي:

1. أن هذه المشاركات لم تكن مقتصرة على مدينة بعينها سواء كانت من الشام أو خارجها.
2. كما لوحظ مشاركة العلماء في ساحات قتال متعددة في عسقلان وعكا – ودمشق – وبيت المقدس.
3. لم تقتصر المشاركات على الاسماء المذكورة فقط بل هناك الكثير منها.

شهد عصر الحروب الفرنجية (الصليبية) انتشاراً واسعاً للمؤلفات المتعلقة بفضائل المدن وبخاصة: بيت المقدس لما لها من اعتبارات دينية من جهة، ولارتباطها بفكرة الجهاد من جهة أخرى إذ كانت المحور الذي ارتكزت عليه مسألة الحفز على الجهاد في معظم الأحيان، وكثيراً ما كانت تتأجج هذه الفكرة كلما أثيرت

مسألة سيطرة الفرنج عليها[1] فكان الهدف من تأليفها غرس حبها في نفوس النـــاس ليستخلصوها من العدو[2]، في حين أرجع باحث آخر السبب الأساسي فـــي تزايـــد كتب الفضائل خلال هذه الفترة إلى محاولات الفرنج للقضاء على حضارة الإســـلام وتراثه. وبهذا وجد العلماء أن خير وسيلة لحفظ تراث المدن الإسلامية، ومكانتهـــا التاريخية، وملامحها الحضارية، هو التأريخ لها وتدوين أخبارها[3].

ومن أشهر العلماء الذين ألّفوا في هذا الجانب مكي بن عبد السلام الرميلـــي الذي صنف قبل استشهـــاده كتاباً في تاريخ بيت المقدس[4]، كما صنف الحافظ أبـــو سعد السمعاني[5] (ت 562هـ/1166م) كتاباً بعنوان فرط الغـــرام إلـــى ســـاكني الشام[6]، والذي عد من العلماء القلائل الذين تمكنوا من زيارة المسجد الأقصى أثناء وقوعه تحت سيطرة الفرنج متحملاً بذلك مصاعب الرحلة[7]، ومن المـــرجح أنـــه وضع كتابه بعد انتهاء رحلته هذه. كما كان للأسرة الدمشقية المنسوبة لابن عساكر دور كبير في مؤلفات بيت المقدس، فقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر كتابـــاً في فضائل بيت المقدس[8]، وتبعه ولده الحافظ أبو محمد القاسم بن علي[9] بكتابـــه فضل المسجد الأقصى[10]. كما صنف أبو الفضل أحمد بـــن محمـــد بـــن الحـــسن

---

[1] مؤنس، فكرة الجهاد الإسلامي فـــي بـــلاد الـــشام، ص242-243؛ Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P. 148- 150.

[2] بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص540.

[3] خليفة، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص108.

[4] السمعاني، الأنساب، ج2، ص326.

[5] عبد الكريم بن محمد كان من كبار المحدثين له كثير من المصنفات، تـــوفي عـــام 562هـــ/1166م. السبكي، طبقات الشافعية، ص181-183.

[6] ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج36، ص447-449.

[7] السمعاني، الأنساب، ج1، ص14 (مقدمة المحقق).

[8] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص336-337.

[9] كان محدثاً كوالده توفي سنة 600هـ/1203م السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص352-353.

[10] السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص352-353.

المعروف بتاج الأمناء (ابن أخي الحافظ بن عساكر)[1] كتاباً بعنوان الأنس في فضل القدس[2]. وصنّف الحافظ الحسن بن هبة الله[3] الدمشقي كتاباً بعنوان فضائل القدس[4]. أما الحافظ ضياء الدين المقدسي فقد صنف كتاباً عن فضائل الشام في ثلاثة أجزاء[5]. وتكمن أهمية هذه الكتب بالتذكير بهذه المدن وقراءة بعض ما أُلف عنها على مسامع الناس كما فعل ابن عساكر عند قراءته لكتابه عن فضائل القدس أمام أهل دمشق لتركيز الوعي الشعبي بقدسيتها وبيان الآمال لاستعادتها[6].

ب. النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية:

احتلت النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية حيزاً كبيراً من اهتمام علماء هذه الفترة، وقد برز ذلك واضحاً في ثنايا مؤلفاتهم أثناء حديثهم عن الاستعداد للجهاد، والمواجهات مع الفرنج أو بعد انتصاراتهم عليهم وفتحهم المدن.

لاقت مسألة تخفيف الضرائب عن أبناء المجتمع الإسلامي اهتماماً واضحاً لدى الزنكيين والأيوبيين، لما لها من أهمية بالغة وآثار إيجابية على المجتمع الواقع تحت خطر الغزو، وما تسببه من دافعية للقتال، أضف إلى ذلك دورها في تحسين أحوال الناس الاقتصادية، ولذلك حاول العلماء إبرازها، فقد ثمن ابن عساكر إجراءات الملك نور الدين محمود بهذا الشأن، والمتمثلة برفعه الأثقال والمغارم عن أهل دمشق[7] وإبطاله المكوس عنهم أيضاً[8] في حين أشار ابن أبي طيء إلى

---

[1] كان محدثاً، وغازياً توفي عام 610هـ/1213م. انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص70.

[2] السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص 70.

[3] كان محدثاً ومصنفاً لكثير من المؤلفات، توفي عام 586هـ/1190. انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 581-590، ص237-238.

[4] الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 581-590، ص237-238.

[5] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص65-66.

[6] Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P. 165.

[7] ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج57، ص120.

[8] أبو شامة، الروضتين، ج1، ص121-123.

إسقاطها عن أهل مصر من قبل السلطان صلاح الدين الأيوبي[1]. وعن أهل حلب بعد فتحه لها[2]. في حين كشف سبط ابن الجوزي سبب قعود بعض أهل الشام عن الجهاد إلى جانب الملك المعظم عيسى عقب سقوط دمياط بسبب أخذه الخمس من أموالهم[3].

أوضح العلماء اهتمام قادة الجهاد الإسلامي بالناحية المالية وضرورة استغلالها الاستغلال الأمثل لتحقيق التفوق العسكري على الأعداء، فانفقوا بكل سخاء على أمور الجهاد، وقد أشار ابن عساكر أن ما كان يأخذه نور الدين محمود من فكاك أسرى الفرنج كان ينفقه في الجهاد[4]. وذكر إبن أبي طيء حجم الأموال والأسلحة والذخائر التي وجدها السلطان صلاح الدين بآمد بعد فتحها حتى قُدر بثلاثة آلاف دينار[5]. وأكد القاضي الفاضل حرص السلطان صلاح الدين على استغلال أموال المسلمين التي أخذها من الجزيرة للإعداد لفتح مُدن الشام[6]. كما أشار العماد إلى ذخائر عكا وأموالها وبضائعها التي استولى عليها المسلمون بعد فتحها مظهراً أهميتها التجارية[7].

وتتبع العلماء في مؤلفاتهم اهتمام السلطان صلاح الدين بإدارة المُدن المفتوحة، واختيار الإداريين الأكفاء المعروفين بنزاهتهم، فأشار العماد الأصفهاني إلى تعيين ولده الملك الأفضل على عكا، وتنظيم أمور القضاء والحسبة والأوقاف وغيرها من المدن[8]. ودأب على ذلك في مدن أُخرى ككوكب بإيلاء أمرها للأمير

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص79.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص132.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص60.

(4) تاريخ مدينة دمشق، ج57، ص120.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص128.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص128.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص199-201.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 200-201.

بهاء الدين قراقوش[1] وحلب التي أشار ابن أبي طيء والعماد الأصفهاني إلى توليتها للملك العادل، وإسناده أمر القضاء فيها للقاضي محي الدين بن الزكي[2]. وتركه الملك العادل في القدس ليقرر قواعدها بعد أن فتحها السلطان[3]. كما أكد العماد الأصفهاني على جهود القاضي الفاضل في إدارة دولة صلاح الدين زمن الاحتلال مبرزاً دوره أثناء غياب السلطان عن مصر[4]، ومساعدته للملك المظفر تقي الدين بن أخي السلطان عندما عهد له بإدارة مصر[5]. في حين أظهر القاضي الفاضل دوره بنفسه من خلال إشارته إلى عنايته ببناء سور القاهرة[6].

وبلغ وعي العلماء ودقتهم برصدهم آثار المواجهات مع الفرنج على الحياة الاقتصادية للمسلمين عامة والفرنج كذلك، وتمثل ذلك واضحاً في الرسالة التي بعثها القاضي الفاضل لديوان الخلافة العباسية والتي أظهر فيها نهب سفن المسلمين في بحر القلزم من قبل الفرنج[7] واستيلائهم على قافلة مصرية محملة بالميرة والأسلحة جاءت لنجدة المحاصرين من أهل عكا عام 588هـ/1192م[8]. وكشف ابن شداد عن الآثار الاقتصادية التي أعقبت سقوط عكا بيد الفرنج من ارتفاع أسعار الشعير وغيرها[9]. وما كان من آثار خراب عسقلان كبيع أهلها لممتلكاتهم فما كان يساوي عشرة دراهم بيع بدرهم[10]. كما رصد المنذري أيضاً الآثار التي ألحقها حصار

---

[1] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص96.

[2] البرق الشامي، ج5، ص132؛ أبو شامة، الروضتين، ج3، ص124-125.

[3] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص89.

[4] أبو شامة، الروضتين، ج4، ص139.

[5] البرق الشامي، ج5، ص153-156.

[6] أبو شامة، الروضتين، ج3، ص3-4.

[7] البرق الشامي، ج5، ص71-75.

[8] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص213-215.

[9] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص176.

[10] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص187.

دمياط عام 616هـ/1219م على المصريين واضطرارهم لبيع مواشـيهم بأسـعار زهيدة، وما رافقها من ارتفاع لأسعار السُكَر والدجاج والفاكهة، وانعدام للأقوات[1]. وفي مقابل ذلك صور العماد الأصفهاني سوء الأوضاع الاقتصادية للفرنج بعد فتح المسلمين لعكا عام 583هـ/1157م كقوله: "وخلَّى سكانُ البلد دورهم ومخـزونهم ومذخورهم...، وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء"[2]، وبين ابن شداد قتل أعداد كبيرة من الفرنج نتيجة محاصرتهم بعكا[3].

وعكست بعض الروايات سماحة الإسلام والمسلمين، والتي برزت بمواقف السلطان صلاح الدين تجاه صاحب الكرك أرناط إذْ سمح له بشرب الماء بحضرته وهو أسيرٌ ومهدور الدم[4]، وقيامه بفك أسر أحد شيوخ الفرنج الكبار بعـد علمـه بقدومه لأداء فريضة الحج[5]، ورده طفلاً رضيعاً لأمه بعـد أن أخـذه لـصوص المسلمين[6]. وإصراره على قدوم الحجاج الفرنج لبيت المقدس بعد ما أنكـر ملـك الفرنج ذلك عليهم بحجة كثرتهم وعدم أخذهم الإذن منه[7]. كمـا كـشفت رسـائل القاضي الفاضل عن الفئات الاجتماعية المشاركة في الجهاد ضد الفرنج من عـرب وأكراد وأتراك[8]. ورصد ابن عساكر خلو بعض المدن من علمائهـا هربـاً مـن الغزو[9].

---

(1) المقريزي، الخطط، مج1، ص590-591.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص200.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص154.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص60.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص156.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص158.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص236.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص130-131.

(9) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج37، ص276.

ج. الجانب التعليمي والثقافي:

ساهم ازدهار التعليم والحركة الثقافية في عهد الزنكيين والأيوبيين في دفع حركة الجهاد ضد الفرنج بشكل واضح، وقد كان للعلماء دور ريادي في ذلك، كما كان لهم دور بارزُ في تدوين الإنجازات التي شهدتها مصر والشام في هذا المجال خلال فترة الدراسة فأوضحوا ما كان من انتشار العلوم الدينية واهتمام السلطة السياسية بها وتجلى ذلك باعتراف الحافظ ابن عساكر بإسهامات نور الدين في إنشاء المدارس في حلب ودمشق وإيقافه الوقوف عليها، وتعميره الربط الخانقاوات، وإظهاره المذهب السني بحلب، وتغييره البدع التي شاعت عند الشيعة[1]. في حين فصّل ابن جبير في الحديث عن التعليم خلال رحلته مبرزاً آثار اهتمام نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي بحركة التعليم في البلدين السابقين، ومدللاً على ذلك بأوضاع الصوفية، وما لاقوه من عناية بالغة زمن نور الدين زنكي واصفاً الربط (الخانقاة) التي كانوا يسكنوها[2] مُظهراً إشراف صلاح الدين واهتمامه ببناء الجوامع والمساجد وكثرة إنفاقه عليها لقوله: "وما فيها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ... ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعمّ جميع ما يأوي إليها..."[3] وركزّ على الاهتمام البالغ الذي لاقاه المغاربة من قبل صلاح الدين الذين ينعتهم بالغرباء[4]، مشيداً بمساهمة العلماء المغاربة زمن نور الدين وصلاح الدين في تدريس الفقه المالكي في جامع دمشق[5] في حين ركز ابن الأثير على اهتمام نور الدين بالجانب المعنوي للعلماء وعلاقته بهم متمثلاً بإكرامه لهم، وبيان المنزلة التي حظوا بها عنده[6].

---

(1) تاريخ مدينة دمشق، ج57، ص120-121.

(2) ابن جبير، الرحلة، ص256-257.

(3) ابن جبير، الرحلة، ص27.

(4) ابن جبير، الرحلة، ص26-27.

(5) ابن جبير، الرحلة، ص245-248.

(6) التاريخ الباهر، ص171، الكامل، ج9، ص273-274.

كما أظهر العلماء جهود السلطان صلاح الدين بإعلاء المذهب السني في مصر. فأشار ابن أبي طي إلى مساهماته في التمهيد للقضاء على الفكر الشيعي، وتغيير شعار الإسماعيلية[1] في حين أشار العماد الأصفهاني إلى اهتمامه بإنشاء المدارس، واستبداله القضاة الشيعة بقضاة شافعية[2]. ثم أبرز العماد أيضاً أثر الفتوحات في ازدهار العلوم الدينية، وتنافس العلماء فيما بينهم إذ شهدت القدس بعد فتحها كثيراً من المناظرات ودراسة الحديث والفقه وغيره لقوله: "وأملى الحُفّاظ، وأبكى الوعّاظ، وتذاكر العُلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدثت الرُّواة..."[3] كما بذل المحدث عبد العظيم المنذري جهوداً حثيثة في تقصي مساهمات العلماء في التعليم فترة خلفاء صلاح الدين في مصر خاصة زمن الملك العادل والملك الكامل[4].

ولم يغفل العلماء عن الشعر وأهميته في الحث على الجهاد، وتحقيق الانتصارات فاجتهدوا في نقل أشعار غيرهم، أو تدوين أشعارهم أنفسهم في مدح الملوك والسلاطين، وتمثل ذلك بإشارة العماد في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر إلى مدح ابن عساكر لنور الدين، وحثه على استرجاع بيت المقدس بقوله:

وإن بذلت لفتح القدس محتسباً ... للأجر جوزيت أجراً غير محتسب

فالجدُّ والجدُّ مقرونان في قرن ... والحزمُ في العزم والإراك بالطّلب

فطهّر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والإشراك والصُّلب[5]

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص120-123.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص117-118.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص243.

(4) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج3، ص313، 319، 409، 419-420.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 46.

وذكر ابن الأثير مدح الشاعر ابن القيسراني لنور الدين محمود[1]، وأبـرز ابن أبي طيء تحريض الشعراء للسلطان صلاح الدين على فتح حلب، ومنها قـول أحدهم:

يا ابن أيوب لا برحت مدى الدّهـ ـر رفيع المكان والسُّلطان
حلب الشام تحنو مرآك ولْهى وله الصّبِّ ريع بالهجران[2]

وكان للعماد الأصفهاني نفسه دور بارز في مدح السلطان صلاح الدين يوم فتح حطين بقوله:

يا يوم حطين والأبطالُ عابسةٌ وبالعجاجةِ وجهُ الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر مّحتقراً مُعفَّراً خَدُّه والأنفُ قد تعسا
حططت على حطين قدر ملوكهمْ ولم تُبق من أجناس كُفرهم جِنسا
طردتهم في الملتقى وعكستهم مُجيداً بحُكم العزم طَردك والعَكْسا
فلله ما أهدى يداً فتكتْ به وأطهَرَ سيفاً مُعدماً رجْسِه التَّجسا
نسفت به رأس البرنس بضربة فأشبه رأسي رأسه العهن والبُرْسا[3]

وأورد العماد قصيدة له في مدح الملك نور الدين زنكي[4] وقصائد لشعراء آخرين غيره[5].

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 99-100

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 107.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 193-195.

(4) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، شعراء دمشق والـشعراء الأمراء من بني أيوب، ص 53-61.

(5) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، شعراء دمشق والـشعراء الأمراء من بني أيوب، ص 144-180.

كما أنشد الفاضل أبياتاً في مدح السلطان واصفاً سيفه:

ماضيات على الدَّوام دوامي هي في النَّصر نجدة الإسلام
في يمين السُّلطان إن جدّدتها أشبهتها صواعق في غمام
تنثر الهمام كالحروف مما أشد به هذي السُّيوف بالأقلام[1]

وقد بذل الحافظ ابن عساكر جهوداً كبيرة في الكشف عن مساهمة العلماء في النهضة التعليمية التي شهدتها الشام أثناء فترة الغزو الفرنجي، فذكر ترجمات لعدد كبير منهم سواءً أكانوا من أهل الشام، أم من نزلها مبرزاً مساهماتهم في التدريس والوعظ والحث على الجهاد والتي جاءت مرفقة في الجدول التالي وما ذلك إلا دلالة واضحة على الدور الذي لعبه ابن عساكر في التأليف من جهة، وحجم المشاركة التي قام بها العلماء خلال هذه الفترة، ويتضح ذلك من خلال الأمثلة التالية:

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
-	محمد بن ابي أحمد الديباجي المقدسي الواعظ الفقيه	كان محدثاً في دمشق وبغداد ومكة وغيرها	527هـ/1232م	ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج51، ص 166
-	محمد بن أسعد البغدادي المعروف بابن الحكم الفقيه الواعظ	كان فقيهاً وواعظاً ودرس بمدارس دمشق (بالصادرية)	566هـ/1170م	المصدر نفسه، ج52، ص 45-46
-	محمد بن الحسن السلمي	كان محدثاً	513هـ/1119م	المصدر نفسه، والجزء نفسه،

[1] أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 270-271.

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
				ص 299
-	محمد بن بركة الصلحي	أخذ الحديث عن ابن عساكر ثم أصبح محدثاً	566هـ/1111م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 147
-	موسى بن هارون الأندلسي	محدثاً	492هـ/1098م	المصدر نفسه، ج61، ص 331
-	منقذ بن مرشد بن علي	كتب الحديث/ وكتب الشعر أيضاً	535هـ/1140م	المصدر نفسه، ج60، ص 263
-	مؤتمن بن احمد البغدادي	كان رواية للحديث في مدن كثيرة	507هـ/1113م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 384-385
-	عبد القاهر التيمي السُهروردي الفقيه الواعظ	كان فقيهاً وواعظاً، وعقدت له مجالس عديدة بدمشق	563هـ/1167م	ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج36، ص 413
-	عبد الكريم بن الحسن طاهر	كان قارئاً للقرآن ومحدثاً بجامع دمشق	554هـ/1159م	المصدر نفسه، الجزء نفسه، ص 434
-	روزبة بن الحسن الفسوي	كان محدثاً	-	المصدر نفسه، ج18، ص

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
	الصوفي			254
-	سعيد بن سهل النيسابوري	-	553هـ/1158م	المصدر نفسه، ج2، ص 101
-	علي بن القاسم المغربي	كان بارعاً في الأصول ومتكلماً	519هـ/1125م	المصدر نفسه، ج43، ص 135
-	علي بن محمد الأطرابلسي	كان محدثاً	-	المصدر نفسه، ج43، ص 17
-	إبراهيم بن عبد الرحمن التنوخي الفقيه الحنفي	كان محدثاً بشيزر	503هـ/1109م	المصدر نفسه، ج7، ص 21-22
-	إسماعيل بن أحمد النيسابوري الصوفي المعروف بشيخ الشيوخ	حدث بدمشق وأخذ ابن عساكر الحديث عنه	541هـ/1146م	ابن عساكر، ج8، ص 361-362
-	عبد الكريم بن محمد الحرستاني	كان واعظاً ومحدثاً	542هـ/1147م	ابن عساكر، ج47، ص 287
-	عيسى بن إبراهيم الأشبيلي	كان محدثاً بكتاب الموطأ	-	المصدر نفسه، والجزء نفسه،

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
		لمالك		ص 289
–	غيث بن علي الصوري	كان خطيباً بصور ثم محدثاً بدمشق	509هـ/1115م	المصدر نفسه، ج48، ص 124-125
–	أحمد بن الحسن الصوري	كان محدثاً	528هـ/1133م	المصدر نفسه، ج71، ص 66
–	أحمد بن الحسين الصوري	كان رواية للحديث بصور ثم بدمشق	518هـ/1124م	ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج71، ص 75-76
–	أحمد بن عبد الله الأصبهاني	عمل محدثاً بدمشق عام 547هـ/ م	–	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 243-244
–	عبد الله بن محمد المغربي	كان محدثاً بالموطأ بدمشق وبحلب	561هـ/ببعلبك	المصدر نفسه، ج32، ص 234-235
–	عبد الله بن محمد الدير بلّوطي (من الرملة)	كان مقرئاً ومحدثاً بالرملة ثم انتقل لدمشق	499هـ/1105م	المصدر نفسه، ج14، ص 54
–	الحسين بن الحسن	كان رواية للحديث	551هـ/1156م	المصدر نفسه، والجزء نفسه،

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
				ص 54
-	محمد بن علي البعلبكي	كان رواية للحديث	509هـ/1115ك	المصدر نفسه، ج54، ص 267
-	عبد الله بن أسعد الموصلي (المعروف بابن الدهان)	كان فقيهاً وشاعراً ومدرساً بحمص مدح نور الدين عقب هزيمة الفرنج بحصن الأكراد	-	المصدر نفسه، ج27، ص 82-83
-	محمد بن حمزة السلمي (ابن الموازيني)	كان محدثاً بدمشق	565هـ/1169م	المصدر نفسه، ج52، ص 369
-	يوسف بن مكي الحارثي	كان فقيهاً ومدرساً بالزاوية الغربية بدمشق ثم إماماً بجامعها	556هـ/1160م	المصدر نفسه، ج74، ص 662
-	عيسى بن هارون المغربي	تولى لتدريس بالمالكية بدمشق وكان عالماً فقيهاً	553هـ/1158م	المصدر نفسه ج48، ص 214
-	مسعود بن محمد النيسابوري	كان مدرساً بدمشق وحلب	578هـ/1182م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 237-

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
				238
-	علي بن مكي الكاسائي الحنفي	كان مدرساً بالمدرسة الصادرية	-	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 252
-	عبد الرحمن بن محمد المغربي	كان مدرساً بالزاوية الغربية بدمشق	518هـ/1124م	ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج35، ص 356
-	علي بن حمزة المعروف بابن فجَّة	كان محدثاً	543هـ/1148م	المصدر نفسه، ج4، ص 445-446
-	علي بن عبد الرحمن الصوري	كان محدثاً ومقرئاً للقرآن	537هـ/1142م	المصدر نفسه،ج41، ص 66
-	علي بن جوشن التغلبي	كان فقيهاً وعمل مدرساً بالمدرسة الأمينية	560هـ/1160م	المصدر نفسه، ج4، ص 295
-	علي بن الحسن البلخي	مدرساً بالنورية والصادرية وأخرى	548هـ/1153م	المصدر نفسه،ج41، ص 339-341.
-	يغمر بن ألب التركمي	كان فقيهاً ومقرئاً للقرآن واكثر العلماء حثاً لابن عساكر لإنجاز كتابه	558هـ/1162م	المصدر نفسه،ج74، ص 202
-	عبد الواحد بن محمد المعرّي	كان محدثاً بدمشق وبالمعرة	554هـ/1159م	المصدر نفسه،ج37، ص

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
				276
-	عبد الوهاب بن عيسى اليشكري المغربي	- فقيهاً ومدرساً على مذهب مالك في دمشق	-	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 342
-	عبدان بن رزين الأذربيجاني	كان مقرئاً ومحدثاً	544هـ/1149م	المصدر نفسه، ج41، ص 354-355
-	علي بن أحمد الفراء	كان محدثاً	558هـ/1162م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 207-208
-	علي بن أحمد الحرستاني	كان محدثاً	561هـ/1165م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 226
-	علي بن أحمد الغساني	كان فقيهاً مالكياً مدرساً لابن عساكر	530هـ/1135م	ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج41، ص 237
-	عبد الرحمن بن الحسين الأزدي	كان مقرئاً ورواية للحديث	540هـ/1145م	المصدر نفسه، ج34، ص 31
-	محمد بن عبد الرحيم الأندلسي	جاء مهاجراً للإسكندرية ثم انتقل لدمشق فعمل بها محدثاً وبحلب أيضاً وبالمدرسة	565هـ/1169م	المصدر نفسه، ج54، ص 113-114

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
		الأمينية		
-	مسعود بن محمد النيسابوري المعروف (بالقطب)	كان فقيهاً ومدرساً بحلب ودمشق بمدارس عدة	589هـ/1182م	المصدر نفسه، ج58، ص 13-14
-	الحسن بن محمد	كان مقرئاً ومحدثاً وأخذ عنه ابن عساكر الحديث	530هـ/1135م	المصدر نفسه، ج4، ص 301-302
-	عبد الله بن علي الأنصاري	كان محدثاً وقد سمع ابن عساكر عنه	558هـ/1162م	المصدر نفسه، ج31، ص52
-	محمد بن يوسف الحوراني الغزنوي	كان مدرساً للفقه بحلب ثم بدمشق	564هـ/1168م	المصدر نفسه، ج57، ص 100-101
-	الحسن بن سعيد الديار بكري	كان فقيهاً وواعظاً بدمشق ثم الموصل	568هـ/1172م	المصدر نفسه، ج13، ص 96-97
-	علي بن الحسن الكلابي	كان فقيهاً ومقرئاً ونحوياً	562هـ/1166م	المصدر نفسه، ج41 ص 320
-	عمر بن عبد العزيز	عمل محدثاً بدمشق مدة	518هـ/1124م	المصدر نفسه، ج45، ص

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
	الطرابلسي			126
-	سلطان بن يحيى القرشي	كان قاضياً وواعظاً	530هـ/1135م	المصدر نفسه، ج21، ص 372-371
-	أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني	كان فقيهاً ومحدثاً أخذ عنه ابن عساكر بعض الحديث	562هـ/1166م	المصدر نفسه، ج37، ص 445-447
-	أبو سعد محمد بن نصر الهروي	كان واعظاً وتولى قضاء الشام أيضاً	518هـ/1124م	المصدر نفسه، ج56، ص 107
-	عبد العزيز بن عبد الرحمن القزويني	كان فقيهاً وعمل محدثاً بصور وبدمشق	551هـ/1156م	المصدر نفسه، ج36، ص 308

يستنتج من الجدول الملاحظات التالية:

1. العدد الكبير للعلماء القاطنين والزائرين لدمشق للمساهمة في بعث فكرة الجهاد لدى الناس وتعميق الشعور الديني لديهم، وزيادة معارفهم.
2. تنقل العلماء بين مدينة وأخرى لأن أرض الشام واحدة، وهدف العلماء قلع الغزاة من كل الشام، وبالتالي التوعية الشاملة-دون تمييز مدينة عن أخرى، إلا أن دمشق كانت مركزها المحوري لوجود السلطة المركزية، وانتشار المدارس فيها بكثرة.
3. دور علماء المغرب والأندلس في حركة التوعية والتدريس بالإضافة لعلماء المشرق.

كما أسهم الفقيه والواعظ سبط ابن الجوزي في الكشف عن النهضة التعليمية في مصر والشام من خلال إبرازه لمساهمات العلماء في التدريس مرفقاً الجدول التالي:

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
-	علي بن المسلم الدمشقي السلمي	عالماً بالفقه ومدرساً بجامع دمشق	533هـ/1138م	سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 170
-	يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي	كان فقيهاً مالكياً عمل مدرساً ومحدثاً بدمشق	543هـ/1148م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 200-201
-	محمد بن نصر القيسراني المعروف بابن الساعاتي	من عكا أصلاً انتقل لدمشق وبرع في الشعر ومدح نور الدين كثيراً	547هـ/1152م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 213
-	برهان الدين البلخي	كان مدرساً بأكثر من مدرسة بدمشق وحلب	548هـ/1153م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 219

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
-	عبد الرحمن بن الحسين الحلبي	كان فقيها ومدرسا بحلب	561هـ/1165م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 263-264
-	علي بن الحسن المعروف بابن عساكر	إمام الحديث مصنفاً لكتب كثيرة	571هـ/1175م	سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 336
-	كمال الدين ابن الشهرزوري	قاضي دمشق والشام كلها، وولي أمر	572هـ/1176	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 340-431
-	الشيخ عبد القادر الجيلي	اشتهر بمجالس وعظة	561هـ/1165م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 264-266
-	محمد بن محمد الملقب بالعماد الكاتب الأصفهاني	كان مدرسا للفقه بالعمادية بدمشق، وعارفاً بالأدب، ثم أصبح من المقربين لنور الدين وصلاح الدين	597هـ/1200م	المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 504-508
-	عبد الرحيم بن علي البيساني الملقب بالقاضي الفاضل	كان عارفاً بالأدب والرسائل والقرآن، وكاتباً لديوان صلاح الدين	596هـ/1199م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 472

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
–	تاج الدين الكندي	كان عارفاً بالقراءات، والنحو واللغات	613هـ/1216م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 575-576
–	صفي الدين بن شكر	كان عالماً ثم أصبح وزيراً، فاهتم بالعلماء والفقهاء والمدارس اهتماماً كبيراً، كان مالكي المذهب	630هـ/1232م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص677
–	موفق الدين المقدسي	صنف كتاباً في علوم القرآن وكان مفسراً وفقيهاً ومحدثاً	620هـ/1223م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 627-628
–	الشيخ عبد الله اليونيني	كان صاحب مجاهدات وكرامات	617هـ/1210م	سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 612-613
–	الشيخ أبو عمر المقدسي	كان بارعاً بالفقه والحديث	607هـ/1210م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 546-547

التسلسل	الاسم	دوره	تاريخ الوفاة	المصدر
-	الحافظ عبد الغني المقدسي	كان بارعاً في علوم الحديث	600هـ/1203م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 519
-	سيف الدين الآمدي	كان مدرساً بدمشق لعلم المنطق والأوائل	631هـ/1233م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 691
-	صلاح الدين الأربلي	كان فاضلاً وشاعراً	631هـ/1231م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 663-662
-	الناصح الدين الحنبلي	كان واعظاً ومفسراً ومصنفاً	634هـ/1236م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 701-700
-	محمود بن أحمد الحصيري (الملقب بجمال الدين)	كان حنفياً قريباً من الملك المعظم برع بعلم الحديث ومذهب أبي حنيفة	636هـ/1238م	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 721-720
-	عماد الدين بن شيخ الشيوخ	-	636هـ/1238	المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص 721

ثالثاً: صورة الفرنج في مؤلفات العلماء المعاصرين لفترة الحروب الفرنجية (الصليبية):

لم يقتصر دور العلماء المسلمين الذين عاصروا الصراع الفرنجي الإسلامي على معالجة الجانب الإسلامي فقط بل أولوا اهتمامامهم بدرجة أقل للفرنج وذلك بإعطاء صورة عن استعداداتهم العسكرية، وبطولات بعض ملوكهم، وتفانيهم في الدفاع عن مقدساتهم، ومساهمات المرأة الفرنجية في ذلك الصراع وغيرها من المواضيع.

سجل ابن شداد وصفاً رائعاً لتحركات جيش الفرنج وتنظيمهم أثناء عزمهم التوجه نحو عسقلان عام 587هـ/1191م، لقوله: "وكان عسكر العدو المخذول قد ترتب، فكانت الرجالة حوله كالسور وعليهم...، والزرديات السابغة المحكمة، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون، وهم يرمون بالزَنْبُورك[1]... وقد شاهدتهم ويتغرز في ظهر الواحد منهم النشابة... وهو يسير على هيئته من غير انزعاج، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فإذا تعب هؤلاء المقاتلة، وأثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمّال [المقاتل] هذا، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة لا غير.. وهذا ترتيب القوم على ما شاهدته... ويسيرون سيراً رفقاً ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر..."[2].

وكثيراً ما وصف العلماء شجاعة بعض ملوك الفرنج في القتال ومنهم المدعو (بالانكتار) لقول ابن شداد، "وهذا ملك (الانكتار) شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوي الهمة، له وقعات عظيمة، وله جسارة على الحرب"[3]. ووصف ابن

---

[1] زنبورك: سهم في غلظ الإصبع وطوله قدمان يخترق درع الجندي وملابسه. رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ج5، ص 363-364.

[2] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 179-180.

[3] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 157.

الأثير شجاعة جوسلين وتقدمه صفوف الفرنج وعداوته للمسلمين[1]. في حين وصف العماد الأصفهاني ما كان من تخاذل بعضهم، يوم هزيمتهم في حطين، بقوله: "ولما أحسَّ القُومص بالكسرة، حَسَرَ عن ذراع الحسرة، واقتال[2] من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجَمْع...، فخرج بطلبه يطلب الخروج... ومضى كومض البرق.."[3].

كما أوضح القاضي الفاضل أثر الدين في نفوس الفرنج حيث صوّر تفانيهم وتضحيتهم بأرواحهم دفاعاً عن كنيسة القيامة لقوله: "وقد بُلِيَ الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين: الأوطان والأوطار"...، وكل ذلك طاعة لقسّيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم، وغَيْرَةً لمتعبَّدهم، وحمية لمعتقدهم، وتهالكاً على مقبرتهم، وتحرُّقاً على قمامتهم...، وإن البابا الذي بروميه قد حرَّم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لا يتوجه إلى القدس مستخلصاً، فهو عندي محرَّم...، فهذا شرح هؤلاء وتعصُّبهم في ضلالتهم، ولجاجتهم في غوايتهم[4].

ونجح ابن شداد في إظهار كيفية استغلال الفرنج لوسائل الدعاية لتسويغ قتال المسلمين وجمعهم الجيوش الجرارة، وتمثل ذلك بوضوح بما قام به ملكهم المركيس صاحب صور في استثارتهم إذْ صوّر المسلمين مغتصبون لقبر المسيح لقوله: "وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأساً، وهو الأصل في تهييج الجموع البحرية، وذلك أنه صوَّر القدس في ورقة عظيمة، وصوَّر فيه صورة القيامة التي لهم يحجون إليها ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 102.

(2) اقتال: من قول وتعني استبدله أو تغير من شيء لشيء آخر. ابن منظور، لسان العرب، مج11، ص 354.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 181-182.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 92- 93.

بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصورًّ القلب، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطيء قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر... وللصورًّ عمل في قلوبهم، فإنَّها أصلُ دينهم فهاج بذلك خلائق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى..."[1].

كما كشف ابن شداد عن أهمية الإنجيل عند الفرنج في إثارة دافعيتهم للقتال بحمله إلى ساحات القتال، وقد شاهد ذلك ابن شداد بأم عينه يوم المصاف الأعظم على عكا بقوله: "تحركت عساكر الإفرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة، فاصطفوا خارج خيمهم: قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمول مستوراً بثوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسيرون بين يدي الملك.." [2].

كشف العماد الأصفهاني عن بعض معتقدات الفرنج وطقوسهم وأماكن عبادتهم في الشرق وخاصة كنيسة القيامة ومالها من أهمية دينية عندهم لقوله في منزلتها عندهم قالوا: "هنا نطرح الرؤوس... ونصبر على اقتراح القروح... فهذه قمامتنا فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، بها غرامنا وعليها غرامتنا. وبسلامتها سلامتنا... ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد. والصور والأشكال... والأجسام والأرواح وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم، والرهابين في صوامعهم، والأقساء في مجامعهم...، وفيها صلب المسيح، وقرّب الذبيح، وتجسد اللاهوت..."[3].

أبرز القاضي فخر القضاة ابن بصاقة[4]، والقاضي محمد بن سالم بن واصل والد صاحب كتاب مفرج الكروب عن خرافات معتقدات الفرنج المتمثلة

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 136-137.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 109.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 79.

(4) ذكر ابن واصل أنه كان من أهل المعرفة والتقدّم، مفرج الكروب، ج2، ص 232.

بنزول نور من السماء على كنيسة القيامة لقول ابن واصل: "كنت صبياً صغيراً، وقد حضر البترك الذي كان مقيماً بقمامة (القيامة) عند والدي، فسمعت، والدي يقول له: "إن السلطان قد عزم على كشف قضية هذا النور الذي تدعون أنه نزل عليكم من السماء، فقال البترك: إن النور كان ينزل في قديم الزمان، ثم انقطع، فنحن اليوم نفعله لإقامة الناس، وحفظاً لحرمة دين النصرانية، وليس من المصلحة أن تتعرضوا لهذا، وكشف سره، فإنه يُفوِّت عليكم أموالاً جزيلة، وليس لكم في بطلان ذلك منفعة"[1].

كما وصف العماد الأصفهاني أهمية صليب الصلبوت عند الفرنج وأثره في رفع معنوياتهم لقوله: "ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وهو الذي إذا نُصب وأقيم ورفع سجد له كلّ نصراني وركع، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه... وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك... فإن الصليب السليب ماله عِوض.." [2].

أوضح ابن شداد ما كان عليه الفرنج من بغض المسلمين، والذي بدا واضحاً بتحريضهم أخت الملك الانكتار من الزواج بالملك العادل لقوله: "فدخل الفرنج على المرأة، وخوّفوها واتهموها في دينها...، وقالوا ما معناه: هذه فضيحة فظيعة، وسُبّه شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة، فرجعت عن ذلك وما أجابت..."[3].

نالت المرأة الفرنجية اهتماماً واضحاً في مؤلفات العماد الأصفهاني حيث أظهرهن بصورتين مختلفين أثناء حصار عكا عام 585هـ/1189م بَدَتْ في الأولى فارسة ومقاتلة محرضة على قتال المسلمين ومساعدة الجرحى، في حين صورها في الثانية وسيلة لترفيه الرجل الفرنجي في غربته لقوله: "ووصلت في مركب

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 184.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 184.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 165-166.

ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجزائر، واغتربن لإسعاف الغُرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء وأنهن لا يمتنعن من العُزبان، ورأيت أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القُربان، وزعمت أنّ هذه قربة ما فوقها قربه، لا سيما فيما اجتمعت فيه عُزبة وغُربة. وفي الفرنج نساء فوارس، لهنّ دروع وقوانس، وكنّ في زي الرجّال، ويبرزن في حومة القتال... وفيهن من لينهن قسوة"[1].

وأشار الرحالة والفقيه ابن جبير أثناء رحلته للشرق إلى بعض طقوس الفرنج في الأعراس واصفاً إحداها في مدينة صور معتبراً ذلك من العادات الغريبة علي المسلمين لقوله: "ومن زخارف الدنيا المحدَّث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً، واصطفّوا عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير، وجميع الآلات اللّهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال. وهي في أبهى زيّ، وأفخر لباس، وعلى رأسها عصابة ذهب، وهي رافلة في حليها وحُللها تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة..." [2].

في حين أومأ العماد الأصفهاني إلى بعض العادات الاجتماعية السيئة عند الفرنج كالدخول بالنساء والزواج منهن وهن حوامل وذلك ما حصل بعد مقتل الملك المركيس بصور عام 588هـ/1192م وتزوج الكندهري[3] بالملكة زوجة المركيس في ليلته ودخل بها وهي حامل، وما الحمل في مِلّة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوباً إلى الملكة، هذه قاعدة هذه الطائفة المشركة"[4].

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 63.

(2) ابن جبير، الرحلة، ص 278.

(3) الكُندهري: أحد ملوك الفرنج قدم عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة محملاً بالأموال والذخائر لقتال المسلمين. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 131.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 175.

وفصل العلماء المعاصرون للحروب الفرنجية (الصليبية) في تتبع بعض ما اتصف به الفرنج مثل سمة الغدر بالمسلمين وعدم مراعاة للعهود والمواثيق، ومنها وصف العماد الأصفهاني لصاحب الكرك وغدره بالمسلمين عام 582هـ/1186م بقوله: "كان إبرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأنقضها للمواثيق المحكمة والإيمان المبرمة"[1]. وتكرر ثانية يوم غدر ملك الانكتار بالمسلمين في عكا بقتله ثلاثة آلاف مسلم لقول ابن شداد: "ولما رأى الإنكتار الملعون توقف السلطان في بذل المال والأساري والصليب غدر بأساري المسلمين، وكان قد صالحهم وتسليم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال.. فغدر بهم الملعون، وحملوا عليهم حملة الرحل الواحد، فقتلوهم صبراً وطعناً وضرباً بالسيوف"[2].

وقد صوّر العماد الأصفهاني في رسالة له للقاضي الفاضل ما كانت عليه جموع الفرنج ووحدة صفهم عام 573هـ/1177 لقوله: "وأما أخبار الفرنج فإنهم مجتمعون من كل صوب.. وقد حشدوا وحشروا، واستجاشوا، واستكثروا، وهم على جمع واستشارة.." [3]. ودل على ذلك إشارة القاضي الفاضل إلى تعدد لغات الفرنج المحاصرين لعكا وصعوبة التعامل معهم لقوله: "واجتمع من هذه الجموع من الجيوش الغريبة، والألسنة الأعجمية من لا يحصر، معدودة، حتى أنه إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحدٌ عن الآخر ويقول ثانٍ ما يقول أول.." [4].

لم يكتف العلماء بإظهار حالة التوتر والمشاحنات التي سادت علاقة المسلمين بالفرنج أثناء فترة الصراع بل سعوا جاهدين لرسم صورة أخرى لهم

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص 176.

(2) النوادر السلطانية، ص 174.

(3) البرق الشامي، ج3، ص 84-85.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 148.

والمتمثلة بإقامة العلاقات الدبلوماسية أو الـــسلمية معهـــم والتـــي بـــرزت بتبـــادل المراسلات بينهم، وخير مثال عليها رسالة القاضي الفاضل للملك بردويل ملك بيت المقدس أثناء تعزيته بوفاة والده وتهنئته بجلوسه في الملك، إذ دعاه للحفـــاظ علـــى العهود والمواثيق الموقعة من قبل والده مع المسلمين وضرورة الاستمرار في السير على هذا النهج لقوله: "أما بعد، خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقـــدس بالجـــدٍّ الصاعد... وهنأه من ملك قومه ما وُرِّثه... فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق، والنَّعي الذي وردنا أنَّ قائله غيـــر صـــادق... إلا أن الله سبحانه قد هوّن الحادث بأن جعل ولده الوارث، وأنسى المُصاب فهنيئاً له ما حاز، وسقياً لقبر والده الذي حقَّ له الفداء... وليعلم أنّا له كما كنا لأبيه: مـــودة صـــافية، وعقيدة وافية، ومحبة ثبت عقدها في الحياة والوفاة...، فليسترسل إلينـــا استرســـال الواثق الذي لا يخجل"[1].

وذكر ابن شداد في سيرته علاقة المسلمين بالفرنج وما رافقها فـــي بعـــض الأحيان من انفتاح لتخفيف حدة الصراع بينهما من خلال تبـــادل الآراء ووجهـــات النظر بين صاحب شقيف أرنون والمسلمين وإشادة ابن شداد به بوصفه له أنه أحد كبار الإفرنجية وعقلائها[2]، لديه معرفة بالعربية والتواريخ والحديث وبأنه كان من المناظرين للمسلمين في بعض الأمور المتعلقة بدينه، بقوله عنه: "وأقام يتردد إلـــى خدمة السلطان في كل وقت... ونناظره في دينه ونناظره في بطلانه، وكان حـــسن المحاورة ومتأدباً في علامه"[3]. وفي هذا إظهار لما كان عليه بعض الفـــرنج مـــن المعرفة والعلم والثقافة العربية.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص 115؛ انظر: أيضاً بدوي، الحياة الأدبية في عـــصر الحـــروب الصليبية، ص 492-493.

(2) هو أرناط صاحب صـــيدا Roynold Garnier Lord of Sidon and Beaufort, Renciman Histor of the Crusaders, P. 469-470.

(3) النوادر السلطانية، ص 97-98.

ولعل في الروايتين التي يذكرهما الفقيه والواعظ سبط ابن الجوزي ما يؤكد حالة التعايش السلمي بين الجانبين والتي يصوّر في أولاها إعجاب بعض الفرنج المقيمين في الشرق بالإسلام وأهله لما كانوا عليه من الأمانة والسماحة والدين والتي اتضحت من خلال قصة الشيخ عبد الله اليونيني ومساعدته لأحد النصارى مما كانت سبباً في دخوله في الإسلام[1]، ثانيتها لتلك المرأة النصرانية التي دخلت في خدمة الشيخ عبد الله اليونيني بعد أن رأت في المنام أن مريم العذراء تأمرها بملازمته حتى بعد قول المرأة النصرانية للسيدة مريم: ذلك الرجل مسلم، وقولها لها: "ما بك صحيح أنه مسلم ولكن قلبه نصراني"[2].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 614؛ أبو شامة، الذيل، ص 192.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 614؛ أبو شامة، الذيل، ص 192.



نتائج الدراسة

يمكن تقديم بعض الخطوط الرئيسية كنتائج لهذه الدراسة:

أولاً: شكل انعدام الوحدة السياسية والمذهبية في مصر والشام قبيل الغزو الفرنجي (الصليبي) سبباً رئيساً في تسريع وقوعها تحت الاحتلال وعجزها عن مقاومته.

ثانياً: ساهمت المدارس في الحد من انتشار الفكر الشيعي (الإسماعيلي) وإحياء الفكر السني في مصر والشام، فكانت من أبرز الوسائل الناجعة التي ركز عليها الزنكيون والأيوبيون في مقاومة الغزو، والتي كان للعلماء دور محوري فيها من خلال تدريسهم العلوم الدينية.

ثالثاً: بأن تأثير العلوم الدينية: وخاصة القرآن والحديث النبوي في تعزيز فريضة الجهاد في نفوس أبناء الأمة، واعتبارها من أهم وسائل الدعوة للجهاد، والتأكيد على الدور البارز للعلماء في توظيف هذه العلوم، كما فيه بيان لأهمية الدين في النصر على الأعداء.

رابعاً: اتضح تنوع وسائل المقاومة التعبوية الفكرية ما بين القرآن الكريم والحديث والوعظ، وشيوع خطب الجهاد وتفعيل دور وعاظ الجهاد، وتزايد أهمية مراسلات العلماء ومكاتباتهم وأثرها في توحيد الأمة ونبذ الفرقة والحض على الجهاد والترغيب به.

خامساً: الكشف عن جانب خفي للعلماء تمثل مشاركتهم في المواجهات العسكرية ومساهماتهم في إذكاء روح الجهاد بتقدمهم صفوف المقاتلين وحملهم السلاح وصبغه بصبغة جديدة وتغيير المفهوم السائد أن العلماء مدرسون ووعاظ وفقهاء.

سادساً: أهمية القيادة السياسية والعسكرية في السعي لوحدة الأمة وجمع صفوفها، وتفانيها في التصدي للفرنج، وتذليلها عوامل الفرقة والانقسام وتسخيرها

إمكانيات الأمة وقدراتها للنيل من الأعداء كما فعل عماد الدين زنكي، وولده نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي والمساهمات الواضحة للعلماء في تحقيق هذه الوحدة.

سابعاً: ضرورة الشورى في الإسلام وجلاء أهميتها ووضوحها أثناء فترة الغزو الفرنجي (الصليبي) وخاصة في الأزمات وتمثلها باتخاذ المستشارين من أبناء الأمة من أهل العلم والصلاح كما فعل عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي والملك المعظم عيسى والملك الكامل.

ثامناً: التأكيد على تجذر فكرة تعاون السلطة السياسية مع العلماء وتأصيلها خلال هذه الفترة بإشراكهم في إدارة مؤسسات الدولة ومعاضدتهم لها، بالوقوف إلى جانبها، بتوعيتهم بمخاطر الغزو والدعوة إلى مقاومته بشتى طرقه وفي ذلك إبراز لدورهما وأهميتهما.

تاسعاً: نجاح العلماء في أداء المهام السياسية التي كانت تناط بهم لدرء خطر المحتلين لديار الإسلام، وهذا يؤكد مكانتهم وضرورة اللجوء إليهم وإشراكهم في الحكم.

عاشراً: أثر غزو الفرنجة في توسيع نشاطات العلماء في مجال التأليف بجمعهم بين تدريس العلوم الدينية والمؤلفات التاريخية، والمتمثلة ببروز مؤلفات ذات طابع جديد كالمذكرات الشخصية، والسير الذاتية، واليوميات وتاريخ الأُسر، وكتب الفضائل تخليداً لقادة الجهاد الإسلامي وبطولاتهم.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

أولاً: المصادر المخطوطة:

السلمي، أبو الحسن علي بن طاهر بن جعفر (ت 500هـ/1106م). **كتاب الجهاد "مخطوط"**، مكتبة الأسد الوطنية، الجمهورية العربية السورية، ج2، ج8، ج12، شريط رقم (3796)، ج9، شريط رقم 4511، (صورة بالميكروفيلم).

مجهول، **تاريخ الخلفاء والسلاطين "مخطوط"**، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، رقم 562، (صورة بالميكروفيلم).

ثانياً: المصادر العربية المطبوعة:

ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعي، (ت 658هـ/1260م). **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدّفي**، د.ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.

ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني، (ت630هـ/1232م). **الكامل في التاريخ**، ط1، 10 ج، (تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا)، دار المعرفة، بيروت، 2002م.

التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، د.ط، (تحقيق عبد القادر أحمد طلميات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، 1963م.

الأدفُويُّ، كمال الدين جعفر بن ثعلب، (ت 748هـ/1347م). **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصّعيد**، د.ط، (تحقيق سعد محمد حسن)، مراجعة الدكتور طه الحاجري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966م.

الأصفهاني، عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد، (ت 597هـ/1201م). **حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس والمسمى الفتح القُسّيّ في الفتح القدسيّ**، ط1، قدم له ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م.

، **البرق الشامي**، ط1، 2 ج، (ج3، تحقيق مصطفى الحياري، ج5، تحقيق فالح حسين)، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، 1987م.

، **تاريخ دولة آل سلجوق**، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، د.ط، مطبعة الموسوعات، القاهرة، مصر، 1900م.

، **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم شعراء الشام وشعراء دمشق والشعراء من بني أيوب، ط1، (تحقيق شكري فيصل)، المطبعة الهاشمية، دمشق، م1995.

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، (ت 930هـ/1524م). **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ط1، 2ج، (تحقيق محمد مصطفى)، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، 1975م.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت 256هـ/869م). **صحيح البخاري**، ط1، ضبط النص محمود محمد نصّار، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م.

البُنداري، قوام الدين الفتح بن علي، (ت 642هـ/1244م). **سنا البرق الشامي وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني**، ط1، ق1، (تحقيق رمضان ششن)، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1971م.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، (ت279هـ/892م). **سنن الترمذي** موسوعة السّنة الكتب الستة وشروحها، ط2، 5ج في 3مج، (تحقيق وتعليق عطوة عوض)، دار الدعوة ودار سحنون، تونس، 1992م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، (ت 874هـ/1470م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (ج5، د.ط، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1935م، ج6، قدم له وعلق عليه محمد حسنين شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني، (ت 614هـ/1217م). **رحلة ابن جبير**، د.ط. دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت 597هـ/1201م). **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ط1، 18ج، (تحقيق محمد عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992م.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، (ت 1066هـ/1655م). **كشف الظنون والمسمى إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ط1، 6ج، دار الفكر، بيروت، 1982م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت 456هـ/1063م) **المُحلّى**، د.ط، 11 ج، (ج7، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الجليل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).

الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر، (ت بعد 622هـ/1225م). **زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية**، ط1، (تحقيق محمد نور الدين)، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، 1985م.

الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي، (ت 644هـ/ 1246م). **التاريخ المنصوري، "تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"**، ط1، (تحقيق أبو العيد دودو)، مراجعة عدنان درويش، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1981.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، (ت 876هـ/1471م). **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، د.ط، (تحقيق مديحة الشرقاوي)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1996م.

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (ت 681هـ/1282م). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 8مج، د.ط، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ودار صادر، بيروت، 1969-1971م.

أبو داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، (ت 275هـ/888م) **سُنن أبي داوود المسمى السنن**، ط1، رقّم كتبه وأبوابه وضع فهارسه هثيم بن نزار تميم، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1999م.

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، (ت 809هـ/1406م). **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**، ط1، (تحقيق سمير طباره)، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1999م.

، **الانتصار، لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها**، د.ط، مج1، في ق2، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت 748هـ/1347م). **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، د.ط، (تحقيق عمر عبد السلام تدمري)، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).

، **العبر في خبر من غبر**، ط1، 3ج، (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985م.

، **سير أعلام النبلاء**، ط1، 23ج، (تحقيق شعيب الأرناؤوط وبشار عواد وآخرين)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.

الراوندي، محمد بن علي بن سليمان، **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**، نقله عن الفارسية مجموعة من الأساتذة، مراجعة إبراهيم الشواربي، دار القلم، القاهرة، 1960م.

ابن رجب الحنبلي، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب، (ت 795هـ/1392م). **الذيل على طبقات الحنابلة**، د.ط، 2ج، (وقف على طبعه وصححه محمد حامد الفقي)، مطبعة السُنّة المحمدية، القاهرة، 1952م.

سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي، (ت 654هـ/1256م). **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ط1، (ج8، ق1، ق2)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن – الهند، 1951- 1952م.

، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان "الحوادث الخاصة" بتاريخ السلاجقة بين السنوات 1056-1086**، ط1، نشره علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، 1968.

السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي، (ت 771هـ/1369م). **طبقات الشافعيّة الكبرى**، ط1، 8ج، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ومحمود الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (د.م)، 1964م.

السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، (ت 562هـ/1166م). **الأنساب**، ط1، 4مج، (قدم لها محمد أحمد حلّاق)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد، (ت 911هـ/1505م). **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، ط1، 2ج، (وضع حواشيه خليل المنصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ط1، ج2، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1965م.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، (ت 665هـ/1266م). **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ط1، 4ج، (وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م.

، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**، ط1، (وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.

ابن شاهنشاه الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة، (ت 617هـ/ 1220م). **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، د.ط، (تحقيق حسن حبشي)، عالم الكتب، القاهرة، 1968م.

ابن الشحنة، أبو الفضل محمد، (ت 890هـ/1485م). **تاريخ حلب**، د.ط، علق عليه أبو اليمن البتروني المتوفي عام 1046هـ، (تحقيق كيكو أوتا)، (د.ن)، اليابان، 1990م.

ابن شداد، أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع، (ت 632هـ/1234م). **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين**، ط1، (تحقيق جمال الدين الشيال)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1964م.

ابن شداد، عز الدين محمد بن إبراهيم الحلبي، (684هـ/1285م). **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، (تحقيق سامي الدهان)، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1956م.

الشيرازي، مؤيد الدين هبة الله بن أبي عمران موسى، (ت 470هـ/1077م). **مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية**، د.ط، (حققه وقدم له عارف تامر)، مؤسسة عز الدين، 1983م.

، **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة**، د. ط، (تحقيق محمد كامل حسين) (د. ن)، (د.م)، (د. ت).

الصفدي، صلاح الدين خليل بن إيبك، (ت 764هـ/1363م). **الوافي بالوفيات**، ط2، 24 ج، (ج2، باعتناء س ديدرينغ، ج3، باعتناء س. ديدرينغ، ج16، باعتناء وداد القاضي، ج18، باعتناء أيمن فؤاد سيّد). دار فرانز شتايز، شتوتفارت، 1991م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن إبراهيم (ت310هـ/ م) **تفسير الطبري المسمى، جامع البيان في تأويل القرآن**، ط3، مج9، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت في، 1999م.

ابن طولون، شمس الدين محمد الصالحي، (ت 953هـ/ 1546م). **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، ط2، 2ق، (تحقيق محمد أحمد دهمان)، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980م.

ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطيّ، (ت 685هـ/1286م). **تاريخ مختصر الدول**، د.ط (وقف على تصحيحه وفهرسته انطون صالحاني اليسوعي)، دار الرائد اللبناني، بيروت، 1983م.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت 660هـ/1261م). **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ط1، 2ج، (حققه وقدم له سهيل زكار)، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997م.

، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، ط2، 11ج، (تحقيق سهيل زكار)، دمشق، 1988م.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، (ت 571هـ/1175م). **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**، د.ط، (مج1، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1951م). (مج1-

مج80)، تحقيق محب الدين ابي سعيد عمر بن عزامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، (د.ت).

، **ولاة دمشق في العهد السلجوقي**، ط2، (تحقيق صلاح الدين المنجد)، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1975م.

، **تبين كذب المُفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، ط1، (تحقيق أحمد حجازي السقا)، دار الجليل، بيروت، 1995م.

العليمي، مجير الدين الحنبلي، (ت 927هـ/ م) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ط1، 2مج، ج1، (تحقيق عدنان يونس أبو تبانة)، مكتبة دنديس، الخليل، عمان، 1999م.

العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن محمد، (ت 1089هـ/ 1679م). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ط1، 10 ج، (تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط)، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، 1991م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، (ت 505هـ/1111م). **إحياء علوم الدين**، د. ط، 4ج، دار الندوة الجديدة، بيروت، (د.ت).

، **الوجيز في فقه الإمام الشافعي**، ط1، (تحقيق علي معوّض وعادل عبد الموجود). شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، 1997م.

أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي صاحب حماة، (ت 732هـ/1331م). **المختصر في أخبار البشر**، ط1، 7ج، (د.ن)، (د.م) (د.ت).

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت 807هـ/1404م). **تاريخ ابن الفرات**، د.ط، مج4، ج1، تحرير حسن محمد الشماع، مطبعة حداد، البصرة، 1967م.

ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين المالكي، (ت 799هـ/1396م). **الديّباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، ط1، (تحقيق مأمون الجنان)، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1996م.

ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، (ت 749هـ/1349م). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ط1، 9ج، (تحقيق محمد عبد القادر خريسات، وعصام مصطفى، ويوسف بني ياسين)، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2001م.

القاشاني، كمال الدين عبد الرزاق، (من صوفية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي). **اصطلاحات الصوفية**، تحقيق الدكتور محمد كمال، إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1981.

ابن قاضي شُهبه، بدر الدين محمد بن تقي الدين الأسدي، (ت 874هـ/1496م). **الكواكب الدّرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي)**، ط1، (تحقيق محمود زايــد)، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، (ت671هـ/1272م)، **الجامع لأحكام القــرآن**، د.ط، ج12، (اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب للطباعة والنــشر، الرياض.

القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (ت 646هـ/1248م). **إنباه الرواة على أنبــاء النحاة**، ط1، 3ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعــة دار الكتــب المــصرية، القــاهرة، 1952م.

ابن القلانسيّ، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي، (ت 555هـ/1160م). **تــاريخ ابــن القلانــسي المعروف بذيل تاريخ دمشق**، د.ط، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (ت 821هـ/1418م). **صُبح الأعشي في صناعة الإنشا**، ط1، 14ج، (تحقيق محمد حسين شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م.

الكتبي، محمد بن شاكر، (ت 764هـ/1326م). **فوات الوفيات والذيل عليها**، د.ط، 5مج، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1973-1974م.

ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، (ت 774هـ/1372م). **البداية والنهاية**، ط1، 14ج، مكتبة المعارف، بيروت، ومكتبة النصر، الرياض، 1966م.

ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت 273هـ/ م). **سُنن ابن ماجة**، ط1، 5مج، (مج4، تحقيق بشار عوّاد معروف)، دار الجيل، بيروت، 1998م.

ابن مبارك، عبد الله، (ت 181هـ/ 797م). **الجهاد**، د.ط، تحقيق نزيه حماد، دار النور، بيروت، 1971م.

مسلم، أبو الحسن، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت 261هـ/874م). **صحيح مسلم**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت845هـ/1441م). **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة والفاطميين الخلفا**، د. ط، 3ج، (ج2، تحقيق محمد حلمي محمد)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1971م، (ج3، تحقيق محمد حلمي محمد)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1973م.

، **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، (د.ط)، قدم له وعلق عليه ياسر سيد صالحين، مكتبة الآداب، القاهرة. 1999.

، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ط2، 8ج، (ج1-ق1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1956م، ج1-ق2، تحقيق محمد مصطفى زيادة)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م.

، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، ط1، 4مج، (حققه أيمن فؤاد سيّد)، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2002-2003م.

، **المُقفّى الكبير**، ط1، 8ج، (تحقيق محمد اليعلاوي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت 711هـ/1311م). **لسان العرب**، د.ط، 16 ج، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، 1993م.

ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الشيرازي، (ت 584هـ/1188م). **الاعتبار**، ط1، طبعة جديدة عن النسخة التي حررها فيليب حتّي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.

المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القويّ، (ت 656هـ/ 1258م). **الترغيب والترهيب من الحديث النبوي الشريف**، ط3، 6ج (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979م.

، **التكملة لوفيات النقلة**، ط2، 4ج، (تحقيق بشار عواد معروف)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1981م.

ابن مُيسّر، تاج الدين محمد بن علي، (ت 677هـ/1278م). **المنتقى من أخبار مصر** "انتقاه تقي الدين أحمد بن علي المقريزي"، سنة 814هـ، د.ط، (حققه ووضح حواشيه وفهارسه أيمن فؤاد سيّد)، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981م.

النعيمي، عبد القادر بن محمد، (ت 927هـ/ 1520م). **الدارس في تاريخ المدارس**، ط2، 2ج، (تحقيق جعفر الحسني)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1988م.

الهندي، علاء الدين علي، (ت 975هـ/1567م). **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، (د.ط)، 2مج، (اعتنى به إسحاق الطيبي)، بيت الأفكار الدولية، (د.م)، (د.ت).

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت 697هـ/1297م). **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، 5ج، (ج1، تحقيق جمال الدين الشيال)، د.ن، الإسكندرية، 1960م، (ج2، تحقيق جمال الدين الشيال)، المطبعة الأميرية، (القاهرة)، 1957م، (ج3، تحقيق حسنين محمد ربيع، وسعيد

عبد الفتاح عاشور، مركز تحقيق التراث، مصر، (د، ت)، (ج4، تحقيق حسنين محمد ربيع، وسعيد عبد الفتاح عاشور، مركز تحقيق التراث، مصر (د، ت).
ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت 626هـ/ 1228م). **معجم البلدان**، ط1، ج5، دار صادر، بيروت، (د.ن).
، **معجم الأدباء**، المعروف بإرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، د.ط، 20 ج، مطبوعات دار المأمون، (د.م)، (د.ت).
اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد، (ت726هـ/1326م). **ذيل مرآة الزمان**، ط1، 4مج، (عن نسختين قديمتين محفوظتين في مكتبة ايا صوفيا باستنبول رقم (3146) و(3199)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن- الهند، 1954م.

المصادر الأجنبية المعرّبة:

ريموندا جيل، 1989م. **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، ط1، نقله إلى الإنجليزية جون هيوم هيل، ولوريتال هيل، ترجمة حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
فوشيه الشارتري، 1990م. **تاريخ الحملة إلى القدس**، 1095-1127م، ط1، ترجمه من اللاتينية إلى الإنجليزية فرنسيس ريتا ريان، حرره وقدمه هارولد. س. فنك، نقله إلى العربية زياد جميل العسلي، دار الشروق، عمان.
وليم الصوري، 1990م. **تاريخ الحروب الصليبية**، (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ط1، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار، دار الفكر، دار نوبليس، دمشق.

ثالثاً: المراجع العربية:

بدوي، أحمد أحمد، (1954). **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، (ط2)، الفجالة- القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
، عبد المجيد أبو الفتوح، (1988). **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد**، (ط2)، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.
تدمري، عمر عبد السلام، (1984). **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور عصر الصراع العربي – البيزنطي والحروب الصليبية**، ج1، (ط2)، طرابلس- بيروت، مؤسسة الرسالة – دار الإيمان.

الجنزوري، عليه عبد السميع، (1999). **الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)**، (د.ط)، مصر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الحافظ، محمد مطيع، (2000). **المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبي عمر محمد بن أحمد المقدسي الصالحي**، (ط1)، بيروت، لبنان، دمشق - سوريا، دار الفكر المعاصر - دار الفكر.

حبشي، حسن، (1958). **الحرب الصليبية الأولى**، (ط2)، مصر، (د.ن).

حسنين، عبد النعيم محمد، (1982). **إيران والعراق في العصر السلجوقي**، (ط1)، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

حلواني، أحمد عبد الكريم، (د.ت). **ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية**، دمشق، دار الفداء للدراسات والنشر.

الحياري، مصطفى، (1994). **القدس في زمن الفاطميين والفرنجة**، (د.ط)، عمان، المعهد الملكي للدراسات الدينية.

، (1994). **صلاح الدين القائد وعصره**، (ط1)، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

، (1977). **الإمارة الطائية في بلاد الشام**، عمان، وزارة الثقافة والشباب.

خليفه، جمال محمد سالم، (2000). **موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي**، (ط1)، ليبيا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

الدباغ، مصطفى مراد، (1970). **بلادنا فلسطين**، ج2، ق2، (في الديار النابلسية)، ط1، بيروت، دار الطليعة.

دجاني، هادية، (1999). **القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني**، (526-596هـ/1131-1199م)، (ط2)، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الرّحموني، محمد، (2002). **الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة**، (ط1)، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.

زيان، حامد، (1978). **العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي (أسرة شيخ الشيوخ)**، (د.ط)، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر.

أبو سخيلة، محمد، (1980)، **أحكام الجهاد في الإسلام**، (د.ط)، الكويت، (د.ن).

سعداوي، نظير حسان، (1957). **التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي**، (د.ط)، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

(1962). **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، (د.ط)، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

سيد، أحمد فؤاد، (2002).**تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، (567-648هـ)**، (ط1)، القاهرة، مكتبة مدبولي.

أيمن فؤاد، (2000). **الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد**، (ط2)، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

شلبي، عبد الرؤوف، (1983). **الجهاد في الإسلام منهج وتطبيق**، (ط1)، القاهرة، دار القلم.

الشيال، جمال الدين، (1965). **مجموعة الوثائق الفاطمية**، (ط2)، الإسكندرية، دار المعارف.

صبرة، عفاف سيد محمد، (1985). **دراسات في تاريخ الحروب الصليبية**، (د.ط)، القاهرة، دار الكتاب الجامعي.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، **الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى**، 2ج، (ج1، ط1، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963، ج2، ط3، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1976.

، فايد حماد، (1985). **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي)**، (ط2)، بيروت، مؤسسة الرسالة.

عبد المهدي، عبد الجليل حسن، (1980). **الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي**، (ط1)، عمان، مكتبة الأقصى.

عرسان، ماجد، (1985). **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، (ط1)، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

العريني، السيد الباز، (1962). **مؤرخو الحروب الصليبية**، (ب. ط). القاهرة، دار النهضة العربية.

العزاوي، عباس، (1957). **التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان**، (د.ط)، بغداد، شركة التجارة والطباعة المحدودة.

غوانمة، يوسف حسن درويش، (1982). **أمارة الكرك الأيوبية**، (ط2)، عمان، دار الفكر.

، (1995). **معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج**، (د.ط)، عمان، دار الفكر.

القزاز، محمد صالح داود، (1971). **الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، 512-656هـ**، (د.ط)، النجف، مطبعة القضاء.

قلعجي، قدري، (1992). **صلاح الدين الأيوبي**، (ط1)، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

قنديل، محمد، (1983). **التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**، د.ط، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كردعلي، محمد، **خطط الشام**، (د.ط)، ج4، دمشق، مطبعة الترقي، ج6، دمشق، مطبعة المفيد.

كيلاني، محمد سيد، (1984). **الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام**، (ط2)، القاهرة، (د.ن).

ماجد، عبد المنعم، (1968). **ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر**، الإسكدرية، دار المعارف.

مرسي الشيخ، محمد محمد، (2001). **عصر الحروب الصليبية في الشرق**، (د.ط)، (د.م)، (د.ن).

المعاضيدي، خاشع، (1975/ 1976). **الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي**، (ط1)، بغداد، دار الحرية.

مؤنس، حسين، (1984). **نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق**، (د.ط)، القاهرة، (د.ن).

، محمد، (2004). **بحوث في تاريخ العصور الوسطى، كتاب تذكاري للأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران**، فكرة الجهاد الإسلامي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، (د.ط). الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

الناصر، محمد حامد، (1998). **الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري عهد نور الدين وصلاح الدين**، (د.ط). الرياض، مكتبة الكوثر.

النقر، محمد الحافظ، (2002). **القوى الفاعلة في المجتمع في العصرين الأيوبي المملوكي**، المفرق، دار المسار للنشر والتوزيع.

رابعاً: المراجع الأجنبية والمعرّبة:

آر مسترونغ، كارين، (2004). **الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم**، (د.ط)، ترجمة سامي الكعكي، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.

اليسيف، نيكيتا، (1998). **السلطان نور الدين محمود بن زنكي آق سُنقُر (511-569هـ/1118-1174م)**. ترجمة سليم قندلفت راجعه ودققه علي القيّم، مطبعة ألف باء - الأديب، دمشق، سوريا.

بوول، ستانلي لين، (1995). **صلاح الدين وسقوط مملكة القدس**، ترجمة فاروق سعد أبو جابر، أشرف على اللغة العربية روكس بن زائد العزيزي، عمان.

جب، السيرهاملتون، آ.ر، (1996). **صلاح الدين الأيوبي**، (ط2)، تحرير د. يوسف أيبش، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.

دوزي، رينهارت، (1981). **تكملة المعاجم العربية**، (د.ط)، 18 ج، ترجمة سليم النعيمي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام.

رستون، جيمس، (2002). **مقاتلون في سبيل الله**، (ط1)، نقله إلى العربية رضوان السيد، الرياض، مكتبة العبيكات.

رنسمان، ستيفن، (1993). **تاريخ الحروب الصليبية**، ط3، نقلة إلى العربية السيد الباز العريني، (ج2)، (د.ن) و(ج3)، (1962)، (ج3)، نقلة للعربية السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

روزنتال، فرانز، (1963). **علم التاريخ عند المسلمين**، (د.ط)، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، مراجعة محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى.

شوفيل، ج، (1992). **صلاح الدين بطل الإسلام**، (د.ط)ن ترجمة جورج أبي صالح، بيروت، دار الأميرة.

لويس، برنارد، (1971). **الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية)**، ط1، نقلة للعربية سهيل زكار، بيروت، دار الفكر.

ماير، هانس ابرهارد، (1990). **تاريخ الحروب الصليبية**، (ب.ط)، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، تقديم نجاح صلاح الدين القابسي، ليبيا، منشورات مجمع الفاتح للجامعات.

معلوف، أمين، (2001). **الحروب الصليبية كما رآها العرب**، (ط1)، ترجمة عفيف دمشقية، دار الفارابي، بيروت، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، (ANEP)، الجزائر.

ويستنفلد، ف، (د.ت). **جداول السنين الهجرية بلياليها وشهورها لما يوافقها من السنين الميلادية بأيّامها وشهورها**، (د.ط)، ترجمة عبد المنعم مساجد، عبد المحسن رمضان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

خامساً: الرسائل الجامعية:

جمول، جميل، (2000). **حلب والحروب الصليبية (491هـ-579هـ)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق، سوريا.

خضير، جبر سليمان، (1994). **الحروب الصليبية من خلال الشعر في مصر والشام في القرنين السادس والسابع الهجريين (492هـ/ 1099م-648هـ/1250م)**. رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، لبنان.

الخطيب، إبراهيم ياسين، (1998). **الملك الكامل محمد بن الملك العادل الأيوبي (615هـ/1218م- 635هـ/ 1237م). حياته وبعض مظاهر سياسته الداخلية والخارجية**، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، لبنان.

زايد، مصطفى محمود، (1993). **النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام**، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

سلامة، جلال حسني، (1993). **عكا في أثناء الحملة الفرنجية الصليبية الثالثة**، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

الشهاب، عبد الرحيم بخيت مفضي، (1995). **العماد الأصفهاني الأديب**، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

الشيخ خليل، أسماء رمضان حامد، (1995). **حلب خلال الفترة (491-522هـ- 1099-1127م)**. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

العناقرة، محمد محمود خلف، (2005). **المدارس في مصر في عصر دولة المماليك**، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

فليفل، محمد الحاج محمود خليل، (1998). **مدينة دمشق في العصر الأيوبي (570-656هـ/1174-1258م)**. رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

سادساً: الدوريات:

اسكندراني، محمد، (1989). المدرسة والدولة في العصرين الفاطمي والأيوبي، **مجلة الاجتهاد**، بيروت، (ع3).

حامد، عبد الجبار أحمد، (1988). أبناء الشهرزوري ودورهم السياسي والقضائي والعلمي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، **مجلة آداب الرافدين**، جامعة الموصل، (ع18).

حسين، محمد كامل، (1954). بين التشيع وأداب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيين والمماليك، **مجلة كلية الآداب**، جامعة القاهرة، مج 16، ج1.

الحياري، مصطفى، (1986). حصن بيت الأحزان: جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الصليبيين، **مجلة دراسات (العلوم الإنسانية)**، الجامعة الأردنية، عمان، مج13، ع(4).

خليل، عماد الدين، (1979). نور الدين محمود الطريق إلى فلسطين، **مجلة العلوم الاجتماعية**، الكويت، ع(245).
الدجاني، زاهية راغب، (1971). المدارس النظامية 9 مدارس أسسها نظام الملك في القرن الخامس الهجري، **مجلة العربي**، الكويت، (ع151).
رشيد، ناظم، (1987). جهاد صلاح الدين الأيوبي "التاريخ والشعر"، **مجلة المورد**، بغداد، مج16، ع(4).
رمضان، عبد الغني إبراهيم، (1975). شرف الدّين مودود أتابك الموصل والجزيرة، (501-507هـ- 1108- 1113م)، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الرياض، مج4، السنة الرابعة.
زغلول، سعد، (1952-1953). العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الإسكندرية، مج6 و 7.
زيادة، محمد مصطفى، (1962). حملة لويس التاسع على مصر، **مجلة العربي**، الكويت، (ع45).
سالم، السيد عبد العزيز، (1962). طرابلس الشام تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الإسكندرية، مصر، مج16.
السيّد، رضوان، (1984). ابن عساكر وتحرير بلاد الشام، **مجلة تاريخ العرب والعالم**، دار النشر العربية، بيروت، (ع70).
الشيال، جمال الدين، (1957). أول استاذ لأول مدرسة في الإسكندرية، الإسلامية، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الإسكندرية، مصر، مج11.
عاشور، سعيد عبد الفتاح، (1963). الأمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، **المجلة التاريخية المصرية**، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، مج11.
عبد الله، سامية توفيق، (1998). المدارس النظامية وأثرها الثقافي في العصر السلجوقي، **مجلة**

مؤنس، حسين، (1971). المغول والإسلام، **مجلة العربي**، الكويت، (ع151).

النقيب، مرتضى حسن، (1987). عماد الدين زنكي وسياسة الجهاد تجاه الصليبيين، **مجلة المورد**، بغداد، مج16، (ع4).

نوري، دريد عبد القادر، (1987). الفكر العسكري للقائد صلاح الدين الأيوبي دراسات في معركة حيطين، **مجلة المورد**، بغداد، مج16، (ع4).

المقالات باللغة الإنجليزية:

Elisseff, Nikita, Damasa - et le djihad Contre Les Croises (Damas) **Serie MonDe- H.S. N°65 – Janvler**, (1993). Paris, Less Edition Autrement.

Sivan, Emmanuel, (1966). « LA Genese de La contre- Croisade: Untraite, damas- quin, DuDebut Du XII » Siecle, **Journal Asiateique**, Paris.

سابعاً: الندوات والمؤتمرات:

بيطار، أمينة، (1979). **التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ضمن كتاب الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مزور تسعمائة سنة على ولادته 499-1399هـ**، وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق.

مصطفى، شاكر، (1979). **مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده، ضمن كتاب الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مروره تسعمائة سنة على ولادته 499-1399هـ**، وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية/ دمشق.

فائق بكر الصواف، (1979). **ابن عساكر مؤرخاً ضمن كتاب الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته 499-1399هـ**، وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق.

أبو الفضل، سميحة، (2001). **المدارس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين محمود، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام منذ بدايات العصر السلجوقي حتى نهاية العصر المملوكي (القرن الخامس- القرن التاسع الهجري الموافق القرن الحادي عشر – القرن الخامس عشر الميلادي)**، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية.

زيادة، نقولا، (2001). قضايا اجتماعية وفكرية في بلاد الشام في العصر المملوكي الأول، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام منذ بدايات العصر السلجوقي حتى نهاية العصر المملوكي (القرن الخامس - القرن التاسع الهجري الموافق القرن الحادي عشر - القرن الخامس عشر الميلادي)، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية.

ثامناً: الموسوعات ودوائر المعارف:

اللغة العربية:

دائرة المعارف الإسلامية، (1995). **موجز**، تحرير م. ت هوتسما وآخرون، (د.ط)، 30ج، الشارقة، مركز الشارقة للإبداع الفكري.

اللغة الأجنبية:

The Encyclopeadia of Islam. (1960). **New Edition**, London, Luzac, Co.

تاسعاً: المراجع الأجنبية:

Cahen, Glaude, (1940). **LA Syrie Dunord Al' époque Des Croisades et al Principaute Franque D'antionche**, Paris, Libraire orientaliste Paul Geuthner.

Gabrielle, Francesco, (1984). **Arab Hitorians of the Crusades,** Translated from the Italion By E.J. costelle, London Routledege, Kegan paul.

Hillenbrand, Carole, (1999). **The Crusades Islamic Perspective, Aremar kable contribution to the history relations between east and west,** Edinburgh, Edinburgh University press.

Holt, Petermalcolm, (1987). **The Age of the Crusades: the near East from the eleventh century to 1517**, London and New York, Long man.

Pool, Stanley, Lan, (1988). **A history of Egypt in the Middle Ages,** London, Frank Gass, and company limited.

Setton, Kenneth, (1969). **A history of the Crusades,** Madison, Milwaukee, and London. The University of Wiscons in press.

Sivan, Emmanuel, (1968). **L'Islam et la Crosiade Ide'ologie et propag and les Reactions Musulmanes aux Croisades,** paris, Librairie, Damerique, Et D'orient Adrien Maisonneuve.

Stevenson, W, B, (1968). **The Crusaders in the east,** Beirut, Lebanon, Slim press, Librairie de Liban.

تظهر في هذه الدراسة محاولة جادة للوقوف على الدور الذي لعبه علماء المسلمين في عدة جوانب هامة منها: التعليمي، والثقافي، والسياسي والعسكري. وذلك في البحث عن هذا الدور الهام في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) ، وتبني مفهوم الجهاد بصورة واضحة إبان فترة هذا الغزو الكاسح الذي طال مصر وبلاد الشام.

تبين في هذه الدراسة أن انتصارات عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، ودحرهم للغزاة لم تكن لتؤتي ثمارها في غياب عناصر مميزة ساهمت في ثقافة المقاومة عند الغزو لا سيما مسألة دعم علماء الدين والشريعة ، والاهتمام بهم، وتقريبهم، واستغلال نفوذهم.

فانتصر صلاح الدين الأيوبي على الغزاة بسيفه وبأقلام العلماء ومواعظهم، وكان تحرير بيت المقدس عنوانا هاما لهذا التكاتف والتناصر بين السلطة السياسية، والنخب الدينية الفاعلة في المجتمع.

المؤلف

Email:drloaybawaneh@yahoo.com

DR. LOAI ALBAWA'ANEH



دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - الأردن - وسط البلد - شارع الملك حسين - مقابل مجمع الفحيص التجاري
هاتفاكس : 6626 462 - 4185 461 6 962+ ص.ب : 520646 الرمز البريدي:11152
www.yazori.com E-mail : info@yazori.com